

مخبر البحوث و دراسات الفكر الإسلامي في الجزائر
جامعة جيلالي ليابس - سيدي بلعباس -



مجلة آفاق فكرية

مجلة فصلية أكاديمية محكمة

العدد الثالث

خريف 2015

ISSN / ردمد

2353-0367

الايذاع القانوني : 2014/6060 : Dépôt Legal

بسم الله الرحمن الرحيم

مجلة آفاق فكرية

تصدر عن مخبر مخبر البحوث و دراسات الفكر الإسلامي في الجزائر بجامعة سيدي بلعباس،
الجزائر.

العنوان: مجمع المخابر العلمية .كلية العلوم التكنولوجية .سيدي بلعباس

الموقع الإلكتروني : <http://www.univ-sba/Irepia>

البريد الإلكتروني : labpenseeislamique@yahoo.fr

عدد خريف 2015

ISSN : 2353-0367

دار :الأصول للطباعة و النشر

العنوان : سيدي لحسن - سيدي بلعباس -

الهاتف : 0773 36 42 99

حقوق الطبع محفوظة:

لا يسمح بإعادة إصدار هذه المجلة أو أي جزء منها أو تخزينها في نطاق استعادة المعلومات أو
نقلها بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من مدير المجلة.

آفاق فكرية

مجلة فصلية محكمة يصدرها مخبر دراسات الفكر الإسلامي في الجزائر

رئيس التحرير:

د. فكري زوي

مدير المجلة:

أ.د. مكحلي محمد

هيئة التحرير:

أ.د. قادة بن علي

د. بن ديدة مختار

د. بولوم محمد أمين

الهيئة العلمية:

- أ.د. / محمد مجاود (جامعة سيدي بلعباس)
- أ.د. / هلايلي حنيفي (جامعة سيدي بلعباس)
- أ.د. / شايب قدارة (جامعة قالة)
- أ.د. / مبخوث بودواية (جامعة تلمسان)
- أ.د. / صالح فركوس (جامعة قالة)
- د. بن حويدقة علي (جامعة سيدي بلعباس)
- أ.د. / سلاك بونوة (جامعة وهران 2، محمد بن أحمد)
- أ.د. / مولاي الحاج مراد (جامعة وهران 2، محمد بن أحمد)
- أ.د. / فغورودحو (جامعة وهران 1، أحمد بن بلة)
- أ.د. / محمد دادة (جامعة وهران 1، أحمد بن بلة)
- د. عبد المالك عدة بوجلال (جامعة وهران 2، محمد بن أحمد)
- د. / حمدادو بن عمر (جامعة وهران 1، أحمد بن بلة)

الهيئة الاستشارية

- أ.د. / التليلي العجيلي (جامعة منوبة تونس)
- أ.د. / / سالم لبيض (المعهد الأعلى للعلوم الإنسانية تونس)
- أ.د. / قصي منصور التركي (جامعة أربيل العراق)
- أ.د. / جمال الدين دراويل (جامعة القيروان تونس)
- أ.د. / المنصف النوناس (كلية 9 أفريل جامعة تونس الأولى)
- أ.د. / الهادي غيلوفي (جامعة توزر)
- أ.د. / خالد شيات (جامعة محمد الأول وجدة المغرب)

دعوة للنشر في مجلة

يسر اسرة مجلة آفاق فكرية دعوتكم للإسهام بنشر أبحاثكم العلمية الخاصة بمجال العلوم الإنسانية والاجتماعية المختلفة، التي تلتزم بمنهجية البحث العلمي وخطواته المتعارف عليها عالمياً، والمكتوبة بإحدى اللغات العربية أو الفرنسية والتي لم يسبق نشرها.

شروط النشر

◀ آفاق فكرية، تم بنشر الأبحاث المتعلقة بالدراسات الانسانية و الاجتماعية المختلفة .وهي مجلة علمية أكاديمية محكمة ، تهتم بالأبحاث الأصيلة ، التي لم يتم نشرها سابقاً ، و المعالَجة بأسلوب علمي موثق .
◀ ترسل المقالات وجوبا في شكل ملف مرفق عبر البريد الإلكتروني للمجلة المدون أدناه، ويشترط أن يكون المقال مكتوبا ببرنامج Microsoft Word .نوع الخط بالعربية : Traditional Arabic قياس 14 ، أما اللغة الأجنبية فنوع الخط : Times New Roman قياس 12 .

◀ يراعى في حجم المقال كحد أقصى 15 صفحة ، بما فيها المصادر ، الهوامش، ويجب أن ترقم الصفحات ترقيماً متسلسلاً ويرفق الباحث ملخصاً عن البحث لا يزيد عن 5 أسطر ، مع ضرورة إدراج الكلمات المفتاحية .

◀ يمكن أن تكون النصوص المقبولة محل طلب للتعديل أو المراجعة ، ويبقى مضمونها تحت مسؤولية صاحب المقال وحده.

◀ على كل صاحب مقال أن يحدد رتبته الجامعية، الجامعة أو الهيئة، عنوانه الشخصي، الهاتف، البريد الإلكتروني، ومختصر للسيرة العلمية.

◀ يشترط في المادة المرسله أن تلتزم بأصول البحث العلمي على مختلف المستويات: المنهج، المنهجية، التوثيق، وأن لا تكون قد نشرت أو أرسلت للنشر في كتاب أو دورية أخرى.

◀ تخضع المادة المرسله لمراجعة هيئة التحرير، ولا تعاد إلى صاحبها، نشرت أم لم تنشر.

◀ للمجلة حق إعادة نشر المواد المنشورة منفصلة أو ضمن كتاب.

◀ ما تنشره المجلة لا يعبر بالضرورة عن وجهة نظرها.

◀ يخضع ترتيب المواد المنشورة لاعتبارات فنية بحتة.

◀ مادة النشر تكون موثقة كما يلي:

- بالنسبة للكتب : اسم المؤلف، " عنوان الكتاب"، دار النشر (الناشر)، مكان النشر وسنة النشر، رقم الصفحة.

- بالنسبة للمجلة : اسم المؤلف، " عنوان المقال"، عنوان المجلة، العدد، مكان النشر وسنة النشر، رقم الصفحة.

- بالنسبة لمراجع الانترنت : اسم المؤلف، " عنوان المقال"، تاريخ التصفح، العنوان الإلكتروني كاملاً (يشمل الملف).
 - بالنسبة لبحث في أعمال ملتقى أو مؤتمر :اسم المؤلف،"عنوان البحث"، ورقة عمل مقدمة إلى مؤتمر/ملتقى اسم ورقم الملتقى، المؤسسة المنظمة، تاريخ الانعقاد.
 - رسالة ماجستير أو دكتوراه :اسم المؤلف، عنوان الرسالة، رسالة دكتوراه/ماجستير، غير منشورة لنيل شهادة....(في التخصص)، الجامعة، الدولة.
 - توضع الإحالات والمراجع والمصادر في آخر المقال، وترقم بالتسلسل حسب ظهورها في النص (مراجع المقال هي فقط تلك المراجع والمصادر المقتبس منها فعلاً).
- ◀ ترسل المقالات وتوجه المراسلات عن طريق البريد الإلكتروني فقط.

**البحوث المنشورة في هذه المجلة تعبر عن آراء أصحابها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة أو المخبر**

محتويات العدد

العدد الثالث . خريف 2015م، 1436هـ

كلمة مدير المجلة :

كلمة التحرير :

المحور الأول : الدراسات التاريخية والاجتماعية والنفسية

الطرقية في عمالة تطاوين خلال النصف الأول من القرن العشرين:

02 منير بن جامع

مساهمة المغاربة والاندلسيين في الحركة العلمية ببلاد الشام على عهد الأيوبيين
(567 - 648هـ / 1171 - 1250م)

23 شوكت عارف محمد الأتروشي و درويش يوسف حسن

سوسيولوجية العنوسة في الجزائر:

41 بن تامي رضا

التقاليد المعمارية للمسكن الريفي في الأندلس والمغرب وتلمسان

(دراسة مقارنة من خلال بعض النماذج):

58 رابح فيسة محمد

العقلية الريفية وأثرها على السلوكات السياسية:

70 سوار عبد القادر

النسق الأسري وعلاقته بانحراف الطفل:

77 قميدي محمد فوزي

مستقبل الصحافة الورقية في ظل تطورات الاعلام الجديد

92 وجدي دمرجي وسيلة

الرؤيا والقراءة لدى الصوفية:

99 بوزياني عبد الحق

مصلحة الحالة المدنية في الجزائر، المهام والأهمية:

112 يحيى لعمارة محمد

المرأة والمشاركة السياسية بتونس (نتائج بحث موجه بمنطقة "جمال"):

124 رابح النابلي وزهير بن جنات

الاعلام الجديد بين الإيجابية والسلبية : حالة تكنولوجيا الإعلام والاتصال.:

- 147 **نحمر عباس**
ظاهرة الاعتناء بالأنساب الشريفة بمنطقة معسكر أبوراس الناصر والعربي المشرفي أنموذجا:
- 159 **تقي الدين بوكعب**
الهجرة غير الشرعية في الجزائر : دراسة في الخصائص والأسباب:
- 170 **إبراهيم زروقي**
ظاهرة الوعدة الشعبية في الجزائر بين الاعتقاد والممارسة:
- 182 **كريم خيرة**
دلالات الثبات والصدق للصورة الجزائرية لرائز رسم الرجل المعدل:
- 187 **مقسم مختار**

المحور الثاني : الدراسات الفنية والأدبية

عنف الخطاب الروائي في "طائر الخبل" لعبد الله الرحالي:

- 197 **فتحى فارس**
شعر الثورة:
- 216 **بن حفصة عائشة**
بين الأدب والتاريخ:
- 224 **عبد القادر بن بوهلجة**

المحور الثالث : الدراسات القانونية

خصوصية الإثبات في المادة الإدارية:

- 229 **سامي اللواتي**

كلمة مدير المجلة

أ.د. مكحلي محمد

- مدير المجلة - رئيس مخبر دراسات الفكر الاسلامي في الجزائر

تخطو آفاق فكرية " بهذا العدد خطوة كبيرة على طريق سنتها الثانية ، فمحتوياتها أتت من الجامعات الجزائرية من المغرب العربي ومشرقه ، .

لا تزال غاية " آفاق فكرية " خدمة الثقافة العربية ونشر الاعمال الجادة في مجالات البحوث الانسانية والاجتماعية .

أشكر في الختام كل من ساهم ببحث ، أو قدم دعما بأشكاله المختلفة كالترجيع للمجلة وأعدادها ، أو من شد على أيدينا بالكلمة الطيبة فحفزنا على الاستمرار دون كلل.

أ.د. مكحلي محمد

كلمة التحرير

ترحب هيئة تحرير مجلة آفاق فكرية بقرائها الكرام ، وتشكر الباحثين لإسهاماتهم القيمة في هذا العدد الثالث خريف سنة ألفين و خمسة عشر .

وقد حوى هذا العدد بحوثا في مجالات مختلفة من العلوم الاجتماعية و الانسانية ، حول مواضيع عدة تم تناولها و معالجتها وفق طرق و مقاربات جديدة ، من طرف باحثين و اساتذة من داخل الوطن و خارجه، و حرصا من المجلة على احترام فلسفتها فقد احتوى هذا العدد على بحوث أكاديمية و مقالات لباحثين و طلبة دكتوراه .

والمجلة يسرها على الدوام استقبال الأبحاث العلمية في مجال الدراسات الإنسانية والاجتماعية، وسوف يتم نشرها بعد إخضاعها للتحكيم العلمي الجاد، من قبل الأساتذة المتخصصين في كل مجال من مجالات النشر في المجلة

وهيئة تحرير المجلة تعد القراء والباحثين ببذل قصارى جهدها للوصول بالمجلة إلى أرقى المستويات خدمة للبحث العلمي وتشجيعا للباحثين الشباب على مواصلة النشر لنتاجهم الفكري المتميز.

وأخيرا نوجه الشكر الجزيل للقراء الكرام والباحثين والمحكمين وأعضاء هيئة التحرير والهيئة الاستشارية و العلمية على جهودهم المبذولة لإخراج هذا العدد.

وبالله التوفيق

الطرقية في عمالة تطاوين خلال النصف الأول من القرن العشرين

منير بن جامع باحث في التاريخ المعاصر ويدرس حاليا

بالمعهد العالي للدراسات التطبيقية في الإنسانيات بتوزر

المقدمة :

عرفت منطقة تطاوين كسائر المراقبات المدنية الأخرى بالإيالة التونسية أو بالأحرى كبقية الدوائر العسكرية الأخرى بالجنوب وأقصى الجنوب التونسي خلال النصف الأول من القرن العشرين ظاهرة انتشار العديد من الطرق الصوفية في مختلف ربوع الجهة وذلك في إطار ما يعرف آنذاك بحمى التصوف.

وفي نظرنا تعتبر تطاوين - مجال بحثنا - فضاء خصبا لنشاط العديد من المجموعات الطرقية نظرا لقربها الجغرافي من الزوايا الأم كالتيجانية بتماسين الجزائر واللامية بزيطن ليبيا، أضف إلى كل ذلك مدى تأثير الجريد كقطب طرقي هام له نفوذ مباشر على بعض الزوايا الفرعية بالجهة التي يعود رموزها من حيث الولاء إلى الشيخ الأكبر للطريقة بتلك المراقبة المدنية (توزر) كالمقادية والعيساوية مثلا.

إذا وفي هذا السياق يأتي هذا المقال كمحاولة لاستجلاء واقع الطرق الصوفية بعمل تطاوين وأهم التحديات المحلية التي حتمت على زعامات الحركة الصوفية بالجهة حسن تمثيل الواقع وضرورة التكيف مع الأوضاع الجديدة.

فكيف تفاعلت الطرق الصوفية بمختلف تلويناتها وحيث ما وجدت في عمل تطاوين مع الحدث

الاستعماري؟

I / المشهد الطرقي بعمل تطاوين

من الأهمية بمكان أن نشير ولو بشكل برقي إلى أن المناطق الترابية بالجنوب وأقصى الجنوب التونسي (باستثناء قابس وجربة) ستشهد بعد مرور زهاء ثماني سنوات على حدث الاحتلال الخطوات الأولى لتركييز الإدارة العسكرية والغاية من ذلك هو توطيد السلم الفرنسي باعتبار أن التخوم الجنوبية للإيالة قد تميزت آنذاك باضطراب الوضع الأمني (أعمال نهب وسرقة، حركات تمرد وعصيان...) ⁽¹⁾

وبعد سلسلة من التعديلات والتحويرات تم في جانفي 1925 تركيز عمل الودارنة الذي اشتمل على 18 مشيخة وبه مكتب للشؤون الأهلية الذي بعث بدلا عن مركز الاستعلامات وذلك بمقتضى قانون 12 جانفي 1900 ⁽²⁾.

وتطاولين بمختلف وحداتها البشرية (عرب # بربر، بدورحل # حضر مستقرّون) قد واكبت كغيرها من المناطق الأخرى الحركة الصوفيّة بوصفها إحدى أهمّ الظواهر الحيّة التي ميزت الحياة الدينيّة والاجتماعيّة خلال النصف الأول من القرن العشرين لدورها الريادي في نشر المعرفة الدينيّة (تحفيظ القرآن، تعلّم القراءة والكتابة...) في وقت سادت فيه الأميّة لتشمل معظم فئات المجتمع القبلي، فضلا عن قدرتها في تخفيف وطأة البؤس والمجاعات خاصّة في سنوات الجوائح الطبيعيّة. هذا إلى جانب نجاح سلطتها في حفظ الأمن المحليّ بتهدئة أجواء التوتر بين العروش المتعادية ومن ثمّة تخفيف مستوى العصبية القبليّة.

لكنّ هذه الخدمات الطريقيّة لم تكن خاصيّة عامّة ومشاركة بين مختلف الطرق الصوفيّة؛ فالتيجانيّة مثلا اقتصر نشاطها على عقد مجالس الذكر دون سواها من الوظائف الأخرى.

وهكذا إذا وبعد أن ظلت عواطف الأهالي ومواجههم مشدودة ردحا من الزمن إلى سلطة الولي المقدّسة بصفته الزعيم الروحي للقبيلة إذ ينتسب إليه كلّ عرش (الولي عبد الله بوجليدة مثلا)، أصبح الاعتقاد في مشايخ الطرق الصوفيّة الحدث البارز الذي انجذب إليه كلّ أفراد العرش: المتعلّم والأميّ، الكبير والصّغير، الرجل والمرأة، الموسر والفقر لكن دون التفريط في الأنموذج الأصلي المقدّس الذي يجسّد أولى بواكير التصوّف بالجهة.

والطرق الصوفيّة بعمل تطاولين في الفترة التي ندرسها عديدة ومتنوعة ومتفاوتة النفوذ المادي والمعنوي؛ وبالتالي ارتأينا تقسيمها إلى صنفين: طرق صلبة ومتنفّذة تحظى بقاعدة شعبية عريضة ولها موارد اقتصادية هامّة وأخرى هامشيّة أتباعها قليلون ومداخلها ضعيفة ومتواضعة.

1- طرق صلبة ومتنفّذة وأخرى على الهامش.

ننطلق مع السّلامية لنشير إلى أنّ هذه الطريقة ممثّلة في عمل تطاولين بزاويتين اثنتين: الأولى توجد ببلدة شّني الواقعة على بعد 16 كم غرب تطاولين، وتعود من حيث الولاء إلى الشيخ الأكبر للطريقة بقابس الحاج إبراهيم الفرجاني. وقد تردّد على هذه الزاوية السّلامية بشّني نفر قليل من الأتباع نادرا ما يقيمون حلقات الذكر والحضرة السّلامية تحت إشراف أحد مقدّمي السّلامية بتطاولين. كما تجدر الإشارة إلى أنّ هذه الزاوية تفتقر إلى موارد وأحباس خاصّة.⁽³⁾

أما الزاوية السّلامية الثّانية فمقرّها بلدة الرقبة وهي عبارة عن غرفة واحدة فقط لكنّها الأكثر نفوذا وإشعاعا وعراقة من تلك الواقعة في شّني، تولّى الإشراف على شؤونها كمقدّمين وكمشايخ أفراد من عائلتي الغرياني والجليدي؛ فبالى موفى 1926، كانت هذه الزاوية تحت تصرّف الشيخ عبد الرحمان الغرياني الذي بقي في الخطة إلى أن أصبح

عاجزا عن أداء مهامه ، ويساعده باستمرار في ترتيب شؤون الفقرا والزوار المقدم محمد بن الطيب بن عبد الصمد الجليدي.

وحري بنا التسجيل أن هذا الأخير قد تقدم بطلب إلى قايد تطاوين مرفوقا بعريضة تحمل أسماء وتوقيعات ما يناهز الخمسين نفرا من أنصار الطريقة قصد تمكينه من خطة مشيخة الزاوية لخلافة الشيخ الحالي الذي أصبح غير قادرا للاضطلاع بوظيفته. لكن وبإحالة ملفه إلى ضابط مكتب الشؤون الأهلية بالجهة تبين أن هذا المقدم قد غرر بأولئك الأنفار الغير منتسبين للإسلامية بل إن منهم ما هو قادي ومنهم ما هو رحمانى الطريقة. أضف إلى كل ذلك أن هذا الرجل قد تعلقت به نازلة تدليس بتاريخ 20 جوان 1905 ، وفي الوقت ذاته كان يتمعش باستعمال طرق التحيل والغش⁽⁴⁾.

وبالمحصلة ، فقد أحجمت الإدارة العسكرية بتطاوين عن الاستجابة لمطلبه دون أن تتخذ في شأنه عقوبات رديئة من قبيل الخلع من خطته الرسمية. لكن تمادي ابن الطيب في تجاوزاته كانت هذه المرة بمثابة القشة التي قسمت ظهر البعير حيث أقدمت سلطات الاحتلال على توقيفه نهائيا من ممارسة نشاطه الطرقي كمقدم بالزاوية الإسلامية بالرقبة ونصبت مكانه أحد أبناء عشيرته المدعو محمد الخطيب بن عبد الرحيم الجليدي بنفس خطة سلفه وذلك منذ أواخر نوفمبر 1927⁽⁵⁾. وبموت المقدم محمد الخطيب في بداية 1940 ، انتقلت إدارة هذه الزاوية إلى ابنه محمد الخياري كمقدم أولا ثم كشيخ منذ 7 نوفمبر 1941 وذلك بمقتضى الأمر عدد 182 المؤرخ في 10 جويلية 1941⁽⁶⁾.

ومحمد الخياري أصيل عرش الجليدات بتطاوين مولود عام 1900 متزوج من مباركة بنت العربي السنوسي ، له تكوين معرفي محترم فهو من خريجي الجامع الأعظم غير أنه محدود الثقافة الفرنسية (يعرف حروف الأبجدية فقط) ، شغل عدلا بجزيرة بمقتضى أمر 24 أوت 1925 ثم برمادة بمقتضى أمر 4 نوفمبر 1927 ، أما ثروته المالية والعقارية فهي متوسطة ، لكن هذا لم يكن مانعا من اكتساب ابن الخطيب شهرة واسعة⁽⁷⁾.

وبخصوص موارد هذه الزاوية فهي متواضعة ولا تلبي حاجيات الطريقة بالمنطقة ؛ فمنذ أطوار البناء ، لم تستفد هذه الزاوية من تبرعات وصدقات أهالي الجليدات التي بلغت في أول الأمر 2500 فرنك. أضف إلى ذلك أنه وفي خريف 1936 منحت إدارة الحماية عن طريق مكتب الشؤون الأهلية بتطاوين ما مقداره 1000 فرنك لشيخ هذه الزاوية للإنفاق على الفقرا والزوار⁽⁸⁾.

وفي 20 فيفري 1937 ، راسل الشيخ محمد الخطيب وزير جمعية الأوقاف بتونس يلتمس منه مساعدة مالية لترميم جوانب من شقق الزاوية المتصدعة ، ومما ورد في رسالته : «... إن الزاوية محتاجة لبعض الترميم ويخشى سقوطه... وبالأخص عجزى المادي عن القيام بما يلزم بسبب الأزمة الضاربة أطنابها بجهتنا. »⁽⁹⁾. وفي السياق نفسه

التجّابن محمد الخياري شيخ الزاوية السّلاميّة بالرّقبة منذ أواخر 1941 إلى وزارة الأوقاف طلبا للإعانة والمساعدة المالية (1500 فرنك) بهدف إتمام أشغال ترميم الزاوية.⁽¹⁰⁾

حصىلة القول، فإنّ هذه الزاوية لا تتوفّر على مداخيل قارّة تلبيّ حاجياتها وحاجيات أتباعها وزوّارها ممّا جعلها تعتمد في غالب الأحيان على الصدقات والأعطيات التي يجنيها مريدوها فضلا عن المساعدات التي تحصل عليها سواء من وزارة الأوقاف أو من حكومة الاحتلال لأداء وظيفتها وتعزيز وجودها في المنطقة بين كوكبة الطرق المتنفذة. لكنّ الملفات للانتباه أنّ النصيب الأوفر من هذه التبرّعات والإعانات يعود بالنفع إلى شيخ الزاوية، وهذا بصريح ما جاء في إحدى التقارير العسكريّة :

« ... El khatib ; personnage intrigant qui vit par des collectes faites pour la zaouïa... »⁽¹¹⁾

ومن نافل القول أنّ نشير إلى أنّ أتباع السّلاميّة بتطاوين بكلّي الزاويتين (الرّقبة وشنني) قد تراوح عددهم بين 200 و300 نفرا سنة 1899 أغلبهم من فريق أولاد حامد من عرش الجليدات، وفي مقدّمة هؤلاء الأتباع نجد خليفة الجليدات وقاضي الجبل الأبيض وكلاهما يشكّلان نوعا من الأرستقراطية الطرقيّة داخل مؤسّسة الزاوية.⁽¹²⁾ لكن وحسب إحصاء 1925، فقد انخفض عدد أتباع السّلاميّة إلى 16 فردا فقط. ويعزى هذا الانخفاض في نظرنا إلى سببين رئيسيين : الأوّل يفسّر بقلّة حجم موارد ومداخيل هذه الطريفة السّلاميّة بتطاوين رغم وجود وجاهات أرستقراطية متنفّذة في صفوفها، فهذه الوضعية الماديّة الصعبة للسّلاميّة قد شجّعت كثيرا من أنصارها إلى هجرها ومن ثمة التخلّي عنها وعن أنشطتها الهستيريّة. أمّا السبب الثاني فهو يرتبط بالأوضاع الطرقيّة المحليّة، حيث شهدت هذه الفترة تعاظم نشاط الطريفة التيجانيّة بعمل تطاوين وما انتهجته من أساليب حبك الدسائس والمؤامرات برموز الطّرق الأخرى فضلا عن تحرّشها بمختلف الأتباع بهدف استمالتهم إلى صفّها؛ فمن المحتمل أن يطال قمع التيجانيّة أنصار السّلامية الذين تحت التهريب والتهديد قد تخلّوا عن طريقتهم وقد يكون الكثير منهم قد انخرط في سلك التيجانيّة الذي ناهز أتباعها على 5000 مريد سنة 1925.⁽¹³⁾

أمّا الطريفة العيساويّة في تطاوين فهي محدودة النفوذ وقليلة الانتشار فلا يتجاوز أنصارها العشرين نفرا بكامل المنطقة سنة 1933 دون أن يكون لهم مقرا للاجتماع أو لإقامة أورااد الحضرة العيساويّة،⁽¹⁴⁾ ولذلك فإنّهم يتخذون أحيانا من الزاوية السّلاميّة بالرّقبة مقرّهم المفضّل لتقديم مشاهد مشتركة مع نظرائهم من السّلاميّة يذهل لرؤيتها المشاهدون.

وفي الواقع فإنّ « حفلات » كلّ من العيساويّة والسّلاميّة تندرج تحت مصطلح "حزب" وعادة ما يجري العرض الفرجوي في فضاء حرم الزاوية وهي عبارة عن رحبة فسيحة مهيّأة لهذا الغرض ولاستقبال الزوّار. ومن المعروف أنّ الشيخ

أو المقدم هو الطرف المخول بأعمال الحزب بقراءة وترديد بعض الأوراد والأذكار ناهيك عن بعض المدائح التي تجد الشيخ الأكبر للطريقة والتي تكون مصحوبة بإيقاعات موسيقية موزونة تصدر من آلات البندير والدفا والمزمار. حينها ينتفض صنف من المريدين من أماكنهم كالمسعورين وهم يرددون الله! الله!. وفي تلك الحالة يتولى أحد المقدمين تنظيمهم على شكل نصف دائري مطأطي الرأس وممتدة أيديهم على ظهورهم، عاري أنصافهم العليا يرقصون دون أن يخرجوا عن صفهم.⁽¹⁵⁾ ويحدث أن يشتد الإيقاع الموسيقي مع تصاعد عثن البخور الذي أحال الجو ثقيلًا ومسكرا فتري من في الصف قد اهتز وانفصل عن المجموعة يرقص في حركات بهلوانية ويطلق من حين إلى آخر صرخات مفزعة من نوع (ummhs). أما الآخر فقد اندفع يقفز في كل مكان وكأنه به يبحث عن شيء قد فقده منذ مدة؛ إنه يبحث عن عقرب لكن المقدم يصرخ في وجهه فيهدئ من روعه ثم يناوله مراده: عقرب حية يخرجها من أحد الصناديق فيتخطفها منه المريد ويزدريها بنهم وسط زغاريد النسوة المولولة وصياح الصبية المستنكرة، بينما الرجال تراهم وجمون يرددون كلمات من نوع «الله امصلي على النبي». وتستمر حركة الرقص الجنوني إلى أن يتلقى عناصر الإيقاع الموسيقي إشارة من المقدم مفادها تغيير الأوزان والإيقاعات فيتجه المقدم إلى المريد فيهمس في أذنه بكلمات لا يدرك معانيها الحاضرون. ومع تغير الإيقاعات الموسيقية يبرز على الساحة صنف ثاني من الاتباع إنهم أتباع سيدي عبد السلام الأسمر يرقصون فيضربون بأيديهم على صدورهم والمقدم يراقبهم عن كثب، ومن حين إلى آخر يقرب إلى أنوفهم مجرة البخور المتصاعد بكثافة فيشبعون انتشاء منتظرين أن تحملهم الموسيقى الحماسية المتسارعة إلى عالم اللاوعي، وفي تلك الأثناء تصبح الرقصات مذهلة وجنونية فهذا يحوم حول موضع النار الملتهبة ينشد ضالته والآخر يبحث عن لغة الحلفاء ليشعلها ويمررها على صدره العاري مرآت عديدة دون أن يحترق أو يحس بالألم. أما سميّه فهو يمسك بمذبة شديدة الإحماء حمراء كاللهيب فيسحبها على لسانه من كلا الوجهين. يحدث كل ذلك وسط ذهول الحاضرين ودهشتهم لرؤية هذه المشاهد السحرية⁽¹⁶⁾.

وبانتهاء هذه الأنشطة تتولى فرق المخازنية وبعض ضباط مكتب الشؤون الأهلية بتطاوين تأمين عودة الزوار والأتباع مظهرين الاعتناء بهم واللفظ بحالهم وباحترام طقوسهم ومعتقداتهم، فيعود أولئك الزوار إلى ديارهم وهم يتحدثون عن أولئك النصاري اللذين هم خير من المسلمين⁽¹⁷⁾.

وعلى صعيد آخر، سيتم التطرق إلى مجموعة الرحمانية الملقبون أيضا بالرحامنة أو بالعزوزية بصفتها أحد الطرق العريقة التي استطاعت أن تجد لها أتباعا في بعض قرى تطاوين والذين بلغ عددهم سنة 1925 3514 مريد⁽¹⁸⁾. لكن دون أن تكون لهم زوايا خاصة يمارسون فيها نشاطهم الطريقي (الأذكار، الأوراد). وبانعدام هذه المراكز يلتجئ عناصر الرحمانية إلى مساجد البلدات التي تمثل أهم مجالات نفوذها. وهنا نلاحظ أن المسجد بما هو أحد دور العبادة قد يتحول إلى زاوية تمارس فيه أوراد الطريقة وأذكارها⁽¹⁹⁾.

ومن ناحية أخرى ، يشكّل أتباع الرّحمانية بعمل تطاوين قرابة نصف أهالي الدويرات وشنني وقرماسة وغمراسن يتولّى أمرهم وجهات طرقية ثانوية من قبيل الوكيل أو النائب نظرا لعدم توفّر خطّة شيخ أو مقدّم : ففي بلدة الدويرات (تقع على مسافة 9كم جنوبي تطاوين) يمثّل الطريقة الرّحمانية فيها العدل علي بن الحاج سالم بصفة وكيل . أما في بلدة شنني ، فيمثّل العدل بن مكاحل نائبا عن مجموعة الرّحمانية بالجهة . وفي الأخير أشرف العدل الحاج مبروك بن سليمان على شؤون العزّوزية ببلدة قرماسة (تقع على مسافة 20كم شمال غرب تطاوين) بخطّة وكيل ⁽²⁰⁾ .

وإجمالاً ، فقد حافظت الطريقة الرّحمانية بعمل تطاوين على وحدتها وتماسكها ولم يتأثر أتباعها بتهديدات عناصر التيجانية الدّاعية إلى التخلّي عن طريقتهم السّابقة والالتحاق بصفوفها ، بل على العكس فقد ظلّوا على ثباتهم وولائهم لرموز الرّحمانية بالمنطقة ⁽²¹⁾ .

ومنذ بداية القرن العشرين ، استطاعت الطريقة القادرية أن تجد لها موطأ قدم بعمل تطاوين فتمّ في هذا الإطار بعث أول زاوية قادرية بالجهة وبالتحديد في بلدة الرقبة وذلك منذ 1903 تقريبا . وقد تداولت على إدارة هذه الزاوية وجهات محلية متنفّذة أشهرها رجالات من عشيرة الجليدات وتحديدًا من فريق أولاد حامد وذلك في مختلف التّسميات والخطط . ومن أهم رموز هذه العائلة حريّ بنا التوقّف مع شخصيّة الأمير بن الحاج الطيّب الجليدي فمن يكون هذا الأخير ؟

هو الأمير بن الحاج الطيّب بن عبد الصّمد الجليدي ابن مفتي تطاوين الأسبق المخلوع سنة 1881 بجرم السرقة ⁽²²⁾ ، مولود في 1853 بالرقبة تطاوين ينحدر من أسرة عريقة وذات حظوة اجتماعية هامّة لكنّها قليلة الثّراء الماديّ (23) حفظ شيئا من القرآن ثمّ التحق بالجامع الأعظم بالحاضرة حيث درس فيه لمدة سنتين ثم عاد إلى مسقط رأسه وتقلّد خطّة الإفتاء عوضا عن والده المتوفّي في 1881 وذلك باقتراح من حاكم الأعراس حينذاك الجنرال يوسف أليقرو ⁽²⁴⁾ . لكنّ سيرته السيّئة قد جعلت منه مصدرا للعديد من التّشكيّات والمرافعات ، ففي 1887 ، وقع خلعه من خطّة الإفتاء بجنحة السرقة التي تورّط فيها ببلدة الزارات من عمل قبّاس . ونتيجة لذلك فقد قوضي أمام محكمة الشرع الإسلامي بقابس التي أصدرت في شأنه حكما بالسجن لمدة سنتين قضاها في منفى ⁽²⁵⁾ Lambessa .

وفي 1890 ، اشتغل ابن الطيّب قاضيا بالجبل الأبيض بالنيابة عن القاضي الأسبق بن حميدة الذي تقلّد مشيخة الزاوية القادرية بمدنين ⁽²⁶⁾ .

وللإشارة فإنّ لهذا الرّمز الطرقي عددا من الخطط أهمّها أنّه عين نائبا شبه رسمي لشيخ الطريقة القادرية بمقتضى التنصيب الفخري الذي منحه إيّاه الشيخ قدّور الميزوني الشيخ الأكبر للطريقة القادرية بالكاف في 1891 . ثمّ وبعد أربع سنوات أي في 1895 ، تحصّل الأمير بن الحاج الطيّب على لقب مقدّم قلّده إيّاه الشيخ محمّد بن إبراهيم بن أحمد

الكبير الشيخ الأكبر للزَّاوية القادرية بنقطة وذلك بعد طلب وإلحاح من والده الحاج بن الطيّب⁽²⁷⁾ . إلى جانب ذلك ومنذ 1904 ، فهو محافظ بالزَّاوية القادرية بالرقبة تطاوين التي أشرف على بنائها بنفسه . كما أشارت بعض التقارير العسكرية إلى أنه (الأمير) ينتمي رسمياً إلى الطريقة الرحمانية وقد يكون عضواً بارزاً في السنوسية أيضاً⁽²⁸⁾ .

ومن ناحية أخرى ، ليس ثمة ما يفيد إلى وجود أحباس خاصة أو عامة تعود بالنفع إلى الزَّاوية القادرية بالرقبة تطاوين ، بل إن كل ما في الأمر هو مجموعة من الممتلكات المنقولة المتمثلة تحديداً في رؤوس أموال متأتية من مصادر عديدة ومتنوعة أهمها على الإطلاق مساهمات قايد ورغمة المدعو مسعود بالعربي المتحمس كثيراً للطريقة القادرية والذي كانت تربطه بالأمير بالحاج الطيّب وشائج عميقة وصلات قوية⁽²⁹⁾ . ولا مندوحة من الإشارة أيضاً إلى أن هذا الأخير قد دأب على التنقل بين العروش والمناطق في تطاوين لبحث الدعاية ولجمع التبرعات بنفسه . أما في الخارج فإن هذه المهام موكولة في غالب الأحيان إلى زمرة من مساعديه البارزين الذين يخرجون كل عام بل أكثر من مرة في السنة لابتزاز أموال البسطاء والسذج من الأهالي .

كما مثلت زيارات عائلات من جرجيس ومدنين وبنقردان فرصة سانحة لتنمية مداخيل الزَّاوية . زيادة على ما يحملونه معهم من أعطيات عينية (لحوم ، زيوت ، حبوب ، منسوجات)⁽³⁰⁾ .

وبالجملة ، فإن حيزاً هاماً من هذه المبالغ المتحصل عليها قد وُظف في أشغال بناء الزَّاوية الوحيدة بالجهة . في حين أن الهدايا والصدقات العينية توزع وفق المعادلة التالية : سهم هام للشيخ الأمير ونصيب وافر لنفقات الولائم والمآدب وما تبقى يقع تقسيمه على الفقراء والمساكين⁽³¹⁾ . لكن وفي سنوات المسغبة والنوائب ، يتكفل الشيخ الأمير بإطعام الفقراء والبؤساء من الزوّار والأهالي الذين يدينون إليه بالولاء محلياً أو حتى خارجياً : ففي أكتوبر 1952 ، طلب هذا الشيخ تمكينه من رخصة لنقل 1000 كغ من القمح من مناطق باجة والدهماني ومجاز الباب وتاجروين⁽³²⁾ .

ولابد من الإشارة في هذا السياق إلى أن الشيخ الأمير يتمتع بنفوذ واسع وجاه عريض إلى جانب ما امتلكه من نشاط فياض بفضل حصافته ولياقته المتميزتين ، وبالتالي فقد نجح في استقطاب عديد الأتباع وصل عددهم إلى 4500 مريد سنة 1922 وطائفة هامة من الزوّار مما أضر بمقام الولي الصالح سيدي عبد الله بوجليدة⁽³³⁾ .

وفي مساء كل يوم اثنين وجمعة ، يعقد الشيخ الأمير حلقة ذكر بمقر الزَّاوية وبحضور عدد هام من أتباعه البالغ عددهم 500 نفر سنة 1906 في جو من الشطحات والأهازيج⁽³⁴⁾ . وأثناء حلقات الذكر والسماع يحدث أن يقوم أحد الفقراء فجأة وقد ذهب به الشوق والوجد كل مذهب رافعا عينيه إلى السماء ويهمهم بكلمات غير مفهومة فيجذب بعض الأتباع إليه فرادى أو جماعات فيرتفعون جميعهم بعيونهم إلى نحو وجهة عيني الأول وهم يغنون ويرقصون ويرسمون بعض الحركات . ثم يخيم على الحلقة جو من السكون والهدوء ويلف الفقراء المتخمرين بروح الحضرة القادرية هالة من

المهابة والوقار. وأحيانا قد يقوم أحد الإخوان من جديد فيبتدئ مشهد آخر وهكذا دواليك إلى أن يرفع مجلس الذكر بقراءة ورد الخلاص⁽³⁵⁾.

هذا وأن الشيخ الأمير يروي لاتباعه أنه يستجيب دائما لأوامر الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي يزوره في الليل ويحدثه بعدة مطالب⁽³⁶⁾. ومما يجدر تسجيله أيضا أن للزاوية القادرية بالرقبة تطاوين مدرسة قرآنية يختلف إليها بعض الصبية لحفظ القرآن، وهي - شأنها شأن الزاوية - تخضع لمراقبة مستمرة⁽³⁷⁾.

وفي فاتح نوفمبر 1906، تقدم الجيلاني بن عبد القادر الشلاخي ابن شيخ الطريقة القادرية بجربة بطلب إلى مكتب الشؤون الأهلية بتطاوين يلتمس فيه الحصول على ترخيص لتأسيس زاوية قادرية بقصر زنادق من مشيخة الدغاغة (جنوب شرق تطاوين) لكن سلطات الاحتلال ممثلة في القائد العسكري الأعلى لدائرة مدين قد رفضت طلبه بدعوى أنه لا توجد حاجة لبعث زاوية قادرية أخرى بالجهة قد يخلق وجودها النزاعات والصراعات المهددة باستقرار المنطقة⁽³⁸⁾.

ومن ناحية أخرى، فإن الشيخ الشلاخي كثيرا ما يتردد مع ابنه على مناطق جرجيس وبنقردان ومدين في محاولة منهما لبسط نفوذهما الطرقي على أتباع هذه المناطق المذكورة ولكسب بعض الدراهم والصدقات. وفي تطاوين لم تلق أفكار الشيخ الشلاخي أذانا صاغية بل إن إخوان القادرية قد ثاروا في وجه ابنه متهمين إياه باستغلال أموال الصدقات والتبرعات في تنمية عملياته التجارية التي أصابها الكسد والركود. ونتيجة لهذه التصرفات، فقد تقرر قطع التواصل مع الزاوية القادرية بجربة⁽³⁹⁾.

وبعد الأمير بن الحاج الطيب الجليدي كمحافظ على الزاوية القادرية بالرقبة تطاوين (1903 - 1906) ثم كمقدم (1908 - 1917) فشيخ بنفس الزاوية، نسلط الضوء على رمز طرقي آخر سليل المجد والشرف؛ نفكر بالأساس في محمد بن الحاج علي بن محمد الجليدي شهر "الطبيبي" مولود في 1879 ومقتن بخضراء بنت عمر الزواوي له أربع أطفال (ولدين وبنتين)، تحصيله العلمي محترم حيث أنه يجيد العربية قراءة وكتابة وله أيضا شيء نسبي في الفرنسية نطقا وقراءة. أما مكاسبه المادية فهي هامة ومتنوعة إذ له بساتين نخيل وكروم ورمان فضلا عن بعض رؤوس الإبل والأغنام. وفي 1905، حاز الطيبي على الصنف الخامس من نيشان الافتخار. وبمقتضى أمر 23 أوت 1927، تم تعيين هذا الرجل شيخا على الزاوية القادرية بتطاوين ثم خلفه من بعده الحفيد محي الدين بن الأمير بن الحاج الطيب بن عبد الصمد الجليدي منذ 22 ديسمبر 1953⁽⁴⁰⁾.

وهكذا فإن التنفذ الطرقي بعمل تطاوين في مقابل هامشية بعض المجموعات الطرقية يستجيب إلى عدة مقاييس ومستويات تختلف من طريقة إلى أخرى ومن ذلك نشير إلى أهمية القاعدة الشعبية أو ما يعرف بالراسمال

البشري فالفارق بين المجموعات الطرقية بعمل تطاوين على مستوى الأتباع عريض إذ نجد طريقة تعدد بعض الآلاف من الأتباع ؛ القادرية مثلا وأخرى بعض العشرات ؛ العيساوية مثلا. أما في ما يتعلق بحجم الموارد المالية فهي ذات أهمية بالنسبة للقادرية والسلامية ومتواضعة عند الرحمانية وضعيفة بالنسبة للعيساوية⁽⁴¹⁾.

ومما لا شك فيه من أن الاستعمار الفرنسي قد لعب دورا رياديا في تقزيم مجموعة طرقية على حساب أخرى.

2- التيجانية في تطاوين : حضور متأخر نسبيا وعداء شمل جل الطرق المحلية.

من نافل القول أن نشير إلى أن حضور الطريقة التيجانية بعمل تطاوين قد جاء شبه متأخرا نسبيا بالمقارنة مع بقية الطرق الأخرى التي تجذرت بالمنطقة منذ عهد بعيد أي قبل حدث انتصاب الحماية بتونس في 1881.

فالجموعة التيجانية قد رأت النور بربروع تطاوين على إثر أحداث 1916 حيث أن الحاكم العام بالجزائر قد أحال في هذا الصدد إلى المقيم العام (بكثير من الإلحاح) الموافقة على طلب الالتماس الذي تقدم به البشير بن محمد بن محمد العيد الشيخ الأكبر لفرع التيجانية بتماسين الجزائر والذي رخص لمقدم الطريقة بالواد المدعو محمد بن فرج بإقامة زاوية لاتباع التيجانية على أطراف تطاوين وتم له ذلك في ربيع 1926⁽⁴²⁾.

والغرض من هذا المشروع المرتقب في نظر شيخ التيجانية الأكبر بتماسين هو استعادة الهدوء والنظام العام بعد الاضطرابات العنيفة التي عصفت بالجنوب التونسي خلال ما يعرف بانتفاضة الودارنة في 1916، وفي نفس الوقت العمل على نشر المذهب التيجاني وكذلك المناداة بتقديم مشاهد الإخلاص والوفاء لدولة الحماية⁽⁴³⁾.

والجدير بالملاحظة أيضا ، أن التيجانية قد عرفت عند البعض بالطريقة المحمدية لأن مؤسسها أحمد التيجاني قد أعلن لاتباعه أن الرسول نفسه قد ظهر له ورخص له ببدء عمله وأمره في نفس الوقت بترك جميع الطرق الصوفية الأخرى⁽⁴⁴⁾.

وتبعاً لذلك فقد أمر مشايخ التيجانية الأتباع المنضمين إلى الطريقة بعدم الخروج عن الصف العام للمجموعة أو الالتحاق بمسلك صوفي آخر ؛ فكل من يخرج عن تعاليم الطريقة التيجانية هو خروج عن المنهج المحمدي وبالتالي فهو مرتد وكافر⁽⁴⁵⁾ وهكذا فإن الشيخ أحمد التيجاني لا يقبل إلا الرسول كسلطة عليا بعد الله سبحانه وتعالى⁽⁴⁶⁾.

وفي الملحق العسكري بتطاوين ، بلغ أحباب التيجانية في أفريل 1916 ما يقارب عن 300 عنصرا يجتمعون لعقد مجالس الذكر سواء بأحد المساجد بالمنطقة أو في منزل مقدم الطريقة الحاج سعد بن نصر القاضي نظرا لعدم توفر زاوية لهم يمارسون فيها نشاطهم الطرقي⁽⁴⁷⁾. أما في سنة 1925 فقد بلغ أنصار التيجانية بكامل تطاوين 5031 فرد أي بنسبة تطور عامة قدرت ب 67,7% أي أن عددهم قد تضاعف 15 مرة بين 1916 - 1925. وقد يفسر ذلك في نظرنا بسببين اثنين : أولا حداثة الوجود الطرقي للتيجانية كظاهرة جديدة استطاعت استقطاب قطاعات هامة ومتباينة من

المجتمع المحلي؛ فكلّ ما هو جديد يجد في الغالب الأعم استهلاكاً ورواجاً واسعاً خاصة عندما يتعلّق الأمر بالوجدانيات وبالروحانيات. أمّا السبب الثاني فهو يعود إلى النشاط الفياض الذي اتبعتة الجهات المحلية للطريقة التيجانية والتي ضمت إلى صفوفها عناصر متنوّعة من قبيل القضاة والعدول وغيرهم وما لهؤلاء من تأثير كبير في جذب شرائح اجتماعية واسعة ومتباينة بالترغيب حيناً وبالترهيب حيناً آخر. وفي كلمة فقد لاقت الحملة الدعائية للطريقة التيجانية في عمل تطاوين صدى وتجاوباً حسناً شمل الوسط الحضري والبدوي على حدّ السواء وهذا ما يترجم الارتفاع الكبير لعناصر هذه الطريقة.

ومما يجدر تسجيله أيضاً أنّ أهل الحل والعقد في الطريقة التيجانية يعمل تطاوين هم من ذوي التّحصيل العلمي المحترم واليسار الماديّ المرموق، فنجد من ضمنهم القضاة والعدول والأئمة بدرجة أولى وهم في أغلبهم من خريجي الجامع الأعظم اكتسبوا ثروات عقارية هامة وموارد مالية محترمة لعب الاستعمار دوراً كبيراً في تنميتها. أمّا البقية فهي تتكوّن من عناصر الطلبة الذين يزاولون دراستهم في جامع الزيتونة وكانوا قد انخرطوا حديثاً في المجموعة التيجانية، إضافة إلى لفيّف من إداري المخزن النظامي⁽⁴⁸⁾.

وبالمحصلة، فقد تمكّن جميع هؤلاء بفضل قوّة وجهتهم المادية والمعنوية من تجنيد مئات من الاتّباع ظلّوا دائماً رهن إشارة شيخهم الأواحد بتطاوين سعد بن الحاج نصر القاضي الجليدي الذي تقلّد خطة عدل بالجبل الأبيض منذ 16 سبتمبر 1898. لكن وعلى إثر تعدّد انحرافاته وتجاوزاته فقد تمّ خلعه من خطّته المذكورة بأمر من الوزير الأكبر مؤرخ في 15 ماي 1918.⁽⁴⁹⁾

وعلى صعيد آخر، يشرف على أحباب الطريقة التيجانية بعمل تطاوين عدد من المقدمين (16 مقدّماً سنة 1916) أصيلي الجهة⁽⁵⁰⁾ يعقدون حلقات الذكر بصفة دورية في مناسبات معينة وبعد كل صلاة مكتوبة وكذلك مساء كلّ يوم جمعة فيردّدون أورااد وأحزاباً مختلفة ومتنوّعة منها على سبيل الذكر لا الحصر:

* أستغفر الله العظيم (100 مرّة).

* الصلّاة على النبي صلى الله عليه وسلّم بأيّ صيغة كانت وإن كانت بالصيغة الفاتحية أفضل وهي «اللهم صلّي على سيّدنا محمد الفاتح لما أغلقه الخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم».

* الكلمة المشرفة وهي لا إله إلا الله (100 مرّة).

* وظيفة اليوم تردّد مرّة واحدة في اليوم وهي أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحيّ القيوم وأتوب إليه (30 مرّة)⁽⁵¹⁾.

هكذا إذا يبدو جلياً من خلال هذه الأوراد أن عناصر التيجانية كغيرهم من أتباع الطرق الصوفية الأخرى يهتمون بضبط العدد في أورادهم اهتماماً ملحوظاً فهم حريصون على أن لا يزيدوا في الذكر أو أن ينقصوا منه شيئاً، ويعتمدون لأجل ذلك المسبحة أو حبات الحصى أو أحياناً الذكر بعقد أنامل أصابع اليد اليمنى⁽⁵²⁾.

وفي كل تلك الحالات يتم الذكر حسب شروط وأداباً محددة كالوضوء واستقبال القبلة والجلوس على الركبتين، فضلاً عن طهارة الثوب والمكان. أما الضوابط الروحية الواجب توفّرها في المريد خلال كل عملية ذكر فهي تتمثل في الحضور القلبي في حالة من الخشوع والتذلل دون رقص أو شطحات لتطهير النفس من العلل الخسيسة وبالتالي بلوغ مستوى الأنوار والإشراقات الباطنية والوجدانية⁽⁵³⁾.

ولا تفوتنا الإشارة إلى أن الطريقة التيجانية بعمل تطاوين قد بعثت في 1933 أحد مقدّميها البارزين وهو العدل محمد الشفي لزيارة الشيخ أحمد بن محمد التيجاني بتونس. أما المقدّم الآخر عبد الله بن الحاج سعيد الفورتي الغمراسني فقد زار سنة 1940 شيخ التيجانية الأكبر بتمّاسين الجزائر⁽⁵⁴⁾.

وبالتوازي، فقد وفد على جهة تطاوين وفي مناسبات عدة أعضاء بارزين من تيجانية الجزائر من سوف، من الواد، من تمّاسين وكانوا قد نزلوا بدار المقدّم الحاج نصر بن سعد القاضي. ومن هذه الزيارات نشر إلى زيارة مقدّم التيجانية بالواد محمد بن فرج سنة 1912 وكذلك زيارة الشيخ أحمد بن محمد شيخ التيجانية بتلمسان⁽⁵⁵⁾. وهي في الغالب تأتي في إطار تبادل الوظائف والأدوار سواء لتلقّي مزيد من التعليمات أثناء كل عملية تسمية جديدة أو لتهدئة الخواطر عقب الأحداث المتواترة. وهي تصبّ في خانة واحدة هي الإخلاص والوفاء لدولة الحماية d'inviter ... « les gens au calme et à l'obéissance de la France, nation de la justice et de l'équité. »⁽⁵⁶⁾

ونبقى في تطاوين لنشير إلى أن أعمدة الطريقة التيجانية قد سعت منذ 1916 إلى استئصال شأفة كل المنكرين والمخالفين للمذهب التيجاني والمقصود بهم تحديداً رموز وأتباع الطرق الصوفية الأخرى بالجهة والذين استبقوا نظرائهم التيجانية للئى الساحة على حسابهم وتمتعوا بالتالي بنفوذ مادي ومعنوي عريقين.

ويكفي أن نشير هنا إلى أن محمد بن الطيب الجليدي مقدّم الطريقة العروسية بتطاوين قد اشتكى إلى السلطات العسكرية من مظالم وتعدّيات عناصر التيجانية بالجليدات وخاصة من جور الأفراد سعد بن محمد الجليدي ابن عشيرته و محمد الدوكالي الشافعي وخصوصاً من سعد بن الحاج نصر القاضي مقدّم الطريقة التيجانية بالمنطقة لكونهم جميعاً يتحاملون عليه متهمين إياه بنوازل باطلة بغية الإيقاع به.⁽⁵⁷⁾

أما أتباع السّلاميّة فإنّهم غالبا ما يكونون عرضة لتحرش عناصر من مليشيا التيجانيّة فتتشب بين الطرفين صراعات حادة تتمثّل في تبادل العنف اللفظي والبدني، ويحدث كل ذلك على مرأى ومسمع من قوّات الاحتلال دون أن تنبس ببنت شفة.

وعلى غرار ما تعرّض له رموز السّلاميّة وأتباعها بتطاوين من قهر وقمع على يد أنصار التيجانيّة، فقد تحرّش هؤلاء الآخرين أيضا بأفراد من الطريفة الرّحمانيّة من ذلك مثلا ما اقترفه كل من عبد الله بن الحاج صالح القاضي وعلي بن عمر القطّوفي أحد أبرز وجوه التيجانيّة بالمنطقة من أعمال نهب وسلب استهدفت ممتلكات لأفراد من الرّحمانيّة بغمر سن⁽⁵⁸⁾. وقد أودعا عنصرا التيجانيّة السالف ذكرهما السّجن بعد أن ألقت قوّات المخزن النظامي القبض عليهما في انتظار بدء محاكمتهم. لكنّهما نجحا من الإفلات من معتقلهما بعد أن نزلوا به ثلاثة أيام فقط بتواطؤ أحد حراس السّجن. فما إن تأكّدا من إطلاق سراحهما حتّى قصدا دار المقدّم سعد بن الحاج نصر القاضي الذي أوامهم في بيته الخاص. لكنّ سلطات الاحتلال تفضّلت إلى أمرهما فاستدعت المقدّم إلى المكتب الحربي لاستجوابه ودعته فورا إلى تسليم المتّهمين للعدالة. ومما جاء في جواب المقدّم بعد استجوابه قوله *...je les ai trouvé dans le groupe de mes amis, je les savais prisonniers mais je suis Moukaddem et non pas cavalier de maghzen, et je n'ai pas des qualities pour amener en prison les détenus qui s'en échappent. D'autre part, ces sont des Tijanis et j'accompagne chez moi tous les Khouanes.* »⁽⁵⁹⁾.

أما أشهر هذه الصّراعات الطّرفيّة تلك التي وقعت بين عناصر التيجانيّة وعناصر القادريّة بعمل تطاوين. وفي هذا الإطار، فقد تولّى 51 نفر من قادريّة الجهة تحرير عريضة شكوى في الغرض تحمل أسماء المشتكين وتوقيعاتهم أرفقت برسالة من شيخ القادريّة بالمكان المدعو علي لعريض موجهة إلى شيخ مشايخ القادريّة بتونس صالح بن شعبان وفيها يشتكى هذا الشّيخ من تجاوزات لفيّف من عناصر التيجانيّة بحقه وبحقّ أتباعه حيث منعه من ممارسة نشاطه الطّرفي⁽⁶⁰⁾.

ومما جاء في رسالة الشكوى أنّ أفراد التيجانيّة يقومون باعتقال كل من يجده طريفته قادريّة أو غيرها يتمكّنوا به ويرفعوه بين يدي سيدي سعد ويتجمّعوا به ويبقون يشتمون في جميع الأهالي التي لم تكن تيجانيّة ويبدّلوه وايقلبوه... وكل من يقول لهم والدي قادري وأنا تابعه يقولوا له والدك من أهل جهنّم ولازم تعصيه ولا تأخذ كلامه»⁽⁶¹⁾.

وكان هؤلاء جميعا (السّلاميّة، القادريّة، الرّحمانيّة) وغيرهم من الأهالي يعتبرون أنّ الطّائفة التيجانيّة فصيل طرفي عمل منذ تواجده بأرض تطاوين على ترويج البدع ونشر الأباطيل بين النّاس وخاصّة من خلال تشجيعه للسرقة والقتل بحق غير التيجانيّة *Semant la perturbation et encourageant le vol et le crime*»⁽⁶²⁾.

وفي الحقيقة، فقد أدى تواجد العديد من الطرق الصوفية بعمل تطاوين - وسعي كل منها إلى كسب أكثر ما يمكن من الأتباع لتنمية الثروة والظهور بمظهر الطريقة الأكثر تنفذاً محلياً - إلى نشوب صراعات حادة بين الطرق، كانت التيجانية الطرف الرئيسي فيها Des disputes entre les adeptes des confréries concurrentes. لأن أفراد هذه الأخيرة ينكرون كل الطرق الأخرى فيقولون « إن سائر الطرق باطلة إلا طريقة واحدة هي طريقة سيدي أحمد التيجاني»⁽⁶³⁾.

وأمام تفاقم أعمال العنف بين أتباع التيجانية من ناحية وأتباع الطرق الأخرى كلف الوزير الأكبر بالحكومة التونسية ممثله الرسمي بورغمّة العامل الجويني بتهدئة الأوضاع وباحتواء العناصر المشاغبة للتيجانية لحفظ الأمن العام ولتحقيق المصالحة بين الطرق⁽⁶⁴⁾.

وفي الوقت ذاته، اكتفت قوات الاحتلال بالجهة بتوبيخ كل من مقدمي القادريّة والتيجانية. كما عملت بتنبيههما بحزم أنّهما سيقع تأخيرهما عن نشاطهما الطرقي في حال وقوع أول شكوى في شأن كل منهما⁽⁶⁵⁾.

II/ الطرق الصوفية بالدائرة العسكرية بتطاوين والتحديات المفروضة

كل الأحداث المستجدة بالقطر الجزائري قد دفعت بحكومة الاحتلال الفرنسي إلى وضع إستراتيجية دقيقة وصارمة حيال الطوائف الطرقية الفرعية؛ الموجودة بالدائرة العسكرية بتطاوين خاصة وفي منطقة التراب العسكري عامة وذلك من خلال اعتماد سياسة التضييق بشتى الوسائل على التي تناهضها.

1/ السياسة الاستعمارية تجاه الطرق الصوفية بالدائرة العسكرية بتطاوين

أ - سياسة المراقبة والمعاقبة.

إن طبيعة الفكر الطرقي وما يثيره من تعصب وعدوانية ضدّ الأجنبي الرومي المدّس لأرض الإسلام، إلى جانب العلاقات الموجودة بين الطريقة وزواياها بمختلف أنحاء الدائرة العسكرية بتطاوين وما يتطلبه ذلك من تبادل للزيارات الشبه الدائمة بين المركزي والمحلي في الدّاخل والخارج فضلاً عن متانة الروابط الروحية بين الشيخ والمريدين وما يقف وراء ذلك من طاعة شبه مطلقة للأب الروحي للطريقة، كل ذلك قد دفع بالسلطات الفرنسية إلى اتخاذ عدّة إجراءات دقيقة وصارمة تركّزت بالدرجة الأولى على مراقبة شيوخ الطرق الصوفية (مشايخ، مقدّمين...) وذلك من خلال عدّة أساليب وأشكال شملت مستويات مختلفة ومتنوعة. فعلى المستوى الإداري، عملت الإدارة العسكرية الفرنسية على مراقبة شيوخ الزوايا (وأحياناً المقدّمين) بحيث لا يتمّ تعيين سوى المشايخ الذين لهم وجهة اجتماعية مرموقة ونفوذ هام على الأهالي دون أن يغفل عن شرط الإخلاص والوفاء لحكومة الحماية⁽⁶⁶⁾. كما فرضت فرنسا على الوزير الأكبر عدّة تدابير إجرائية وجب على المترشّح توفيرها على غرار تعميم بطاقة إرشادات تتضمن معلومات شخصية هامة (الإسم الثلاثي

للمترشح، قيمة ثروته، درجة معارفه... إلى جانب استشارة العامل عن كل مترشح جديد لخطة المشيخة⁽⁶⁷⁾. كما يتضمن ملف المترشح بطاقة النظافة لمعرفة خلوسجله من أية سوابق عدلية ناهيك عن مواقفه وميولاته الحزبية والسياسية⁽⁶⁸⁾.

وعلى صعيد آخر، وجب على المترشح أن يكون أهلا لخطة المشيخة من حيث معرفته بمبادئ الطريقة وتوفير شروط اللياقة فيه. كما يسعى المترشح إلى كسب ود الأتباع الذين يتولون تحرير عريضة تحمل أسماؤهم وتوقيعاتهم يتم إرسالها إلى الشيخ الأكبر معربين عن رضاهم عن المترشح الجديد⁽⁶⁹⁾.

وبالمحصلة، فقد تمكنت الإدارة العسكرية الفرنسية من خلال تقنينها لشروط وانتداب مشايخ الطرق من انتقاء صنف خاص ومعين من الشيوخ قادرين على فرض نفوذهم وهيبته على الأتباع والأهالي الذين يرزحون تحت نير سلطة عسكرية غاشمة؛ الجور صفتها والقمع مبدؤها⁽⁷⁰⁾.

وكذلك محمد بن الحاج علي بن محمد الجليدي شيخ الطائفة القادرية بتطاوين منذ 23 أوت 1927⁽⁷¹⁾. وبعبارة مجملية، فقد احتفظت الإدارة العسكرية بالكلمة الفصل في الموافقة أو الرّفص على تسمية مشايخ الطرق بالدائرة العسكرية بتطاوين مما جعل رأي الشيخ الأكبر للطريقة لا قيمة له أمام مصالح دولة الحماية. كما وجب على المترشح أن لا يدخر جهدا في كل ما يطلب منه من مساعدة للإدارة العسكرية⁽⁷²⁾.

لكن وعلى الرغم من كل هذه الإجراءات الإدارية في اختيار «المشايخ المخلصين»، فإن السلطات العسكرية قد أمنت في اتخاذ التدابير الأمنية الصّارمة التي تركّزت هذه المرة على رصد ومراقبة تنقّلات مشايخ الطرق داخل البلاد أو خارجها؛ إذ جرت العادة عند جلّ الطرق الصوفيّة أن يقوم الشيخ مرّة في السنة أو أكثر بزيارة رسمية إلى شيخ الطريقة الأكبر بتونس أو بالجزائر لأخذ مزيد من الوصايا والتعليمات وفي نفس الوقت لجمع بعض المبالغ المالية من الأتباع والزوّار الذين يحتشدون بالمئات لاستقبال شيخهم طلبا للثّواب ونيلا للبركة على نحو ما يعتقدون⁽⁷³⁾. وعليه ونظرا لكل هذه الاعتبارات وسعيها منها لإضعاف الطرق، أصدرت السلطات العسكرية قوانين (مناشير) حجّرت الزيارات الغير مرخصة لشيوخ الطرق الذين أصبحوا مطالبين قانونيا بالحصول على إذن مسبق أو ترخيص خاص من مصلحة مكتب الشؤون الأهلية بمنطقتهم وذلك تطبيقا للأمر عدد 3 المؤرخ في 9 جانفي 1913. أما الأمر عدد 13 والمؤرخ في 24 أوت 1921، فقد وضّح لشيوخ الزوايا الإجراءات القانونية الواجب اعتمادها في التنقل من الجزائر إلى تونس والعكس، وقد تدعّم هذا القانون بمنشور إضافي صادر في 13 نوفمبر 1934⁽⁷⁴⁾.

وهكذا إذا ومن خلال سنّ هذه القوانين، فقد مشايخ الطرق الصوفيّة بالتّراب العسكري التّونسي حريّة التنقل التلقائي بل إنهم أصبحوا مطالبين قانونيا قبل تنقلهم بتقديم مطلب إلى إدارة بيرو عرب التي يعودون إليها بالنظر مع

ما في ذلك من ملاحظة وإضاعة للوقت وحتى تعطيل المصالح الدّائِية لأولئك الشيوخ؛ ناهيك عن الشعور بالضيغ خاصة عند رفض مطلبهم وعدم تمكينهم من ترخيص دون توضيح لأسباب المنع⁽⁷⁵⁾.

على أن سياسة المراقبة التي اعتمدتها السّطات الفرنسيّة لشيوخ الطّرق بالدائرة العسكريّة بتطاوين لم تقف عند حد أخذ رخص مسبقة للتنقل، بل إنها طلبت منهم بتقديم جملة من التّوضيحات اللازمة منها:

* شرح وتفسير أسباب وغايات التّنقل (شراء كمّية من الحبوب، زيارة أقارب، زيارة شيخ الطّريقة...) حتّى يتيسّر لسلطات الاحتلال معرفة مسالك التّنقل والعبور وبالتالي سهولة مراقبة المشبوه فيهم من المشايخ⁽⁷⁶⁾ مثل سفر شيخ القادريّة بتطاوين الأمير بن الحاج الطّيب إلى مناطق باجة ومجاز الباب وتاجروين والدّهmani قصد التّزوّد بكمّيات من الحبوب وذلك في أكتوبر 1952⁽⁷⁷⁾.

* تحديد الأماكن التي ستتم الإقامة فيها خلال الرّحلة مع تحديد العنوان وضبط مسالك التّنقل والالتزام بالمثل أمام السّلط المعنيّة حال وصول المكان المقصود. ويمكن الاستشهاد في هذا السيّاق برحلة شيخ القادريّة بتطاوين الأمير بن الحاج الطّيب الجليدي الذي تحصّل على إجازة مدّتها 40 يوما قصد التّنقل إلى تونس والكاف لإلحاق ابنه بالجامع الأعظم ولزيارة الشّيخ الأكبر للطّريقة بالكاف الحاج قدّور الميزوني. وقد ضبطت الإدارة العسكريّة بتطاوين مدّة إقامته بتونس بـ 15 يوما وبالكاف 10 أيام⁽⁷⁸⁾.

أمّا محليّا والمقصود به داخل الدائرة العسكريّة بتطاوين، فقد اتّخذت السّطات الفرنسيّة عدّة إجراءات تعسّفيّة تجاه مجمل شيوخ الطّرق ومنها:

مراقبة حلقات الذّكر التي يعقدها شيوخ الطّرق وإعداد تقارير مفصّلة تتضمّن نوعيّة الأوراد الخاصّة بكلّ طريقة وعددها وكيفيّة ترديدها. إلى جانب وصف الأزياء الخاصّة بالاتباع (اتباع الرّحمانية لهم أزياء بيضاء، أمّا أتباع العيساويّة فأزيائهم خضراء)⁽⁷⁹⁾.

- التركيز على العناصر المتنفّذة بكلّ زوايا الطّرق الصّوفيّة بالدائرة العسكريّة وكشف نوعيّة علاقاتهم بالداخل (العامل، الخليفة...) أو بالخارج (التّوارق، البدو...) ⁽⁸⁰⁾.

ب- سياسة التّفكير والتهميش

في الوقت الذي أبدى فيه شيوخ الطّرق الصّوفيّة بالدائرة العسكريّة بتطاوين تجاوبا مفروضا مع سلسلة الإجراءات المتّخذة ضدهم في مختلف المجالات (الإداريّة، السياسيّة...) علّهم يكسبون من وراء ذلك ودّ ورضاء ضباط مكاتب الشّؤون الأهلية بالمنطقة، كانت الإدارة العسكريّة الفرنسيّة تزيد في تضيق الخناق وتشديد الحصار على مختلف وجاهات المجموعات الطّرقية ليس بالتّدخل المباشر في تسميتهم أو بتتبّعهم في تنقّلاتهم فحسب؛ بل أيضا

بتفقيرهم وتهميشهم وذلك من خلال منع الزيارات التي تكون بهدف جمع الأموال والأعطيات، إلى جانب استصفاء قسما هاما من أملاكهم العامة والخاصة التي تشكل دعامة وجودها واستمرارها⁽⁸¹⁾.

فكما هو معلوم، فقد أقدمت السلطات العسكرية الفرنسية على تحجير الزيارات التي تقع في الغالب الأعم بهدف تدعيم ميزانية المؤسسة الطرقية مما أضر صراحة بثروة رموز الطرق باعتبار أنهم ينتفعون بنصيب وافر من الأنعام المجمعة (أموال، حبوب، زيوت، لحوم، منسوجات، أغطية...)

وكما عادتھا في خلق الذرائع، فقد علّلت الإدارة الفرنسية إجراءات منع الزيارات هذه ببعض الأزمات الاقتصادية والاجتماعية التي ألمت بقطاعات واسعة من الأهالي في سائر جهات المنطقة العسكرية خاصة إبان النواوب البشرية (المجاعات، الأمراض، الأوبئة...) التي ميّزت تحديداً عشرينية 1937-1947. غير أن الهدف الحقيقي من وراء هذا المنع هو ضمان الاستخلاص المرضي للضرائب، ناهيك عن حرصها الكبير لاسترجاع ما تخلّد في ذمة الأهالي من ديون (قروض، سلفات...) وكذلك حتّى لا ينافسها شيوخ الطرق في ابتزاز السّواد الأعظم ذلك أنّ «السّكان لو خيروا بين دفع الضرائب وإرسال الزيارات والهدايا لمشايخ الطرق لاختاروا الحل الثاني»⁽⁸²⁾.

وفي السّياق نفسه، تخشى إدارة الاحتلال بالمنطقة العسكرية من أن تتقدم الطرق الصّوفيّة المنتشرة على ميادين نفوذها وسيطرتها على توظيف ثراواتها ومكاسبها لدعم أنشطة الأحزاب السياسيّة التي تسرّب دعائها تدريجيا إلى تلك الرّبوع المعزولة عن جسد الإيالة وخاصة خلال أمد نفيعهم بها) وجوه هامة من الدستوريون القدامى والجدد، بعض الطلبة الزيتونيين، بعض مناضلي الحزب الشيوعي... مما خلق نوع من الوعي الوطني الذي تميّز خاصّة في بعث نواتات وشعب دستوريّة محليّة ارتفع عددها منذ ثلاثينيات القرن العشرين⁽⁸³⁾.

وعلى أي حال، فقد أضرت سياسة تحجير الزيارات التي يهدف الشيوخ من ورائها كسب بعض الأموال بالمداخيل الجمليّة للزوايا وخاصة بتلك المؤسسات الطرقية التي تفتقد إلى أحباس خاصّة أو عامّة؛ وهذا ما يجعل من تلك المبالغ الماليّة المجمعة مصدرا ضروريا لا غنى ولا بديل عنه لتسديد جملة من المصاريف والنفقات. ومن أبرز المتضررين من هذه السياسة الجائرة، نشير إلى شيخ الجماعة السّلامية بتطاوين الذي عادة ما يوظّف قسما هاما من الأموال المجمعة في أشغال ترميم الزاوية. لكن وبانقطاع عمليّة «ضخّ الأموال»، توقّفت أعمال الترميم سنوات عدّة أصبحت خلالها الزاوية على حالة من التصدّع والخراب مما جعل الشيخ الجليدي يستعطف الحماية الفرنسيّة في طلب مساعدة مالية عاجلة أمكن له بعد سلسلة من المراسلات المدحيّة تحصيلها ومقدارها 1000 فرنك⁽⁸⁴⁾.

لكنّ السبيل لم تنقطع بالمرّة عن شيوخ الطّرق الصّوفيّة بالتّراب العسكري التّونسي؛ فقد تحيّل البعض في جمع ما أمكن له من دراهم. أمّا البعض الآخر والمقصود بهم تحديدًا كلّ من شيخ القادريّة والسّلاميّة بتطاوين، فقد انتفع كلاهما بالمساعدات الماليّة المحترمة التي تفضّل بها عليهما القياد مسعود بالعربي⁽⁸⁵⁾.

تلك إذا همّ السياسات المعتمدة من طرف إدارة الاحتلال بالمنطقة العسكريّة التّونسيّة حيال الطّرق الصّوفيّة الموجودة بها. وهي (السياسات) على تنوّعها وتعدّدها تهدف إلى تحجيم الطّرق وتدجينها ومن ثمّة سهولة إحكام السيطرة على رموزها قصد تطويعهم واحتوائهم لغاية الاستعانة بهم عند الحاجة دون أن يصدر منهم أيّ خطر محتمل من شأنه أن يهدّد مصالح الحماية الفرنسيّة.

فبالى أيّ مدى نجحت هذه السياسات؟ وهل ينسحب هذا الطّرح على مجمل الطّرق الصّوفيّة بالتّراب العسكري التّونسي أم أنّه بإمكاننا الحديث عن استثناءات خاصّة ونادرة.

2/ الطّرق المناهضة للاستعمار.

في تطاوين، لم تعد الزّاوية القادريّة بالجهة الفضاء الملائم لتدريس القرآن الكريم ولممارسة جملة من الأوراد والأذكار فحسب؛ بل إنّها أصبحت مقرّاً للاجتماعات والمشاورات بين أفراد شبكة الواجهات المحليّة بالجهة وذلك قبل امتشاق السّلاح في خريف 1916. ففي هذا الإطار عقد اجتماع أوّلي حضره أعيان أولاد دباب وأولاد شهيدة والكراشوة والجليدات والحميديّة واتفقوا بينهم على إعلانها «حامية حمراء» ضدّ الفرنسيين المغتصبين⁽⁸⁶⁾. أمّا الشّيخ عمر الأبيض، فقد حضر آخر الاجتماعات في سبتمبر 1915 والذي على إثره تقرّر تبني الكفاح المسلّح ضدّ الفرنسيين الغزاة⁽⁸⁷⁾. لكنّ السّؤال الذي يطرح نفسه هو: هل حضر شيخ الزّاوية القادريّة بتطاوين اجتماعا واحدا من هذه الاجتماعات على الأقل؟ لا يمكننا إثبات ذلك في انعدام الأدلّة الكافية، لكن من المرجّح أنّ هذا الشّيخ قد سجّل حضوره في أحد هذه اللقاءات لمباركة العمل العسكري المرتقب.

ومن ناحية أخرى، هل من اليسير معرفة الانتماء الطّرفي لمختلف القبائل والعروش التي خاضت غمار المعارك والمواجهات المسلّحة أثناء أحداث 1915 - 1918 بالتّخوم الجنوبيّة للإيالة؟

في الحقيقة، لا نمتلك معطيات طريقيّة دقيقة عن أولئك المقاومين، لكنّ الأمر المؤكّد استنادا إلى بعض المصادر الأرشيفيّة هو أنّ المجموعات الطّرفيّة التّاليّة (الرّحمانيّة، السّلاميّة، والقادريّة) قد لقيت تجاوبا واسعا في أوساط أهالي تطاوين فقلّ أن تجد أحدا غير منتسب لإحدى هاته الطّرق أو غيرها. وبالمحصّلة، فإنّنا لا نستبعد مشاركة عدد من أتباع الطّرق الصّوفيّة المذكورة في سير المعارك⁽⁸⁸⁾.

كما تفيدنا الرواية الشفوية أيضا أن الحبيب الغندور مقدم الزاوية التيجانية بعمل تطاوين قد تزعم حركة المقاومة برمادة في 1958⁽⁸⁹⁾.

وقد مثلت الزاوية القادرية بتطاوين أهم الهياكل التقليدية العتيقة التي احتضنت المقاومين في طفولتهم؛ فالتائر سعد بن عون مثلاً نشأ بالزاوية القادرية المار ذكرها آنفاً⁽⁹⁰⁾.

الغاية:

إن ما نريد الخلوص إليه من وراء هذا المقال هو أن حركة التصوف بعمل تطاوين لم تكن وليدة العهد الاستعماري بل إنها كانت ضاربة في العراقة والقدم وتجسدت، في فئة من الأولياء الصالحين ثم ومنذ بداية القرن التاسع عشر وخلال النصف الأول من القرن العشرين انتظمت في شكل مجموعة من الطرق امتازت بدقة التنظيم وبكثرة عدد الزوايا والمريدين.

كما تميزت ربوع تطاوين بتعدد الطوائف الطرقية وتنوعها مما خلق نوعاً من التنافس والصراع لكسب أكثر ما يمكن من الاتباع وللمبروز كقوة فاعلة ومؤثرة في الحياة الطرقية، وهذا ما أفرز قطبين طرفيين محليين هما القادرية من ناحية والتيجانية من ناحية أخرى. أما الطوائف الأخرى فقد عجزت عن مجاراة نسق الصراع الطرقي لمحدودية نفوذها ومواردها.

وعلى صعيد آخر، فقد واجهت الحركات الصوفية بعمل تطاوين جملة من التحديات تمثلت في:

- صرامة الإجراءات الاستعمارية المتخذة ضدها (مراقبة الشيوخ، منع الزيارات، مراقبة حلقات الذكر...).
- ظهور قوى سياسية جديدة سعت إلى الاتصال المباشر بعموم الأهالي لنشر الوعي بين صفوفهم ولتحسيسهم بـ"الهم الوطني" مستفدين من حالة الأزمة التي غدت عليها الطوائف الطرقية (تشرذم الصف الطرقي، تفكير شيوخ الطرق، تقلص الأعطيات والصدقات بسبب صرامة الطوق العسكري المفروض على المنطقة).
- تنامي حدة الصراعات بين مختلف الطرق الصوفية بعمل تطاوين وخاصة بين القادرية والتيجانية أمام أنظار الإدارة العسكرية التي اكتفت بمراقبة الصراع عن كثب، وفي ذلك تدعيم لمقولة دعهم يتخاصمون لنظهر بمظهر المتدخل بالحسنى.

وبالمحصلة، وأمام تلك التحديات عجزت الطوائف الطرقية عن تغيير سياستها والتطلع إلى ما هو أفضل وبالتالي فقد كانت كمن لقي حنقه بظلفه فاسحة المجال للتنظيمات السياسية الجديدة للمبروز كقوة فاعلة قادرة على تبني مطالب الأهالي ومن أهمها رفع الحصار وإلغاء النظام العسكري.

هكذا فإن هذا العمل يهدف في بعد من أبعاده الكبرى إلى تسليط الضوء على جوانب طرقيّة هامة بعمالة تطاوين و مدى متانة ترابطها مع الزوايا الأصليّة الأم سواء بالجزائر أو بالمغرب أو كذلك بطرابلس الغرب .

الإحالات والهوامش :

- 1 - ليسير (فتحي)، من الصلعة الشريفة إلى البطولة الوطنيّة، ميدياكوم للطباعة والنشر، تونس، 1999، ص 192.
- 2 - ليسير (فتحي)، نجع ورغمة تحت الإدارة العسكريّة الفرنسيّة 1881 - 1939، ش.ت.ب، كليّة العلوم الانسانيّة والاجتماعيّة، تونس، 1992 - 1993، ص 43.
- 3- A.N.T, SerD, Cart97, Dos 3/1, f203 : Notes sur la zaouïa soulamiya à Chenini Tataouine.
- 4 - A.N.T, SerD, Cart153, Dos 3, f12 : Notes défavorables sur le nommé Mohamed ben Taieb Jledi, 03/11/1926.
- 5 - A.N.T, SerD, Cart153, Dos 5, f6 : Révocation du Moukaddem Mohamed ben Taieb Jledi, 27/11/1927.
- 6 - A.N.T, SerD, Cart153, Dos 7, f8 : Nomination de nouveau cheikh à la zaouïa soulamiya à Rogba Tataouine, 10/07/1941.
- 7- A.N.T, SerD, Cart153, Dos 7, f35 : Quelques renseignements sur le cheikh de soulamiya Mohamed Lakhayari, 08/10/ 1939.
- 8 - A.N.T, SerD, Cart153, Dos 7, f4 : L'attribution d'une somme d'argent, 10/09/1936.
- 9 - A.N.T, SerD, Cart153, Dos 7, f1 : Demande d'une appoint financière, 20/02/1937.
- 10 - أ.و.ت، سل D، ص 153، مل 7، وثيقة 82:
- 11- A.N.T, SerD, Cart153, Dos 7, f21 : Avis défavorable sur le nommé El khatib, 08/05/1922.
- 12- A.N.T, SerD, Cart97, Dos 3/1, f192 : Notes sur la Kadria à Nefzaoui, 03/09/1899.
- 13 - العجيلي (التليلي)، الطرق الصوفيّة والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسيّة، منشورات كلية الآداب منوبة، تونس، 1992، ص 65.
- 14- A.N.T, SerD, Cart97, Dos 3/3, f1 : La secte Issaouia à Tataouine.
- 15 - زايد (عبد الصمد)، عالم القصور بالجنوب الشرقي التونسي، ط 1، بيت الحكمة، قرطاج تونس، 1992، ص 186.
- 16 - المرجع نفسه والصفحة.
- 17 - المرزوقي (محمد)، صراع مع الحماية، مطبعة الإتحاد العام التونسي للشغل، تونس، 1973، ص 64.
- 18 - أ.و.ت، سل D، ص 97، مل 3، وثيقة غير مرقمة، د.ت.
- 19 - بن حسن (سمير)، نشاط الزوايا بصفاقس في الفترة المعاصرة، زاوية سيدي علي الكراي نموذجاً، ش.خ.د.ج، صفاقس 2005، ص 12.
- 20 - A.N.T, SerD, Cart97, Dos 3/1, f211. Confrérie Rahmania à Tataouine, 19/03/1896.
- 21- Ibidem.
- 22 - A.N.T, SerD, Cart111, Dos5/1, f1 : Notes sur la zaouïa Kadria à Rogba Tataouine.
- 23 - A.N.T, SerD, Cart111, Dos3, f9 : Renseignements sur El Amir Ben El Hadj Taieb, 09/11/1908.
- 24- Ibidem.
- 25- Ibidem.
- 26- A.N.T, SerD, Cart111, Dos5/2, f1 : Bulletin n3.
- 27 - A.N.T, SerD, Cart111, Dos3, f2 : Avis défavorable sur El Amir Ben El Hadj Taieb, 09/03/1906.
- 28 - A.N.T, SerD, Cart111, Dos3, f9 .
- 29 - A.N.T, SerD, Cart111, Dos5/1, f1.
- 30 - A.N.T, SerD, Cart111, Dos3, f2.
- 31- Ibidem.
- 32 - A.N.T, SerD, Cart111, Dos5/3, f1 : A la demande d'une autorisation de blé, 10/10/1952.
- 33- A.N.T, SerD, Cart111, Dos5/1, f1.
- 34 - A.N.T, SerD, Cart111, Dos3, f2.
- 35 شوقلي (جان)، التصوّف و المتصوّفة، الدار البيضاء، 1999، ص 12.
- 36 - A.N.T, SerD, Cart111, Dos3, f2.

37- Ibidem.

38- A.N.T, SerD, Cart111, Dos3, f1 : Le refus d'une demande appropriée à Echallakhi, 06/11/1906.

39 - A.N.T, SerD, Cart111, Dos3, f3 : Avis défavorable sur Mr Echallakhi, 28/08/1906.

40 - أ.و.ت، سل D، صن 111، مل 3/5، وثيقة 6: بطاقة إرشادات، 1927./04/28

41 - يفسر الفارق في الموارد المالية للطرق الصوفية بعمل تطاوين بنوعية الاتباع فقراء / أغنياء، برؤوس الأموال المجمعّة وكذلك بحجم ونوعية موارد الزيارات.

42 - أ.و.ت، سل D، صن 156، مل 31، وثيقة 5: رسالة من القائد العسكري العام بالجزائر إلى المقيم العام بتونس يشرح له فيها أوضاع الطريقة التيجانية بعمل تطاوين عقب أحداث 1916، 1916./04/17

43 - المصدر نفسه.

44 - الإمام (هيفاء)، "مقارنة بين مؤسسي الطرق الصوفية التالية: التيجانية، السنوسية والمهدية"، *المجلة التاريخية المغاربية*، عدد 4، تونس، جويلية، 1975، ص 122.

45 - الشريطي (منصف)، *النشاط الثقافي والتربوي للطريقة القادرية بالإيالة التونسية 1776-1957*، ش.ك.ب، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1985، ص 42.

46 - الإمام، نفس المرجع، ص 122.

47 - أ.و.ت، سل D، صن 156، مل 31، وثيقة 5.

48 - المصدر نفسه.

49 - أ.و.ت، سل D، صن 156، مل 31، وثيقة 10: تقرير حول مقدم التيجانية بتطاوين سعد القاضي، 1924./07/24

50 - أ.و.ت، سل D، صن 156، مل 31، وثيقة 3: لائحة بأسماء أهم مقدي التيجانية وعلاقتهم بالسلطة العسكرية بالجهة، 1916./03/26

51 - التيجاني (أحمد)، *أحزاب وأوراد، دار الرشاد الحديث، الدار البيضاء*، 2003، ص 5.

52 - الشعراي (عبد الوهاب)، *الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية*، ط 1، المكتبة العلمية، القاهرة، 1962، ص 199.

53 - المرجع نفسه، ص 34 - 35.

54 - أ.و.ت، سل D، صن 156، مل 31، وثيقة 135: زيارات رموز التيجانية بتطاوين لتونس والجزائر.

55 - أ.و.ت، سل D، صن 156، مل 31، وثيقة 5.

56 - أ.و.ت، سل D، صن 156، مل 31، وثيقة 3.

57 - أ.و.ت، سل D، صن 97، مل 1/3، وثيقة 2، رسالة من محمد بن الحاج الطيب مقدم الطريقة العروسية بورغمّة إلى الوزير الأكبر، 18 ربيع الثاني 1344هـ / 23 فيفري 1926م.

58 - أ.و.ت، سل D، صن 156، مل 31، وثيقة 11: تقرير عسكري عن بعض تجاوزات التيجانية بعمل تطاوين، 1924./08/24

59 - المصدر نفسه.

60 - أ.و.ت، سل D، صن 156، مل 31، وثيقة 13: رسالة من فقرا القادرية بتطاوين إلى شيخ مشايخ القادرية بتونس، 30 محرم 1342هـ / 12 سبتمبر 1923م.

61 - المصدر نفسه.

62 - أ.و.ت، سل D، صن 156، مل 31، وثيقة 9: بعض تجاوزات التيجانية بتطاوين، 1927/11/19.

63 - أ.و.ت، سل D، صن 156، مل 31، وثيقة 4: أهم صراعات التيجانية بتطاوين، 1916./04/08

64 - أ.و.ت، سل D، صن 156، مل 31، وثيقة 5.

65 - أ.و.ت، سل D، صن 111، مل 1/5، وثيقة 5: تقرير الضابط مورو Moreau رئيس مصلحة الشؤون الأهلية بتطاوين، 1924./08/07

66 - العجيلي، نفس المرجع، ص 86.

67 - المرجع نفسه، ص 85 - 86.

- 68 - المرجع نفسه، ص 86.
- 69 - المرجع نفسه والصفحة.
- 70 - أ.و.ت، سل D، صن 139، مل 5، وثيقة 5.
- 71 - أ.و.ت، سل D، صن 111، مل 3/5، وثيقة 6.
- 72 - العجيلي، نفس المرجع، ص 88.
- 73 - المرجع نفسه، ص 89.
- 74 - أ.و.ت، سل D، صن 97، مل 1، وثيقة 4: منشور وزير مؤرخ في 13 جوان 1924 وكذلك أ.و.ت، سل D، صن 182، مل 3، وثيقة 5: منشور وزير مؤرخ في 13 نوفمبر 1934.
- 75 - العجيلي، نفس المرجع، ص 90.
- 76 - أ.و.ت، سل D، صن 97، مل 3، وثيقة 25.
- 77 - أ.و.ت، سل D، صن 111، مل 3/5، وثيقة 1.
- 78 - أ.و.ت، سل D، صن 111، مل 6، وثيقة 10: رحلة شيخ القادرية إلى تونس والكاف، 1908/11/14.
- 79 - A.N.T, SerD, Cart97, Dos 3/1, f192.
- 80 - أ.و.ت، سل D، صن 97، مل 1/3، وثيقة 38.
- 81 العجيلي، نفس المرجع، ص 99.
- 82 Ouled Mohamed(H), « Notes à propos des enquêtes coloniales sur la religion populaire en Tunisie de 1896-à 1934 », *Cahier de la Méditerranée publié par le centre de la Méditerranée moderne et contemporain*, n20- 21, Juin- Decembre 1980, pp81- 90, 92.
- 83 - ليسير، من الصلعة...، نفس المرجع، ص 81 - 82.
- 84 - أ.و.ت، سل D، صن 153، مل 7، وثيقة 42.
- 85 A.N.T, SerD, Carton111, Dos3, f2. Et A.N.T, SerD, Cart111, Dos5/1, f1.
- 86 - المرزوقي (محمد)، *دماء على العلود*، الدار العربية للكتاب تونس، 1975، ص 146.
- 87 - المصدر نفسه، ص 254.
- 88 أ.و.ت، سل D، صن 97، مل 2/3، وثيقة 192. أ.و.ت، سل D، صن 97، مل 3، وثيقة غير مرقمة، د.ت. أ.و.ت، سل D، صن 111، مل 3/5، وثيقة 1.
- 89 - مقابلة مع المقدم الحالي للطريقة التيجانية بالموانسة جرجيس السيد البشير بن سالم بن مشارك: 18 سبتمبر 2006.
- 90 - المرزوقي، دماء...، نفس المصدر، ص 289.

مساهمة المغاربة والاندلسيين في الحركة العلمية ببلاد الشام على عهد الأيوبيين

(567 - 648هـ / 1171 - 1250م)

الدكتور: درويش يوسف حسن

جامعة دهوك / سكول الاداب - قسم التاريخ

الدكتور: شوكت عارف محمد الأتروشي

جامعة زاخو/ فاكولتي العلوم الانسانية - قسم التاريخ

تقديم :

على الرغم من حالة عدم الإستقرار السياسي التي شهدتها بلاد الشام على عهد الأيوبيين (567-648هـ / 1171-1250م) وذلك بسبب إستهدافها من قبل الصليبيين وحماتهم المتلاحقة والتي هددت البلاد، وتسببت بالكثير من الويلات إلا أن ذلك لم يمنع من نشاط الحركة العلمية فيها، ولم تكن بلاد الشام في وسط تلك الظروف العصيبة بمعزل عن محيطها الإسلامي، حيث بقيت أواصر الوحدة الفكرية والدينية تشدها مع الأمصار الإسلامية الأخرى، ولم تستطع عوادي الزمن أن تحول دون تطور وإزدهار المعرفة، ولعلنا لا نغالي إذا قلنا أن التفكك السياسي الذي أصاب العالم الإسلامي آنذاك بالرغم من نتائج السلبية - كان سبباً في إنطلاق وشيوع حركة علمية واسعة إنتظمت العالم الإسلامي آنذاك، ففي ذلك العصر المضطرب إنتشرت الكثير من المراكز الثقافية، ونمت تبعاً لتعدد المراكز السياسية وإختلافها، وكان من أثر ذلك قيام الكثير من الكيانات التي إستقلت عن الخلافة العباسية، ودعمت الحركة الفكرية، وزخر بلاط القادة والأمراء بالعلماء والادباء، إذ دأبت تلك الأمصار المستقلة على التنافس فيما بينها في تشجيع رجال العلم والأدب، وأجزلوا العطاء لهم بقصد جذب أكبر عدد منهم، فكان من نتيجة ذلك أن أمّ العلماء تلك الأمصار وقصدوها وكثرت الرحلة في طلب العلم فساعد ذلك على ترابط علمي متين، نشأ عنه تفاعل ثقافي بين تلك الإقطار الإسلامية على تباعدها.

والبحث محاولة لتسليط الضوء على هجرة المغاربة والاندلسيين الى بلاد الشام وانخراطهم في الحركة الفكرية هناك، وقد قسّم البحث الى محورين رئيسيين: الأول - تمّ فيه التعريف بالمغاربة والاندلسيين ودوافع هجرتهم الى بلاد الشام في العصر الأيوبي، والبحث الثاني - وفيه تمّ استعراض نشاطات المغاربة والاندلسيين وإسهاماتهم العلمية التي برزوا فيها.

المبحث الأول: التعريف بالمغاربة والاندلسيين ودوافع هجرتهم الى بلاد الشام:

على الرغم من حالة التمزق والانقسام السياسي الذي كان يعيشه العالم الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين /الثاني والثالث عشر الميلاديين، إلا أن أواصر الثقافة والوشائج الروحية بقيت تشد الأمصار الإسلامية مع بعضها البعض، ولم يكن بمقدور الصراعات والخلافات السياسية والمذهبية أن تحول دون التواصل والإزدهار الحضاري والمعرفي بينها، ولعلنا لا نغالي إذا قلنا أن التفكك السياسي آنذاك بالرغم من نتائجه السلبية – كان سبباً في حركة علمية عمّت العالم الإسلامي - ففي ذلك العصر المضطرب إنتشرت المراكز الثقافية ونمت تبعاً لتعدد المراكز السياسية واختلافها، وعلى قدر تعلق الأمر ببلاد الشام فقد برز دورها السياسي والحضاري بعد سقوط الخلافة الفاطمية في مصر سنة 567هـ/1171م، والذي لم يكن مجرد إنقلاباً عادياً وحسب، وإنما كان حدثاً خطيراً في تاريخ المسلمين، فبسقوطها أصبحت الخلافة العباسية الخلافة الوحيدة التي يدين لها المسلمون بالولاء الروحي، وقد قرب ذلك بين المشرق الإسلامي ومغربه⁽¹⁾، وأصبحت دمشق حاضرة صلاح الدين الأيوبي تمثل: "جنة المشرق، ومطلع حسنه المؤنق المشرق... وعروس المدن"⁽²⁾، رحل اليها الكثير من العناصر والطوائف من مختلف أرجاء العالم الإسلامي، وضم المجتمع الشامي بين مكوناته الكثير من المغاربة والاندلسيين، ممن إنتقلوا الى تلك البلاد بشكل كثيف وتركوا أثار بصماتهم واضحة في التركيب الاجتماعي والبناء الحضاري وخاصة فيما يتعلق بالنظم واللغة والعادات والتقاليد⁽³⁾.

ومن الجدير بالذكر أن عوامل عديدة ساهمت في نزوح المغاربة والاندلسيين عن ديارهم لعل في مقدمتها: أن الظروف السياسية على الساحة المغربية والاندلسية في تلك الفترة إتسمت بالسلبية في مجموعها، وهو ما يمكن أن نسميه بعوامل (الطرد) نتيجة الإضطرابات والتبدلات السياسية في المغرب والاندلس حتى وصلت الأمور الى درجة لا تطاق بسقوط دول الطوائف في الاندلس وقيام دولة المرابطين (485 - 54هـ/1092 - 1146م)، ومن بعدها دولة الموحدين (541 - 668هـ/1146 - 1270م)، وقد ترافق مع هذه التبدلات السياسية في الدول تبدل عقائدي الأمر الي إنعكس سلبياً على فئة ليست بالقليلة من الناس الذين شكّلوا طبقة معارضة للحكم لا سيما في عهد الموحدين الذين خالفوا أهل السنة باعتقادهم بالإمامة والمهدوية على الطريقة الشيعية واعتبروا (الإمامة) ركناً من أركان الدين، ونتيجة لذلك ظهر في المجتمع فئة من المعارضين ممن كانوا يدينون بالولاء للمرابطين، والتي كانت تمثل في جوهرها حركة فقهية مالكية، يضاف الى ذلك أن عوامل الاستقرار في الاندلس منذ سقوط الدولة الأموية كانت مهزوزة هشّة الاسس والبنيان بفعل الحروب التي كانت شبه مستمرة بين الدول والمعارضين سواء في عهد المرابطين أو الموحدين⁽⁴⁾.

كما كانت التأثيرات السلبية للعوامل الخارجية التي حصلت بفعل الهجمات الصليبية الاسبانية المستمرة باتجاه المدن الاندلسية حتى سقطت معظمها، ولم يبق بيد المسلمين في النصف الثاني من القرن 7هـ/13م سوى مدينة غرناطة وضواحيها التي كانت تحكم من قبل بني الأحمر، مما أدى الى نزوح الكثيرين عن بلادهم بعد أن غدا أمر بقائهم في وطنهم مستحيلاً نتيجة الاجراءات القاسية والمهينة التي فرضها الاسبان على المسلمين، من ذلك على سبيل المثال إجبار المسلمين على وضع اشارة على ثيابهم تميزهم عن غيرهم من السكان، وانه لا يجوز لمسلم أن يستخدم مسيحياً على

الاطلاق ومن يُخالفها الأمر تصادر أملاكه ، كما فرض عليهم التنصير الى ما هنالك من الاجراءات القاسية والمجحفة ، مما اضطر الكثير منهم الى الهجرة الجماعية الى البلاد الاسلامية الأخرى في المشرق لا سيما بلاد الشام⁽⁵⁾ .

كما أن هناك عوامل أخرى تجسّدت في بلاد الشام ، وهي عوامل إيجابية - (عوامل الجذب والإستقطاب) - ساهمت في إنسياب الكثير من العناصر والطوائف المغربية الى بلاد الشام ومصر منذ أيام الدولة الفاطمية التي اعتمدت عليهم كثيراً لا سيما في الجيش⁽⁶⁾ .

كما نزلت أعداد كبيرة منهم الى بلاد الشام في العصر الأيوبي بحثاً منهم عن حياة رغيدة وأمنة بسبب الإستقرار النسبي الذي شهدته تلك البلاد ، وشيوع الأمن في ربوعها مما أدى الى تراجع وإنحسار حدة الصراعات والمنافسات الداخلية مقارنة مع المرحلة التي سبقت مجيء الأيوبيين وانعكس ذلك إيجاباً على الأوضاع الاقتصادية والثقافية والتي أخذت بالإزدهار ، فإنتعشت الحياة في الكثير من مفاصلها ، ولم تكن الحروب الصليبية لتعيق هذا التقدم ، وجاء ذلك الى حد كبير بفضل السياسة المستنيرة التي إنتهجها الأيوبيون في تشجيع التطور الزراعي والصناعي ، وكذلك في رعايتهم للعلاقات التجارية مع المدن الإيطالية ، والحفاظ قدر الإمكان على علاقات سلمية مع دويلات الإفرنجية في بلاد الشام⁽⁷⁾ .

وقد أصبحت بلاد الشام حلقة الوصل وملتقى قوافل التجارة القادمة من المشرق الاسلامي من ناحية ، ومن آسيا الصغرى والشمال من ناحية ثانية ، ومن شبه الجزيرة العربية من ناحية ثالثة ، ثم من مصر من ناحية رابعة ، وإذا كانت الحروب الصليبية قد عرقلت أحياناً مسيرة القوافل التجارية من الشام واليه ، إلا أنها من ناحية أخرى ضاعفت النشاط التجاري وخاصة مع الغرب الأوربي عن طريق الموانئ البحرية التي سيطر عليها الصليبيون في سواحل بلاد الشام ، وكثيراً ما كان العامل التجاري يدفع المسلمين والصليبيين سواء الى عقد هدنة أو صلح ليتمكن الطرفان من إستئناف التجارة دون عائق ، وقد أشارت هذه الظاهرة دهشة الرحالة الأندلسي ابن جبير الذي إتجه من دمشق الإسلامية الى مدينة عكا الصليبية في قافلة كبيرة للتجار المسافرين بالسلع فقال : "ومن أعجب ما يحدث به نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين : مسلمين ونصارى ، وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون إعتراض عليهم ... واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق الى عكا كذلك ، وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض ، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم وهي من الأمانة على غاية ، وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلهم والإتفاق بينهم والإعتدال في جميع الأحوال وأهل الحرب مشتغلون بحربهم والناس في عافية والدنيا لمن غلب ولا تعترض الرعايا ولا التجار فالأمر لا يفارقهم في جميع الأحوال سلماً أو حرباً وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يستوف الحديث عنه ..."⁽⁸⁾ .

من ناحية أخرى فإن "العامل الديني" كان هو الآخر محركاً لتوجه الكثير من المغاربة والاندلسيين الى بلاد الشام بقصد (الجهاد) ، لكونها تمثل الجبهة الرئيسية التي سعى المسلمون الى تأمينها من الخطر الصليبي الذي يهددها ، وقد سبق للسلاطين صلاح الدين أن إستنجد بالموحدين سنة 587هـ / 1191م عندما راسل خليفته أبو يوسف يعقوب بن عبد المؤمن (ت : 595هـ / 1198م) ، ورغم أن دعوته لم تلق أذاناً صاغية على المستوى الرسمي⁽⁹⁾ ، فإن صداها على

المستوى العام الشعبي كان ملحوظاً من خلال الدور الذي اضطلع به المغاربة ومشاركتهم المسلمين في الدفاع عن الثغور الإسلامية، ويستشف من المصادر التاريخية وجود الاف المغاربة في بلاد الشام قدموا اليها للمشاركة في الجهاد ضد الصليبيين، وقد وقع العديد منهم أسرى بيد العدو كالشيخ الصالح أبو الحسن علي بن عبدالله بن الأندلسي وكان قدم من الاندلس سنة 621هـ / 1224م أسره الصليبيون ثم نجاه الله منهم، وسكن دمشق متصدراً للإقراء⁽¹⁰⁾.

ونظراً لتضحيات المغاربة وجهودهم الكبيرة في هذا المجال فقد حرص السلاطين والأمراء الأيوبيون على فك من وقع منهم في أسر العدو، كما لم يتردد بعض المسلمون من أهل اليسر والثراء من إنفاق أمواله لفك هؤلاء الأسرى المنقطعين عن ديارهم، وأصبح هؤلاء القادمون يستقبلون ويعاملون على قدم المساواة مع إخوانهم أهل الشام، وربما عوملوا بعناية واحترام في بعض الأحيان أكثر من أهل الشام أنفسهم، فعلى سبيل المثال روى الرحالة ابن جبير عن السلطان نورالدين محمود زنكي أنه كان قد نذر أثناء مرض أصابه تفريق اثني عشر ألف دينار في فداء أسرى من المغاربة، فلما شفي من مرضه أرسل في فدائهم، فسيق فيهم نذر ليسوا من المغاربة، وكانوا من حماة من جملة عمالته، فأمر بصرفهم وإخراج عوض عنهم من المغاربة، وقال: 'هؤلاء يفكهم أهلهم وجيرانهم، والمغاربة غرباء لا أهل لهم'⁽¹¹⁾.

كما كان للأثرياء وتجار المسلمين دور في فك هؤلاء الأسرى، وذكر ابن جبير إثنين من ميساير التجار بدمشق، أحدهما يعرف بنصر بن قوام، والثاني بابي الدرياقوت مولى العاطفي، كان.. قدرهما عند أمراء المسلمين والافرنجيين خطير، وقد نصبهما الله عز وجل لإفكتكك الأسرى المغربين بأموالهما وأموال ذوي الوصايا، لأنهما المقصودان بها، لما قد اشتهر من أمانتهما وثقتهما وبذلتهما أموالهما في هذا السبيل، فلا يكاد مغربي يخلص من الأسر إلا على أيديهما⁽¹²⁾. ومن الدوافع الأخرى التي ساهمت في توافد المغاربة هو الرحلة في طلب العلم ورغبتهم في لقاء كبار علماء المشرق، وكانت الشام من المحطات الرئيسية التي توافد عليها هؤلاء بعد أن وجدوا في حواضرها البيئة الصالحة للإشتغال بالعلم، لا سيما العلوم الدينية التي حظيت بدعم السلطة الأيوبية، وشيّدت من أجلها العديد من المراكز العلمية من مساجد ومدارس ودور حديث وما إلى ذلك⁽¹³⁾.

ويبدو أن إحساس المسلمين بالخطر الصليبي قد زاد من إهتمامهم بتلك العلوم لدورها في شحذ الهمم والطاقات للصمود بوجه العدو⁽¹⁴⁾، ولا شك أن كثرة المدارس تدل على الإزدهار العلمي، فقد بلغت المدارس في دمشق وحدها في هذا العصر ما لا يقل عن (مائة) مدرسة منها (ثلاثون) مدرسة للمذهب الحنفي، ومثلها للشافعية و(ثمانية) للحنابلة و(إثنان) للمالكية و(ثمانية) للحديث و(أربع) للطب⁽¹⁵⁾.

ويذكر أن مدارس ذلك العصر - والمساجد أيضاً - كانت مفتوحة أمام الراغبين في الاستفادة، يأتون إليها ليستمعوا إلى ما يلقي في حلقاتها، وعلى طالب العلم أن يجلس في الحلقة التي يروق له موضوعها بلا شروط ولا قيود، فعلى سبيل المثال كان في الجامع الأموي الكبير بدمشق حلقات لتدريس الطلبة، وكان للمالكية زاوية في الجانب الغربي يجتمع فيها طلبة المغاربة ولهم أجراء معلوم، وكان يتولى إدارة أمورها فقيه مالكي مغربي في أغلب الأحيان⁽¹⁶⁾، وسبق للسلطان نورالدين محمود أن رصد لها أوقافاً كثيرة منها: طاحونتان وسبعة بساتين، وحمام ودكانان، كان هذا الوقف يغل في السنة نحو خمسمائة دينار⁽¹⁷⁾.

وقد شهد تدفق الوافدين الى بلاد الشام تصاعداً مطرداً في القرن 7 هـ / 12 م، ولا شك أن ذلك يعود الى جملة عوامل في مقدمتها : الأهمية السياسية والفكرية التي كانت تشكلها تلك البلاد، فضلاً عن الرعاية التي كان يؤتيها الأيوبيون للوافدين لا سيما لطلبة العلم ورواد الحج منهم خصوصاً، وذلك بتوفير كافة مستلزمات الراحة لهم كالمساكن والخانات التي يأوون إليها، والحمامات التي يستحمون فيها متى احتاجوا الى ذلك⁽¹⁸⁾، وكان في دمشق وحدها ما يقرب من (مائة حمام)⁽¹⁹⁾، كما نظم لهم السلطان صلاح الدين مارستاناً لعلاج من مرض منهم، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم، ورّتب كذلك لأبناء السبيل من المغاربة الطعام يومياً بتعيينه خبزتين لكل إنسان في اليوم مهما بلغ عددهم⁽²⁰⁾. فضلاً عن إتخاذه لعدد من الإجراءات الأخرى، كإلغائه المكوس والضرائب التي كانت تُجبي من الحجيج منذ أيام الفاطميين، والتي كانت قد أثقلت كواهل الكثير منهم، وكان من يمتنع عن دفعها يعرض نفسه لأشد العقوبات⁽²¹⁾.

ونظراً لتلك الرعاية المتميزة لهم دعى ابن جبير أبناء جلدته من المغاربة للرحلة الى تلك البلاد بالقول :
فمن شاء الفلاح من مغربنا فليرحل الى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم فيجد الأمور المعينات كثيرة : فأولها فراغ البال من أمر المعيشة – وهو أكبر الأعوان وأهمها – فإذا كانت المهمة فقد وجد السبيل الى الإجتهد ولا عذر للمقصر إلا من يدين بالعجز والتسويق فذلك من لا يتوجه هذا الخطاب إليه ، وإنما المخاطب كل ذي همة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من الطلب العلمي ، فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك فادخل أيها المجتهد بسلام وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والاولاد ويقرع سن الندم على زمن التضييع⁽²²⁾.

يُستشف مما سبق ان المغاربة كانوا يتوقون الى المشرق من أجل تلقي العلوم والآداب فيها لعلو مكانتها العلمية بالنسبة الى بلادهم وقد أكد ابن الأزرقي (ت: 896هـ/1490م) هذه الحقيقة عندما قارن بين أهل المشرق والمغرب فأشار صراحة الى أن أهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة العلم من أهل المغرب، ففيها الأمصار العظيمة حسب رايه التي هي بمثابة معادن العلم والتي لم ينقطع فيها سند التعليم مثل بغداد، والبصرة، والكوفة، ودمشق، والقاهرة، وإليها كانت الرحلة منذ عهود مبكرة⁽²³⁾.

كما ويتضح من نص ابن جبير الأنف الذكر : أن مشاق الطريق وتكاليفها المادية كانت تحول في كثير من الأحيان في رحلة المغاربة منفردين لا سيما لطلبة العلم الذين كان أكثرهم يعانون من ضنك العيش⁽²⁴⁾، لذلك كانوا ينتهزون فرصاً سانحة للخروج في قوافل جماعية كتلك التي تخرج في مواسم الحج السنوية للتقليل من تكاليف الرحلة والتغلب على مشاق الطريق وأعباءها الأخرى، وما قد يواجهونه من مخاطر، ورغم ان بلاد الشام لم تكن على طريق الحج، فإن مواكب الحج السنوية كان لها أبلغ الأثر في إثراء الحياة العلمية، وفي تلاقح الأفكار، وتمتين الصلات بين بلاد الشام والبلاد الإسلامية عموماً، وبينها وبين أقاليم المغرب الإسلامي خصوصاً، وكان الحج هو القاسم المشترك لغالبية الوافدين⁽²⁵⁾، وكان بعضهم يجاور ويقيم بمكة حيناً⁽²⁶⁾، ومنهم من كان يتابع رحلته بعد أداء فريضة الحج الى البلاد التي يريدّها، وقد إكتظت بلاد الشام بالوافدين من المغاربة والاندلسيين، وشكلت حواضرها كدمشق وحلب، وحماة مراكز هامة للتبادل الفكري والحضاري، وانقطع الكثير من الوافدين أثناء فترة تواجده الى تلقي العلوم والآداب التي كانت مزدهرة فيها، والى لقاء شيوخها البارزين، كما أن البعض منهم كان تحدوه الرغبة في زيارة الأماكن المقدسة ببلاد الشام كبيت المقدس⁽²⁷⁾.

وكانوا في غالبيتهم على المذهب المالكي، لذلك أصبح مصطلحي "المغربي" و"المالكي" مترادفين في المصادر، وربما يُشار إلى أحدهما عوضاً عن الآخر⁽²⁸⁾.

كما إستهوت بلاد الشام بطبيعتها وخيراتهما، وتجارتها الزاهرة عدداً غير يسير من المغاربة والأندلسيين للإقامة فيها، وجمع بعضهم بين الرغبة في الإستحصال المعرفي والتقاء كبار الشيوخ، وأداء فريضة الحج، فضلاً عن القيام بالأعمال التجارية⁽²⁹⁾، وتولي بعض المناصب⁽³⁰⁾.

ويُلاحظ من خلال إستقراء النصوص التاريخية أن إندماج المغاربة في المجتمع الشامي كان سريعاً، نظراً لما تمتع به هؤلاء الوافدون من السمعة الطيبة، والورع، والأمانة، التي ذاع صيتهم بها⁽³¹⁾، لذلك كانوا محل ترحيب الشاميين، الذين عرفوا بسماحتهم وكرمهم مع الغرباء⁽³²⁾، وكانت المرافق الخدمية المرصودة لخدمتهم بدمشق وحدها "أكثر من أن يأخذها الإحصاء"⁽³³⁾ حسب تعبير ابن جبير، ومن ثمّ فلا عجب أن أثر الكثير منهم البقاء على الرجوع إلى بلاده⁽³⁴⁾.

وبلغ من إهتمام الشاميين بالمغاربة أن وقفوا على موتاهم مقابر خاصة بهم كمقبرة خليل بن زويزان، التي تقع بدمشق إلى الجنوب من مقابر الصوفية، وكان أول الذين دفنوا بها الشيخ الفقيه أبو الحسن علي المراكشي⁽³⁵⁾، والمقبرة التي تُعرف بمقبرة "فقراء المغاربة"، وتقع في سفح جبل قاسيون⁽³⁶⁾، ومن ناحية أخرى وجد من أهل دمشق من وقف جزءاً من ثروته على فقهاء المغاربة بعد وفاته، مثل الشيخ أحمد بن عبدالله الذهبي (ت: 663هـ / 1265م) الذي يقول عنه رفيقه أبو شامة المقدسي: "... ثم بقي عندنا مدة عمره وخلف كتباً كثيرة، وثروة، ووقف داره على فقهاء المالكية"، وأوصى لهم بثلاث ماله، وحرصته أن يقف شيئاً من أصول كتبه فلم يفعل⁽³⁷⁾، هذا بالإضافة إلى الأراضي والبساتين التي خُصّصت للصرف عليهم منذ أيام حكم نورالدين محمود زنكي⁽³⁸⁾، وكذلك الأمر في بيت المقدس إذ وقفت لهم زاوية في المسجد الأقصى تشبه تلك التي خُصّصت لهم في الجامع الأموي بدمشق، وكانت لهم أيضاً خانقاه عرفت بـ "الخانقاه الفخرية"⁽³⁹⁾، والمدرسة الأفضلية التي كانت بحارة المغاربة بالقدس ووقفها الملك الأفضل علي بن السلطان صلاح الدين على فقهاء المغاربة⁽⁴⁰⁾، بعد أن توافد على المدينة أعداد كبيرة منهم لأجل العلم والإقامة⁽⁴¹⁾، وقس على ذلك بقية المدن الشامية، ومن ثمّ فلا عجب أن دعا الرحالة ابن جبير أبناء جلدته من المغاربة والأندلسيين للرحلة إلى المشرق الاسلامي وتحديدًا بلاد الشام ومصر التي وجدت فيها جاليات كبيرة بلغ تعدادها الآف من مختلف الفئات، بعد أن وجدوا في حواضر الشام الأرض الصالحة التي يُمكن أن يُحققوا فيها أمنياتهم، وتقيهم شر العوز والحاجة، وتُخفّف عنهم مرارة الشوق والبعد عن الوطن الأم⁽⁴²⁾.

المبحث الثاني: إسهام المغاربة في الحركة العلمية ببلاد الشام :

أولاً – في ميدان العلوم النظرية :

رغم حالة القلق وعدم الإستقرار التي أصابت بلاد الشام والمنطقة طيلة العصر الأيوبي وإنشغال الأيوبيين بحروب الجهاد المقدسة فإنه يمكن القول أن ذلك العصر كان عصر إحياء للفكر والثقافة الإسلامية كما كان عصر إحياء سياسي،

ومن المعروف أن المسلمين قد بداءوا حياتهم الثقافية من منطلق العلوم الدينية التي تشمل علوم القرآن الكريم ، وعلوم الحديث ، والفقه والتشريع ، وذلك لأهميتها في تنظيم حياة المجتمع الإسلامي ، حيث ظهرت الحاجة إليها لأغراض عملية تتعلق بالتشريع لذلك سميت بالعلوم الشرعية⁽⁴³⁾ ، هذا فضلاً أن العلوم الدينية قد اكتسبت أهمية ملحوظة في العصر الأيوبي ، وحظي علماءها بالرعاية والدعم من قبل الأيوبيين الذين شيدوا العديد من المراكز العلمية من مساجد ومدارس ودور حديث وما إلى ذلك ، ويبدو أن إحساس المسلمين بالخطر الصليبي الداهم زاد من إهتمامهم بمثل تلك العلوم لدورها في حشد طاقات الأمة الجهادية .

لقد كان للمغاربة مساهماتهم في في الكثير من الميادين العلمية إلا أن نشاطهم في ميدان العلوم النظرية كان أوسع إنتشاراً وأعمق أثراً لما لاقتته هذه العلوم من رعاية وإهتمام بالقياس الى العلوم التطبيقية ، فقد إشتغل العدد الأكبر من المغاربة الذين حلوا ببلاد الشام في هذا المجال ، لاسيما في ميدان العلوم الدينية والتي تشمل علوم القرآن الكريم كالتقراءات والتفسير وعلوم الحديث النبوي الشريف ، والفقه ، كما برز الكثير منهم في علوم اللغة العربية كالنحو والأدب ، بالإضافة الى العلوم الإجتماعية : كالجغرافية والتاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع الى غير ذلك .

وفي مقدمة العلوم الدينية التي ساهم فيها المغاربة نذكر : (علم القراءات) حيث برز عدد كبير من أئمة القراء المغاربة الذين كانت لهم إسهاماتهم في هذا المجال تدريجياً وتالياً وانتشرت مؤلفات الكثير منهم في أرجاء العالم الإسلامي وذاع صيتها وأصبحت الأساس الذي يرجع إليه طلاب القراءات ، ونقلوا الى بلاد الشام عدداً من المؤلفات في القراءات لم تكن معروفة فيها من قبل ككتاب : "التيسير في القراءات السبع" للمقريء الأندلسي الشهير أبي عمرو عثمان الداني (ت : 444هـ / 1052م) والذي كان مدار نقاش ودراسة وشرح وتعليق العلماء في ذلك العصر⁽⁴⁴⁾ .

ومن كبار القراء المغاربة الذين قدموا الى بلاد الشام واستطاعوا أن يتركوا فيها أثراً طيباً : المقريء أبو القاسم بن فيرة بن خلف بن أحمد أبو القاسم محمد الشاطبي الأندلسي (ت : 590هـ / 1193م) - وكان إمام القراء في عصره وله الباع الطويل في فن القراءات والنحو ، وإليه إنتهت رئاسة الإقراء في بيت المقدس وعظم شأنه وبعد صيته وقصده طلبه العلم من مختلف الأقطار . من مؤلفاته كتاب "حرز الأمانى ووجه التهاني في القراءات السبع" ، وهي إختصار لكتاب "التيسير في القراءات السبع" لأبي عمرو الداني ، وكانت تعرف بـ "الشاطبية" ، وهي قصيدة مشهورة بين القراء عدد أبياتها ثلاثة وسبعون ومئة ألف بيت شعري ، وقد أبدع فيها حتى أصبحت القصيدة عمدة القراءات في ذلك العصر وعني الناس بحفظها وتدريسها⁽⁴⁵⁾ ، كما ألف الشاطبي كتاباً أخرى مهمة كانت مدار نقاش ودراسة وشرح وتعليق العلماء منها : قصيدة دالية من خمسمائة بيت لخص فيها مضمون كتاب "التمهيد" لابن عبد البر في القراءات ، وقصيدة أخرى بعنوان "عقيلة أتراب القصائد في أسنى المقاصد في رسم المصحف الشريف" وتعرف بالرائية ، وله أيضاً كتاب : "تتمة الحرز من قراء أئمة الكنز" في رواية القراءات السبع⁽⁴⁶⁾ .

واشتهر الشيخ الوجيه إبراهيم بن يوسف المغربي ، المعروف بابن البوني (ت : 612هـ / 1215م) كان أحد مشايخ القراء المعتبرين بجامع دمشق ، وكان يؤم بمقصورة الحنفية الغربية ، وكان فاضلاً ساعياً في حوائج الناس ، توفي بدمشق ، وكان دفنه يوماً مشهوداً⁽⁴⁷⁾ .

ومن مشاهير القراء المغاربة أيضاً نذكر: الشيخ زين الدين أبو الحسين يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي المغربي (ت: 638هـ / 1240م) وكان إماماً في النحو، شاعراً محسناً، نزل دمشق، وله مؤلفات عديدة في النحو واللغة، كما نظم "قصيدة في القراءات السبع"⁽⁴⁸⁾، وتروي المصادر عن الشيخ أبو اسحق إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن الأموي الأشبيلي (ت: 654هـ / 1256م)، أنه قرأ القراءات السبع بغزة سنة 595هـ / 1295م على غير واحد من الشيوخ، ثم تصدر للإقراء بالموصل والشام ومصر⁽⁴⁹⁾، أما الشيخ محمد بن حسن بن يوسف الفاسي (ت: 656هـ / 1258م) فقد نزل بمدينة حلب، ووصف كونه واسع العلم، كثير المحفوظ، بصيراً بعلم القراءات وعللها مشهورها وشاذها خبيراً باللغة انتهت إليه رئاسة الإقراء بحلب⁽⁵⁰⁾، ومن المشاهير أيضاً نذكر: زين الدين أبو محمد عبد السلام بن علي بن عمر الزواوي (ت: 681هـ / 1282م) الذي رحل إلى دمشق سنة 617هـ / 1220م فقرأ القراءات على شيخها أبي الحسن السخاوي وياشر مشيخة الإقراء الكبرى بالترتبة الصالحة وانتهت إليه رئاسة الإقراء بالشام وولي قضاء المالكية بدمشق⁽⁵¹⁾.

كما حظي (علم التفسير) باهتمام عدد من العلماء المغاربة نذكر منهم: أبو الحسن علي بن محمد بن موسى الانصاري الأندلسي المعروف بابن الحصار (611هـ / 1214م) قدم مصر وبلاد الشام، وصنف كتاباً في ناسخ القرآن ومنسوخه⁽⁵²⁾، والشيخ محمد بن يحيى بن خليل الأشبيلي (ت: 640هـ / 1242م)، رحل مع أخيه المشرق وكان قد اعتنى بالتفسير وغلب عليه ذلك، من مصنفاته: كتاب: "غوامض التاويل"⁽⁵³⁾، وصنف الشيخ علي بن أحمد بن الحسن التجيبي الحرالي الأندلسي (ت: 637هـ / 1239م) تفسيراً على طريقة الفلاسفة والمتصوفة، وكان ذو فصاحة لسان وبيان، أقام بمدينة حماة، وبها كانت وفاته⁽⁵⁴⁾، والشيخ محمد بن أحمد الأندلسي المعروف بالشريشي (ت: 685هـ / 1286م)، برع في النحو والتفسير وطاف في الكثير من البلاد وسمع الحديث ببغداد ودمشق وحلب واربيل، وجمع ودرس وأفتى، وكان من المتبحرين في مذهب مالك، وعندما كان بدمشق طلب لقضاها فامتنع⁽⁵⁵⁾.

ومن العلوم الدينية التي ساهم فيها المغاربة نذكر: (علوم الحديث) : وهو العلم الذي أخذ حيزاً كبيراً في مجال التاهيل الفكري خلال العصر الأيوبي، وكان من مظاهر الإهتمام به تدريسه الأطفال في الكتاتيب والمساجد⁽⁵⁶⁾، ورغم أن الإهتمام بعلم الحديث يعود إلى فترة سابقة للعصر الأيوبي، إلا أن الشيء الجديد الذي طرأ على الشاميين إنحصار في أنهم لم يعرفوا قبل هذه الفترة حفاظاً كباراً ومحدثين مؤهلين من أصل مغربي عملوا في هذا الشأن، فقد كان المغاربة قبل القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي يأخذون عن المحدثين الشاميين، ثم يعودون بعد ذلك إلى بلدانهم، أما بعد هذه الفترة فإن الصورة تغيرت بشكل كبير، وأصبح المغاربة يرتادون بلاد الشام بقصد العمل الذي كان يعني للبعض الدراسة والحفظ والمتابعة، وقد استطاع عدد منهم أن يصلوا إلى أعلى مستويات العلم والأهلية، وغدوا في أحيان متعددة معلمين بارعين في هذا العلم، وظهرت مكانتهم العلمية بوضوح في المدارس الشامية التي ترأسوها أو درسوا بها حتى غدوا مقصداً للمهتمين من شتى الأقطار الإسلامية نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: المحدث العلامة عيسى بن عبدالعزيز بن يلبخت بن عيسى المراكشي المغربي (ت: 607هـ / 1210م) وكان عالماً بكتاب الله قراءة وتفسيراً، وبحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يقرأ عليه الصحيحان والموطأ فيصححون النسخ من حفظه⁽⁵⁷⁾، والمحدث أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن علي بن سليمان المرسى (ت: 610هـ / 1213م)، محدث تلمسان، رحل إلى المشرق وحج وطال الغيبة

فأكثر عن العلامة المحدث أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي (ت: 576هـ/1180) ودعا له وقال له : تكون محدث المغرب إن شاء الله ثم استوطن تلمسان ، وخرج وصنف وعمل معجم لشيوخته في مجلد ، ورحل إليه المحدثون وكان حافظاً للحديث ضابطاً له ، ألف "أربعين حديثاً في المواعظ" و"أربعين حديثاً في الفقر وفضله" و"أربعين في الحب لله" و"أربعين في الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتصانيف آخر⁽⁵⁸⁾ ، والمحدث محي الدين أبو بكر محمد بن إبراهيم بن سراقبة الأندلسي الشاطبي (ت: 662هـ/1263م) ، دخل حلب ودمشق والقاهرة ، تولى دار الحديث الكاملية بالقاهرة ، كما ولي مشيخة دار الحديث البهائية بحلب⁽⁵⁹⁾ .

وبرز منهم محدثين كبار حاز بعضهم على لقب "الحافظ" مثل : الحافظ أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن أحمد بن دحية الكلبي (ت: 633هـ/1235م) ، وكان من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء متقناً لعلم الحديث وما يتعلق به اشتغل ببلاد المغرب ثم رحل إلى الشام ثم منها إلى العراق واجتاز أربل سنة 604هـ/1207م فوجد ملكها المعظم مظفر الدين كوكبري يعتني بالمولد النبوي فعمل له كتاب : "السراج المنير" وقراءه عليه بنفسه فأجازه ألف دينار⁽⁶⁰⁾ ، كما كان الملك الكامل مقبلاً عليه ، وهو أول من باشر مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة سنة 621هـ/1224م⁽⁶¹⁾ ، والحافظ أبو عبدالله محمد بن يوسف البرزالي الأندلسي الأشبيلي (ت: 636هـ/1238م) رحل إلى المشرق في طلب الحديث ، أقام بدمشق سنين كثيرة بمسجد فلوس وغيره ثم سافر إلى حلب فلما رجع إلى حماة توفي بها سنة 637هـ/1239م⁽⁶²⁾ ، والحافظ إبراهيم بن عيس المرادي الأندلسي (ت: 668هـ/1269م) وكان بارعاً في علم الحديث وعلومه وتحقيق ألفاظه لا سيما الصحيحان⁽⁶³⁾ ، والحافظ أحمد بن فرج بن أحمد الأشبيلي (ت: 699هـ/1299م) ، نزيل دمشق ، وكانت له حلقة إقراء في جامع دمشق يقرأ فيه فنون الحديث⁽⁶⁴⁾ .

وفي مجال الفقه برز عدد من المغاربة نذكر منهم : الفقيه أبو محمد جامع بن عبدالله الأندلسي (ت: 602هـ/1205م) ، تولى القضاء بدمشق مدة ، وبها كانت وفاته⁽⁶⁵⁾ ، والفقيه غالب بن أبي محمد عبد الخالق بن اسد الطرابلسي (ت: 608هـ/1211م) ، وكان يعمل بزازاً بدمشق ، صنف ودرس ووعظ ، وأم بالناس في المقصورة الشرقية⁽⁶⁶⁾ ، والشيخ برهان الدين علي علوش بن عبدالله المغربي (ت: 617هـ/1220م) وكان عالماً بالأصول والفروع ، وكان إمام المالكية بدمشق⁽⁶⁷⁾ ، والفقيه أبو عبدالله محمد بن إبراهيم السبتي (ت: 627هـ/1229م) ، اشتغل بعلم الأصول ، وكان عارفاً به ، وسكن دمشق إلى أن مات ، وكتب بخطه الكثير يبلغ مئة مجلد ، خارجاً عن الأجزاء ، وولي مسجد الجوزة بدمشق⁽⁶⁸⁾ ، والشيخ يحيى بن عبد الرحمن بن عبد المنعم المغربي (ت: 668هـ/1269م) ، وكان فقيهاً فاضلاً زاهداً عابداً صنف كتاب "الروضة الأنيقة" وكتاباً في الخلافات بين الشافعي وأبي حنيفة توفي بغرناطة⁽⁶⁹⁾ ، والعالم المجتهد أبو محمد بن أبي البركات الصديفي الطرابلسي (ت: 684هـ/1285م) ، أحد المشايخ الكبار ، رحل إلى الحج ولقي الأفاضل عز الدين بن عبدالسلام وغيره ، وكان له علم بالفقه وأصول الفقه والدين وكان يجلس للإقراء فقرأ عليه الفنون الثلاثة : الفقه وأصوله ، وأصول الدين ، وكان مقدماً للفتية في أفريقية – تونس –⁽⁷⁰⁾ .

أما في مجال (علوم اللغة العربية) فقد كان للمغاربة دورهم البارز، وبخاصة في علم النحو والصرف، الذي كانوا فيه أقطاباً لا يقلون شأنًا عن أمثالهم من علماء الحديث، الذين أتينا على ذكرهم، وظهر منهم نحويون عظام كان لهم بالغ الأثر في خدمة علم النحو والمهتمين به، واستطاع كثيرون منهم أن يتصدوا بجدارة لمهمة التدريس في هذا المضمار في العديد من مدارس الشام ومساجدها، مما أضفى على بعضهم الشهرة، وذلك من خلال المؤلفات التي خلفوها، نذكر منهم على سبيل المثال: الشيخ أبو موسى عيسى بن عبدالعزيز بن عيسى المراكشي (ت: 607هـ/1210م)، وكان إماماً في علم النحو كثير الاطلاع على دقائقه وغريبه وشائكه، دخل مصر وقرا على العلامة النحوي أبي محمد عبدالله بن بري (ت: 582هـ/1186م) ونقل عنه شيئاً في مقدمته التي أسماها "قانون الجزولي" وهي في غاية الإيجاز مع الاشتغال على شيء كثير من النحو لم يسبق إلى مثلها وانتفع به خلق كثير في النحو، وكان إذا سُئل عن هذه المقدمة: "أمن تصنيفك هي؟ قال: لا إنها نتاج بحوثي على ابن بري كان يحفظها"⁽⁷¹⁾، وعلي بن محمد بن علي نظام الدين أبو الحسن بن خروف الاندلسي النحوي (ت: 609هـ/1212م)، حضر من اشبيلية وكان بارعاً في النحو، أقرأ النحو بعدة بلاد وأقام بحلب من مصنفاته: "شرح سيبويه" و"شرح الجمل" و"كتاب في الفرائض" وتوفي بـاشبيلية⁽⁷²⁾.

ومن مشاهير النحاة أيضاً: زين الدين يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي المغربي (ت: 628هـ/1230م)، ووصف كونه أحد أئمة عصره في النحو واللغة، كما كان شاعراً محسناً، لقّبهُ الذهبي بـ"شيخ النحويين"⁽⁷³⁾ سكن دمشق زمناً طويلاً، واشتغل عليه خلق كثير وانتفعوا به، ذكر السيوطي عدداً من مؤلفاته منها: "العقود والقوانين في النحو" و"كتاب على حواشي على أصول ابن السراج في النحو" و"كتاب شرح الجمل في النحو" و"شرح أبيات سيبويه نظم" و"كتاب ديوان خطب" و"قصيدة في القراءات السبع" و"ونظم كتاب الصحاح للجوهري" في اللغة ولم يكمل، ونظم كتاب "الجمهرة لابن دريد في اللغة" ونظم "كتاباً في العروض" وله كتاب "المثلث"⁽⁷⁴⁾، وكان قد حظي برعاية الملك الكامل محمد بن الملك العادل وانتقل بناءً على دعوته إلى مصر الذي قرر له التّصدر بجامع عمرو بن العاص لتدريس العربية وخصّص له راتباً مجزياً على ذلك، وكان يعتمد عليه في المسائل النحوية، وعند وفاته حضر مراسيم تشييعه والصلاة عليه⁽⁷⁵⁾، والنحوي محمد بن عبدالله بن أبي الفضل السلمي الاندلسي (ت: 655هـ/1257م) كان من الأئمة الفضلاء في الحديث، وعلوم القرآن والفقه والخلاف والأصليين والنحو واللغة، وترك مصنفات في النحو منها: "الضوابط الكلية في علم العربية" توفي بين العريش وغزة، وهو متوجه إلى دمشق سنة 655هـ/1255م⁽⁷⁶⁾، وأبو بكر بن يحيى بن عبدالله المالقي النحوي (ت: 657هـ/1257م)، قرأ النحو، وكان بارعاً فيه صنّف (شرح سيبويه) وشرح (إيضاح الفارسي) و(شرح لمع ابن جني)⁽⁷⁷⁾.

ومن المشاهير أيضاً: محمد بن مالك النحوي (ت: 672هـ/1273م) وكان من كبار نحاة الاندلس الذين رحلوا إلى الشام، وكان همه أن ينبغ في اللغة والنحو وكان له ما أراد وكاد ينازع سيبويه شهرته حيث صار يضرب به المثل في معرفته بدقائق النحو وغوامض الصرف وغريب اللغة مع التحري فيما ينقله، ولقّب بشيخ النحاة إنطلاقاً من سمعة علمه وإطلاعه وخبرته الواسعة في هذا العلم⁽⁷⁸⁾.

ولا تنحصر أهميته بصفته شخصية نحوية مرموقة ، بقدر ماتنحصر وتتجسد في أنه كان صاحب مدرسة كتب لها الخلود لزمن طويل بعد رحيله الى درجة وصلت الى أن جميع النحويين الذين خلّفوه من المغاربة والشاميين لم يتمكنوا من التأليف والانتاج بالشكل الذي يجاريه . وتوقف الأمر بأن كثير من مشاهير النحويين على شرح مؤلفاته ، وهذا إن دل على شيء ، فإنما يدل على المستوى الرفيع الذي بلغه ابن مالك في حقل النحو، وربما لم تعرف بلاد الشام نحويّاً طوال العصور الاسلامية كابن مالك النحوي ، من ناحية سعة علمه واطلاعه أو من ناحية مؤلفاته الكثيرة التي تبحث في مجاهيل علم النحو وقواعده والتي بلغت أكثر من عشرين مؤلفاً نذكر منها : "الكافية الشافية" وهي منظومة شعرية في النحو والصرف ، والوافية" وهي شرح للكافية ، كما وضع مختصراً للكافية دعاه "الخلاصة الالفية" وتُعرف أيضاً بـ "الفية ابن مالك" وتضم أبواباً وفصولاً كثيرة أولها باب الكلام وما يتألف منه وأخرها باب الإدغام. ومن أثاره أيضاً : "المقدمة الأسدية" ألفها لابنه تقي الدين محمد المعروف بالأسد وله أيضاً : "الفوائد" و"اعراب مشكل البخاري" و"تسهيل الفوائد" و"تكيل المقاصد" و"عدة الالفاظ" وعمدة الحافظ" و"المنهاج" وهو شرح المقدمة الجزولية و"الموجز فيما يهمل وما لا يهمل" وغيرها من المصنفات (79).

وألف في علم الصرف مؤلفات منها : "الخلاصة" أو "الالفية" وهي إرجوزة في ألف بيت إختصر فيها الكافية وقد ظفرت بعناية العلماء فوضعوا عليها الشروح أو الحواشي وأصبحت أساساً لدراسة علم الصرف واشتهرت باسم "الفية ابن مالك" ، وله أيضاً مختصر في التصريف دعاه "ضروري التصريف" قام بشرحه في كتاب آخر سمّاه "إيجاز التعريف في علم التصريف" (80).

ومن المشاهير أيضاً : محمد بن عمر بن عبدالله المراكشي الأربلي المولد ، الأديب ، كان فقيهاً فاضلاً وأديباً شاعراً له النظم والمعرفة بالنحو واللغة ودرّس بدمشق ، ولد بباربل 602هـ / 1205م ومات بدمشق سنة 676هـ / 1277م (81).

كما ساهم بعض المغاربة في مجال التدوين التاريخي وأدب الرحلات نذكر منهم : الرحالة الأندلسي أبو الحسن محمد بن جبير الكناني (ت 614هـ / 1217م) ، رحل الى المشرق أكثر من مرة كان آخرها سنة 601هـ / 1204م وأمضى بقية حياته متنقلاً بين الحجاز ومدن الشام ومصر الى أن وافته المنية بالإسكندرية (82) ، وقد دون ابن جبير رحلته الأولى في كتاب حمل عنوان "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" ذكر فيه كل ما مرّ به من مدن ، وما شاهده من عجائب البلدان والأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، كما عني عناية خاصة بوصف النواحي الدينية والمساجد والمشاهد ، وذكر الصعوبات التي واجهته في أسفاره ، ولم يغفل الحديث عن الحروب الصليبية ، وكان شديد الإعجاب بالسلطان صلاح الدين كثير المدح له (83).

ولاشك أن لرحلة ابن جبير مكانة مرموقة بين المصادر الجغرافية والتاريخية لذلك العصر ، فقد تمكن المؤلف بقوة الملاحظة التي يتمتع بها ، وبأسلوبه الأدبي الرفيع الذي يمتاز بالرصانة والحيوية وسهولة التعبير من تصوير حياة عصره في الكثير من النواحي ، وهي كغيرها من المؤلفات التي مزجت في مادتها بين الجغرافية والتاريخ والأدب .

ثانياً : في ميدان العلوم التطبيقية :

ساهم المغاربة في بعض العلوم التطبيقية كالطب من خلال قيامهم بتدريس هذا العلم، وكذلك التصنيف فيه، فضلاً عن مساهماتهم وممارستهم العملية له، وكان عملهم في الغالب يقوم على أساس التجربة والمشاهدة والإبتعاد عن أعمال الكهانة والتنجيم والسحر وغيرها من الاعتقادات الخاطئة التي شابت صناعة الطب لفترة طويلة خلت⁽⁸⁴⁾، وكان تدريس الطب يجري على منهجين: منهج نظري يشمل على دراسة الأمراض وكيفية علاجها، ومنهج عملي تطبيقي يشمل التدريب والتمرين على كيفية المعالجة حيث يجتمع بموجبه طلاب الطب حول رئيس الأطباء ليشاهدوا طرق الفحص ووصف العلاج⁽⁸⁵⁾، ويمكن القول ان الاهتمام بالطب في ذلك العصر كان له ما يبرره لكثرة عمليات الجهاد والحاجة الملحة للأطباء لإسعاف المصابين في عمليات القتال، كما أن مهنة الطب أيام الجهاد تعد جهادا في سبيل الله لا تقل شرف ممارسته عن القتال في ساحة المعركة لذلك كثر المشتغلون به. وحظي أصحابها بمكانة اجتماعية مرموقة لدى العامة والخاصة وكثيرا ما حرص ممارسوها على تعليمها لأبنائهم⁽⁸⁶⁾.

من جهة أخرى فإن رعاية الأيوبيين للطب دفعت بالكثير من المغاربة للتوجه إلى بلاد الشام ومصر للاستقرار فيها بشكل نهائي كما فعل أبو عمران موسى بن ميمون القرطبي الأندلسي (ت 605هـ/1208) وهو من عائلة يهودية، ولد بقرطبة وبها نشأ وقرأ الكثير من العلوم الفلسفية والرياضية والطب، ثم خرج مع أهله إلى المشرق ونزل بالفسطاط بين يهودها، ودخل في خدمة صلاح الدين ومن بعده ابنه الأفضل علي، وترك مؤلفات عديدة منها: "المختصرات" وهي تلخيص الكتب الستة عشر لجالينوس وله "شرح أبوقراط" و"فصول موسى في الطب" و"الرسالة الأفضلية"، وكتاب السموم والتحرز من الأدوية" ومقالة في البواسير وعلاجها"⁽⁸⁷⁾.

كما برز آخرون في مجال الصيدلة وحققوا إنجازات مهمة في ميدان استخراج العقاقير من مصادرها، وكذلك بيان كيفية تركيبها ومعالجتها بطرق مختلفة منها الطرق الكيماوية لغرض تحويلها من حال إلى آخر بما يحدث فيها من تفاعلات وفق نسب ثابتة⁽⁸⁸⁾.

ولما كان علم الصيدلة جزءا لا يتجزأ من علم الطب فقد واكب تقدمه النهضة الطبية التي شهدتها مصر في العصر الأيوبي، وكان للأطباء الدور البارز في صناعة الأدوية وتحضيرها، وكثيرا ما يتم تركيبها في أماكن خاصة معدة لهذا الغرض، ومن أهم تلك الأماكن البيمارستانات التي كانت تضم صيدليات ملحقة بها⁽⁸⁹⁾.

ومن اشتهروا بتحضير العقاقير: الطبيب أبو جعفر عمر بن البذوخ المغربي (ت 575هـ/1197م) ووصف كونه خبيراً بمعرفة الأدوية وتركيبها، وله حسن نظر في الاطلاع على الأمراض ومداواتها، وله دكان عطر يجلس فيه ويعالج من يأتي إليه ويستوصف منه، كما يقوم بتحضير أدوية مركبة يصفها "من سائر المعاجين والأقراص وغير ذلك يبيع وينتفع الناس منه"⁽⁹⁰⁾.

واشتهر الطبيب أحمد بن محمد الأندلسي (ت: 637هـ/1239م) بلقب "النباتي العشاب"⁽⁹¹⁾، لمعرفته الواسعة بالنباتات، وتذكر المصادر أنه رحل إلى بلاد كثيرة في المشرق والمغرب وكان دافعه في الرحلة هو دراسة النباتات في بيئاتها الطبيعية، وله في ذلك تصانيف عديدة منها: "الرحلة النباتية" و"شرح حشائش ديسقوريدس" و"أدوية جالينوس"⁽⁹²⁾.

ولا يفوتنا ذكر الطبيب النباتي ضياء الدين عبد الله بن احمد الأندلسي المعروف بابن البيطار (ت 646هـ/1248م) وهو من أشهر صيادلة القرن 7هـ/13م وإليه انتهت معرفة النباتات وتحقيقه واختباره ومواضع نباته ونعت أسمائه على اختلافها وتنوعها ، اشتغل بالرحلة زمانا طويلا فزار بلاد الروم ، وتجول في المغرب ومصر رغبة في جمع الحشائش والنباتات ودراستها دراسة علمية ، ودخل في خدمة الأيوبيين بمصر ، وكان الملك الكامل (615- 635هـ/1218 - 1237م) يثق به ويعتمد عليه في المسائل الطبية والأدوية وجعله رئيساً على سائر العشابين بمصر ، كما كان حظياً متقدماً عند الملك الصالح نجم الدين أيوب⁽⁹³⁾ .

وقد عرف ابن البيطار الكثير من النباتات ذات الأهمية الطبية التي لم يعرفها أحد قبله ، ومن أشهر مؤلفاته : "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية" صنفه للملك الصالح نجم الدين ، ويحتوي على شتى الأدوية وما قام به المؤلف من اختبارات وتجارب في تركيبها ، وهو من أجل كتب الأدوية وأجمعها ، سماه بالجامع لكونه جمع بين الدواء والغذاء ، والمراد من المفردات كل واحدة من العقاقير قبل التركيب⁽⁹⁴⁾ ، وقد قام بتصنيفه بعد دراسات طويلة ، ورحلة مضنية في بلاد الروم والمغرب والأندلس ومصر والشام ، واعتمد في جمع مادته على أكثر من مئة وخمسين من أمهات الكتب التي صنف قبله ثم أضاف إليها حصيلة تجارية ومشاهداته ووصف فيه نحو ألف وخمسمئة نوع من الأدوية المختلفة بين نباتي ومعدني وحيواني ، منها ثلاثمائة نوع جديد لم يتناولها كتاب في الصيدلة من قبل⁽⁹⁵⁾ .

واعتمد ابن البيطار في تأليفه على المنهج العلمي الذي يقوم على التجربة والملاحظة ، لذلك عدّه البعض بأنه "ثمرة ناضجة لأوسع دراسة قام بها المسلمون في ميدان الصيدلة وعلم النبات"⁽⁹⁶⁾ . واعتبر أساساً ومصدراً لغيره من المؤلفات التي وضعت فيما بعد مثل كتاب "المعتمد في الأدوية المفردة" من تصنيف الملك المظفر يوسف بن عمر بن رسول الغساني (ت 694هـ/1294م)⁽⁹⁷⁾ .

ومن مؤلفات ابن البيطار الأخرى نذكر كتاب "الإبانة والأعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام" و"شرح أدوية كتاب ديسقوريدس" و"المغني في الأدوية المفردة" يلي الجامع من حيث أهميته وشهرته وتناول فيه علاج الأعضاء بطريقة مختصرة كي ينتفع به الأطباء⁽⁹⁸⁾ .

أهم الاستنتاجات

استناداً إلى المعطيات التاريخية الواردة في هذا البحث يمكن الوصول الى نتائج عديدة أهمها :

- 1- إن التفكك السياسي الذي عانى منه العالم الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين / الثاني والثالث عشر الميلاديين رغم نتائجه السلبية لم يكن عائقاً أمام استمرار الحركة العلمية ، وتواصل البلاد الإسلامية فيما بينها على المستوى الثقافي ، وكانت التحديات الخارجية كالغزو الصليبي في مقدمة العوامل التي ساهمت في وحدة العالم الإسلامي على المستوى الفكري أكثر من أي وقت مضى . كما أن سقوط الخلافة الفاطمية سنة 567هـ/1171م كان

حدثاً خطيراً في تاريخ المسلمين، فبسقوطها أصبحت الخلافة العباسية الخلافة الوحيدة التي يدين لها المسلمون بالولاء الروحي، ومن ثمّ ساهم ذلك في قوة التفاعل والتواصل الحضاري بين المشرق الإسلامي ومغربيه .

2 - كان لبروز بلاد الشام على المستوى السياسي والحضاري خلال العصر الايوبي له ما يبرره لان تلك البلاد أصبحت ميدان المواجهة المباشرة مع العدو الصليبي ، وإليها اتجهت انظار ساسة المسلمين وعامتهم، فارتحل إليها الكثير من العلماء والمجاهدون ليدافعوا عن المقدسات الإسلامية بسيوفهم واقلامهم ، وأصبحت دمشق حاضرة السلطان صلاح الدين الايوبي تمثل على حد تعبير الرحالة المغربي ابن جبير جنة المشرق وعروس المدن الإسلامية آنذاك .

3 - شكل المغاربة والاندلسيون احد اهم شرائح المجتمع الشامي بعدما نزحوا إليها باعداد كبيرة بعد ان اجبرتهم الظروف السياسية والاضطرابات التي احدثت بهم، والتي إتسمت بالسلبية في مجموعها الكثير من سكانها على النزوح عن بلادهم . فضلاً عن دور العامل الديني المتمثل بالجهاد ، حيث كانت بلاد الشام الجبهة الرئيسية التي سعى المسلمون الى تأمينها من الخطر الصليبي الذي كان يتهدها ، وقد سبق للسلطان صلاح الدين ان إستنجد بالموحدين ، كما لا ننسى ان بلاد الشام تقع في طريق الحج الى الديار المقدسة بالحجاز توافد إليها سنوياً الكثير من المغاربة في طريق رحلتهم الى اداء فريضة الحج .

4 - أثر الكثير من المغاربة النازحون الى بلاد الشام البقاء في تلك البلاد بسبب ما لقوه من الترحيب والدعم لا سيما من الايوبيين ، فعاشوا حياة رغيدة آمنة ، وسرعان ما إندمجوا في المجتمع الشامي، وكانت لهم بصمات واضحة في الكثير من الميادين ، وكان لهم دور مشهود في الجهاد ضد الصليبيين ودفع الكثير منهم حياتهم ثمناً لذلك ، كما وقع العديد منهم اسرى بيد العدو .

5 - كان للمغاربة دور في الكثير من الميادين العلمية وفي مُقدمتها العلوم الدينية والتي تشمل علوم القرآن الكريم كالتقراءات وعلوم الحديث النبوي الشريف والفقه ، كما برز العديد منهم في علوم اللغة العربية كالنحو والادب ، بالإضافة إلى العلوم الاجتماعية والعلوم التطبيقية كالفقه والطب والصيدلة .

الإحالات والهوامش

- 1 - سيدة اسماعيل كاشف، صلاح الدين الايوبي بطل وحدة الصف الاسلامي وبطل الجهاد في سبيل الله ، عالم الكتب (بيروت: 1986) ، ص 41.
- 2 - أبو الحسين محمد بن أحمد بن سعيد بن جبير الكناني (ت: 614هـ/1217م) ، رحلة ابن جبير ، دار الكتاب اللبناني (بيروت: د/ت) ، ص 183.
- 3 - سعيد عبدالفتاح عاشور، "المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية" بحث في وقائع المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام المنعقد في الجامعة الاردنية (عمان: 1974) ، ص 220.
- 4 - للمزيد ينظر : علي بن محمد ابن فرحون ، الديباج المذهب في معرفة اعيان المذهب ، ط1 ، (مصر : 1351هـ) ، ج2 ، ص 240 ، 321 ، علي احمد ، الاندلسيون والمغاربة في بلاد الشام ، ط1 ، مطبعة دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر (دمشق: 1989) ، ص 85 - 86.
- 5 - احمد ، المرجع نفسه ، ص 85 - 86.
- 6 - أبو يعلى حمزة بن القلانسي (ت: 555هـ/1160م) ، ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق. أمدرؤز، مطبعة الالباء اليسوعيين (بيروت: 1908) ، ص 302.

- 7 - هاملتون ا. رجب، صلاح الدين الأيوبي، دراسات في التاريخ الاسلامي، ترجمة. يوسف ايبيش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت: 1973) ، ص. 204.
- 8 - رحلة ابن جبير، ص. 201.
- 9 - شهاب الدين عبد الرحمن أبو شامة (ت: 665هـ/1266م)، تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين المعروف بالذيل على الروضتين، عني بنشره، السيد عزت العطار الحسيني، دار الجيل (بيروت: 1974)، ص. 16.
- 10 - أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص. 186.
- 11 - رحلة ابن جبير، ص. 52.
- 12 - المصدر نفسه، ص. 200.
- 13 - المصدر نفسه، ص. 53.
- 14 - انتوني ويست، الحروب الصليبية، ترجمة. شكري محمود نديم، شركة النبراس للنشر والتوزيع (بغداد: 1967)، ص. 175.
- 15 - عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر الشيرازي (ت: 589هـ/1193م)، المنهج السلوك في سياسة الملوك، تحقيق. علي عبد الله الموسى، مكتبة المنار (الزرقاء: 1987)، ص. 65 (المحقق).
- 16 - ابن جبير، المصدر السابق، ص. 52.
- 17 - ابن جبير، المصدر نفسه، ص. 199.
- 18 - المصدر نفسه، ص. 46.
- 19 - المصدر نفسه، ص. 202.
- 20 - المصدر نفسه، ص. 46.
- 21 - وكان مقدار هذه الضريبة بالدينار المصري نحو سبعة دنانير ونصف، وتعادل خمسة عشر دينارا مغربية او ما كانت تسمى (بالمؤمنية) على كل شخص ينظر: ابن جبير، المصدر نفسه، ص. 55، 304.
- 22 - المصدر نفسه، ص. 200.
- 23 - ابو عبد الله محمد بن علي ابن الازرق (ت: 896هـ/1490م)، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق. محمد بن عبد الكريم، الدار العربية للكتاب (تونس: د/ت)، ج2، 817.
- 24 - ابن جبير، المصدر السابق، ص. 44.
- 25 - ابن جبير، المصدر والصفحة نفسها.
- 26 - زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (ت: 656هـ/1258م)، التكملة لوفيات النقلة، تحقيق. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة (بيروت: 1988)، ج2، 309، أبو شامة، الذيل، ص. 170، 186.
- 27 - المنذري، المصدر السابق، ج3، 560، أبو شامة، الذيل، ص. 7.
- 28 - عبد القادر بن محمد النعيمي (ت: 978هـ/1570م)، الدارس في تاريخ المدارس، دار الكتب العلمية (بيروت: 1990)، ج. 35.
- 29 - المنذري، المصدر السابق، ج2، 413، ج2، 416، عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني (ت: 743هـ/1342م)، إشارة التعيين في تراجم النحاة واللفويين، تحقيق. عبد المجيد دياب، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية (الرياض: 1986)، ص. 295.
- 30 - أبو شامة، الذيل، ص. 7.
- 31 - المنذري، المصدر السابق، ج3، 358، ج3، 470، أبو شامة، الذيل، ص. 162.
- 32 - ابن جبير، المصدر السابق، 174، ص. 200.
- 33 - ابن جبير، المصدر نفسه، ص. 199.
- 34 - المنذري، المصدر السابق، ج2، 343، ج3، 602، أبو شامة، الذيل، ص. 170، 168، 186.
- 35 - أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص. 153، النعيمي، المصدر السابق، ج2، 5.

- 36 - أبو شامة ، الذيل ، ص. 173.
- 37 - أبو شامة ، المصدر نفسه ، ص 235.
- 38 - ابن جبير ، المصدر السابق ، ص 199.
- 39 - أبو اليعمن مجير الدين العليمي (ت: 928هـ/1521م) ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، تقديم. محمد بحر العلوم المطبعة الحيدرية النجف: 1968 ، ج2/580.
- 40 - العليمي ، المصدر نفسه ، ج2/46.
- 41 - عبد الجليل حسن عبد المهدي ، المدارس في بيت المقدس في العصرين الايوبي والمملوكي دورها في الحركة الفكرية مكتبة الاقصى عمان: 1981 ، ج1/133.
- 42 - ينظر رحلة ابن جبير ، ص. 200.
- 43 - عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون (ت: 808هـ/1405م) ، المقدمة ، دار الفكر بيروت: 1988 ، ص. 551.
- 44 - شمس الدين ابو الخير محمد ابن الجزري (ت: 833هـ/1429) ، غاية النهاية في طبقات القراء ، دار الكتب العلمية بيروت: 1980 ، ج2/23 ، خليفة ، كشف الظنون ، ج1/502.
- 45 - المنذري ، المصدر السابق ، ج1/207 - 208 ، ابن الجزري ، المصدر السابق ، ج2/22.
- 46 - ابن الجزري ، المصدر السابق ، ج2/23.
- 47 - أبو شامة ، الذيل ، ص7 ، ابن الجزري ، المصدر السابق ، ج2/20 - 21.
- 48 - أبو شامة ، المصدر السابق ، ص 91.
- 49 - جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: 911هـ/1505م) ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، دار المعرفة ، دار المعرفة بيروت: د/ت ، ص. 416.
- 50 - ابن الجزري ، المصدر السابق ، ج1/24 - 25 ، أبو الفلاح عبد الحي ابن العماد الحنبلي (ت: 1089هـ/1678م) ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار الكتب العلمية بيروت: د/ت ، ج5/264.
- 51 - ابن الجزري ، المصدر السابق ، ج2/122.
- 52 - ابن الجزري ، المصدر نفسه ، ج1/386.
- 53 - المنذري ، المصدر السابق ، ج2/309 - 310.
- 54 - شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي (ت: 945هـ/1538م) ، طبقات المفسرين ، دار الكتب العلمية بيروت: د/ت ، ج2/268.
- 55 - شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت: 748هـ/1347م) ، تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام ، تحقيق. عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي بيروت: 1997 ، ص 316.
- 56 - المنذري ، المصدر السابق ، ج1/70 ، 109 ، 115 ، مج2/6 ، 28 ، مج3/173 ، 208 ، 579.
- 57 - المنذري ، المصدر نفسه ، ج2/165.
- 58 - احمد بن محمد الادنوي (ت في القرن 11هـ/17م) ، طبقات المفسرين ، تحقيق. سليمان بن صالح الخزي ، مكتبة العلوم والحكم (المدينة المنورة: 1997 ، ج2/28).
- 59 - شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت: 748هـ/1347م) ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق. بشار عواد معروف ، ومحي هلال السرحان ، مؤسسة الرسالة ، (بيروت: 1998) ج22/24 - 25.
- 60 - أبو شامة ، الذيل ، ص 230 ، ابن العماد ، المصدر السابق ، ج5/310 - 31 ،
- 61 - أبو شامة ، الذيل ، ص 142 . ابو العباس احمد بن عبد الله الغبريني (ت: 704هـ/1304م) ، عنوان الدراية فيمن عرف ببجاية من العلماء في المائة السابعة ، تحقيق. عادل نويهض (بيروت: 1969) ، ص ص 269 - 272.
- 62 - أبو شامة ، الذيل ، ص. 168.

- 63 - تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي السبكي (ت: 771هـ/1369م)، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق. عبد الفتاح محمد الحلوم ومحمود محمد الطنحاني، دار احياء الكتب العربية (القاهرة: 1970)، ج8/122.
- 64 - السبكي، طبقات الشافعية، ج8/26-29، الاسنوي، المصدر السابق، ج2/143.
- 65 - المنذري، المصدر السابق، ج2/91، وانظر ترجمته: السبكي، المصدر السابق، ج5/53.
- 66 - المنذري، المصدر السابق، ج2/237.
- 67 - ابوشامة، الذيل، ص121.
- 68 - المنذري، المصدر السابق، ج3/267.
- 69 - السبكي، المصدر السابق، ج8/400.
- 70 - الغبريني، المصدر السابق، ص109-110.
- 71 - الذهبي، سير اعلام النبلاء، ج21/497، أبو العباس أحمد بن حسن ابن قنفذ (ت: 809هـ/1406م)، كتاب الوفيات، تحقيق. عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة (بيروت: 1983)، ص ص 307-308.
- 72 - السيوطي، المصدر السابق، ص354.
- 73 - الذهبي، دول الاسلام، تحقيق. فهم محمد شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة: 1974)، ج2/134.
- 74 - ينظر: بغية، ص416.
- 75 - المنذري، المصدر السابق، ج3/293، ابوشامة، الذيل، ص160، السيوطي، المصدر السابق، ص416.
- 76 - قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد اليونيني (ت: 726هـ/1325م)، ذيل مرآة الزمان، (حيدرآباد الدكن: 1954)، ج1/76-77،
- اليمني، المصدر السابق، ص319.
- 77 - السيوطي، المصدر السابق، ص207.
- 78 - محمد بن شاکر الکتبي (ت: 764هـ/1362م)، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق. احسان عباس، دار صادر (بيروت: 1973)، ج2/407-408.
- ابن الجزري، المصدر السابق، ج2/180.
- 79 - الکتبي، المصدر السابق، ج3/408، ابن الجزري، المصدر نفسه، ج2/180-181.
- 80 - ابن قنفذ، المصدر السابق، ص332، كارل بروكلمان، تاريخ الادب العربي، ترجمة. عبد الحليم النجار، دار المعارف (القاهرة: 1969)، ج5/294.
- 81 - السيوطي، المصدر السابق، ص15.
- 82 - المنذري، المصدر السابق، ج2/407؛ ابن الجزري، المصدر السابق، ج2/60.
- 83 - ابن جبير، المصدر السابق، ص ص 86، 81، 69، 60، 55، 52، 50، 47، 46، 45، ...
- 84 - سعيد عبد الفتاح عاشور، وسعد زغلول عبد الحميد وأحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ الحضارة الاسلامية العربية، منشورات ذات السلاسل (الكويت: 1986)، ص121.
- 85 - حكمت نجيب عبد الرحمن، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب (بغداد: 1977)، ص43.
- 86 - ابن أبي أصيبعة، احمد بن القاسم (ت 668هـ/1269م)، عيون الانباء في طبقات الاطباء، تحقيق. نزار رضا، دار الثقافة، ط2 (بيروت: 1979)، ص ص 675، 600، 590، 589، 585، 583، 580.
- 87 - ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص583؛ جمال الدين علي بن يوسف القفطي (ت: 646هـ/1248م)، أنباء الرواة على أنباء النحاة، تحقيق. محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب المصرية (القاهرة: 1950)، ص ص 317-319.
- 88 - عن أوزان الأطباء ومكائيلهم وطرق تركيب الأدوية ينظر: الخوارزمي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف (ت: 387هـ/997م)، مفاتيح العلوم، مطبعة الشرق (القاهرة: 1342هـ)، ص ص 105، 106.
- 89 - ابن جبير، المصدر السابق، ص52.

- 90 - ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق ، ص. 628
- 91 - المنذري، المصدر السابق، ج3/531؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج23/58.
- 92 - المنذري، المصدر السابق، ج3/531؛ الذهبي، تاريخ، ص298.299
- 93 - ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق ، ص602؛ ابن العماد، المصدر السابق، ج5/234.
- 94 - مصطفى بن عبد الله حاجي خليفة القسطنطيني (ت: 1067هـ/1656م)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، ، دار الفكر بيروت: 1994
- (، ج1/453.
- 95 - محمد عبد الرحمن مرجبا ، الجامع في تاريخ العلوم عند العرب ، منشورات عويدات(بيروت: 1988) ، ص.306
- 96 - جمهرة من المستشرقين بإشراف سير توماس أرنولد ، تراث الاسلام ، ط5 (أبريل: 2000) ، ج2/485.
- 97 - من ملوك الدولة الرسولية باليمن التي حكمت ما بين (803.626هـ/1228.1400م).
- 98 - ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص602.

سوسيولوجية العنوسة في الجزائر

بن تامي رضا
أستاذ محاضر في علم الاجتماع
جامعة تلمسان

مقدمة :

يعتبر موضوع التحليل السوسيولوجي لظاهرة العنوسة من المواضيع الهامة ، بحيث برزت هذه الظاهرة بشكل رهيب ، و بما أن المرأة هي المتلقي لمشروع عرض الزواج ، وقد لا تتلقى العرض المناسب وبذلك تقل فرصتها ، وربما تنعدم وتتحول المرأة بنظر المجتمع والأهل امرأة عانس .

ولمشكلة العنوسة أسباب عديدة منها هجرة الشباب للخارج للعمل أو الدراسة ، وعند عودة هذا الشاب المغترب يختار صغيرة السن مما يفقد الفتاة التي تناسبه بالعمر فرصة الزواج ، بالإضافة إلى ارتفاع مستوى التعليم ورغبة المرأة بإكمال دراستها ، ثم العمل الذي من خلاله تستقل ماديا وقد تساعد ذويها الذين يحتاجون إليها مما يقلل من فرصة ارتباطها وزواجها ، بالإضافة إلى عدة أسباب أخرى

كما تترك مشكلة تأخر سن الزواج آثار متعددة ، ليس على المرأة فحسب وإنما على أسرتها وعلى المجتمع ككل ، ومن ضمن هذه الآثار مشكلات اجتماعية وأخرى نفسية تعاني منها المرأة العانس في الآونة الأخيرة ، وقد شملت كل فئات وشرائح المجتمع وتفتت بشكل ملفت للانتباه .

1- تعريف العنوسة :

العنوسة كلمة عربية فصيحة و هي مصطلح اجتماعي و ليس لفظا علميا. فقد جاء في كتاب "لسان العرب": العانس من الرجال و النساء. يقال عنست المرأة فهي عانس، و عنست فهي معنسة إذا كبرت و عجزت في بيت أبويها، فإن تزوجت مرة فلا يقال عنست⁽¹⁾.

و جاء في كتاب " المعجم الوجيز": عنست البنت عنسا و عنوسا بقيت طويلا بعد بلوغها دون زواج فهي عانس و جمعها عوانس⁽²⁾.

و في " المعجم الوسيط" عنست البنت البكر عنسا و عنوسا و عناسا، طال مكثها في بيت أهلها بعد إدراكها فهي عانس و عنس و عوانس. و عنس الرجل، أسن و لم يتزوج فهو أيضا عانس و أكثر ما يستعمل في النساء⁽³⁾.

أما في "المختار الصحاح" عنس عنست الجارية من باب دخل و عناسا أيضا بالكسر فهي عانس إذ طال مكثها في منزل أهلها بعد إدراكها، حتى خرجت من عداد الأبقار هذا إذا لم تتزوج، و يقال أيضا للرجل عانس و الجمع عنس و عنس⁽⁴⁾.

إذن يقصد بالعنوسة تجاوز الفتاة سن الزواج العرفية و هي ليست محدودة بسن معينة، فالتحديد راجع للعرف و نظرة المجتمع، فما تعتبره بعض البيئات عنوسة لا تراه بعضها كذلك⁽⁵⁾.

و العنوسة ظاهرة و كارثة أصابت مجتمعاتنا العربية و الإسلامية عموما و الجزائر على وجه الخصوص و لم تعد تقتصر على نسبة قليلة من الفتيات أو الشبان الذين فاتهم قطار العمر بل أصبحت تشمل النساء و الرجال من جميع الفئات⁽⁶⁾.

فالعنوسة مصطلح اجتماعي و بالتالي هو متغير بتغير الظروف و الأوضاع الاجتماعية و التطور الزمني للمجتمع و عادة تعني السن التي تصل إليها الفتاة دون زواج مقارنة بالسن السائدة و المتعارف عليها وسط أسرتها و المجتمع و كل مجتمع يحدد سنا للزواج.

أما مفهوم العنوسة في المصطلح الشعبي العامي "البائرة"، و يقصد بها كل فتاة تأخرت عن سن الزواج المتفق عليه اجتماعيا، و في عرف المجتمع أن "البائرة" هي الفتاة التي لم تعد صالحة للزواج لأن قطار الزمن تجاوزها⁽⁷⁾.

و العنوسة تشمل الفتاة و الشاب معا، و هي في الأساس ظاهرة اجتماعية تمثل انعكاس مباشر للوضع الاقتصادي السائد، و ارتفاع معدلات العنوسة مرتبط بالوضع الاقتصادي و التطور العلمي و الدراسي، حيث أن معظم الفتيات يرفضن لفظ "عانس" لما له من معاني ثقيلة نفسية و اجتماعية⁽⁸⁾.

من خلال هذا يمكننا أن نقول أن الفرق بين العانس والعنوسة، كالفرق بين المريض والمرض والفقير والفقر والأعمى والعمى.

فالعنوسة حالة مرفوضة، شرعا وعقلا وفطرة، أما الثانية (أي العانس) فهي إنسان ابتليت بالعنوسة فتستحق كل التكريم والحب.

2- لمحة في تاريخ العزوبة والعنوسة:

إن عزوبة الرجل و عنوسة المرأة اعتبرا على الصعيد الاجتماعي مخالفة للتيار العام والأخلاق والأعراف، و الزواج في نظر الأقدمين ضرورة لازمة لكل فرد من الجنسين عند بلوغه سن الحلم، حيث استهجن الأقدمون الأخلاق العامة للعزاب والعانسات لأنهم يبدون مخالفين للطبيعة وأن هذه الظاهرة قد صدرت عن فكرة أن العلاقة الجنسية تنطوي على دنس.

فيقول " القديس توما " " إن الزواج و إن لم يكن فعلا يضاهي الإحسان وحب الله، فإنه برغم ذلك عائق في سبيلهما "، فلم يسمح للراهبات اللواتي تذرن أنفسهن للرب بالجسد والروح، من السكن مع رجال الدين العازبين لأنهم اعتبرنه خيانة عظيمة وإثم وزنا.

و لكن الرأي العام " المستنير " لم يتشبت بفرض الزواج، على الجميع بوصفه واجبا، إنما ذهب أحيانا مذهبنا متباينا فاعتبر عدم الزواج واجبا على عدد غير قليل من الناس فمع ازدياد العلم والوعي فقد منعت كثير من البلدان الأوروبية الزواج، الأشخاص الذين يعيشون عائلة على صندوق الإسعاف العام منعا قانونية أو على الضمان الاجتماعي، لأن فردا بلغ به العوز هذا المبلغ لن يقوى على إعالة أسرة، كما أن بعض العلماء قد دعوا إلى عدم جواز تزويج المصابين بأمراض وراثية قابلة للانتقال إلى النسل لأن هذا الزواج فيه إساءة للوطن والنسل.

إلى جانب هذه العزوبة والعنوسة عرفت المجتمعات الإنسانية العزوبة أو العنوسة الجماعية، وقد حدث الشعراء اليونان على رأسهم - هوهيروس وهيرودوف - أن شواطئ البحر الأسود يعيش فيها شعب غريب كله من الإناث وليس فيه أحد من الذكور وهو شعب الأمازون، تحكمه ملكة ويحمي بلاده جيش من النساء يركبن الخيل ويضربن، و لا تنقطع غارتهن على الجيران الأقربين وهن لا يسمحن لرجل أن يقيم في مملكتهن لكنهن و حفاظا على بقائهن كن يهاجرن أفواجا في كل عام ويتصلن برجال الأمم الأخرى ثم يلدن فيقتلن الذكور، وتبقى الإناث على قيد الحياة.

وهكذا نرى أن ظاهرة العزوبة والعنوسة توفر بظلالها على المجتمع الإنساني بكل أطواره و أما أنواعها فاختياري وإجباري، و أما أسبابها فديني واجتماعي، واما نظرة المجتمع التي عانقت هؤلاء العزاب والعازبات فكانت ترحل من النقيض إلى نقيضه، فمن تبجيل واحترام وقداسة إلى احتقار و ذل ومهانة على إنسانيتهن لأنهن استعملن

حقهم في اختيار لون حياتهن لم يرق للأكثرية كونه لا يناسب طقوسهم الموروثة.⁽⁹⁾ إمارة لعادات إباحية، ووجدوا أنها تشير فزعا دينيا، وقد اختلفت مواقف البلدان والعشائر في معاملتهم مع أن أغليبتهم اجتمعت على اضطهادهم والنظرة لهم نظرة انتقاص ودونية.

ونبدأ بعشيرة السانتال، حيث اعتبرت أن العزاب والعانسات يعادلون اللصوص، وأحيانا يصل بهم الأمر إلى حد الاشمزاز من حالتهم، باعتبارهم خارجين عن طبيعة الأدميين، أما في أثار بابل فقد تم العثور على كلمات خالدة كتبها عالم قبل الميلاد وبألف عام تقول: " الفتاة التي تتزوج نملة أفضل من الفتاة التي تحي وتموت وعلى قبرها كلمة عانس " إن هذه الكلمة توحى لنا بمدى العذاب النفسي التي كانت تعانيه العانس ومدى احتقار المجتمع لها لدرجة يصبح معها ارتباطها بنملة وهي أضعف الحشرات يعتبر تعظيما لشأنها.

أما عند قدامى الصينيين قاموا معها بتزويج أرواح الموتى من الأطفال الذكور إلى أرواح الموتى الإناث، بينما في اسبارطا قامت الدولة بتحديد السن المناسب للزواج، وصنفت العزوبة والعنوسة من ضمن الجرائم، وقد جردوا من عدد من الحقوق كحق الانتخاب وحق مشاهدة المواكب العامة التي يرقص فيها الفتيات والفتيان عرايا.

وربما كان الهنود أصعب المعتبون على تأخر سن الزواج، حيث جاء في كتاب " ملاذ الهنود " أن رجال الدين قد فرضوا على من لم يزوج ابنته عند بلوغها الثانية عشر من عمرها أن يشرب إفرازات حيضها شهر بعد شهر، فكان الرجل يخشى بقاء ابنته بدون زواج، أما النظام في بلاد فارس لم يكن يشجع البنات على أن يبقين عذارى ولا الشباب أن يبقوا بدون زواج، ولذلك شرع قانون عرف بقانون الزواج الإجباري غايته المحافظة على التوازن في الزيجة بين الفتيات، و قد أرغم بموجبه كل عازب على الاقتران لدى بلوغه سنا معينة شاء أو رفض، عن طريق لجنة تقوم بجمع الفتيات البالغات في كل سنة وتدعو الشباب لاختيار عروسهم بعد أن تقسم الفتيات إلى ثلاثة أقسام:⁽¹⁰⁾

(جميلة، متوسطة، قبيحة) وتقسم كل هذه الفئات الثلاثة إلى قسمين يحوي الأول " المتعلمات " ومنهن والثاني "

الجاهلات " تقف الفتيات في صفوف وتعرض على الشبان وفق شروط معينة :

الجميلة المتعلمة = ثمنها ألف دينار يدفعها طالبها إلى اللجنة.

الجميلة الجاهلة = ثمنها خمس مائة دينار يدفعها طالبها إلى اللجنة.

المتوسطة المتعلمة = ثمنها خمس مائة دينار يدفعها طالبها إلى اللجنة.

المتوسطة الجاهلة = ثمنها خمس مائة دينار يدفعها طالبها إلى اللجنة.

القبيحة المتعلمة = ثمنها خمس مائة دينار تدفعها اللجنة لطالبها.

القبيحة الجاهلة = ثمنها ألف دينار تدفعها اللجنة لطالبها.

أما من يتولون مناصب دينية، فكانت عزوبتهن أمرا حتميا للمحافظة على نقائهم، كما أن هناك بعض الأقوام و القبائل اتخذت العزوبة و التبتل جانب ديني لأنها رأت في الزواج دنس مرتبط بالغريزة، ففي المكسيك و البيرو فكان هناك العذارى من يندرون أنفسهم لإله الشمس، و يمضين حياتهن في أماكن يعتزلن فيها الناس حتى يتوفاهن الله، فلا يخالطن الناس و لا يتزوجون خوفا من اختلاط دمائهم الطاهرة بدماء البشرية.

أما في فرنسا فكانت فئات من الفلاحين لا تفسح للفتاة سبيل الزواج، بل تبقى عانس لتخدم أمها و أبيها، أما في المدن فقد ساد تقليد لا يزال يعمل به أحيانا يقضي بوضع كل من العزاب و العانسات ممن تجاوزوا الخامسة و العشرين قبعات على رؤوسهم في المناسبات الرسمية، كما كان عند اليهود الموسويين هناك طائفة يدعى أصحابها " بالأسينيين " لا يأكلون اللحم و يرون أن الزواج دنس لأنه إرضاء للغريزة الجنسية و أن قهر هذه اللذة هو انتصار للفضيلة و تعفف للنفس و سمو لها.

لقد كانت قبائل " ثلنيكيت " توجب عزوبة الكهان و تفرض على حرس الكاهن نفسه قتله إذا زل ولم يرع واجب العفاف.⁽¹¹⁾

فإن حل ظاهرة العزوبة يكون بفهمها و تحليلها و إزالة أسبابها وليس بمجرد الرفض السلبي الصارخ، كما لمسناه عند القدماء.⁽¹²⁾

3- الفرق بين عزوبة الرجل و عنوسة المرأة؛

الرجل مهما بلغ من العمر و هو دون زواج، مع بعض التحفظات شابا عاجزا يجسد على حريته. و أما الفتاة، فإن قطار عمرها ما إن يصل إلى محطة الأربعين حتى ترفع راية العنوسة، و تصبح أشبه بكائن ثالث قليل النفع كثير الضرر. إن ولادة الذكر للأسرة نصر، وولادة الأنثى إثم و عار. وظيفة الرجل إصدار الأوامر، ووظيفة الأنثى إطاعتها و تنفيذها. و حرية الرجل لا حدود تأسرها و حرية المرأة بالكاد تتلمس ملامحها⁽¹³⁾.

إن قرار الزواج بيد الرجل و بيد الأنثى مجرد القبول أو الرفض، و أحيانا تفقد هذا المجرّد أيضا. و في حال تجاوز مرحلة الزواج، فإن الأنثى العانس هي التي كانت ضعيفة مطموع بها عدى على سير خطوات الحياة وحيدة تلقى أمواج الصعاب التي تعصف بها دون وجود من يحميها.

كما أن الأنثى غير قادرة على تحمل أعباء نفسها الاقتصادية، و في حال التحقت بوظيفة فغالبا ما يكون راتبها عاجزا عن تغطية نفقاتها في غالب الأحيان. أما الرجل فهمما بلغ من العمر يبقى قادرا على الاقتتان بمن يريد طالما أن القرار بيده. و هو قادر على تحمل أعباء نفسه اقتصاديا و اجتماعيا كونه الأقوى.

و يجهل كثيرون أن الزواج ليس هو الهدف الوحيد في الحياة، فالمرأة الغير متزوجة قد تبرز في مجالات عديدة من خلال عملها التي تثبت فيه المرأة شخصيتها و تحتل به مراكز مرموقة من خلال دراستها التي تساعد على الوصول للعمل المناسب، كما أن هناك الكثير من النشاطات التي تستطيع بها المرأة أن تملأ أوقات فراغها و تنمي مواهبها أو تفرغ عاطفة الأمومة من خلال الأعمال الخيرية، فالمرأة العانس يجب قبولها من قبل الأسرة و المجتمع. على أنها إنسان تتمتع بكافة الحقوق المعطاة للمتزوجين و عدم النظر إليها على أنها ناقصة حتى تستطيع هي أن تتقبل وضعها و تتأقلم معه⁽¹⁴⁾.

4- أنواع العنوسة :

يمكن تقسيم العنوسة إلى قسمين رئيسيين و هذا بناء على المتسبب فيها :

1- عنوسة اختيارية :

و هي من اختيار الفتاة نفسها بعدم الزواج، و ذلك لكثرة شروطها حول زوج المستقبل أو رفضها تماما الزواج و تفضيل الاستقلالية، و قد تكون الفتاة من النوع الذي لا يجب تحكم الرجل فيها⁽¹⁵⁾.

إن العزوبة الاختيارية تكون دون خضوع الفرد لأية ضغوطات، بل هي عزوبة ناتجة عن حب الذات أي افتتانه بجماله و قوة جسده و المسماة بالنرجسية، لكي يتباهى به أو يحافظ على رشايقته و جماله و قوته كما يعتقد بعض الشباب أن الزواج يجد من حريته لذلك يعزف عنه حتى يبقى مرتاح البال⁽¹⁶⁾.

2- عنوسة إضطرارية :

يقصد بها العنوسة التي تكون مفروضة من طرف المجتمع على الفتاة و الشاب على حد سواء، سببها عدة ظروف : اقتصادية، إجتماعية، ثقافية.....⁽¹⁷⁾

5- القابلية للعنوسة :

سنعرض بعض النماذج من هذه الشخصيات القابلة للعنوسة :

1- الفتاة المسترجلة : و هي التي قد تأخذ المظهر الذكوري في بعض صفاتها أو طريقة لبسها و تعاملها، و

لكن في أحيان أخرى قد تكون صارخة الأنوثة من حيث الشكل و البنيان الجسدي، و لكنها في كل الحالات ترفض الدور الأنثوي و تكرهه، و دائما تتحدث بجسد و غيظ عن تفرقة المجتمع بين الرجل و المرأة و تبذل جهدا كبيرا في الجدل و النقاش حول هذه الأمور و ربما تنظم إلى أحد الجمعيات النسائية أو تصبح زعيمة لحركة نسائية كل هدفها الهجوم على الرجال و على المجتمع الذي تعتبره ذكوريا أو هو ذكوري بالفعل. و بناء على ذلك نجد

في صراع دائم مع أي رجل، و تبدأ ذلك الصراع مع إخوانها الذكور وأقاربها وزملائها في الدراسة ثم العمل و أي رجل تقابله في حياتها، و هي شديدة الحساسية لأي بادرة تفوق ذكوري، و شديدة الرفض لمظاهر الأنوثة في جسدها أو في نفسها.

و إذا حدث و تزوجت فإنها ترفض و تكره دور الأمومة و تعيش في صراع مريع مع زوجها حتى تصل للطلاق، أو التحكم فيه لترضي ميولها الإسترجالية الكامنة أو الظاهرة.

2- الفتاة الهستيرية: و هي في الغالب فتاة جميلة و جذابة و استعراضية و مغوية، توقع في حبها الكثيرين، و تبدي في الظاهر مشاعر حارة، و لكنها لا تستطيع أن تحب أحدا بل هي دائما تحب حالة الحب ذاتها، و هي سريعة الملل لذلك تنتقل من علاقة لأخرى بحثا عن الإثارة و التجديد و على الرغم من إغوائها الظاهر إلا أنها تعاني برودا جنسيا و لذلك لا ترغب في الزواج لأنها تكره العلاقة الجنسية⁽¹⁸⁾ و تخشاها. و إذا حدث و تمت خطبتها فإنها تسارع إلى محاولة إفشال الخطبة و تتعدد خطوباتها و انفصالاتها بلا سبب منطقي واضح.

باختصار هي فتاة للعرض فقط و لذلك يكثر وجودها في الأنشطة الاستعراضية.

3- الفتاة الوسواسية: و هي تميل إلى الإفراط في النظام و التدقيق في كل شيء و مترددة في أخذ القرارات و لا تحتمل أخطاء الطرف الآخر و بخيلة في مشاعرها، لذلك يصعب عليها قبول أي شخص يتقدم لها حيث ترى في كل إنسان عيوب لا تحتملها، و هي مفتقدة للمشاعر الطبيعية التي تدفع الناس للزواج، غالبا إضافة إلى بعض الوسواسيات لديهن إشمزاز من العلاقة الجنسية على اعتبار أنها تمثل لديهن شيئا قذرا و مدنسا.

4- الفتاة النرجسية: و هي الفتاة المتمركزة حول ذاتها و العاشقة لنفسها، و التي ترى أنها متفردة و تتوقع من الآخرين عمل كل شيء في سبيلها. في حين لا تفعل هي أي شيء و هي تستغل كل من حولها لصالحها دون أن تعطيهم شيئا، إضافة إلى أنها غير قادرة على حب أحد فهي لا تحب إلا نفسها⁽¹⁹⁾.

5- الفتاة البارانونية: و يغلب عليها الشك في كل من حولها، فهي لا تثق بأحد أبدا سواء رجل كان أم امرأة، و تميل للسيطرة و التحكم و تخلص من رقة الأنوثة و عذوبتها حتى و لو كانت صارخة الجمال، و تسعى نحو الاستعلاء على من حولها و لهذا يهرب منها الرجال و لا يستطيع هي أن تثق فيهم أو تحترمهم فهي دائمة الانتقاص منهم و التشويه لصورتهم.

6- الفتاة السيكوباتية: و هذه لا تتزوج نظرا لسوء سمعتها و كثرة انحرافات الأخلاقية و الاجتماعية، فهي لا تستطيع احترام قوانين المجتمع أو عاداته و تقاليده، و لا تلتزم بالمبادئ الأخلاقية

المتعارف عليها، و تعيش باحثة عن اللذة الشخصية دون إعتبار لأي شيء آخر، فتجدها متورطة في علاقات متعددة و تعاطي المخدرات⁽²⁰⁾ وربما تتعرض لمشكلات قانونية بسبب جموحها وانفلاتها .

7- الفتاة التمامية : شخصية لا ترضى إلا بالكمال التام من الشروط و المعطيات و الصفات، قلقة لا

يعجبها شيء، تبحث عن المثالية فالمرأة التي تتمتع بهذه الشخصية يعجبها في الرجل كمال العقل والحسب⁽²¹⁾.

6- أسباب العنوسة :

نجد من خلال قراءة المعطيات و الآراء المختلفة ، أن أسباب العنوسة متعددة و من الصعب حصرها تبعا لاختلاف الأسباب الموضوعية و الذاتية المؤثرة ، لكن هناك أسباب يمكن أن نجعلها و تشترك بها مختلف المجتمعات العربية.

أسباب اقتصادية :

يلعب العامل الاقتصادي الدور الأهم من عدة جوانب أبرزها : غلاء المهور سواء كان بناء على طلب الأهل ، أو على طلب الفتاة نفسها. إضافة إلى صعوبة تأمين ضرورات الحياة الزوجية من بيت و غيره، نتيجة الدخل المحدود و إرتفاع الأسعار.

ومن اللافت للانتباه أن غلاء المهور لم يعد نتيجة الأعراف و توزيع الأدوار التقليدي بين الرجل والمرأة، بل أيضا نتيجة لقيم العصر الاستهلاكية المادية، حيث أصبحت قيمة الإنسان على قدر ما يملك و بالتالي الفتاة و أهلها يعتبرون الرجل الميسور يعبر عن مكانتهم و قيمتهم.

كل هذا ساهم في تأخير الزواج لدى الرجال، و انعكس طردا على المرأة بصورة العنوسة، لأنه متى سمحت الظروف للرجل أن يتزوج ، فهو سوف يختار من النساء المرأة التي تصغره سنا بكثير، و سيتولد نتيجة ذلك نسبة من الفتيات لن تجد فرصا للزواج⁽²²⁾.

و يلعب العامل الاقتصادي دورا إضافيا ذو تأثير سلبي و خطير و ذلك نتيجة لنسبة البطالة المرتفعة و المنتشرة بين الشباب و هذا لا يؤثر فقط على عزوف الشباب عن الزواج بل يؤثر على توجه وعي الشباب و منها أفكار رجعية التي تولد لديهم رغبة الانتقام، و تصب في جانب منها من المرأة و صورتها، إضافة لانتشار أفكار حول عدم ضرورة عمل المرأة حتى لا تنافس الرجل في فرص العمل. كل ذلك يساهم في تغذية الجو التقليدي المتخلف و يؤدي إلى زيادة نسبة العزوف عن الزواج بين صفوف الرجال و النساء خاصة في البيئات الفقيرة جدا⁽²³⁾.

أسباب اجتماعية :

تلعب التقاليد دورا كبيرا في ظاهرة العزوف عن الزواج، بل إنها تلعب دورا مزدوجا و متناقضا يؤدي إلى هذه النتيجة خاصة بالنسبة للمرأة، بسبب تدخل الأهل في حياة أبنائها و تحديد الشروط المناسبة للزواج وفق رؤية الأهل

وقناعتهم، مما يقيد حرية الاختيار عند بعض الطوائف لاختلاف الدين أو اختلاف النسب و الجاه، و من ناحية أخرى؛ إلغاء مفعول دور بعض التقاليد المختلفة بسبب التقدم و تغير الظروف في كثير من البيئات تقاليد كانت تسهل أمور الزواج ، وأهمها الاختيار وقت الولادة كبنت العم لابن عمها و لكنها عادات انتهت مع بقاء تقييد حرية الاختيار، وكذا تأثيرات العصر و الانفتاح على العالم و الإطلاع على طرق الحياة عند الشعوب الأخرى عبر وسائل الاتصال و التواصل المختلفة، ساهمت في تشكل رؤى جديدة مختلفة حول علاقة المرأة و الرجل تأثر بها الشباب لكن المجتمع لا يقبلها و لا يعترف بها.

كذلك بقيت في إطار علاقات سرية يشعر أصحابها بالذنب و الخطيئة عند ممارستها، و يعيشون تناقضاتهم و حياتهم المزدوجة تساهم في العزوف عن الزواج خاصة بالنسبة للمرأة.

و ظاهرة الطلاق التي أصبحت هي الأخرى تشكل نسبة كبيرة، و تعبر عن مدى التناقض القائم في حياة العائلة في مجتمعاتنا العربية قد تشكل خوفا كبيرا لكثير من النساء في عدم خوض تجربة الزواج⁽²⁴⁾.

و مجتمعاتنا العربية ذكورية بشكل عام: الذكر هو المسيطر على المجتمع بشكل عام و على المرأة على وجه الخصوص، و المجتمع يمكن -في بعض الأحيان- أن يفض الطرف عن الرجل و عدم محاسبته فيما يتعلق بالزواج، و لكن المرأة دوما محاسبة و على كرسي الاعتراف. قد يخرج الرجل عن عادات و تقاليد عائلته، و قد لا يستطيع عمل ذلك و لكن المرأة يتوقع منها دوما أن تكون "تقليدية" و مراعية⁽²⁵⁾ لتقاليد عائلتها حتى و لو لم تكن تصب في مصلحتها كما نجد أيضا مع مراعاة الموضوعية في البحث - بغض النظر عن حسناتها و سيئاتها قد تراجعت حالات تعدد الزوجات ترجعا ملحوظا في مجتمعنا عما كان مألوفاً في السابق. و نجد بعض الأسر ترفض زواج البنت الصغرى قبل الكبرى فإن لم تتزوج الكبرى لسبب من الأسباب ينتج عن ذلك عدم زواج الأخوات الصغيرات، و هذا الأمر يحتاج إلى وعي و فهم بعيدا عن التشدد و العصبية و المشاكل الاجتماعية في بعض الأسر التي تقدم نموذجا سلبيا عن الزواج، كأن يعيش الشاب أو الفتاة في أسرة مفككة تشهد مشكلات بين الزوج و الزوجة و ضعف العلاقات الاجتماعية لأسرة الفتاة، فالأقارب لا يزورون بعضهم إلا في المناسبات و الجيران لا يكاد الواحد فيهم يعرف الآخر، و الصداقات الأسرية بدأت تتلاشى في ظل ضيق الوقت بسبب الهمم وراء الماديات و أعباء الحياة اليومية، فالفتاة التي تدرس فغالبا لا تخرج إلا للمدرسة و من المدرسة للبيت، في بعض المجتمعات فعلاقاتهم محدودة جدا و بحاجة لمن يساعدهم على توسيع دائرة علاقاتهم و هذا دليل على مدى تحكم العلاقات الاجتماعية بالزواج بصورة أساسية⁽²⁶⁾.

وننتج عن دخول المرأة مضمار العمل و احتكاكها بالمجتمع تغيير نظراتها للزواج سلبيا أو إيجابيا و متطلباتها تتغير، و مما لا جدال فيه أن الفتاة غير المتعلمة الماكثة بالبيت تقبل بأي شخص يتقدم لخطبتها، لأنها لم تحتك

بالمجتمع ولأن إدراكاتها للزواج مازالت بسيطة و نظرتها محدودة و هناك بعض الأسر يعتمدون على راتب الفتاة من عملها ويعتبرون أن العمل واجب عليها و ليس حق لها⁽²⁷⁾.

أسباب سياسية :

تلعب الدولة و الظروف السياسية و نشاط المجتمع المدني في تخفيف أو زيادة نسبة العنوسة أو العزوف عن الزواج، من خلال ما تقدمه من تسهيلات مثل قروض أو إعانات أو ترغيب في الزواج كما يحصل في دول الخليج. تبدو الجزائر في جميع هذه الحالات أنها تعيش أزمة اجتماعية كبيرة تدفع ضريبتها النساء. حيث أن النسبة الأكبر من النساء في مجتمعنا تشكل مؤسسة الزواج بالنسبة لهن الهدف الأول في حياتهن.

- وكذا أثرت الحروب الأهلية و الدولية و التي يذهب ضحيتها الآلاف من الشباب في زيادة نسبة الإناث على الذكور⁽²⁸⁾.
- رفض رجال الجنسيات الأخرى حيث يرفض المجتمع فكرة تزويجهم من بنات البلد و يمارس ضعفا نفسيا و قانونيا على هذا النوع من الزواج⁽²⁹⁾.

أسباب نفسية :

- العزوف عن الجنس الآخر نتيجة الأفكار المشوهة و السلبية عنه نتيجة قراءات أو مشاهدات سابقة، ظهر فيها الرجل خائنا أو قاسيا أو أنانيا أو ظالما و غير ذلك من الصفات السيئة الأخرى.
- كراهية الجنس، نتيجة التزمت الزائد و ربط الجنس بسوء الخلق أو الرذيلة أو نتيجة جهل و سوء فهم بالنواحي الجنسية، و الخوف من تبعات الزواج من حمل وولادة و إرضاع.
- الخوف من الزواج، نتيجة تأثيرات و روايات سابقة "الوالدين" أم، أخوات، قريبات، صديقات، جارات.. كانت الزوجة فيها رمزا للذل و العبودية و الاضطهاد، و كان الزواج رمزا للتعاسة و الشقاء، مما ألقى بظلال قاتمة على الحياة الزوجية كلها.
- الانطواء و الانعزالية و الاكتئاب و الهروب من الواقع و الناس.
- بالنسبة للرجل: الخوف من تحمل المسؤولية، و تجنب تحمل الأعباء الناتجة عن الزواج و تربية الأولاد و تعليمهم.
- الشعور بالنقص، و الناتج عن وجود عيوب خلقية واضحة في شخصية الشباب، أو سيطرت فكرة الفشل في الحياة الزوجية على عقله و تفكيره نتيجة ضعف شخصيته أو فشله الدراسي و الوظيفي، أو في تجربة زوجية سابقة انتهت بالطلاق⁽³⁰⁾.

أسباب تربوية :

- غياب الوازع الديني، وانتشار التحلل في المجتمع يتيجان لبعض الفئات من الجنسين تلبية حاجاته الغريزية خارج نطاق المؤسسة الزوجية.
- كثرة المشاكل المتعلقة، بالطلاق والتفكك الأسري والنزاعات الزوجية والخيانات التي تكره البعض بالزواج أو تخوفه منه.
- تساهم وسائل الإعلام من خلال برامجها وأفلامها في تكريس مجموعة من المفاهيم والأفكار المغلوطة أو المبالغ فيها عن الحياة، وربطها بالمشاكل والخلافات مع تبني وترويج أساليب غريبة عن مجتمعاتنا.
- المناهج التعليمية وقصورها الواضح في نشر الوعي والثقافة العائلية، لدى الناشئة والتلاميذ وكذلك طوال فترة الدراسة وإغلاق الفرصة بوجه الأذكاء والمتفوقين لاختصار زمن الجلوس على مقاعد الدراسة.
- نظرة المجتمع للتعبد؛ والتي تدفع بالفتاة وأهلها إلى تفضيل عنوسة ابنتهم على أن تكون زوجة ثانية.
- رفض رجال الجنسيات الأخرى، حيث يرفض المجتمع فكرة تزويجهم من بنات البلد ويمارس ضغطا نفسيا وقانونيا على هذا النوع من الزواج.
- اختلاف المذاهب، وفيه يتم رفض المتقدم للزواج لاعتبارات دينية وطائفية.
- تقاليد الغرب، التي تسعى لدم المؤسسة الزوجية وتقليد البعض للمنهج الغربي في الحياة الاجتماعية، من تفضيل عدم الزواج لأنه أقل مسؤولية ومتاعب وأكثر انطلاقا وحرية، ودم الزواج المبكر والدعوة لتأخير سن الزواج لدى الشاب والفتاة بحجة استكمال النضج والحرية والتعارف والصداقة أولا ثم يأتي الزواج بعد التفكير والاقتناع⁽³¹⁾.

7- أسباب تتعلق بالشباب والفتاة :

نحن كمجتمع جزائري ما زلنا نفكر بعقلية سابقة "عقلية بكري" فنشترط بعض المواصفات المعينة، فالشاب يريد فتاة صغيرة في السن، ومن عائلة مرموقة وأحيانا متعلمة وتشتغل ولها مستوى عالي من الجمال مستوحى من معايير غربية في مجتمع متدين ومحتشم⁽³²⁾.

والفتاة أيضا مثالية في البحث عن فتى أحلامها "عريس الغفلة"، متأثرة بالمسلسلات وبصديقاتها فتتأمل للأمر من زاوية واحدة وتغفل عن باقي الجوانب⁽³³⁾. هذه الظاهرة موجودة وبنسبة لا بأس بها بسبب غياب الوعي بأهمية الزواج، وتفتقر لثقافة الأسرة والمجتمع الصحيحة، وأيضا لوجوب تجاذب بين طرفين ورغبة الشاب أو الفتاة بالزواج

منه ولا يقبلان إلا به و غالبا لا يكتب لهذا الزواج بالنجاح لعدم رضا العائلتين فيعزف كلاهما (الفتاة و الشاب) عن الزواج .

و كذا رفض الزواج من مطلق أو مطلقة حتى دون معرفة الأسباب، كذلك من أرمل أو أرملة لقناعات شخصية أو اجتماعية، ورفض الفتيات الزواج من الأجانب أو المغتربين خوفا من ماضيه المجهول من حيث علاقاته قبل الزواج .
و مشكل كبير آخر، و هو عدم رغبة الجنسين بالزواج أصلا لأسباب متعلقة بهم شخصيا، كوجود إعاقة أو برود جنسي، و كذا عدم تفكيرهم بضرورة الزواج لعدم تحمل المسؤولية و لإعتقادهم أن الحب وحده يكفي⁽³⁴⁾.

8- أخطار العنوسة :

العنوسة كما ذكرنا سابقا حالة غير طبيعية تعيشها المرأة لظرف من الظروف التي سبق ذكرها، و لها انعكاساتها الخطيرة على المرأة أولا، و على الأسرة ثانيا، و على المجتمع ثالثا، و هنا نذكر بعض أخطار العنوسة على الجميع (الفتاة، الأسرة، المجتمع) إجمالا⁽³⁵⁾.

أولا : خطورتها بالنسبة للمرأة :

تصاب الفتاة "العانس" بالعديد من الآلام النفسية، فتشعر بالحزن و الاكتئاب و النفور من الناس خشية السخرية و التلميح الجارح، و هذا قد يترتب عليه العديد من الآلام العضوية .

و قد تلجأ الفتاة إلى توثيق صلتها بالله أكثر، و لكنها قد تلجأ أيضا إلى السلوك المتطرف و المنحرف بأن تقيم علاقات جنسية سرية و عابرة، أو تلجأ إلى ما يسمى بالزواج السري لكي تشبع رغباتها الجنسية باعتباره (الزواج السري)، أهون الضررين من وجهة نظرهم ضرر الزواج السري و ضرر البقاء بلا زواج⁽³⁶⁾.

و قد تؤدي هذه الآلام النفسية، إلى التفكير أو اللجوء إلى الانتحار إما طالبة للراحة أو فرارا من العذاب و كلام الناس و همزاتهم، فنظرة المجتمع إليها تعكس فيها فراغا عاطفيا و روحيا⁽³⁷⁾.

أيضا قد تلجأ بعض الفتيات إلى قبول الزواج بأي شاب كان، فقط لدفع النظرة السلبية التي ترى بها الفتاة العانس و هذا قد يؤدي إلى مشاكل أخرى كالطلاق و غيره⁽³⁸⁾.

ويذكر علماء النفس، أن تأخر سن الزواج يؤدي إلى انحرافات جنسية، و أسبابها العنوسة و تأخر سن الزواج إضافة إلى الحرمان الجنسي و كبت المشاعر و الأحاسيس، و لا بد للإنسان السوي إشباع غرائزه و تحقيق الإعفاف و سبيل ذلك الزواج الشرعي في إطاره الأخلاقي و السعيد⁽³⁹⁾.

و تلقي العانس بالملامة على رجال المجتمع الذين أعرضوا عنها، و تشعر بالغيرة من بنات جنسها المتزوجات، و تنتظر للمجتمع نظرة حسن و غيرة و كراهية تعبر عنها في سلوك عصبي وعدواني تجاه الأفراد.

وقد تلجأ الفتاة العانس إلى مهمة أخرى، وهي اصطيداد الشاب كما يحصل مؤخرا بشتى الوسائل الممكنة، وذلك بغرض إيقاعهم للتعلم بالفتاة باعتبار أن هذا السلوك قد يجلب زواجا في نهاية المطاف.

ثانيا : خطورتها بالنسبة للأسرة :

تحدث العنوسة أثارا نفسية سيئة على كل أسرة فيها عانس، حيث يشعر أفرادها بالهم والغم بل الخزي والعار في بعض المجتمعات، حيث الخوف من نظرات الناس وتفسيرها بغير معناها واعتبارها نوعا من الاتهام لهم ولبناتهم، مما يؤثر بصورة سلبية على العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع⁽⁴⁰⁾.

و العانس تحمل في داخلها خوفا دفيناً من المستقبل وإحساسا بعدم الأمان، حيث أن رصيدها الإنساني والعلاقات لا يطمئننها على نفسها، وتداعيات العنوسة لا تتوقف على الفتاة وحدها، وإنما تمتد لتشمل باقي الأسرة، فالأب مثلاً قد ينساق وراء نصائح زوجته بالبحث عن عريس لابنته من المحيطين به، فيقوم بعرض ابنته بطرق غير مباشرة على زملائه، وقد تختلف طريقتة في تعامله مع ابنته كأن يرضى مثلاً بالنصيب أو يتشدد عليها ويراقبها أو أن يتركها لتكون لعلاقات لتتقي بنصيبها، وكذلك الأم تعيش هذه المشكلة بكامل طاقتها وقلقها واكتئابها فهي كأم تشعر بعمق أحاسيس ابنتها وقد تلجأ بها إلى السحرة والدجالين ظناً منها أن ابنتها قد سحرت، وقد تلجأ إلى الدلالات لتعرض عليهم مشكلة ابنتها مع وعدن بمكافأة سخية إذا أحضرن عريسا لابنتها وقد يكون في بعض الأحيان إيمان الأم قوي وتحثها على الرضا بقضاء الله.

أما الأخت الصغرى قد تعيش حالة مبهمه و غامضة، تهين نفسها لأن تكون في الوضع ذاته وتعيش نفس المأساة وقد تلجأ إلى ابتكار طرق مختلفة لجذب أنظار الشباب والفوز بزواج لها. بينما إذا كانت شقيقات الفتاة متزوجات فإنهن يشعرن بالأسى تجاه أختهن⁽⁴¹⁾.

ثالثا : خطورتها بالنسبة للمجتمع :

يؤدي انتشار ظاهرة العنوسة لأخطار شديدة على المجتمعات، إذ يحدث التفكك والتحلل في المجتمع وتنتشر الأحقاد والضغائن بين أفرادها، كما ينتشر الفساد والردائل والانحرافات التي تندفع إليها بعض الفتيات في ظل الدوافع النفسية التي يعاني منها، كما تخلق وتنتشر في ظل مشكلة العنوسة بعض العادات الجاهلية، كالسحر والدجل والشعوذة ظناً من البعض أن هذا سيؤدي لحل المشكلة، كذلك يسود المجتمع نوع من التفكك والتوتر في العلاقات الاجتماعية الحميمة بين الناس⁽⁴²⁾. ومن الآثار الخطيرة على المجتمع، هو ظهور بعض المسميات للزواج كالزواج العرفي والمسيار هروبا من الزواج الشرعي الصحيح وهذه المشكلة غير ظاهرة حالياً كونها حالات وقضايا غير مسجلة رسمياً.

و تؤدي العنوسة إلى قلة النسل وهي مشكلة تهدد المجتمع، فبدون زواج لا يوجد نسل فتختل معادلة السكان، ووجب علينا أن نوازن بين التنمية وبين الموارد والسكان، و ظهور مشكلة أخرى هي معادلة الأمراض الناتجة عن العلاقات الجنسية غير شرعية لإشباع الرغبات و ناجمة عن ضعف الوازع الديني (كالإيدز مثلا يتم التقاطه و نشره و هذا بالتأكيد سيسبب عانقا بالنسبة للمجتمع من حيث الرعاية الصحية) ⁽⁴³⁾.

و من أخطر النتائج المترتبة عن تفشي ظاهرة العنوسة، إن لم تكن أخطرها على الإطلاق انتشار البغاء والزنى و تجارة الجسد و الاستزاق بالفروج، الأمر الذي يؤدي إلى عواقب وخيمة على المرأة و العائلة و المجتمع نذكر منها: الإجهاض، اللقطاء، الأمراض الجنسية، خراب البيوت، الفقر...

ثم إن وجود عدد كبير من النساء بلا زواج يعني انتشار العزوبة بين الرجال أيضا، و سيبعث هؤلاء عن طريقة لإطفاء غرائزهم إما عن طريق الحلال و قد غلقت أبوابه، أو عن طريق الحرام و كل الطرق تؤدي إليه ⁽⁴⁴⁾. و في تقرير هيئة الصحة العالمية: "أن عدد حالات الإجهاض الجنائي من الزنى كل عام يبلغ 50 مليون طفل و ذلك في إحصاء 1984" ⁽⁴⁵⁾.

قال الله تعالى: "و من آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها و جعل بينكم مودة و رحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون" ⁽⁴⁶⁾. و تعطيل الزواج يعتبر مخالفة لمقصود الله و مراده. يعني الرجل أو المرأة التي لم تتزوج يحرم أن أجر التربية الحسنة للأولاد و الولد الصالح الذي يبرهما و يدعوا لهما.

خاتمة:

عرفت العنوسة زحفا معتبرا و ارتفاعا ملحوظا في مجتمعنا الجزائري، و مع اختلاف العوامل و الملابسات التي تقف وراء هذه الظاهرة و ما يتبعها من آثار خطيرة على الفرد و المجتمع فإنه يلزم تكاثف كل جهود على كافة المستويات لمحاربة هذا المرض، ووقف خطواته السريعة التي تقترب من كل بيت و تفرض نفسها عليه، ابتداء من الشاب و الفتاة وولي الأمر و الأسرة و أهل الخير و الصلاح و الأئمة و الدعاة و الأساتذة و المثقفين و العلماء للتصدي لهذا الخلل الاجتماعي. عن طريق اقتراح بعض الحلول و هي كالتالي:

- 1- الوعي بالصحة النفسية من خلال برامج تربوية عن الأمراض النفسية الناتجة عن العزوف عن الزواج ⁽⁴⁷⁾.
- 2- عدم حصر الزواج في الأقارب و الاهتمام برأي الفتاة مع عدم إجبارها على الزواج ممن لا ترغب فيه.
- 3- محاربة المغالاة في تكاليف الزواج من هدايا و نفقات العقد و حفلات العرس و الولائم و غيرها من تكاليف باهضة نتيجة التقليد الأعمى و المباهاة و المفاخرة الزائفة. ولقد كان زواج سيدة أهل الجنة فاطمة

الزهرء حيث قال علي رضي الله عنه : "جهز رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة في خميل وقربة ووسادة حشوها أذخر"⁽⁴⁸⁾ وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم : "أعظم النساء بركة أيسرهم ..."⁽⁴⁹⁾.

4- إصلاح العادات الخاطئة خاصة التي ساهمت في تعئيس الكثير من النساء كتزويج الفتاة الكبرى قبل الصغرى والذي ينتهي بتعئيسهن معا .

5- محاربة الإرواء الغريزي غير المشروع عن طريق تكاثف أبناء المجتمع كله للتخلص من هذا العرض الخطير بمنع بيع المجالات الخليفة و الفضائيات الإباحية و نشر الوعي الصحي و الديني و الاجتماعي و الأخلاقي من هذه الأفعال بحديث النبي صلى الله عليه وسلم : "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج و من لم يستطع ليصم فإنه له وجاء"⁽⁵⁰⁾.

6- تشجيع تعدد الزوجات لزيادة عدد النساء على الرجال و قد شرع الله لعباده أن ينكحو ما طاب لهم من النساء مثنى و ثلاثى و رباعى شرط العدل . قال الله تعالى : "فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى و ثلاث و رباع فإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم"⁽⁵¹⁾.

7- تغيير نظرة المجتمع تجاه العادات و التقاليد البالية كفض زواج الفتاة في نفس العائلة أو القبيلة و اعتبار الأصل و الحسب و النسب أساس رفض الزواج دون اعتبارات أخرى.

8- تشجيع الزواج المبكر جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم : "إذا أتاكم من ترضون دينه و خلقه فزوجوه"⁽⁵²⁾.

9- توعية الوالدين بأن طلب بناتهم الزواج حق شرعي لهن فلا عيب فيه و ذلك من خلال خطب الجمعة و المحاضرات و ندوات وسائل الإعلام.

10- مواصلة الفتاة لتعليمها و هي متزوجة و على الدولة أن تتحمل مسؤولية حضانة في حال كون أحد الأبوين طالبا ، و كذلك يمكن مساعدتهم بالإعانة المالية.

11- دعم شبكة العلاقات الأسرية و الاجتماعية التي تيسر تعارف و تزواج و تعزز الثقة المشجعة على الاقتراح.

12- إنشاء صندوق الزواج عن طريق تشجيع الزواج و الحد من الزواج الأجنبي مع تقديم منح مالية للشباب الراغب في الزواج.

13- تنظيم حفلات الزواج الجماعي و تقديم الدعم الحكومي للحصول الشباب البطال على العمل .

- 14- حل أزمة السكن عن طريق وضع خطة إيجابية من طرف المسؤولين لإطلاق مشاريع سكنية لفائدة المقبلين على الزواج عن طريق تمويل مشترك، زكاة، تبرعات، قروض
- 15- أن تتكفل كل مؤسسة بإعطاء موظفيها المقبلين على الزواج قروضا حسنة أو هدايا أو منح .
- 16- إستخدام وسائل الإعلام لنشر الوعي بأهمية الزواج و بناء الأسرة و ابتعاد عن النماذج المنفرة التي تقدمها للشباب.
- 17- إيجاد مادة إجبارية تدرس للطلبة في المراحل المدرسية و الجامعية تتعلق بالقضايا الأسرية و الثقافة الأسرة لزيادة مستوى الوعي عند الطرفين بالزواج.

الهوامش والاحالات :

- 1 - ابن منظور، معجم لسان العرب، دار صادر للنشر، الجزء السادس، بيروت، الطبعة الاولى، 2008، ص 149.
- 2 - كتاب معجم الوجيز طبعة خاصة بوزارة التربية و التعليم ص 437.
- 3 - المعجم الوسيط جزء الثاني ص 254.
- 4 - أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، الجزء الخامس، باب العين، د.س، ص 407.
- 5 - شمس الدين، تأنيس العوائس، لجنة دلائل الخيرات للصوتيات و الرئيات، الجزائر، طبعة الاولى، 1998، ص 3.
- 6 - شمس الدين: المرجع نفسه، ص 4.
- 7 - بثينة العراقي، العنوسة مخاطر و أسرار، دار الرشيد للطبع و النشر و التوزيع، طبعة الاولى، الجزائر، 2008، ص 11.
- 8 - أماني مسعود، العنوسة أسبابها و تأثيرها على شخصية المرأة (دمشق نموذج)، دار التكوين للتأليف و الترجمة و النشر، دمشق، 2007، ص 9.
- 9 - أماني مسعود، المرجع نفسه، ص 30 - 31.
- 10 - أماني مسعود، المرجع نفسه ص 26، 28.
- 11 - أماني مسعود، المرجع نفسه ص 28 - 30.
- 12 - أماني مسعود المرجع نفسه ص 32.
- 13 - سامية حسن الساعاتي، الاختيار للزواج و التغير الاجتماعي، دار النهضة العربية، د.ط، بيروت، 1981، ص 142.
- 14 - سليمان خوالدي، ظاهرة العنوسة في العالم العربي و الإسلامي /دراسة ميدانية/ 2004، ص 82 - 83.
- 15 - آيت مولود يسمينة، تقدير الذات و علاقته بظهور السلوك العدواني عند النساء المتأخرات في الزواج (دراسة مقارنة)، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في علم النفس العيادي /إشراف ناصر ميزاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2011، ص 153.
- 16 - عمر معن خليل، علم الإجتماع الأسرة، دار الشروق للنشر و التوزيع، د.ط، عمان، 1994، ص 245.
- 17 -منة الله محمد حسن، حل مشاكل العنوسة بين الشباب / بحث لمسابقة البحوث و الحضانات العلمية /إشراف هالة عفيقي محمود محمد، جامعة القاهرة، 2009، ص 26.
- 18 - سامية حسن الساعاتي، المرجع السابق ذكره، ص 109 - 110.
- 19 - بثينة العراقي، المرجع نفسه، ص 110.
- 20 - آيت مولود يسمينة، تقدير الذات و علاقته بظهور السلوك العدواني عند النساء المتأخرات في سن الزواج (دراسة مقارنة)، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في علم النفس العيادي /إشراف ناصر ميزاب، جامعة مولود معمري، 2011، ص 150.
- 21 - آيت مولود يسمينة، المرجع نفسه، ص 158.
- 22 - بثينة العراقي، العنوسة مخاطر و أسرار، دار الرشيد للنشر و التوزيع، الطبعة الاولى، الجزائر، 2008، ص 71 - 73.

- 23 – منصور الرفاعي عبيد ، العنوسة (رؤية إسلامية إيج لحل مشكلة الفتاة العانس) دار الفكر العربي ، الطبعة الاولى، القاهرة، 2000، ص 43.
- 24 – شمس الدين ، تانيس العوانس ، دلائل الخير للصوتيات والمثليات ، الطبعة الاولى، الجزائر، 1998، ص 31 – 36
- 25 – منة الله محمد حسن، حل مشاكل العنوسة بين الشباب / بحث لمسابقة البحوث والحضانات العلمية/ اشراف هالة عفيفي محمود محمد، جامعة القاهرة ، 2009، ص 18.
- 26 – منة الله محمود حسن، المرجع نفسه ، ص 19 – 20.
- 27 – محمد عبد اللطيف محمود البنا، العنوسة والغلاء/ دراسة في الأحكام الشرعية والقيم الأخلاقية طروحة لنيل شهادة دكتوراه /، البحرين، د.س. ص 4.5.
- 28 – مقالات و حوارات ومقابلات على شبكة الإنترنت على موقع الجزيرة www.aljazeera.com
- 29 – بثينة العراقي، المرجع السابق ذكره، ص 85.
- 30 – بثينة العراقي: المرجع السابق نفسه، ص 102.
- 31 – بثينة العراقي: المرجع السابق نفسه، ص 106.
- 32 – شمس الدين ، تانيس العوانس، نخبة دلائل الخبرات الصوتيات والمثليات، الطبعة الاولى، الجزائر، 1998، ص 7، 8.
- 33 – منصور الرفاعي عبيد العنوسة (رؤية إسلامية اجتماعية لحل مشكلة الفتاة العانس) دار الفكر العربي، الطبعة الاولى، القاهرة، 2000، ص 24.
- 34 – محمد عبد اللطيف محمود البنا، العنوسة والغلاء/ دراسة في الأحكام الشرعية والقيم الأخلاقية لنيل شهادة دكتوراه في الفقه المقارن/ البحرين، د.س، ص 7.
- 35 – شمس الدين ، المرجع السابق نفسه ، ص 135.
- 36 – منة الله محمد حسن، حل مشاكل العنوسة بين الشباب ،/ بحث لمسابقة البحوث والحضانات العلمية بين اساتذة وطلاب الجامعة/ القاهرة، 2009 ، ص 13.
- 37 – شمس الدين ، المرجع نفسه ، ص 141.
- 38 – مقابلات و حوارات ومقالات على شبكة الإنترنت على موقع الجزيرة www.aljazeera.com.
- 39 – بثينة العراقي، العنوسة (مخاطر وأسرار)، دار الرشيد للنشر والتوزيع، الطبعة الاولى، الجزائر، 2008، ص 120.
- 40 – منة الله محمد حسن، حل مشكلة العنوسة بين الشباب ،/ بحث لمسابقة البحوث والحضانات العلمية/ القاهرة، 2009، ص 13 – 14.
- 41 – بثينة العراقي، المرجع السابق نفسه، ص 131 – 133.
- 42 – منة الله محمد حسن، المرجع السابق نفسه، ص 13 – 14.
- 43 – سليمان خوالدي، ظاهرة العنوسة في العالم العربي والإسلامي،/ دراسة ميدانية/ 2004، ص 18 – 19.
- 44 – شمس الدين، المرجع السابق، ص 154 – 155.
- 45 – شمس الدين، المرجع نفسه، ص 159.
- 46 – سورة الروم، الآية 21.
- 47 – بثينة العراقي، العنوسة (مخاطر وأسرار) الطبعة الاولى، الجزائر، دار الرشيد للنشر والتوزيع 2008، ص 170.
- 48 – رواه الإمام أحمد: ج (644) والنسائي: ج (3348).
- 49 – رواه أحمد في مسنده: (24595)
- 50 – رواه الجماعة.
- 51 – سورة النساء الآية 03.
- 52 – رواه الترمذي، حديث حسن

التقاليد المعمارية للمسكن الريفي في الأندلس والمغرب وتلمسان

(دراسة مقارنة من خلال بعض النماذج)

رابع فيسة محمد

أستاذ محاضر قسم الآثار . جامعة تلمسان

مقدمة :

لقد واكب تطور العمارة بشكل عام، والعمارة السكنية بشكل خاص، عنصر الإنسان الذي دفعته حاجاته الطبيعية إلى التجمع والاستقرار، ويمكن أن يقرأ تطور الإنسانية بأكملها في سجل الحلول السكنية التي ما فتى الإنسان يطورها تبعا لمعطيات تقدمه الاجتماعي والصناعي والعلمي والمعرفي، وبما أن الثقافة في مفهومها العام تعني علاقات الإنسان بعالمه المحيط، تصبح العمارة التجسيد المادي الأبرز لثقافة الإنسان ولقدرته على التكيف مع التقدم الذي يحرزه في شتى مجالات الحياة، لذا فإن استقرار الإنسان خاصة البدوي في البداية كان في الكهوف والمغارات كما عبر ابن خلدون عن ذلك في مقدمته بأن أهل البدو يأوون إلى الغيران والكهوف وهؤلاء هم سكان المد اشر والقرى والجبال وهم عامة البربر والأعاجم، ومع تحول نشاط الإنسان نحو الزراعة، هجر تلك المغارات واتّجه نحو الأراضي التي تنتج قوته ليستقر فيها، ويبني بيوتا من المواد الموجودة بين يديه: كالماء والقش والتراب في السهول، أو الحجارة وأغصان الأشجار في الجبال⁽¹⁾، ليتطور فيما بعد مفهوم هذه البيوت والسكنات التي نجدها اليوم في شكل تجمعات تقليدية بسيطة، يطلق عليها في الكثير من الأحيان مصطلح القرية أو الدشرة أو حتى الدوار في المفهوم الشعبي، والتي تكون في مجملها مجموعة من المنازل والمسكن التي تجمع سكانها علاقات اجتماعية قوية ترتسم من خلالها المعالم الأولى للحياة الريفية.

عوامل تكون التجمع السكني في الريف :

إن المسكن الريفي في داخله هو جزء من محمية كبيرة و المتمثلة في القرية، حيث تشكل في مجموعها المجتمع الكبير الذي يضم سكان هذه البيوت، ولدراسة المسكن بشكل مستقل لابد من دراسة القرية أولا كتكوين عام والأسباب والظروف التي أدت لهذا التكوين، فلو نظرنا إلى المخطط العام لأي قرية لوجدناها غير منتظمة بشكل هندسي معين أو مسبق وإنما نلاحظ هذا النمو العفوي لنسيج القرية حيث نرى المنازل متلاصقة ومتداخلة مع بعضها ومتراكمة، ونلاحظ الأزقة والدروب الضيقة والمتعرجة ولهذا التركيب والتلاصق أسباب وعوامل نوردها فيما يلي :

أ- العامل الديني:

تحت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في كثير من المواضع المؤمنين على التراحم والترابط فيما بينهم، وأن يكونوا كالبنين المرصوص الذي يشد بعضه بعضا، ولذلك فإن تداخل البناء وتماسكه جزء من الأدب العمراني الإسلامي. ومن الطريف في القرى والأرياف التي تتداعى مبانيها اليوم بسبب الإهمال وعدم الصيانة أنها عندما تنهار الدار الواحدة فإن الدور الأخرى المحيطة بها والملاصقة لها تبدأ هي الأخرى بالتآكل والانحيار التدريجي، وذلك بفعل الاشتراك في الجوانب والسقوف والأسس وقد تكون توصية الرسول صلى الله عليه وسلم للمؤمنين بتقديم المعونات لبعضهم البعض مثل السماح لجار بغرز خشبه والاشتراك في الجدران هي العامل الأساسي في نشأة هذا التلاحم بين المباني الذي يغلب طابعه على القرى والأرياف⁽²⁾.

ب- العامل النفسي للإنسان:

يميل الإنسان بطبعه إلى تكوين مجتمع متحضر يدافع عنه ويحميه، وهذا ما دفع السكان إلى تكوين تلك التجمعات السكنية المتلاحمة البنين على المستويين المعنوي والمادي، حيث أننا نجد الروابط الأسرية والعلاقات الاجتماعية متجذرة في تلك القرى، تغذيها العديد من العوامل والأسباب مثل العمل المشترك في الحقول وجني المحاصيل، وكذا حضور المناسبات السنوية والاحتفال بها جماعيا⁽³⁾.

ج- العامل الاجتماعي:

يتفق بعض الباحثين مع ما يراه ابن خلدون أن البيت هو مهد العصبية⁽⁴⁾، ففيه تنشأ أواصر القرابة وهو الذي يجمع أعضاء العائلة الواحدة التي تعتبر نواة التركيب الاجتماعي التي تكون فيها العصبية في أشد قوتها ثم تتدرج إلى أن تتلاشى فعصبية الأبوة والبنوة أقوى من عصبية الأخوة وهذه أقوى من العمومة وهكذا، ويقابل هذا التدرج الاجتماعي تدرجا فضائيا داخل الحي السكني الواحد، حيث تتجسد قرابة النسب في قرب المكان أو الجوار الذي يثبت مدى التلاحم الأسري⁽⁵⁾، فالبيت الذي ينشأ على أساس الأسرة النووية (الأب، الأم) يتوسع بعد سنوات للأبناء والبنات، ويزداد توسعا بعد زواج الأبناء وقد يجتمع لذلك في البيت الواحد المتسع عدة أجيال، كما أننا نلاحظ من خلال العلاقات الاجتماعية في القرية بأنها متينة وقوية ومتحررة نوعا ما، وهذا الشيء كان نتاجا لعاملين أساسيين هما:

العامل الأول: هو صلة القرابة التي تربط سكان القرية، فمعظم سكانها تجمعهم روابط وأواصر أسرية متينة، وذلك عن طريق المصاهرة والتزاوج مما أدى إلى توطيد العلاقات الاجتماعية في القرى الريفية بصفة عامة⁽⁶⁾.

العامل الثاني:

هو احتكاك سكان القرى ببعضهم البعض من خلال ممارسة النشاطات الفلاحية التي تحتاج إلى أيادي عاملة كثيرة وخاصة عمل النساء الذي أدى إلى نوع من الانفتاح الاجتماعي⁽⁷⁾، حيث كانت المشاركة في العمل تؤدي إلى الخلط بين الجنسين والتقائهم ببعضهم البعض، مما أثر في البيت الريفي بحيث أننا لا نجد فيه حواجز بين قسم الرجال والنساء، وإنما يشكل البيت فراغا واحدا يستخدم للنوم والطعام والمعيشة، وهذا الاندماج الاجتماعي جعل القرية تعتبر عائلة

واحدة والداخل إلى بيت من بيوتها يعتبر فردا من أفرادها ، وهو ما اشتهرت به أرياف كثير من المدن الهامة في التاريخ الاسلامي ، كتلك المنتشرة في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط كبلاد الأندلس والمغرب الكبير .

المواصفات العامة للمنزل الريفي بالأندلس والمغرب وتلمسان :

لقد أظهرت لنا عملية المقارنة التي قمنا بإجرائها بين مخططات معمارية لمنازل ريفية من الأندلس^(**) والمغرب^(***) وتلمسان⁽⁸⁾ (المخططات 1، 2، 3)، أنها اتبعت نفس التقاليد المعمارية ، والتي تظهر لنا جليا من خلال شكلها الخارجي أين نجد فيها الأسقف تظهر بشكل مسطح (الصور: 1، 2، 3) واستعملت فيها مواد بناء بسيطة اعتمد فيها على المواد المحلية التي تميز سائر المناطق الريفية ، أما عن المداخل الرئيسية لهذه المنازل فيبدو أنها مداخل بسيطة خالية من الزخارف والعقود ، أما عن الشكل الداخلي للمسكن فقد احتوى نفس الأقسام المعمارية ، فقط يكمن الاختلاف في موضع هذه الأقسام من المنزل وفي بعض الأحيان تختلف التسمية أو المصطلح الخاص بها . وقد تبين لنا من خلال الجدول الذي قمنا فيه بمقارنة أقسام المسكن الريفي في كل من الأندلس والمغرب وتلمسان أن نفس المخططات تتكرر غير أن شكلها الداخلي غير منتظم ، كما أن توزيعها يختلف حسب مساحة المنزل ، فهي تتكون في مجملها من الغرف الخاصة بالنوم والضيافة التي تنتشر حول الفناء أو ما يعرف ب (الحوش) في لغة أهل المغرب وتلمسان ولا بد من الإشارة هنا إلى أن عدد الغرف في المنزل الريفي يزيد وينقص من مسكن إلى آخر وذلك راجع إلى عدة أسباب ، لعل أبرزها عدد أفراد الأسرة الريفية الذي يبلغ أحيانا عشرة أفراد ، ففي كثير من الأحيان تضم العائلة الواحدة عدة أسر والتي تكون مكونة من الأبناء والآباء بالإضافة إلى أرباب العائلة الممثلين في الأب والأم ، كما أن الحالة المادية للعائلة تتحكم أيضا في حجم المنزل ومساحته فكلما كانت الحالة المادية مريحة كلما وجدنا أكبر عدد من الغرف وأحيانا عدد الطوابق التي لا تزيد عن الطابق بطبيعة الحال ، كما أن عنصر المطبخ في المنزل الريفي يعتبر من بين أهم العناصر في مخططات المنازل الريفية والذي نجده بأشكال مختلفة وفي بعض الأحيان يضم المنزل الواحد عدة مطابخ (المخطط رقم : 1، 2) ، ويضم المطبخ في داخله عنصر الموقد الذي يستعمل للطهي وفي بعض الأحيان للتدفئة علما بأن الكثير من العائلات الريفية تستغل وقت الغداء أو العشاء وهي مجمعة داخل المطبخ خاصة في أيام البرد القارس ، وتنتهي هذه المواقف بمداخل يمكن ملاحظته من خلال المظهر الخارجي للمنزل ، وقد احتوى المنزل الريفي في قرى بني سنوس عنصرا هاما في حياة المجتمع الريفي ألا وهو عنصر الاسطبل كما أن المنزل المغربي أيضا ضم هذا العنصر الحيوي الذي يستعمل في إيواء الأغنام والأبقار التي تشكل مصدر رزق هام بالنسبة لسكان القرية ، أما عن مخطط المنزل ببلاد الأندلس فلم يضم عنصر الاسطبل لعل العلة في ذلك هو ربما استعمال أهل الأندلس هذا العنصر بمعزل عن المسكن الرئيسي ، كما أن المنازل في الريف التلمساني استعملت فيها الطوابق وحتى في المغرب غير أن مخطط منزل الريف الأندلسي اعتمد على طابق واحد في النموذج الذي بين أيدينا ، حتى أن عنصر الفرن في المنزل المغربي جاء خارج المنزل بينما في المنزل الريفي بتلمسان نجده داخل المطبخ ولا يظهر له موقع داخل المنزل الريفي بالأندلس نتيجة استعماله ربما في الخارج ، وقد اعتمد سكان الريف التلمساني والمغربي المياه الطبيعية من الأودية والأنهار المجاورة للقرى في حياتهم اليومية بينما نجد أن عنصر البئر في منزل الريف الأندلسي هو من العناصر الأساسية فيه ، ويظهر عنصر الغار كما يسميه سكان بني سنوس أو القبو في مخطط المنزل الريفي بتلمسان

، في حين أن المنزل الريفي المغربي والأندلسي يخلوا من هذا العنصر ولعل الاختلاف في التكوين الداخلي للنماذج الثلاث تحكمته فيه الطبيعة والمحيط وكذا الفكر العمراني المتفاوت المستوى بين بلاد المغرب عامة وبلاد الأندلس خصوصا ليس ذلك فقط في العمارة السكنية، وإنما نجد هذا الاختلاف حتى في أنواع أخرى من العمارة .

وقد شاع استعمال نفس المخططات المعمارية للمنزل الريفي حتى في الجهة الشرقية من بلاد الجزائر أين توجد منطقة القبائل الكبرى ، فقط يكمن الاختلاف في تسمية الأقسام المكونة للمنزل وفي توزيعها في بعض الأحيان ، إذ أننا نجدها باللغة الأمازيغية التي تمثل اللغة الرسمية لسكان منطقة بجاية**** الذين استوطنوا القرى والمد اشرا التي تنتشر عبر كامل منطقة القبائل الكبرى ، وقد اخترنا منها نموذجين للتدليل على أن نفس النسق المعماري تداوله سكان المنطقة (المخطط رقم: 5) ، فمثلا الفناء نجده يتقدم الأقسام الأخرى من المنزل ويسمى (أمراح) ، كما أن الفضاء الخاص بالحيوانات أطلق عليه بالأمازيغية إسم (أداينين) ، والذي يقابله في المخططات الأخرى عنصر الإسطبل ، ولدينا عنصرا آخر يشبه في وظيفته عنصر الفناء وهو من بين العناصر الهامة في المنزل الريفي ببلاد القبائل الكبرى ألا وهو الفضاء الخاص بالنشاطات اليومية والذي أطلق عليه مصطلح (تفرغت)⁽⁹⁾، وسمي الفرن بالكانون وجل العناصر الموجودة في المنازل الريفية نجدها في المنزل الريفي في الشرق الجزائري فقط تتغير التسمية التي كما ذكرنا سابقا أنها تكون باللغة الأمازيغية ، وهكذا فإن جل العناصر المكونة للمنزل الريفي تتشابه من حيث الشكل وموقعها من الدار حتى وإن اختلفت تسميتها ، وهذا إن دل فإنما يدل على مدى تمسك سكان الريف بالنسق المعماري الذي أملت عليه الظروف الطبيعية والعادات والتقاليد ، التي جعلت من المنزل الحلقة الرئيسية التي تتكون فيها حركة الفرد مع المحيط الذي يعيش فيه ، وقد خضعت الكثير من تلك المنازل الريفية إلى تعديلات سببها الحالة الاجتماعية للأسرة الريفية والحالة المادية لها ، وهذا ما يبدوا جليا من خلال النماذج التي قمنا بدراستها في قرى بني سنوس .

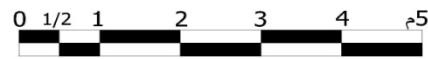
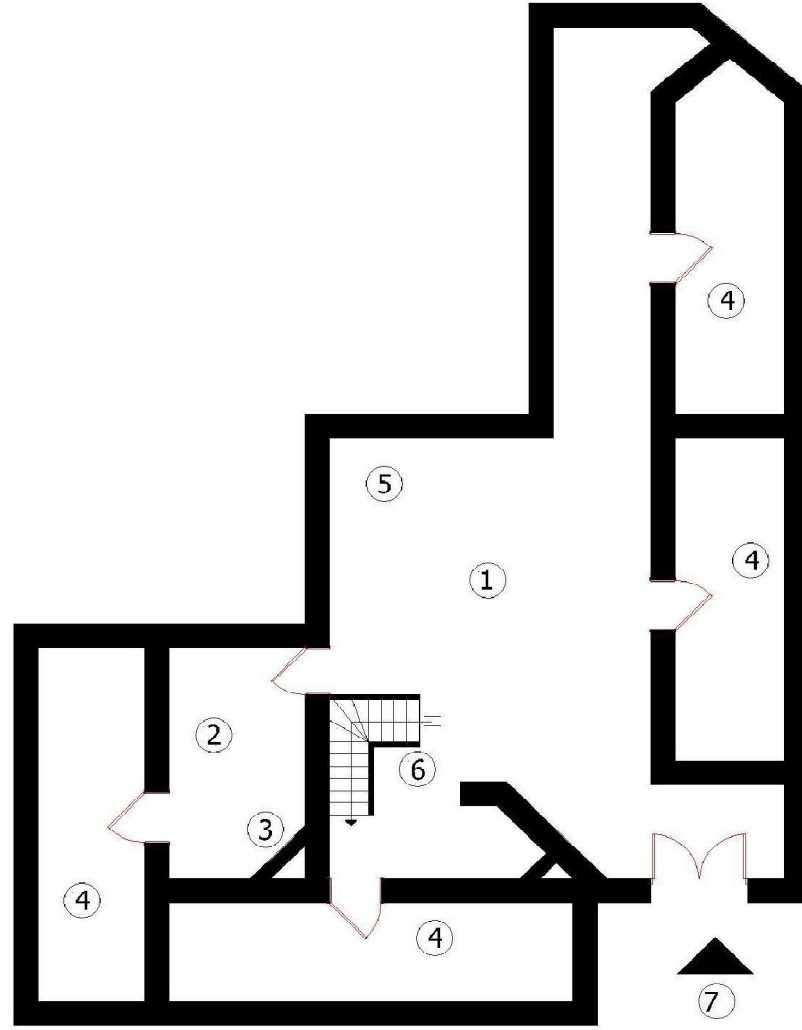
خلاصة :

يظهر لنا من خلال ما سبق ذكره بأن عناصر التصميم في المسكن الريفي تتكامل مع الفكر التصميمي لها ، فقد اتخذ المسكن الريفي خصائص معمارية تقليدية تمتاز بالبساطة والاعتماد على ما هو محلي من المواد الطبيعية والإبداع في استعماله ، كما يظهر ذلك من خلال النماذج المدروسة والتي نجدها احتوت بعض العناصر الحيوية التي اختلفت في المنزلين الأندلسي والمغربي في منطقة الريف ، فعنصر القبو مثلا يعتبر من بين أهم هذه العناصر التي لا نجدها في تلك المنازل ، وأما عدم وجود عنصر البئر في مساكن قرى بني سنوس عائد إلى وفرة المياه والعديد من المصادر الطبيعية التي تتوفر عليها المنطقة ، أما عن باقي العناصر كالفناء والمطبخ فهي من بين الخصائص العامة التي تشترك فيها جميع المنازل الريفية في القرى والمد اشرا بحكم الوظائف التي تمارس فيها ، وقد أثبتت المواد التقليدية كفاءتها وقدرتها على التكيف مع المحيط الخارجي ، كما استطاع سكان الريف إثبات جدارتهم في تطويع المواد المحلية في إيجاد حلول حقيقية في توظيفها والاستفادة منها لأقصى الحدود وبتقنيات بسيطة ، وبالتالي الوصول إلى تحقيق شكل إنشائي خاص يلبي حاجات العمران الريفي ومتطلباته .

الجداول والأشكال:

المتزل	متزل الريف التلمساني	متزل الريف المغربي	متزل الريف الأندلسي
الفناء (الحوش)	×	×	×
الغرف	×	×	×
الطوابق	×	×	
المطبخ	×	×	×
الاسطبل	×	×	
الأروقة		×	×
الفرن		×	
البئر			×
الميضأة			×
المخزن	×	×	×
الغار (القبو)	×		
السقف المسطح	×	×	×

جدول يبين عملية المقارنة بين مخططات المنزل الريفي بالأندلس والمغرب وتلمسان (من إعداد الباحث)



5- إسطل

6- درج

7- مدخل

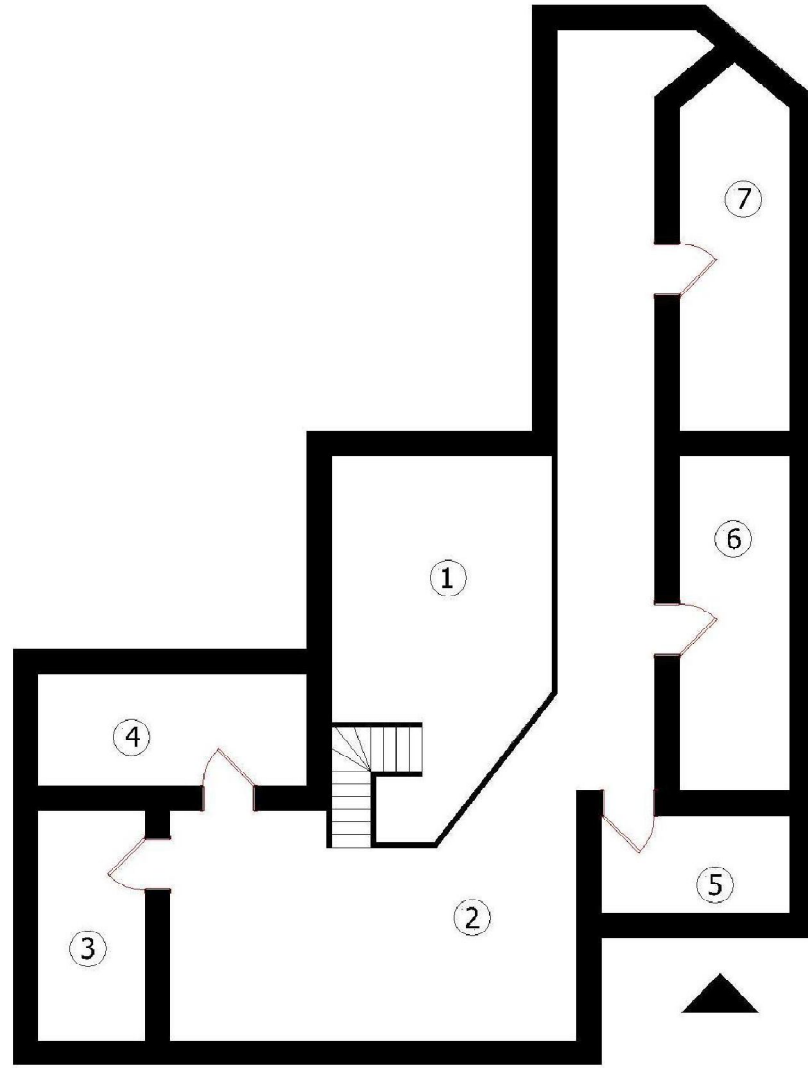
1- فناء

2- مطبخ

3- مدخنة

4- غرفة

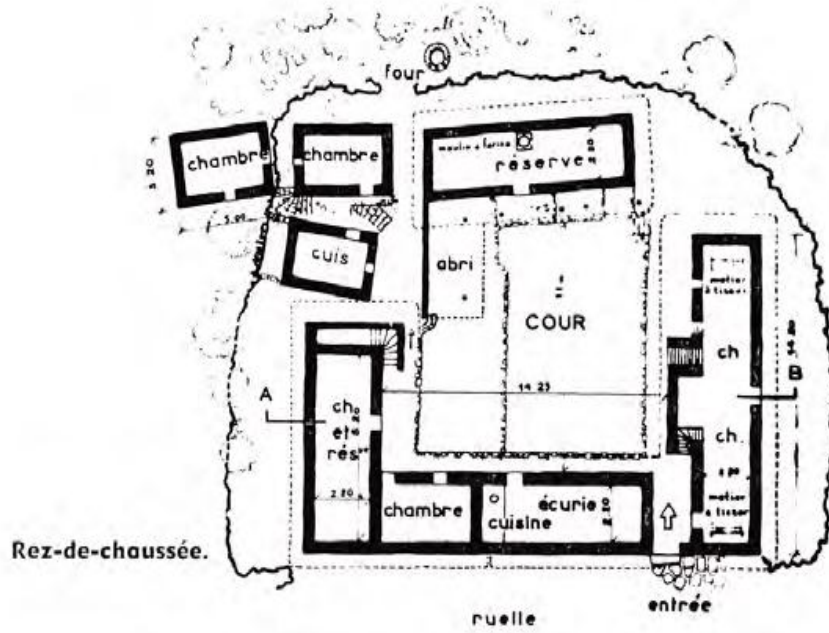
مخطط رقم: 1 الطابق الأرضي لدار باسعيد ب بأولاد موسى قرية الخميس من إعداد الباحث



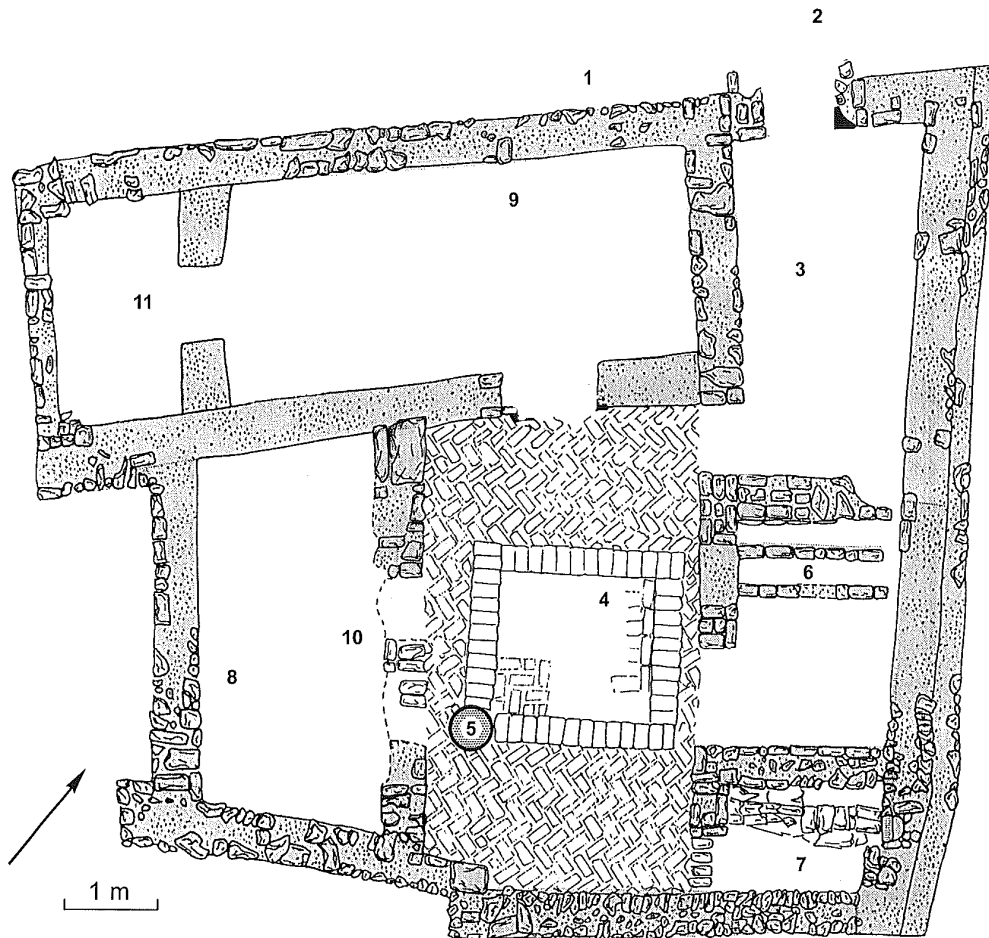
- 5- غرفة
- 6- غرفة
- 7- غرفة الضيوف

- 1- فناء
- 2- سطح
- 3- غرفة
- 4- غرفة

مخطط رقم: 2 الطابق العلوي لدار باسعيد بأولاد موسى قرية الخميس من إعداد الباحث



- Luca Ortellì, Bruno Marchand, Marielle Savoyat, Typologie de logements marocains, p74.
 مخطط رقم: 3 مخطط لمنزل بمنطقة الريف المغربي عن: Luca Ortellì, Bruno Marchand, Marielle Savoyat, Typologie de logements marocains, p74.



مخطط رقم 4 : مخطط لمنزل ريفي بمنطقة هولفا بالأندلس الغربي (بتصرف)

André bazzana, La maison rurale dans la...p.218.

عن:

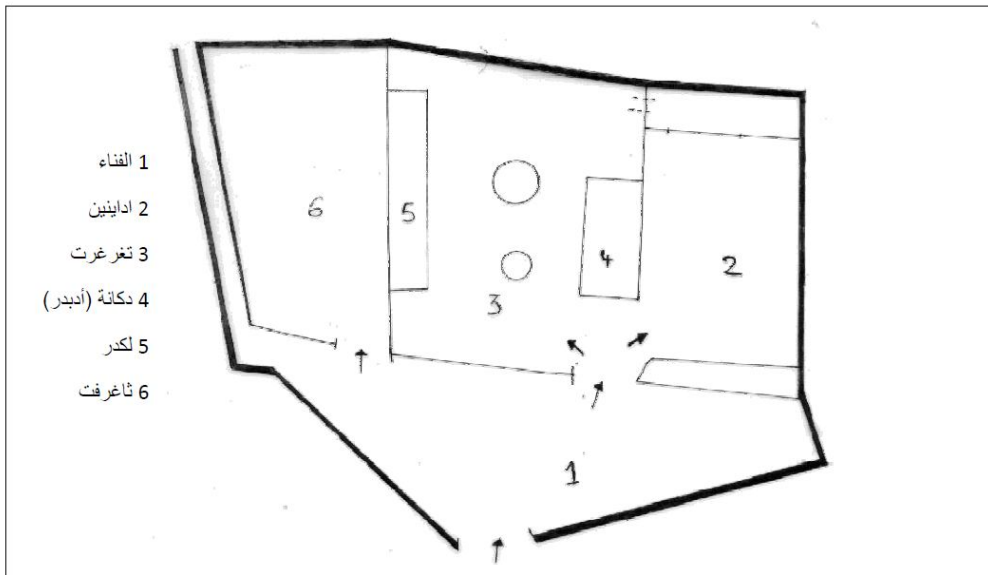
- 1- طريق
- 2- المدخل
- 3- رواق
- 4- الفناء
- 5- بئر
- 6- المطبخ ومخزن المؤونة

7- الميضاة

8، 9 - غرف

10- مدخل بيت الضيافة

11- غرفة نوم

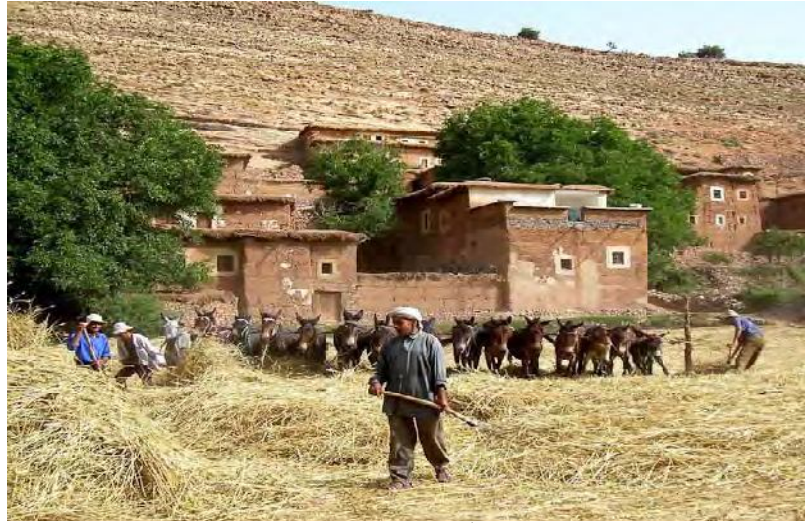


مخطط رقم 5 : مخطط لمنزل بربري من منطقة (أثروثن بني معوش) بريف بجاية بالشرق الجزائري

عن: (عزوق عبد الكريم)



الصورة رقم: 1 المنزل الريفي بالأندلس (منطقة تريفيليز) عن. p60, José Luis Garcia-grinda



الصورة رقم: 2 المنزل الريفي المغربي (منطقة ورزازات) عن: p44, Bruno, Luca Ortelli -



الصورة 1: منزل ذوا طابق بسقف مسطح من قرية الخميس

الاحالات والهوامش:

- 1- عبد الرحمان ابن خلدون، كتاب المقدمة، تحقيق: عبد السلام الشداوي، ط1، بيت الفنون والعلم والآداب، الدار البيضاء، 2005، ص، 67، 193. وانظر:- روافد، الاستثمار في الموارد الثقافية، سلسلة الموارد الثقافية في وادي النضارة، العمارة التقليدية، دمشق، سورية، بدون سنة، ص1، - غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، ط4، دار إحياء الكتب العربية، مصر، 1964، ص. 352، 353.
- 2- مصطفى بن حموش، جوهر التمدن الإسلامي دراسات في فقه العمران الإسلامي، ط1، دار قابس، لبنان، 2006، ص51. وانظر:-
- Luca Ortelli, Bruno Marchand, Marielle Savoyat, Typologie de logements marocains, Modèles d'habitats entre persistances et mutations, Lausanne, Février 2011, p77.
- 3- عهد خزام، العوامل المناخية والبيئية وأثرها على تطوير السكن الريفي (المنطقة الساحلية مثالا)، مجلة جامعة البعث، المجلد 24، العدد 4، دمشق، بدون تاريخ، ص. 140.
- 4- ابن خلدون، مصدر سابق، ج1، ص216. وانظر:- مصطفى بن حموش، مرجع سابق، ص26. - مصطفى التليلي، قصة والقرى الواحية المجاورة حول الحياة الجماعية من بداية القرن 18 إلى 1881، جمعية صيانة مدينة قفصة، 2009، ص137. - مصطفى شاكرا، المدن في الاسلام، حتى العصر العثماني، ط1، ج2، دار السلاسل الإسلامية، 1988، ص52.
- Luca Ortelli, Bruno Marchand, Marielle Savoyat, op-cit, p77.
- CORPUS, Architecture traditionnelle méditerranéenne, Maison urbaine -style arabo-andalou, Maroc, 2001, p.2.
- 6- Luca Ortelli, Bruno Marchand, Marielle Savoyat, op-cit, p27
- 7- عهد خزام، مرجع سابق، ص142. انظر:- شويشي زهية، مجتمع القصور، دراسة في الخصائص الاجتماعية والعمرانية والثقافية لقصور مدينة قفصة، مذكرة ماجستير في علم الاجتماع الريفي، جامعة منتوري، قسنطينة، 2005-2006، ص21. - كريمة بوحريق، تغير البناء العائلي في

المجتمع الريفي الجزائري، دراسة ميدانية بريف الأبيار بلدية الحاسي (ولاية باتنة)، مذكرة ماجستير في علم الاجتماع الريفي، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2009-2010، ص78.

*** - لتفاصيل أكثر عن مواصفات المنزل الريفي بالاندلس أنظر: - يحي أبوا المعاطي محمد عباسي، الملكيات الزراعية وآثارها في المغرب والاندلس (238 - 488هـ) (852 - 1095هـ)، ج1، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ الإسلامي جامعة القاهرة، القاهرة، 2000، ص851.

- André bazzana, La maison rurale dans la péninsule ibérique :un atelier d'ethno-archeologie, in ruralia4, (pamatky archeologické-upplementum15), prague, p.216.
- José Luis Garcia-grinda, Connaître l'architecture traditionnelle pour la mettre en valeur, L'architecture traditionnelle méditerranéenne Territoire, paysage et architecture traditionnelle, in, la Connaissance, p50.

*** - لتفاصيل أكثر عن مواصفات المنزل الريفي بالمغرب أنظر:

- Mickael peyron, Habitat rural et vie montagnarde dans le Haut Atlas de Midelt, Maroc, In: Revue de géographie alpine. Tome 64, N°3 1976., pp. 327-363.

- J.-P. Molénat et J. Passini, L'emploi de la terre dans la construction en nouvelle castille à la fin du moyen âge, L'architecture de terre en méditerranée, Seri colloque et séminaire N°80, Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines -Rabat, sans date, p122.

8- مدينة تلمسان مدينة تقع بالغرب الجزائري وتبعد عن العاصمة الجزائر بحوالي 550 كلم، وقد اعتبرها الزبانيون عاصمة لهم، فهي مهد حضارتهم ومركز حكمهم. انظر في ذلك، محمد رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بعاصمة تلمسان دولة بني زيان، الجزائر 1985، ص25، - محمد عمرو الطمار، تلمسان عبر العصور، الجزائر، 1984، ص45، 46.

**** - مدينة بجاية تقع في الشرق الجزائري ضمن ما يعرف بمنطقة القبائل الكبرى، ولها مكانة تاريخية مرموقة في تاريخ الإمارات الإسلامية التي قامت في بلاد الجزائر، وقد تحدثت عنها الكثير من المصادر والمراجع، نذكر منها: - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، بغداد، بدون سنة، ص82. - الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ليدن، 1864، صص، 90- 91. - عزوق عبد الكريم، المعالم الأثرية الإسلامية ببجاية ونواحيها (دراسة أثرية)، أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2007-2008، ص8، 10.

9- عزوق (عبد الكريم)، مرجع سابق، ص116، 117.

العقلية الربعية وأثرها على السلوكات السياسية

سومار عبد القادر

أستاذ بجامعة سيدي بلعباس

تمهيد :

لقد أدت صدمة النفط في الستينات مع ما ارتبط بها من ثروات مالية ضخمة غير مرتبطة بجهود أو قدرات فنية أو مهارات جديدة إلى إحياء فكرة الربيع والاقتصادات الربعية ففي خلال فترة قصيرة من الزمن تدفقت أموال هائلة بشكل لم يسبق له مثيل على عدد محدود من الدول النفطية ودون مقابل على ظروف الإنتاج مما أعاد للأذهان فكرة الدخول غير المكتسبة ومن ثم وصف الاقتصاديات الربعية وقد انعكست هذه الظاهرة في مجموعة من أنماط السلوك على مستوى الجماعات والأفراد مما تطلب معالجة خاصة، تكمن في الذهاب إلى درب التعاريف والمفاهيم قصد إيضاح محتويات و تجليات الإشكال الذي نخوض فيه ومن بين هذه المفاهيم :

مفهوم الربيع :

إنما نقصد بالربيع الدخل النقدي أو العيني الذي يحصل عليه الشخص بممتلكاته أو من الدولة بصفة منتظمة ويعيش منه دون الحاجة إلى القيام بعمل إنتاجي، فكل دخل خام هبات الطبيعة الدولة لا يبذل فيه صاحبه جهداً إنتاجياً ولا هو نتيجة استثمار فهو (الربيع) سواء كان مصدره داخل البلاد أو خارجه.

إن معنى الربيع أشار إليه ابن خلدون في كتابه المقدمة وقال : "بأنه مذهب في المعاش غير طبيعي".

فالدولة تجمع أموال الرعية وتنفقها في بطانتها ورجالها فيكون دخل تلك الأموال من الرعية و خروجها في أهل الدولة فتعظم بذلك ثروتهم وتكثر غنائمهم وتتزايد عوائد الترف ومذاهبه وتسمى الدولة القائمة عليه "الدولة الربعية".

كما أن مقولة الربيع شهدت تطور عبر مختلف المراحل التاريخية بحيث أخذت معنى مع المرحلة الإقطاعية تبلور من خلال علاقة رجال الإقطاع بالأراضي التي يمتلكونها والفلاحين الذين يسهرون على عملية الإنتاج بحيث تبين لنا أن علاقة الإقطاعي بالأرض لم تكن مباشرة بل كانت تحتاج إلى وسيط الذي لم يكن سوى الفلاح يبيع جهده مقابل حصة نقدية أو عينية. ثم تحول مفهوم الربيع من النظام الكلاسيكي مع "ماركس" إلى ربيع عقاري نتحكم في مجرياته الدولة من خلال استحداث فكرة الضريبة لتكون مصدر أساسي لإيراداتها.

ثم إن مفهوم الربيع مع شكله الرأسمالي أي منذ تبلور الطبقة البرجوازية الصناعية من خلال "ادم سميت" و "ريكاردو" وفيه نلاحظ أن الربيع مدين في شكله الظاهري لفكرة الأرض وكيف أن سعر الإنتاج يختلف بين الأرض الخصبة والأرض السيئة.

ومع الماركسية سيأخذ الربيع طابع فائض القيمة وكيف يتحول العقاري "مالك الأرض" إلى مستحوذ على الربيع دون القيام بأي مجهود أو تنظيم للاستثمار في أرضه. وسيظهر مصطلح الربيع الرأسمالي حين يتحول "مالك الأرض" إلى رأسمالي ثانوي باعتبار أن المستحوذ الكبير على أكبر قدر من الرأسمال هو الرأسمالي الكبير وعلى هذا يمكن القول أن الربيع اعتبر من بدايته من الدخول التي تساعد على التراكم.

ثم إن فكرة الربيع منذ الصدمة النفطية وقيام ثروات مالية ضخمة غير مرتبطة بجهود أو قدرات أو مهارات جديدة وكيف انعكست هذه الظاهرة على أنماط السلوك الاجتماعي في الوطن العربي لا نعني إحياء فكرة الدولة الربعية القديمة في التحليل الاقتصادي وإنما لكي تساعدنا على تقديم بعض العناصر المفيدة في فهم أثر الظاهرة النفطية الجديدة وما خلفته من أنماط السلوك الاجتماعي سواء في طبيعة دور الدولة أو في سلوك الأفراد ونظرتهم إلى النشاط السياسي والاجتماعي دون القول أن فكرة الربيع محددة بصورة كاملة وهذا يستند إلى افتراض أساسي هو أن الدولة الربعية ساعدت على خلق العقلية الربعية.

فالعائد لا يغدو أن يكون رزقا أو حظ أو صدفة وليس جزءا من نظام إنتاجي العقلية الإنتاجية والربيع عمل منعزل لا يرتبط بالظروف أو القدر وليس حلقة في العملية الإنتاجية وما يرتبط بها من جهد ومخاطر ومن هنا يظهر التعارض بين العقلية الربعية والعقلية الإنتاجية وقبل هذه الأخيرة العائد أو المكسب هو نتيجة لعمل إنساني منظم وكجزء على جهد أو مقابل تحمل المخاطر.

مفهوم السلطة

كانت السلطة محل جدل واسع أثار فضول الكتابات الفلسفية والسياسية وأهم المقاربات التي تعنى به هي ما جاء به "ماكس فيبر" وذلك كون أنه سن لنا كيف يتجلى تأثير السلطة كموضوع بحث أثار اهتمام دوركايم، ماركس، توكفيل... وغيرهم كرد فعل لأحداث الثورة الفرنسية.

ولقد تبلورت ثلاث صور أساسية للسلطة هي :

- السلطة التقليدية.
- السلطة العقلانية.
- السلطة الكاريزمية.

وهي مقولات أساسية لعلم اجتماع السلطة عند "ماكس فيبر".

تناول فيبر السلطة من خلال تمييزه بين مفهوم القوة ومفهوم السيطرة.

مفهوم القوة: هو فرض إرادة الفاعل على الآخرين (السلطة) بمعنى فرصة السيد على تحقيق طاعة هؤلاء الذين يدينون له نظرياً ولعل أشهر نماذج السلطة عند ماكس فيبر تتحدد في ثلاث أنواع:

السلطة التقليدية: سلطة تستمد شرعيتها من الاعتقاد بقدسية التقاليد كالسلطة الأبوية وسلطة القبيلة أو العشيرة أو حتى سلطة الأمير التقليدي على أفراد شعبه، إنها سلطة لها قدسية سحرية معينة تقوم على الاعتقاد أن من يخالفا يتعرض للعقاب الإلهي أو نوع من الشر الديني.

السلطة العقلانية: هي سلطة الحداثة السياسية يستمد الحاكم سلطته من قواعد دستورية أي ممارسته السلطة بقواعد غير شخصية.

السلطة الكاريزمية: هي سلطة الإيحاء وبالتالي فإنها سلطة لا تسلم بالعقلانية.

مفهوم العقلانية:

إن عامة الناس قد يقعون في التباس أو خلط بين العقل والعقلية، فإذا كان العقل نشاط ذهني متحرر نسبياً من الضغوطات والظروف الاجتماعية أو المحيطة بنا فإن العقلية أن ترجمة الواقع المعاش في جميع انتصاراته وتشوّهاته فالعقلية هي سلوكات أشخاص يحملون سلطة وخاضعين لإكراه وغير متحررين من مختلف التأثيرات الداخلية والخارجية، وبالتالي فالعقل قد يكون مكوناً متحرراً وقد يكون عقل متكون بمعنى عقلية تترجم سلطة معينة.

إذا كيف تمثلت مختلف الآثار السلبية في السلوكات السياسية؟

وهل استمرارية وتمادي ظاهرة الريع عبر التاريخ وتطور المجتمعات هو الذي جعلها تؤثر على السلوكات السياسية؟ أم هذا راجع إلى تطور مفهوم الريع مع تطور المجتمعات؟ ومن الوجهة الطبيعية هل لطبيعة الجغرافية والمناخ في الوطن العربي دخل في هذا الشأن في ترسيخ هذه الظاهرة؟ أما من الناحية الثقافية ومن جهة أخرى هل ظاهرة الريع هي نتيجة تردّي السبل الداخلية أم هي نسيج أيادي خارجية؟

أما في عوامل تكوين العقلية الريعية في المجتمع العربي، حاولنا إرجاعها إلى عوامل اقتصادية، اجتماعية، تاريخية ودينية.

أما العامل الاقتصادي فقد أدت صدمات النفط في الستينيات وفي فترة قصيرة إلى تدفق الأموال بشكل مذهل مما أعاد للأذهان فكرة الدخول إلى الريع. وما أنجز عنها من انعكاسات على أنماط من السلوك وستظل فكرة الدولة الريعية مجرد محاولة للإحاطة بأهم نتائج الظاهرة النفطية على السلوك الاجتماعي والسياسي.

إن ظاهرة الريع ظاهرة عامة أي ليست من اختصاص اقتصاد معين ففي كل اقتصاد توجد بالضرورة بعض العناصر الريعية. ويجب الإشارة إلى وجود نوعان من الريع:

داخلي: يستند إلى قطاعات إنتاجية داخلية أو محلية.

خارجي: يستند على شبه مساعدات خارجية أو تحويلات من الاقتصاد الخارجي حيث يؤول إلى فئة صغيرة أو محددة تعيد استخدام أو توزيع الثروة على الغالبية من السكان. ولذا سيظل خلق الثروة هو السبب أو محرك النشاط الاقتصادي بينما استخدام الثروة أو توزيعها هو نتيجة لذلك وقد وقفنا إلى وضع فرق بين الدولة الربعية والاقتصاد الربيعي.

ففي حالة مساهمة عدد كبير من المواطنين في توليد الربح الخارجي سيصبح الاقتصاد ربيعيا فحين أن الدولة الربعية هي التي تتمركز حولها رؤوس أموال القوة الاقتصادية وتكون بين أيديها وتتمتع بصفة الاستحواذ والاستيلاء.

إن تفسير أوضاع المنطقة العربية خلال الفترة الأخيرة إنما يستند إلى فرضية أساسية وهي أن الدولة الربعية تساعد على خلق عقلية خاصة هي العقلية الربعية.

أما من الناحية الاجتماعية لقد انعكس هذا الدور (دور الربح) على تشكيل علاقات المجتمع بحيث تم ترتيب هذه العلاقات على نحو يسمح للمصالح الخاصة والفئات الاجتماعية المختلفة بالحصول على أكبر قدر من إعادة توزيع الربح المتحقق لدى الدولة. وقد ترتب عن قيام هذه الدولة الربعية نشوء شبكة من العلاقات توزع وتعيد توزيع المزايا، ومن هنا تشكل المجتمع في شكل هرم لكل موضوعه المتميز، وجاءت ثروة النفط التي قدمت للمواطنين المزيد من الخدمات. وقد أدى هذا إلى ظهور نواة صلبة من العائلات حول نواة الحكم مساهمين في بقائه واستمراره.

وستصبح الدولة الربعية المصدر الرئيسي للتوظيف واليد العاملة وكل المواطنون يتطلعون إلى الدولة لكسب الوظائف الحكومية. وقد أصبح تضخم أجهزة الحكومة يشبه مرحلة الاقتصاد الموجه أو أيديولوجية القطاع العام وبطبيعة الحال فإن إنتاجية الموظفين الحكوميين تكون منخفضة بشكل كلي سواء في مراكز الإنتاج أو حتى الخدمات هي معطلة وربما تكاد تتركز واجبات الموظف العام على "المداومة" في مقر العمل بصرف النظر على نوع وحجم الخدمة التي يؤديها.

وهذا أكبر خطر يترتب على الدولة الربعية كون أنها تخلق هيكل من الشرائح الربعية، وتؤدي بالضرورة إلى تعميق الفروق الفردية بين الطبقات الاجتماعية والحقوق السياسية والمادية.

أما من الناحية التاريخية الدينية إن الحديث عن الدولة الربعية في واقعنا المعاصر سيظل حديثا قاصرا ما لم نبحث في جذوره التاريخية والدينية. فقد عاش العرب قبل الإسلام حياة ريعية وذهنية ريعية، ولما جاء الإسلام لم تعمل الكثير من قبائل قريش بهذا الدين باعتباره ثورة على مصالحهم المادية. ومن هنا كان الهجوم على الأصنام يعني المس مباشرة بعائدات الحج إليها ومن هنا نلاحظ كيف كان الاقتصاد العربي اقتصاد ريعي منذ الأزل.

وإذا تقدمنا في تاريخنا العربي الإسلامي سنلاحظ أن قصة الربح بدأت مع الفتوحات الإسلامية، فالأرض التي تفتح عنوة أي بعد قتال كانت غنيمة حرب وبالتالي طرحت مشكلة في كيفية اقتسامها ومنه كانت اجتهادات عمر بن

الخطاب (رضي الله عنه) بحيث يمثل هذا العصر أي عصر الخلفاء الراشدين في مخيالنا الديني والتاريخي "المدينة الفاضلة" وهل هناك أفضل من مدينة يتلقى أهلها رزقهم مما يأتيهم من غنائم؟

عندما كان أغلب المقاتلين من قبائل بدوية لا يحسنون الزراعة فلجأ كل من حاكم مصر والعراق الشام في عهد "عمر ابن الخطاب رضي الله عنه" بأن يشير عليهم كيفية تقسيم المساحات الشاسعة كسواد العراق وحقول الشام وبساتين مصر. ومنه كان اجتهاد "عمر ابن الخطاب رضي الله عنه" أن تبقى الأرض لما لكيها مقابل دفع كراء للدولة الإسلامية المركزية وبهذا يكون "عمر ابن الخطاب رضي الله عنه" قد أقر لأول مرة في التاريخ موردا ثابتا (ريع) متولد عن كراء الأراضي في الاقتصاد الإسلامي.

إن ترسيخ العقلية الريعية في واقعنا المعاصر إنما يرجع إلى امتداد هذه العقلية في الجذور التاريخية التي ترجع إلى أحسن الحقب الزمنية التي مر بها العرب والمسلمون.

أما فيما يخص أثر العقلية الريعية على السلوكات السياسية فنقول، إن البشرية في صورتها الأولى عرفت ما يسمى بمرحلة مجتمعات الصيد أو الإنسان الزبون بمعنى الإنسان المستهلك، إن الإنسان في صورته الأولية ارتبط مع الطبيعة في صورة زبونية فكانت هي المادة الأولية وكان هو الزبون الأول وعلى هذا فليس الريع بالظاهرة المستحدثة في تاريخ البشرية وهذا ما تحدث عنه "جورج غورفتيش" في كتابه الشهير "الأطر الاجتماعية للمعرفة" ولما كان تاريخ البشرية هو نتاج تراكمات فكان من البديهي أن تكف الطبيعة عن العطاء ما لم يغير إنسان من طريقة تعامله معها، فكان لظهور المجتمعات الزراعية نقطة تحول هامة في تاريخ البشرية ذلك أن اكتشاف الإنسان لحظة الزراعة حوله تحول إلى إنسان منتج، فليس الزراعة في شكلها سوى تعبير عن تحضر البشر واستقرارهم وتحولهم إلى الإنتاج الذي يتطور في المستقبل القريب ويعرف البشر اطرادا متوازنا بين نسبة الاستهلاك ونسبة الإنتاج. لقد دخلت البشرية لحظة اكتشاف الزراعة وهذا طبقا للمثل الصيني القائل "لا تعطيني سمكة بل علمني كيف اصطدها" ومنه سيصبح الريع يعبر عن عقلية الانحطاط البشري وسيستحوذ الريع على حضارة تاريخية وسيؤثر على اهتمام الاقتصاديين والاجتماعيين والسياسيين والفلاسفة لما لهذه الظاهرة من آثار سلبية والتي سوف يظهرها من ناحية السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

إن تظهر أو تبلور العقلية الريعية على المستويات السياسية قد يتجلى من خلال هذا الانقسام الواقع بين الدولة والمجتمع في العالم العربي والإسلامي الذي يعرف غياب صورة المواطنة باعتبار أن علاقته بالدولة علاقة زبونية لا تختلف عن علاقة الإنسان البدائي بالطبيعة بل أقول أن محنة دولة الريع إذا كان بقدرتها توفير ما يلزم من أجل نمو كبير فنقول إن التنمية الحقيقية تفوتها وتظل المحنة قائمة مادام الانقسام قائم بين الدولة والمجتمع. لقد وصل الأمر ببعض كتاب العلوم السياسية إلى القول بأن الحقبة النفطية الجديدة قد عجلت بالموت البطيء لحركة القومية العربية، وأن بداية هذا الموت يمكن أن تؤرخ بمؤتمر الخرطوم عام 1967 حيث نكسة رايات الثورة وبدأت تعلو رايات الثروة. وهنا بدأ تكريس الدولة القطرية بدل مشروع وحلم توحيد الأمة العربية، والاهتمام بأهداف قطرية محدودة بأهداف

إقليمية متعارضة مع المطامح القومية فتوزعت الجنسية العربية إلى جنسيات مختلفة، وقد عملت الدولة الريعية إلى تكريس المصلحة الفردية والأنانية فقسمت الشعوب العربية إلى قطيع من الأغنام وبدأ العمل على تجهيلها وعزلها عن بعضها البعض وربما هذا ما أدى إلى تحول الربيع النفطي من نعمة لهذه الدول إلى نقمة، وحول هذه المجتمعات والشعوب من مسار وسبيل الثورة إلى مجتمعات وشعوب أسيرة الثروة. كما أن العقلية الريعية هي عقلية مشدودة دوماً بفكرة الثبات إذ أنه حتى في ظل التحول نحو دولة الحداثة والاقتصاد المنتج نجد خطاب السلطة الرعوية على ذهنية حاكم الدولة الريعية، كما أن التحول الاقتصادي نحو اقتصاد منتج لا يفرض بالضرورة تحرر هذه الطبقة من سلطة الحاكم الرعوي ذلك أنهم يظلون تحت هيمنة هذا الحاكم الرعوي وتقلباته السياسية وعلى هذا فالحاكم المتجه نحو الانفتاح الاقتصادي يمكنه أن يحافظ على الجزء الأكبر من المركزية في السلطة دون أن يواجه معارضة أو نفورا من رجال الأعمال لأن هؤلاء غالباً ما تغريهم سياسة الانفتاح المتحيزة.

كما أن مآزق الدولة الرعوية إنما يكمن في إنتاجها سياسة المعاملة بالمثل سواء بالنسبة إلى الطبقات الغنية أو الفقيرة ولا كيف تفسر على سبيل المثال مجانية التعليم بالنسبة لكافة الطبقات الاجتماعية على مستوياتها المادية؟ إن المآزق في سياسة التعليم لدى الدولة الرعوية هو ضخامة رأس المال المخصص للمنظومة التربوية ومآزق ذلك راجع إلى خوفها من المدارس الخاصة ليس لمستوى ما تقدمه من تعليم ولكن إلى أن هكذا نوع من التعليم لا يتوافق مع الجانب العقائدي الذي تقوم عليه الدولة الرعوية.

ومن نتائج المسار الاقتصادي الرعوي هو سقوطه في الاستلاب من حيث تتحالف الدولة الرعوية مع المستهلك على حساب المنتج، من خلال تدخلها المستمر أيضاً في الحركة الاقتصادية والإنتاجية، ومن مظاهر هذا الاستلاب هو تحصيل الرزق من مصادر أخرى بدون اللجوء إلى الإجراءات القانونية، ومن أجل حل المعضلة الاقتصادية هو أمر تعودت عليه الدولة الريعية وترسخ فيها وبهذا فإنها تؤجل المشكلة ولا تحلها.

كما أن قوة الدولة الريعية وتموقعها على المستوى الداخلي وحتى الخارجي لن يتحقق إلا من خلال ما يعرف بالإنفاق العسكري وهذا يعتبر شكلاً من أشكال التخريب الاقتصادي وهذا الإنفاق يكرس النمط الاستهلاكي. وأمام الوفرة المالية الضخمة أصبحت الدولة الريعية تخشى على سلطتها ونفوذها وهذا ما يدفعها إلى تبني المزيد من الإنفاق العسكري وأجهزة القمع. وكنتيجة لذلك تتحالف سلطة الدولة الريعية مع سماسة جدد تحتفي بهم ويحتمون بها.

وما التمسته من نتائج وأثار للعقلية الريعية على ممارسة السلطة سواء على المستوى السياسي بانفصام الدولة عن المجتمع وظهور الدولة القطرية واندثار مشروع الوحدة وكذا السياسة المركزية السلطوية إضافة إلى ما التمسته أيضاً من آثار في الممارسة الاجتماعية في سياسة التعليم وظاهرة الاستلاب وتضاعف الإنفاق في أجهزة القمع وبدون تفصيل التمسنا أيضاً نتائج سلبية في ممارسة الاقتصادية للسلطة كالتبعية للخارج والاستثمار في الأسهم بدل الإنتاج وكذا تفشي ظاهرة الربيع حتى عند الدول غير البترولية أو ما يسمى بالدولة الشبه الريعية.

ينطلق علم الاجتماع من مقولات تبدو وكأنه بديهية من ذلك مثلا أن الذهنية أو العقلانية هي تمثيلات اجتماعية قد تكون أسبابها اقتصادية وإذا كانت الظاهرة الاجتماعية لا يمكن الوقوف عنها إلا من خلال المتخفي والمستتر فيها فإننا حاولنا قدر الإمكان أن نقف عند حدود ألا مفكر فيه داخل العقلية الريفية. فتوقفنا بشيء من التحليل عند حدود جذورها التاريخية والدينية وتابعناها في صيرورتها الحالية متسائلين مفكرين محللين محاولين الوقوف على دلالتها العميقة طامحين إلى نسق الأطر والمكانزمات التي لا زالت تكرسها وتؤسسها. إنها محاولة استئناف نظر لا ندعي من ورائه الإحاطة الكاملة الشاملة، ولكن سيظل السؤال يلازمنا تجلياته مادامت العقلية الريفية هي التي تصنع الحدث التاريخي في الوطن العربي عموما والجزائر خاصة.

عن هكذا قراءة انطلقت تشخيص ظاهرة الريع وكل إفرزاتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ولنا الطموح بأننا طرحنا السؤال الأبدي الأزلي ما العمل؟ Que faire.

ولاحظنا أن إحداث القطيعة مع الذهنية الريفية لن يتحقق إلا بالانتقال من ذهنية الإنسان الزبون إلى ذهنية الإنسان المنتج.

المراجع:

- 1 - "الأمة والدولة والاندماج في الوطن العربي"، كتاب لمجموعة من المختصين الجزء الأول والثاني، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1989.
- 2 - حازم البيلالي، الدولة الريفية في الوطن العربي، ج 1، سبتمبر 1987.
- 3 - محمود عبد الفضيل، الفكر الاقتصادي العربي وقضايا التحرر والتنمية والوحدة، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، أكتوبر، 1985.
- 4 - هشام شرابي، النظام الأبوي، دار الغريب للنشر وهران، 2002.
- 5 - عبد اللطيف بن أشنها، مدخل إلى الاقتصاد السياسي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الطبعة 02، 1991.
- 6- L. Addi : « l'impasse du populisme Enal, Alger 1990.
- 7 - A. Yafsah » le Processus de légitimation du pouvoir Militaire et la construction du l'état en Algérie.
- 8 - جورج طرابشي معجم الفلاسفة، دار الطليعة بيروت، ط 1.

النسق الأسري وعلاقته بانحراف الطفل

قميدي محمد فوزي

جامعة تلمسان

مقدمة

تعتبر الأسرة أحد أقدم النظم الاجتماعية الأساسية ، لا يخلو منها أي مجتمع ، فهي النواة التي تعكس تصرفاته ، كما أنها عبارة عن جماعة متماسكة تستجيب للأحداث بطريقة متباينة عن أي جماعة أخرى ، والفرد بدوره يستجيب وفقا لمشاربه الأسرية ، ذلك لأن الأسرة هي الوحدة الأولى البيولوجية والنفسية والمعرفية والاقتصادية التي ينشأ فيها الطفل ويتفاعل مع أعضائها كما تفاعل في تطوره البيولوجي مع مختلف أعضائه بالتعرف على معالمها وأدوارها ، فيها تبرز أولى معالم شخصيته في سنواته الأولى المبكرة .

من بين أدوار الأسرة كنسق هام وفعال في المجتمع عملية التنشئة الاجتماعية ، فهي تقوم بدور هام في تكوين شخصية الطفل وتحديد المعالم الأساسية المستقبلية فلا يجد أمامه مفرا من أن يتشبع وهو ما يزال في مراحل تكوينه البدائية بكل ما تقدمه الأسرة له .

وعليه فالأسرة مسؤولة في تقرير النماذج السلوكية وتصويبها حسب تركيبتها وتكوينها ومبادئها والتي يبدو عليها الطفل في كبره ، فلا شك أن شخصية الإنسان وفكرته عن هذا العالم ، وما يتشربه من تقاليد وعادات وقيم ومعايير للسلوك إنما هي نتاج لما يتلقاه الطفل في أسرته منذ يوم ميلاده . ولهذا اهتم الباحثين والعلماء بتتبع أسباب الانحراف وعوامله في إطار نمو الشخصية وأبعاده المختلفة ، وطريقة المعاملة في الصغر ابتداء من الطفولة المبكرة حتى سن الرشد .

كما اتجه العديد من الباحثين إلى دراسة العلاقة بين ما يحدث داخل الأسرة من مشاجرات وصراعات وتصدعات وبين انحراف الأطفال ، فإذا كان يسود الأسرة جو سوي صالح نشأ الأولاد على نهج قويم وسلوك رشيد والعكس إذا كان هذا الجو مضطربا بالاعوجاج حيث ينشأ الأطفال منحرفين أو قابلين لتعرض للانحراف في أي وقت .

لذا ومن خلال ما تقدم يمكن أن نتساءل عن المقاربة أو العلاقة بين العوامل التي قد تجر بالأطفال لانحراف وأهمها ما تعلق بالأسرة ؟ فعوامل الانحراف داخل الأسرة كثيرة وعديدة يمكن إرجاعها إلى نوع العلاقات بين الوالدين و

الطفل، أو بين الإخوة والطفل، أو إلى التصدع والتفكك الأسري، وكذا إلى الضغوط الخارجية التي تتعرض لها الأسرة كالضغوط الاقتصادية. هل لها تأثير على ظاهرة انحراف الطفل؟؟

أولا مفاهيم الدراسة:

1/ تعريف النسق:

لقد ظهرت العديد من المحاولات لتعريف النسق وهي محاولات تفاوتت في دقتها ووضوحها. ولعل أفضل هذه التعاريف هو ذلك الذي قدمه هارتمان ولاريد. فالنسق استناداً إليهما هو ذلك الكل والذي يتكون من أجزاء متداخلة فيما بينها ومعتمدة على بعضها البعض⁽¹⁾، كما قد تعرف بأن الأنساق مجموعة أجزاء أو وحدات بينهما اتصال داخلي تؤثر هذه الأجزاء على بعضها البعض وقد تتكون هذه الأجزاء كما هو الحال في جسم الإنسان، أو أفراد كما هو الحال في الأسرة، أو مجموعات كما هو الحال في المجتمعات، وتتجمع هذه الوحدات وتتبادل التأثير والتأثر من خلال التواصل⁽²⁾.

ومنه يمكن تعريف النسق الأسري اصطلاحاً كما يلي: هو مجموعة من الأفراد يكونون نسق مفتوح، يتكون من الأفراد محددى الأدوار والأفعال الذي يتمثلون بها، ويكونون في حالة تطور مستمر يطور على شكل معلوماتية عن طريق الاتصال

أوان النسق الأسري هو النسق الحي المعقد الذي يتميز بالضبط الذاتي، ويعتبر الاستقرار والتغيير مفهومين ضروريين لبقائها واستمرارها وتطويرها، فالنسق الأسري هو الكل المركب من أفراد الأسرة، وما يحيط بها من حيث يتميز هذا الكل بالدينامية والسيورة العلانية، والتبادل المستمر بين الأفراد الأسرة والمحيط الخارجي ضمن سياق اجتماعي خاص

2/ الأسرة:

اشتقت كلمة الأسرة من الكلمة اللاتينية التي تعني الأب والأم والأبناء أو مجموعة من الكائنات لديها مميزات أو صفات مشتركة⁽³⁾.

ويعرفها الباحث بيرجس ولوك أنها مجموعة من الأفراد يتحدون بروابط الزواج أو الدم، ليكونوا مسكناً مستقلاً ويتفاعلون في تواصلهم مع بعضهم البعض بأدوار اجتماعية مختصة كزوج وزوجة وأم وأب، وابن وابنة... وهي كذلك جماعة اجتماعية لا يمكن تجزئتها وتقسيمها إلى جماعات أخرى

كما يعرفها الباحث مصطفى خشاب على أنها مؤسسة اجتماعية وضرورة حتمية لبقاء الجنس البشري ودوام الوجود الاجتماعي، فقد أودعت الطبيعة هذه الضرورة في الإنسان بالفطرة⁽⁴⁾.

إن الأسرة أساس بناء الكيان التربوي وإيجاد عملية التركيب للبنية التربوية في المجتمع وتلقين الفرد فيها العادات التي تبقى ملازمة له طول حياته فهي الذرة الأولى في تكوين النمو الفردي وبناء الشخصية، كما للأسرة أثر كبير في تكوين النفسي وتكوين السلوك الفردي وبعث الحياة والطمانينة في نفس الطفل وتزويده بالقيم المختلفة

كأخلاقية و الدينية و غيرها التي توجهه في الحياة وتدعم رصيده الثقافي وتحدد ما يجب أن يتصف به وما لا يجوز انتهاجه في المجتمع.

كما ويتفق علماء النفس الاجتماعي في التركيز على دور التنشئة الاجتماعية للصغار و الكبار و أهميتها في تشكيل سمات الشخصية الأساسية ، وتشكيل الأفعال وردود الأفعال في المستقبل .⁽⁵⁾

3/الطفل/ الحدث

الحدث في اللغة العربية هو الفتى في السن ، أي الشاب ، فإذا ذكرت السن قلت حديث السن ، وهؤلاء غلمان حدثان أي أحداث وكل فتى من الناس و الدواب حدث ، والأنتى حدثه ، ويقال للغلام القريب السن والمولود حدث ، وحداثة السن كناية الشباب وأول العمر ، كذلك هو جمع أحداث من الحداثة عكس القدم ، ويختلف العلماء في تعريفهم تبعاً لاختلافهم في تحديد السن التميز ومرحلة بلوغ الرشد⁽⁶⁾.

• الحدث في علم الاجتماع

الحدث أو الطفل في علم الاجتماع بوجه عام هو الصغير منذ ولادته وحتى يتم له النضج الاجتماعي وتتكامل لديه عناصر الرشد. وإذا كان من السهل حسب هذا التعريف تحديد بداية مرحلة الطفولة أو الحداثة إذ أنها تبدأ بالميلاد غير أن تحديد نهاية هذه المرحلة ليست بتلك السهولة ولهذا فإن علماء الاجتماع اختلفوا في تحديد الفترة التي تنتهي عندها تلك المرحلة أو بمعنى آخر اختلفوا في تحديد بداية المرحلة التالية التي تعقب مرحلة الطفولة ، وهي مرحلة الرشد والنضج الاجتماعي⁽⁷⁾ . وهناك من حدد نهاية مرحلة الطفولة بتمام الثامنة عشر في حين رأى آخرون أن مفهوم الحدث يظل ملاصقاً لطفل منذ مولده حتى طور البلوغ بينما يذهب الفريق الثالث إلى أن مرحلة الحداثة تبدأ من ميلاد وحتى سن الرشد ، وتحديد هذه المرحلة يختلف من ثقافة إلى أخرى ، فقد تنتهي عند بلوغ أو الزواج أو يصطلح على محددة لها⁽⁸⁾.

• الحدث في علم النفس

الحدث في علم النفس يبدأ من تكوين الجنين في رحم الأم وتنتهي هذه المرحلة بالبلوغ الجنسي الذي تختلف مظاهره في الذكر عنه في الأنثى⁽⁹⁾.

و معنى ذلك أن تحديد الحدث في علم النفس يختلف من حالة إلى أخرى ، رغم تماثل أفراد كل منهما من حيث السن ، وذلك تبعاً لظهور علامات البلوغ الجنسي ويترتب على ذلك أن الشخص الذي يبلغ سن العشرين من عمره يظل حدثاً إذا لم تظهر عليه علامات البلوغ الجنسي. في حين يعتبر الشخص بالغاً وليس حدثاً في مفهوم علم النفس ولو لم يتجاوز العاشرة من العمر مادامت علامات البلوغ الجنسي قد ظهرت لديه و بذلك يمكن تقسيم مراحل حياة الفرد إلى ثلاث مراحل رئيسية الأولى هي : مرحلة التكوين الذاتي ، أي مرحلة التركيز على الذات ، الثانية : مرحلة التركيز على الغير ، و الثالثة : مرحلة النضج النفسي و فيها تتكامل الشخصية و القدرات النفسية لدى الحدث الذي يكون في هذه الحالة ، قادراً على التفاعل الإيجابي في المجتمع⁽¹⁰⁾.

• الحدث عند رجال القانون

وقد عرفه رجال القانون بأنه الصغير الذي يقع عمره ما بين سن التمييز و سن الرشد القانوني⁽¹¹⁾ و عددوا مرحلة⁽¹²⁾

- انعدام المسؤولية : تبدأ هذه المرحلة بالولادة وتنتهي ببلوغ سن التمييز وقد اعتبر القانون الصبي عديم الإدراك وبالتالي أعفاه من المسؤولية
- المسؤولية المخففة تبدأ هذه المرحلة ببلوغ سن التمييز وتنتهي ببلوغ سن الرشد الجزائي والذي يصبح بعده مكتمل الأهلية والتي تنقسم هذه المرحلة إلى فترتين نظرا لنقص أهلية الحدث وعدم وصوله إلى سن الإدراك التام ، فالفترة الأولى لا يطبق فيها بشأن الحدث الجانح أي عقوبة بل يكتفي فيها بتطبيق تدابير وقائية لا غير ، والفترة الثانية يجوز فيها للقاضي الخيار بين تطبيق التدابير الوقائية أو العقوبة المخففة .

أما عن موقف المشرع الجزائري في هذا الشأن فقد قسم الأحداث إلى فئتين

- الأحداث دون الثالثة عشر : الذي يقل سنه عن الثالثة عشر غير أهل للمسؤولية الجنائية ، فلا يجوز بأي حال من الأحوال أن يحكم عليه بعقوبة ، المادة 49 من قانون العقوبات الجزائري⁽¹³⁾ إلا أن المشرع الجزائري واجه الجرائم المرتكبة في قبل في هذا السن بتوقيع إحدى تدابير الحماية أو التربية .
- الحدث من الثالثة عشر إلى الثامن عشر : يخضع القاصر في هذه الحالة لتدابير الحماية أو التربية أو لعقوبة مخففة كما يجوز لجهة الحكم بصفة استثنائية بالنسبة للأحداث البالغين من العمر أكثر من ثلاثة عشرة سنة أ ، تستبدل أو تستكمل التدابير المنصوص عليه في المادة 444 بعقوبة الغرامة أو الحبس المنصوص عليها في المادة 50 من قانون العقوبات إذا ما رأت ذلك ضروريا نظرا للظروف أو لشخصية المجرم الحدث على أن يكون ذلك بقرار توضح فيه أسباب خصيصا بشأن هذه النقطة⁽¹⁴⁾ .

أمام تذبذب هذه المقاييس كان من الضروري إيجاد مقاييس موحدة لوضع تعريف للحدث وبعد عدة دراسات لم يجد الباحثون أفضل من مقياس السن لتحديد مفهوم الحدث ولقد تبنت القوانين الوضعية هذا المقياس لوضع سن يبدأ معها الحديث عن الحرية الجنسية من حيث حرية الاختيار والتعبير الإرادة ، ويعرف الحدث " بأنه الصغير من كل مولود ذكرا كان أم أنثى الذي لم يصل بعد مرحلة الحلم"⁽¹⁵⁾ ، لقوله تعالى { وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا } " سورة النور الآية 31"⁽¹⁶⁾ وتنظم هذه المرحلة الأعمار التي تمتد ما بين مرحلة الجنين ومرحلة التمييز ومرحلة الرشد وهي مرحلة الاعتماد على النفس .

إلا أننا نجد استعمال كلمة الحدث ، الطفل ، القاصر ، الصغير التي تعني ، السن أو الفترة الزمنية المبكرة من عمر الإنسان ، تختلف من تشريع لآخر ، فبعض الفقهاء لا يرون مانع في استعمال مصطلح الحدث لأنها كلمة جرى العمل بها في مختلف القوانين

ويري الدكتور محمود مصطفى أن كلمة قاصر مبدئياً تعني⁽¹⁷⁾ "الشخص الذي لم يصل سن البلوغ الجنائي ، أي سن المسؤولية الجنائية ، أو سن تحمل العقوبة فهي كلمة تنطوي على مضمون معين محدد و لذلك يكون من الأوفق استعمال تعبير الأحكام الخاصة بالقاصر بدلا من قانون الأحداث"

ولكن المشرع الجزائري و للتعبير عن صغر السن يستعمل مصطلح قاصر ، طفل ، حدث وذلك مثلاً في :

- قانون حماية الطفولة و المراهقة الصادر بمقتضى أمر رقم 72 - 03 المؤرخ في 25 ذي الحجة 1391 الموافق لـ 10 فبراير 1972 في مادته الأولى تنص على "إن القصر الذين لم يكملوا الواحد والعشرين عاماً"
- قانون العقوبات بمقتضى أمر رقم 156/66 المؤرخ في 18 صفر 1386 الموافق لـ 08 يونيو 1966 المعدل و المتمم يستعمل مصطلح القاصر في المادة 49، 50، 51 مثلاً و في المواد 326، 328، 329 ، أما مصطلح الطفل فاستعمله مثلاً في المواد 314 ، 315 ، 316 ، 317 ، 320 ، 321 من قانون العقوبات والتي تناولت هذه المواد موضوع ترك الأطفال .

أما مصطلح الحدث فقد استعمله المشرع الجزائري في المادة 444 من قانون الإجراءات الجزائية .

4/ الانحراف

يعرف المعجم الوسيط الانحراف لغة بأنه " انحراف مزاجه أي مال عن الاعتدال"⁽¹⁸⁾ ،

و يعرف من الناحية الاجتماعية بأنه أي سلوك لا يكون متوافقاً مع التوقعات و المعايير التي تكون معروفة داخل النسق الاجتماعي و يشارك فيها الشخص باقية أفراد المجتمع " والخروج عن قواعد الجماعة يعتبر نمط من أنماط معينة من السلوك البشرية ، و معنى ذلك أن هناك أنواع من السلوك يجرمها المجتمع على أفرادها و أن المجتمع في تحريمه لهذا السلوك يراعي مصالحه و أمنه و استقراره"⁽¹⁹⁾

و يُعرف من الناحية النفسية بأنه السلوك الخطأ للفرد أثناء محاولته شق طريق في الحياة طمعاً في تحقيق عمل أو مركز اجتماعي أو الاندماج مع جماعة معينة"⁽²⁰⁾ .

إلا أننا نجد في بعض الدراسات أن للانحراف مدلول واسع وآخر ضيق للتعريف القانوني

- أما عن المدلول الضيق للانحراف هو ارتكاب فعل جرمي يعاقب عليه الرأشد ولا يشمل الانحراف المتوقع أو ما قبل الانحراف حسب ندوة منع الجريمة و معاملة المجرمين في البلاد العربية المنعقد في كوبنهاغن سنة 1959⁽²¹⁾، و حسب المؤتمر الدولي الثاني لمكافحة الجريمة و معاملة المذنبين المنعقد في لندن أوت سنة 1960 فيقتصر مفهوم انحراف الأحداث على مخالفة القانون الجنائي دون أن يشمل الحالات الأقل خطورة التي لا يعاقب عليها قانون العقوبات حتى ولو كانت تنبئ بأن الحدث في خطر و يحتاج إلى حماية خاصة، و يعرف مكتب الشؤون الاجتماعية التابعة للأمم المتحدة الحدث المنحرف بأنه شخص في حدود سن معين يمثل أمام هيئة قضائية أو أية سلطة أخرى بسبب ارتكابه جريمة لتلقي رعاية من شأنها تيسير إعادة تكييفه الاجتماعي⁽²²⁾.

- المدلول الواسع يشتمل على المرحلة ما قبل الانحراف ليشمل المرحلة السابقة والتي سماها المشرع المصري "مرحلة التعرض للانحراف" و حددها على سبيل الحصر لخطورتها الاجتماعية، لتذهب بعض التشريعات إلى تقسيم هذه الفئة إلى أحداث متشردين و أحداث سيئي السلوك و يستعمل بعض التشريعات الأخرى ما يسمى مقدمات الانحراف أو المظاهر الكاشفة.

و من خلال هذه التعاريف فيمكن أن نستند إلى تعريف معهد دراسات علم الاجتماع الإجرام في لندن في أحد تقاريره الصادرة سنة 1955. مؤيدين موقف الدكتور زيدومة درياس بأن الحدث المعرض للانحراف كل شخص تحت سن معينة لم يرتكب جريمة طبقا لنصوص القانون إلا أنه يعتبر لأسباب مقبولة ذات سلوك مضاد للمجتمع تبدو مظاهره في أفعاله و تصرفاته لدرجة يمكن معها القول باحتمال تحوله إلى مجرم فعلي إذا لم يتدارك أمره في الوقت المناسب باتخاذ أساليب الوقاية

و نشير هنا انه و رغم انقسام التعاريف و تحديد مفهوم الانحراف إلا أن الثابت هو أن جميع التشريعات بما فيها التشريع الجزائري تأخذ بالمفهوم الواسع للانحراف و ذلك من خلال النصوص القانونية التي تحدد سن الرشد الجزائي و سن الحدث المعرض للخطر و كذا إجراءات و التدابير التي تتخذ اتجاه الأحداث المعرضين لخطر الانحراف و تدابير عقابية للمنحرفين⁽²³⁾

ثانيا : اضطراب النسق الأسري وعلاقته بانحراف الطفل

إن الحديث عن اضطراب النسق الأسري يشير إلى عدم قدرة النسق في التحكم الذاتي بما في ذلك عدم القدرة على التوازن والاستقرار ، وتجاوز التغيرات والتكيف مع المتطلبات الجديدة في الأسرة والمجتمع والذي يتواجد فيه هذا النسق وهذا كله يدل على اضطراب في ميكانزمات رد فعل قد تكون سلبية أو الموجبة وضع الحلول السلبية لصراعات ، غموض الحدود السائدة داخل الأسرة، المعاملة السيئة والتحالف بين بعض الأفراد ضد الآخرين داخل الأسرة، فالشدوذ في حوض النسق الأسري ليس بقضية فردية وإنما عبارة عن توتر السيورة العلانقية داخل هذا النسق.

كما اتجه العديد من الباحثين إلى دراسة العلاقة بين ما يحدث داخل النسق الأسري من مشاجرات و صراعات وتصدعات وبين انحراف الأطفال ، فإذا كان يسود الأسرة جو سوي صالح نشأ الأولاد على نهج قويوم وسلوك رشيد والعكس إذا كان هذا الجو مفعما بالاعوجاج حيث ينشأ الأطفال منحرفين أو قابلين لتعرض للانحراف في أي وقت.

لذا فعوامل الانحراف داخل نسق الأسرة كثيرة وعديدة يمكن إرجاعها إلى نوع العلاقات بين مكونات الأسرة مثل العلاقة بين الوالدين والطفل ، أو بين الإخوة والطفل من جهة ، وإلى التصدع البنيوي للأسرة كالتفكك الأسري ، وكذا إلى الضغوط الخارجية التي تتعرض لها الأسرة كالضغوط الاقتصادية من جهة أخرى .

1/ : اضطراب العلاقة بين الوالدين والأطفال

تلعب طبيعة العلاقات الأسرية دورا هاما في انحراف الأطفال ، فطبقا للأنماط السلوكية المتبادلة بين الطفل و أبويه يتحدد سلوك الطفل ، فإما أن تلعب تلك العلاقات دورا ايجابيا في حماية الطفل من الانحراف ، أو أن تمارس دورها السلبي في دفعه بصورة مباشرة وقوية نحو الانحراف .

وتقوم العلاقات بين الطفل والوالدين على أساس الارتباط المتبادل فيما بينهم ، والأدوار المنوطة داخل النسق التربوي ومجموعة من الأساليب التربوية التي يستخدمها الآباء لضبط سلوك الطفل .وتتضمن هذه العلاقات تفاعلا مستمرا بينهما وتأثيرا متبادلا، وقد وضحت دراسات باترسون Patterson التي أجراها على لأطفال ذكور أعمارهم من 9 - 12 سنة إنهم عدوانيون نتيجة التأثير والتأثر المتبادل بين الطفل والوالدين⁽²⁴⁾

وعليه فالفاعل بين الطفل و الوالدين يكون سلبا أو ايجابيا حسب طبيعة العلاقة و طبيعة كل منهما.... فالطفل مساهم نشيط في تشكيل استجابات أبائه، كما أن الآباء يعملون على تعزيز سلوكيات أطفالهم ،إن كانت عدوانية فهي تزداد عدوانية وهكذا .

وان مشارب اتجاهات الوالدية هي المحدد الرئيسي لسلوك الطفل في أي مكان كان ، سواء في لبيت أو في المدرسة ، حيث أن الأسرة هي الرقيب الاجتماعي في سلوك الأطفال و حمايتهم من الانحراف السلوكي و الأخلاقي ، وهي التي

تساهم في تعريض الأطفال على حافة الانحراف كالسماح لهم بتجاوز الحقوق الآخرين، وعدم احترام الهيئات التربوية في المدرسة وتسربه، وفشله التعليمي.⁽²⁵⁾

وقد أثبتت العديد من الدراسات أن العلاقة الجيدة بين الوالدين و الطفل هي من العوامل المهمة المؤثرة في التنشئة الاجتماعية السوية، وأن الأطفال العدوانيين والمضطربين عاطفياً والمتأخرين دراسياً قد تعرضوا للقسوة ونبتذ من الوالدين، وأن 80 - 90% من الأطفال الجانحين في طفولتهم هم ضحايا سوء معاملة الوالدين و النبذ و التسلط الذي عاشوه في طفولتهم.⁽²⁶⁾

ومما سبق نجد أن سلوك الأطفال ونمو شخصيتهم يتأثر إلى حد كبير بسلوك الآباء في الأسرة، والأساليب التي يتبنونها في تربيتهم لأبنائهم، حيث أن استبداد الآباء في البيت وقسوتهم على أبنائهم قد يؤدي بهؤلاء إلى سلوك مضاد ومنحرف والعكس صحيح.

وقد أوضحت دراسات أنستازي Anstasi 1968 أهمية تفاعل الوالدين و الطفل و انعكاس ذلك التفاعل على نمو شخصية الطفل و سلوكه الاجتماعي فهناك علاقة ارتباطية بين أساليب المعاملة الوالدية و بين أنماط الشخصية و سماتها، وقد يضل هذا التأثير معه إلى سن متقدم من العمر.

2/ :العلاقة بين الطفل والإخوة

العلاقة بين الإخوة تربط بتعداد الأفراد داخل النسق الأسري من جهة، ومن جهة أخرى بالعلاقة الزوجية. فعندما يزداد حجم الأسرة، تقل فرصة التواصل بين الآباء والأطفال لكن يزداد التفاعل بين الإخوة و تتضارب مصالحهم. وأن الإخوة كالأبناء مصدرين لتعلم الاتجاهات و المعتقدات و أنماط السلوك لجماعة ما. فهم يعملون على ضبط سلوكياتهم داخل الأسرة، كما أن مجرد ترتيب الطفل بين إخوته، كالأول أو الصغر، يعتبر متغير أساسي يؤثر في نمو الطفل النفسي و الاجتماعي.⁽²⁷⁾

فالإخوة و الأخوات عليه أكثر تأثيراً في الطفل من الوالدين، حيث أن الأطفال يفهمون غالباً بعضهم البعض بدرجة أكبر من الراشدين نظراً لتماثل منزلتهم و مشكلاتهم، كما يتحدثون بنفس اللغة، و يتبادلون العبارات المألوفة لديهم، ويشتركون في نوع واحد من الخبرات، فلذلك فإن رأي الأخ الأكبر أو الأخت الكبرى يكون أكثر تقبلاً من جانب الطفل أو الأطفال الآخرين.⁽²⁸⁾

ويرى "أدلر" أن الأخ الصاغر يشعر بالنقص نحو أخيه الأكبر، مما يضطره بتعويض النقص بإظهار التفوق على من يكبره من إخوة و أخوات. أما مورفي و ينوكومبي فيريان أن ترتيب الطفل بين إخوته في حد ذاته ليس عاملاً مؤثراً في شخصية الطفل، بل أن ما يؤثر فيه اختلاف معاملة الوالدين.⁽²⁹⁾ فتوافق العلاقة بين الأبناء أو توترها يرجع إلى طبيعة

المعاملة الوالدية بين الأطفال ، حيث إذ اتسمت المعاملة الوالدية بتفضيل طفل عن آخر ، من شأنه إثارة روح التنافس و التنازع و الغيرة بين الإخوة بل و حتى الكراهية و الحسد بينهم . ونستنتج مما سبق أن الإخوة هي عامل مهم في عملية التنشئة الاجتماعية ، وان التفاعل بينهم يساهم بشكل كبير في تحديد توجهات الطفل و سلوكه .

3/ انعكاسات التفكك الأسري لاضطراب في النسق الأسري نفسه

التصدع الأسري يتخذ صورتين إحداهما فيزيقية و الثانية سيكولوجية ويعني التصدع الأسري الفيزيقي فقدان احد الوالدين عن الحياة الأسرية بالموت ، الهجرة ، الانفصال أو الطلاق .

أما التصدع السيكولوجي للأسرة هو ذلك التصدع الذي يبدو من خلال إدمانه الخمر ، المرض العقلي أو النفسي ، الاضطراب الانفعالي للأباء ، المناخ المتميز بالصراع الداخلي والتوتر المستمر⁽³⁰⁾ .

وان الأسرة المفككة و المتصدعة أيا كان السبب تفككها يتولد عنها اضطراب نفسي لدى الطفل ، وعدم الاستقرار قد يدفع به إلى الإجرام .

وقد أكدت الكثير من الدراسات أن نسبة كبيرة من الجانحين خاصة من الأحداث ينتمون إلى عائلات متصدعة ، حيث أوضح بحث عن "السرققة عند الأحداث" الذي أجراه المركز القومي للبحوث الاجتماعية و الجنائية ارتفاع نسبة حالات طلاق الوالدين بين الجانحين الأحداث إذ تتراوح بين 10.7 و 11% بينما النسبة العامة لطلاق في مصر لا تزيد عن 2.3% في الألف من السكان و ذلك من سنة 1955 التي اتخذت أساسا للبحث⁽³¹⁾

كما أكدت الأبحاث العديدة أن طبيعة العلاقات و العادات و القيم الأخلاقية التي تسود أعضاء الأسرة تساهم في دور فعال في توجيه السلوك الأحداث ، فقد لا تكون الأسرة متصدعة ماديا بل متصدعة نفسيا كانهدام الرعاية و العاطفة و الإهمال أو القسوة أو التحكم أو الغيرة أو غيرها من العادات الغير المقبولة اجتماعيا ، ومثل هذه الصفات فهي عوامل لنمو غير سوي للأبناء و قد يولد لهم سلوكا عدوانيا ينتقل تدريجيا خارج إطار الأسرة فيعدون منحرفين . والعجز عن توفير ما يحتاجه الطفل من استقرار و حب يمكن ان يكون عاملا مهما في تفسير انحراف الطفل .

وقد وجد بان أشار انفصال الطفل عن والديه في سن مبكر ، و خاصة في السنوات الثلاثة أو الأربعة الأولى قد تكون مضرّة في سلوكه وهذا من خلال الدراسة التي قام بها العالم النفساني بولباي "Bowlby" سنة 1946م وتحت إشراف المنظمة الصحية العالمية و التي بين فيها أن الأولاد الذين يفصلون عن أمهاتهم في السنوات الثلاثة أو الأربعة الأولى من حياتهم ، غالبا ما يكون أشخاصا بلا عطف أو حنان ، وبتالي قابليين لان ينحرفوا و أن يكونوا سارقين.⁽³²⁾ كما اثبت عدة دراسات بان انتماء إلى أسرة متصدعة له علاقة متينة بانحراف الطفل .

4/ المستوى الخلقي للأسرة

إن كثيرا من الجانحين هم نتاج الأسرة التي يسودها الخلق السيئ وتنعدم فيها القيم الروحية، والمثل العليا. وبالتالي انه إذا أدرك الحدث أن أباه سارق أو قاتل أو تاجر مخدرات مثلا، أو أن أمه خليعة أو سارقة قد تتحطم فيه كل المقومات الأخلاقية الأساسية، وتضعف فيه القوى الرادعة، فيتجه بأفكاره نحو الرذيلة و عدم احترام القانون، ويقلد والديه بصورة لا شعورية.

حيث أن أول شيء يكتسبه الطفل أو الحدث من الأسرة هو القدوة، وكلما اقتقد هذه القدوة كان السبيل مهيئا أمامه للانحراف.

ويعتبر الانهيار الأخلاقي للأسرة من أبرز العوامل المؤدية لانحراف الطفل، ولا شك انه من أخطر عناصر الانهيار الأخلاقي للأسرة هو انحراف أحد الوالدين أو كلاهما أو انحراف الابن الأكبر أو البنت الكبرى، ذلك أن الحدث يقلد ما هو أكبر منه و يجعله قدوة له.

وفي دراسة حديثة لـ "جلوك" Glueck شملت 500 مجرم ومجموعة ضابطة من غير المجرمين تماثلها في العدد، تبين أن نسبة شيوخ الإجرام وإدمان الخمر و انحلال الخلق عامة في اسر المجرمين تبلغ 90.4% في حين أن هذه النسبة لم تتجاوز 54% من أفراد المجموعة الضابطة، كما قرر "بيرت" Burt أن شيوخ الجريمة و الرذيلة عامة في اسر الجانحين يبلغ خمسة أمثال ما هو عليه في اسر غير الجانحين.⁽³³⁾

ومن هنا فالإباحية المنبثقة داخل إطار الأسرة تلعب دورا هاما ومباشرا في تشكيل شخصية الحدث ودفعه نحو السلوك لانحرافي، وأن من أهم مظاهر انحراف كل من الوالدين ما يلي:

- ✓ انحراف الأب: من أبرز صور انحراف الأب ومخالفته لقواعد الأخلاق والقانون هي:
- ارتكاب الجرائم والاعتداء على حقوق الغير كالسرقة، القتل، هتك العرض وخيانة الأمانة.
- إدمان المخدرات و الخمر و التجارة بها، و يكفي أن يكون الأب يشرب و يتناول الخمر أمام ابنه، ذلك ما يجعل هؤلاء يقلدون دون أي عقاب أو خوف منه.
- الانحراف الجنسية لدى الأب، كمصاحباته وارتباطه بعشيقات.
- تلفظ الأب بأسوأ الألفاظ أمام أبنائه.
- كل هذه العيوب الخطيرة في شخصية الأب تجعل رعايته و لأولاده و للحدث خصوصا رعاية معيبة و سيئة تهبط به إلى مستوى فقد الرعاية، وبالتالي تؤدي بالحدث إلى الانحراف.

✓ انحراف الأم: يقصد بانحراف الأم خروجها عن العادات والتقليد والمبادئ والأخلاق، وتحررها أو انفلاتها من كل القيم الأخلاقية، ويتخذ ذلك صوراً شتى من أبرزها⁽³⁴⁾

- أن تكون خليعة فاضحة، ولها علاقة مشبوهة لا أخلاقية.
- كثرة اعتداءاتها على الجيران والأقارب والبناء.
- ممارسة السلوك الجنسي أمام الأبناء دون حرج.
- احترام الرذيلة، وتسهيل ممارسة هذا السلوك لبناتها.

ولا شك أن مثل هذه التصرفات يكون لها أثر كبير على البناء خصوصاً البنات منهم كون الإناث أكثر التصاقاً بأمهاتهم من الذكور وأكثر تقليداً لهن.

5/ : المستوى التعليمي والتربوي للأسرة

يؤثر المستوى التربوي والتعليمي للوالدين في عملية التنشئة الاجتماعية للحدث، إذ تميل الأسرة المثقفة والمتعلمة إلى توظيف ما تعلموه من معاملاتهم لأبنائهم خاصة الاعتناء بهم من ناحية التحصيل المدرسي ومتابعتهم الدائمة لهم وحثهم على المطالعة والدراسة بخلاف الأسر الأمية والغير المتعلمة.

كما أن التربية الخاطئة وجهل الوالدين بأساليب التربية السليمة هو أهم عامل من العوامل انحراف الحدث و
جنوحه.

ولقد وجد هيلي Healy وبرونر Brounneur في دراستهما على 4000 حالة أي 40 من هذه الحالات قد جاءوا من أسر ينعلم فيها التقويم.

كما وجد كل من أليانور جلوك Eleanor Gleuck وشلدون جلوك Sheldon Gleuck ما يقرب من سبعة أشار منحرفين، وحوالي ثلثي نساء منحرفات قد جاءوا من أسر يتسم أسلوب التربية والتقويم فيها باللين والتعاون المسرف أو السيطرة المسرفة.⁽³⁵⁾

ورأى بيرت Burt من خلال أبحاثه على أن معاملة الحدث بجزم زائد يمكن أن يولد لديه الرغبة في الانتقام، أو يمكن أن يولد لديه ردود فعل مادية كالسرقة، ومن جهة أخرى فإن التساهل الزائد في معاملته ينمي لديه شخصية ضعيفة غير قادرة على مواجهة الصعاب وعلى التعامل مع الآخرين.

كما أن التفاوت في المعاملة داخل الأسرة يمكن أن يولد لدى بعض الأحداث الرغبة في الانتقام وخاصة إن ساعد ذلك عوامل أخرى، فموقف الوالدين من الأبناء لها أهمية خاصة إذ يجب أن لا تثير معاملتهم الغيرة في نفوس الصغار والإحساس بالظلم وعدم المساواة.⁽³⁶⁾

وان إهمال الأسرة للقيام بواجبها التربوي يعود إلى عدة أسباب منها ما هو قدرتي كفقدان أحد الوالدين أو عجزهما .ومنها ما يرجع إلى تفكك الأسرة بسبب الطلاق، أو الغياب المستمر للأب بسبب العمل أو سوء سيرته كتعاطي المخدرات مثلاً .

6/ :المستوى الاقتصادي للأسرة

يشمل المستوى الاقتصادي للأسرة المستوى المعيشي لها، وما تنفقه على أبنائها، وكذلك مستوى داخل الفرد، ولا شك أن الضغط الاقتصادي يترك آثار سلبية على الأبناء في الأسرة الفقيرة كالشعور بالحرمان وعدم الطمأنينة، و الشعور بالنقص تجاه الآخرين.

كذلك يتضمن المستوى الاقتصادي كثرة أو ازدحام المسكن مما يساعد على خلق جو متوتر نتيجة عدم توفر الخصوصية، مما يساعد في تشكيل عادات جنسية غير محببة عند الأبناء.

وكثيراً من أنماط السلوك الغير الاجتماعي التي تزيد نسبتها عند الأسرة الفقيرة عنها في الأسرة الغنية.

وان من ابرز مظاهر الظروف الاقتصادية والمعيشية السيئة والتي تدفع للجنوح ما يلي:⁽³⁷⁾

- العوز والفاقة والحرمان من إشباع الحاجة الأساسية
- ضيق المسكن وازدحامه بكثرة سكانه
- سوء التغذية والعلاج
- قرب المسكن من المصانع والورش
- بروز مظاهر الجوع والعري والشقاء
- قلة الموارد المالية للأسرة
- عدم القدرة على مواصلة التعليم
- انعدام الوسائل الترفيهية
- كثرة الالتزامات المالية لرب الأسرة نتيجة كثرة الأبناء وتعدد الاحتياجات ومتطلبات الحياة، وهذا ما يجعل الحدث يتجه إلى العمل في سن مبكرة أو يلجأ إلى أنماط سلوكية منحرفة لسد احتياجاته كالتسول أو السرقة أو غيرها.
- ولقد ظل الباحثون منذ القديم يربطون بين الفقر والجريمة وينادون بالقضاء على الفقر في المجتمع لكي تزول الجريمة بزواله، لكننا لو تفحصنا الأمر بدقة لوجدنا أن الفقر بحد ذاته ليس باعثاً أو دافعا حاسماً على ممارسة السلوك الانحرافي، وخير دليل على ذلك ما نلاحظه في اغلب الأحيان من توافر صفات الشجاعة والشهامة والأمانة لدى

الآلاف من الآباء والأمهات الفقراء الذين يفضلون الكفاح على السرقة و الكسب الغير المشروع ، ويبتون هذه الروح في أبناءهم وبناتهم.

وقد أثبتت بعض الدراسات التي أجريت في الولايات المتحدة الأمريكية على 4600 حدث جانح أن 70% منهم انحدروا من اسر فقيرة للغاية، وان 23% منهم قد أتوا من اسر فقيرة. بينما أثبتت دراسة هيلي و برونر التي أجريت على 675 حدث محرف أن 27% منهم انحدروا من اسر معوزة.⁽³⁸⁾

ويحسب رأي بيرت أن الفقر بحد ذاته لا يقود للجناح ،والأ أصبح كل الفقراء جانحين ،بل يرتبط الجناح بالفقر إذا رافقه نوع من المطامع الكبيرة التي لا يمكن تلبيتها أو تحقيقها بالطرق المشروعة.

الختامة

إن مرحلة الحداثة هي من أهم المراحل التي يمر بها الإنسان ، حيث انه من خلالها تتحدد مقوماته الشخصية و ميوله الذاتية وتتكون ثقافته و سلوكه. وان أول ما تقع على عاتقه هذه المسؤولية هي الأسرة ثم المدرسة ثم الإعلام و أخيرا الشرطة وكل ذلك سنيينه فيما يلي

إن جميع المؤسسات الاجتماعية تلعب دورا هاما في سبيل الحد من الظاهرة الجنوح والسلوك الغير المتوافق أو المنحرف لدى الأطفال، إلا أن دورها يبقى ناقصا وغير فعال، إذا لم تبذل جهود ايجابية حيال الأسرة بصفة رئيسية، كما أن المدرسة أو الدولة نفسها ، لا يمكن أن تؤدي واجبها في نطاق الرعاية إلا من خلال الأسرة وعن طريق التعاون الكامل معها.

فعلاقات الطفل بوالديه تلعب دورا رئيسيا في تنشئة الطفل و حمايته من عوامل انحراف الأحداث التي تحيط به في مجتمعه الخارجي، حيث أن الأطفال يحاولون أن يكونوا كالأشخاص الذين يحبونهم، ويقلدون سلوكهم و يتخذون آباءهم مثلا و قدوة لهم يمتصون منهم سيماهم و مستويات سلوكهم أيضا، وهنا يتعين على الآباء الذين يعلمون الطفل كيف يسلك سلوكا سويا أن يفرضوا عليه قيودا معينة، والطفل الذي يريد أن يحتفظ بحب والديه عليه أن يسلك سلوكا سويا ويخشى أن يفقد هذا الحب وان يعاقب إذا سلك سلوكا منحرفا، كما انه يتقبل أوامر واليه و نواهيهم وهذه الأوامر و النواهي هي التي ترشد الحدث إلى السلوك الصحيح وتمنعه حتى بعد أن يتحرر من أي إشراف لوالديه.

لكن يشترط لقيام الأسرة بهذا الدور أن تكون قادرة على القيام بالواجبات الملقاة على عاتقه، وكلما ازداد تكاملها كلما نجحت في وظيفتها كحصن يمنع عن الأطفال التأثيرات الضار والتي تنشأ خارجها.

وعليه فالأسرة تلعب دورا هاما في تكوين شخصية الحدث و توجيه سلوكه نحو اكتساب العلاقات الاجتماعية مع الآخرين لأنه مع مرور الوقت يخرج إلى الجماعة التي يلعب معها وينقل لها اتجاهاته الشعورية و اللاشعورية نحو نفسه والوالدين والأطفال الآخرين.

وان علماء النفس الاجتماعي يتفقون على التركيز على دور التنشئة الاجتماعية للأطفال وأهميتها في تشكيل السمات الشخصية الأساسية، وتشكيل الأفعال و ردود الأفعال في المستقبل، وهؤلاء الباحثين و العلماء يتنبئون بالانحراف بواسطة دراسة بناء الضبط الأبوي و مختلف أساليب التنشئة الاجتماعية و مقوماتها الأساسية.

وقد وجد الكثير من العلماء الذين عالجوا موضوع الضبط العائلي أن التزام العائلة أو الأسرة بأسلوب واحد في معاملة أطفالها هو الطريق الصحيح لزرع بعض الضوابط الداخلية لدى الطفل.

وعلى العكس من ذلك فإن تذبذب الأبوين بين استخدام القسوة والعقاب و بين التراخي والإهمال لا يخلق لدى الطفل نتيجة ما يتوقعه الآخرون حيث يصدر عنه سلوك منحرف أو غير متوافق. وعليه فنوعية أسلوب الضبط وكيفية إيقاع العقاب لدى الطفل له أثر كبير في بلورة ضوابط الحدث و تحديد سلوكه.

المراجع والهوامش المراجع:

- 1 - سامي عبد العزيز الدماغ ، نظرية الأنساق العامة : إمكانية توظيفها في الممارسة المهنية للخدمة الاجتماعية ، محاضرات منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الملك سعود ، بدون سنة ، ص 04.
- 2 - قاسي خليفة ، اضطراب النسق العائلي المدرك و علاقته بظهور الجنوح لدى المراهقين البالغين من العمر ما بين (13 - 17) سنة : دراسة عيادية لعشرة حالات في ولايتي تيزي وزو و البويرة ، رسالة لنيل شهادة الماجستير تخصص علم النفس العيادي ، غير منشورة ، جامعة تيزي وزو ، الجزائر ، 2010 ، ص 11.
- 3 - أيت مولود يسمينة ، نصر الدين بن حبوش ، النسق الأسري المدرك لدى المراهق المدمن على الكحول ، الملتقى الوطني الثاني حول الاتصال و جودة الحياة في الأسرة ، أيام 10/09 أبريل 2013 ، جامعة قاصدي مرباح ورقلة ، الجزائر ، 2013 ، ص 04.
- 4 - أيت مولود يسمينة ، نصر الدين بن حبوش ، نفس المرجع ، ص 05.
- 5 - سامية محمد جابر : الانحراف الاجتماعي بين نظرية علم الاجتماع و الواقع الاجتماعي ، تقديم محمد عاطف غيث ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1995 ، ص 347.
- 6 - الفيروزي بادي ، قاموس المحيط ، مطبعة دار الفكر ، بيروت ص 61
- 7 - زيدان عبد الباقي ، الأسرة و الطفولة ، منشأة النهضة المصرية ، 1980 ، مصر ، ص 117
- 8 - طه زهران ، عاملة الأحداث جنائيا ، رسالة دكتوراه ، حقوق ، القاهرة 1978 ، مصر ، ص 21
- 9 - نبيلة رسلان ، حقوق الطفل في القانون المصري ، القاهرة دار النهضة العربية 1996 ، ص 37
- 10 - عبد الرحمن العيسوي ، حقوق الطفل في ضوء الدراسات النفسية ، مؤتمر الطفل ، الإسكندرية 1988 ، ص 07
- 11 - خالد بن محمد بن سعد السرحان ، أثر الحالة الاقتصادية في عودة الأحداث للانحراف ، دراسة للحصول على شهادة الماجستير في العلوم الاجتماعية ، تحت إشراف أ. د يوسف صالح بريك ، الرياض ، 2003 ، ص 09.
- 12 - محمد عبد القادر قواسمية ، جنوح الأحداث في التشريع الجزائري ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1992 ، ص 42.

- 13 - الأمر رقم 66- 159 المؤرخ في 18 صفر سنة 1386 الموافق لـ 08 يونيو سنة 1966، المعدل والمتمم بالقانون رقم 06- 23 المؤرخ في 20 ديسمبر 2006، والمتضمن قانون العقوبات، المادة 49- لا توقع على القاصر الذي لم يكمل الثالثة عشر إلا تدابير الحماية أو التربوية ومع ذلك فإنه في مواد المخالفات لا يكون محلاً إلا للتوبيخ.....
- 14 - الأمر رقم 66- 155 المؤرخ في 18 صفر سنة 1386 الموافق لـ 08 يونيو 1966، المعدل والمتمم بالقانون رقم 06- 22 المؤرخ في 20 ديسمبر 2006، المتضمن قانون الإجراءات الجزائية، المادة 445.
- 15 - عجال السلمي، آثار ظاهرة العنف في المجتمع الجزائري على التنشئة الاجتماعية للطفل، رسالة لنيل شهادة الماجستير، تحت إشراف د. عطار مشربط عفيفة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تلمسان، السنة الجامعية 2001/2000، ص 13.
- 16 - سورة النور الآية 31، القرآن الكريم.
- 17 - زيدومة درياس، حماية الأحداث في القانون الإجراءات الجزائري، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، 2007، ص 06.
- 18 - خالد بن محمد بن سعد السرحان، المرجع السابق، ص 10.
- 19 - محمد رمضان، إجرام الأحداث في المجتمع الجزائري، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآنتروبولوجية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان، 2002/2003، ص 186.
- 20 - خالد بن محمد بن سعد السرحان، المرجع السابق، ص 11.
- 21 - زيدومة درياس، المرجع السابق، ص 12.
- 22 - زيدومة درياس، المرجع السابق، نفس الصفحة.
- 23 - سن الرشد في القانون الجزائري يكون ببلوغ الحدث تمام الثامنة عشر سنة المادة 442 من قانون الإجراءات الجزائية ن والتدخل لحماية الحدث يستمر إلى غاية الواحد والعشرون.
- 24 - إلهام بلعيد، التنشئة الاجتماعية وتأثيرها في سلوك المنحرفين الأحداث دراسة ميدانية، بالمركز المتخصص لحماية الطفولة، باتنة، أطروحة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع القانوني، غير منشورة، جامعة باتنة، 2010، ص 124.
- 25 - عامر مصباح، التنشئة الاجتماعية والسلوك الانحرافي لتلميذ المدرسة الثانوية، شركة دار الأمانة، الجزائر، 2003، ص 95.
- 26 - عمر احمد الهمشري، التنشئة الاجتماعية للطفل، دار النقاء للطبع والنشر والتوزيع، ط 1، 2003، ص 337.
- 27 - إلهام بلعيد، التنشئة الاجتماعية وتأثيرها في سلوك المنحرفين الأحداث دراسة ميدانية، بالمركز المتخصص لحماية الطفولة، باتنة، المرجع السابق، ص 126.
- 28 - محمود حسن، الأسرة ومشكلاتها، دار النهضة العربية، بيروت، بدون سنة، ص 250.
- 29 - رشاد صالح الدمهوري، التنشئة الاجتماعية والتأخر الدراسي، دار المعرفة، مصر، 2006، ص 36.
- 30 - السيد رمضان، إسهامات الخدمة الاجتماعية في مجال انحراف الأطفال، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، 1995، ص 87.
- 31 - منتصر سعيد حمودة بلال أمين زين الدين، انحراف الأحداث، دار الفكر الجامعي، ص 173.
- 32 - علي مانع: عوامل جنوح الأحداث في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2002، ص 45.
- 33 - السيد رمضان، إسهامات الخدمة الاجتماعية في مجال انحراف الأطفال، مرجع سابق، ص 89.
- 34 - إلهام بلعيد، التنشئة الاجتماعية وتأثيرها في سلوك المنحرفين الأحداث دراسة ميدانية، بالمركز المتخصص لحماية الطفولة، باتنة، مرجع سابق، ص 130.
- 35 - السيد رمضان إسهامات الخدمة الاجتماعية في مجال انحراف الأطفال، المرجع السابق، ص 88.
- 36 - إلهام بلعيد، نفس المرجع، ص 133.
- 37 - إلهام بلعيد، التنشئة الاجتماعية وتأثيرها في سلوك المنحرفين الأحداث دراسة ميدانية، بالمركز المتخصص لحماية الطفولة، باتنة، المرجع السابق، ص 134.
- 38 - إلهام بلعيد، نفس المرجع، ص 135.

مستقبل الصحافة الورقية في ظل تطورات الاعلام الجديد

وجدي دمرجي وسيلة

طالبة دكتوراه اتصال وسائل الاعلام والمجتمع بجامعة مستغانم

مقدمة:

احتلت الصحيفة المطبوعة مكانة مهمة في عملية الاتصال لفترة طويلة و أدت أدوارا مختلفة في تطور المجتمعات ، و إذا كانت تشترك مع بقية وسائل الاتصال الجماهيري في العديد من الوظائف و الأهداف فإنها ظلت متميزة، وقد شهد مطلع القرن الواحد والعشرين تطورا مذهلا لتكنولوجيات المعلومات بفضل الدمج الحاصل بين اجهزة الكمبيوتر والبرمجيات وشبكات الاتصال ،وامام كل هذه التطورات سارعت الصحف المطبوعة للانضمام الى عالم التكنولوجيا ، حيث حجزت لها مكانا عبر الشبكة العالمية لتوسع بذلك من اهتماماتها ومن جمهورها وتستفيد من احدث تقنيات النشر الالكتروني المتطورة ، فخلقت لها مجالا على شاشات الحاسوب والشبكات الدولية ، لتثمر بذلك المولود الاعلامي - الصحافة الالكترونية - الذي زاحم الصحافة التقليدية لدرجة جعلت الكثيرين يختلفون في وجهات النظر حول مستقبلها، فما مدى تأثير الصحافة الالكترونية على شبكة الانترنت كحدث ما توصلت اليه التكنولوجيا الحديثة على مقروئية الصحف الورقية؟.

حاول العديد من الباحثين في دراستهم للظاهرة الاتصالية الجديدة (الصحافة الالكترونية) باعتبارها منشور إلكتروني دوري يحتوي على الأحداث الجارية، سواء المرتبطة بموضوعات عامة، أو موضوعات ذات طبيعة خاصة، ويتم قراءتها من خلال جهاز الكمبيوتر، وغالبا ما تكون متاحة عبر شبكة الانترنت⁽¹⁾، وهي تشمل ايضا الصحف المطبوعة التي يتم اصدارها ونشرها على شبكة الانترنت وقواعد البيانات⁽²⁾، التفرقة بينها وبين نظيرتها الورقية، بناء على عناصر الاتصال، فبالنسبة للقائم بالاتصال في الصحافة الالكترونية يجب عليه ان يلم بكيفيات استخدام الكمبيوتر وجميع البرامج المتطورة المتعلقة باستخدام شبكة الانترنت، اما المحرر في الصحيفة المطبوعة فيكفيه فقط التحرير على الورقة، وليس بالضرورة معرفته استخدام الكمبيوتر والانترنت، اما الرسالة بصفتها عنصرا مهما في العملية الاتصالية، فان مضمونها لا يختلف كثيرا في الصحافة الالكترونية، لكن الفرق يكمن في سهولة التعامل معها والوصول اليها كذا حفظها وتخزينها، وذلك كونها غير جامدة مدعومة بصور ثابتة ومتحركة وحتى الصوت والرسوم المتحركة، فيما تبقى نصية جامدة في الجريدة المطبوعة⁽³⁾.

والشكل الذي تصدر فيه الصحيفة التقليدية بصفتها الوظيفة التي تؤديها في المجتمع الحديث أي كونها رسالة تستهدف خدمة المجتمع والإنسان، والتي تتصل بطبيعة الواقع الاجتماعي والاقتصادي في المجتمع الذي تصدر فيه الصحيفة، ونوعية النظام السياسي والاجتماعي القائم⁽⁴⁾ فيكون في صيغة مطبوعة على الورق على شكل نصوص وصور ثابتة فقط، أما الصحافة الالكترونية فتعتمد على تقنية اخراج متطورة، باعتمادها على مستويات عديدة، وفيما يتعلق بالمستقبل كطرف اساسي في العملية الاتصالية، فإن المعطيات المتاحة في الصحيفة الالكترونية بشكلها المتطور تمكن من تخطي مشكلة القراءة، فبإمكان المتلقي الاستعانة بتقنيات جهاز الحاسوب لقراءة مضمون المادة الصحفية داخل النسخة الالكترونية بمجرد استخدام لوحة المفاتيح⁽⁵⁾، زيادة على ذلك فإن التغذية العكسية في الصحيفة الالكترونية تكون مرئية منقولة بالصوت والصورة، ومباشرة بين المرسل والمستقبل، عكس المطبوعة التي يتم فيها نقل المعلومة من المصدر الى الجمهور.

بالإضافة الى خاصية التفاعلية بصفتها اهم الفروق بين الوسيطتين، فالصحافة الالكترونية تسمح بمستوى مسبق من التفاعل، الذي يبدأ بالبحث في مجموعة من النصوص والاختيار فيما بينها، وينتهي بإمكانية توجيه الاسئلة المباشرة والفورية، أي أنها تفتح المجالات للحوار والمناقشات للقاري⁽⁶⁾.

الصحف الالكترونية بديلا عن الصحف الورقية :

عادة ما تثار عدة مناقشات وقضايا كلما ظهرت وسيلة إعلامية جديدة، ففي مثل هذه الأحوال غالبا ما يكون هناك شك في صمود القديم أمام الجديد، ومع انتشار مفاهيم النشر الالكتروني بأنواعه المختلفة أثير قلق واسع النطاق بشأن الصحافة المطبوعة، ويقوم هذا الاتجاه على أساس أن الصحف الالكترونية تمثل بديلا مهما عن الصحف الورقية، وسوف تحل محلها⁽⁷⁾، وهناك عدة مبررات من يؤيد هذا الاتجاه، حيث تشهد مجمل البلدان أزمات الصحافة المكتوبة الورقية التي تعاني من تراجع ملحوظ في التوزيع، وفي حصص الاشهار وفي اعراض القراء الشباب عنها (نسبة قراءة الصحف تقل بمقدار الضعف عند أولئك الذين تقل أعمارهم عن ثلاثين عاما) أو في تراجع أهميتها أمام الانترنت، الشبكة التي تسرق جماهير هذه الوسائل مجتمعة أي أنها تسرق جمهور الصحافة والهاتف والتلفزيون، ومنذ سنوات وليست بعيدة كان يسود خوف قوامه إن الانترنت تحضر قبل الصحافة المكتوبة⁽⁸⁾.

فالصحافة الورقية المطبوعة تواجه عدة تحديات خطيرة من أكثرها إلحاحا التحدي الاقتصادي المتمثل في ارتفاع أسعار الورق والتجهيزات الالكترونية على شبكات المعلومات، والتحدي البيئي المتمثل في دعاة الحفاظ على البيئة، تحدي المنافسة الإعلامية والاتصالية من باقي الوسائل الأخرى وكذلك تحدي المصادقية. وفي هذا الصدد فقد نظر إلى هذه الخدمة في البداية كخدمة مكمل لما تقدمه النسخة المطبوعة، ثم أثير نقاش كبير حول

فكرة ان تكون الصحيفة الالكترونية بديلا للصحيفة المطبوعة.

فبالرغم من ان الجريدة مازال لها بريق خاص لأسباب تاريخية وثقافية عند الأجيال الحالية ، لكن يثار سؤال حول ما إذا كان هذا البريق سيستمر مع أجيال الشباب ؟ والدراسات الميدانية على وسائل الاتصال في الولايات المتحدة الامريكية وغيرها ، أكدت على أن الجريدة اليومية لم تعد الوسيلة المفضلة لديهم للحصول على المعلومات ، صباح كل يوم مثلما كان في الماضي⁽⁹⁾ ، إضافة إلى ذلك ارتفاع تكاليف الإنتاج الطباعي وأسعار الورق.

وقد انتقد " تيرنر" رجل الأعمال الأمريكي ومالك شبكة CNN الصحافة الورقية ، وأشار إلى أن أيامها كحبر وورق باتت معدودة ، ويرى انصدار الصحافة الالكترونية وبان العالم سيشهد آخر صحيفة ورقية في عام 2018 ، نظرا لان السمات الأساسية للصحف الالكترونية تفوق السمات الأساسية للمطبوعة ، وتتمثل هذه السمات في الاستفادة من ثروة المعلومات ، من خلال الأنظمة الرقمية التي تعمل في ظلها الصحافة الالكترونية والنشر كذلك تقنية النص الفائق حيث تسمح لقرائها بالتعليق فيما وراء النص ، والانتقال من موقع لآخر داخل الشبكة ، بالإضافة الى الميوليميدا* والانتقائية التي تتيح للقارئ اختيار المواد الصحفية التي تتفق واهتماماته ، وحاجته بدرجة اكبر وأوسع مما هو متاح في الصحيفة الورقية. زيادة على ميزة الحالية والآنية التي تتصف بها مضامينها⁽¹⁰⁾ ، فالصحافة الالكترونية هي وسيلة إتصال متدفقة ومتحركة لا تعرف موعدا للتوزيع أو القراءة.

الصحف الإلكترونية منافسا للصحف المطبوعة :

يقوم أصحاب هذا الإتجاه على أن الصحف الإلكترونية بالرغم من الإعتراف بكل مميزاتها فإنها لا تشكل بديلا عن وسائل الإتصال التقليدية خاصة الصحف المطبوعة ، ويتبنى هذا الإتجاه أكاديميون ، وصحفيون يعملون في الصحف المطبوعة ، وهناك كثير من المبررات تدعم موقفهم منها ، فهم يرون ان الصحافة الإلكترونية ، تحتاج إل سنوات عديدة حتى يصبح لها تأثير يماثل الصحافة المطبوعة ، ويرفضون تماما المقارنة بينها وبين الصحافة الورقية ، لأن هذه الأخيرة هي الأقوى ، والأكثر تأثيرا ، لأن الأنترنت لا تزال غير متاحة للجميع ، والمعوقات أمام الصحافة الإلكترونية كثيرة ومتعددة ، كما أن الصحف الإلكترونية تعتمد على الصحف المطبوعة في الإعلان عنها ، والوصول إلى المستفيدين الجدد⁽¹¹⁾ ، إضافة الى عدم وجود بنية معلوماتية حقيقية في اي مكان في العالم ، وان المواطن يثق أكثر بالخبر المنشور في الصحيفة الورقية ، حتى ولو كانت محدودة التوزيع كما ان الصحافة الورقية هي الأكثر تأثيرا ، وتأثرا بين وسائل الإعلام ، وخاصة بين فئة المتعلمين فبالرغم من ثورة المعلومات ، والإنفجار الإعلامي الذي يعيشه العالم ، فإن الصحف اليومية هي التي تحفز المتعلمين على المشاركة في الحياة المدنية ، وليس جهاز التلفزيون وبرامجه ، أو الأنترنت ومعلوماته⁽¹²⁾ ، حسب دراسة أجرتها جامعة أوهايو - الأنترنت ليست بإستطاعة كل الناس إستخدامه ، أو إقتنائه

بالإضافة إلى أن الإنترنت يزيد من إنتشار الصحافة، والصحيفة التي تقرأ عبر الإنترنت هي الصحيفة الورقية، وتظل القراءة عبر الورق أسهل، وأيسر، وأكثر عمقا من الإنترنت. وبذلك ستبقى الصحافة التقليدية لها دورها الإجتماعي والثقافي طالما تمكنت بتطوير نفسها بصورة مستمرة.

وفي الإطار نفسه يؤكد بعض الخبراء والاكاديميين أن الصحافة الإلكترونية لن تحل محل الصحافة التقليدية المطبوعة، وذلك لاعتبار ان تاريخ وسائل الإتصال يؤكد أنه ما من وسيلة جديدة استطاعت القضاء على الوسائل السابقة عليها، وإنما تعايشت معها في ظل خصوصية كل واحدة، و الصحافة المطبوعة يمكن أن تعظم إستفادتها من الإنترنت، وتجعل من هذه الشبكة قناة للإرتقاء بالعمل الصحفي، وقناة للترويج، والوصول إلى أسواق جديدة من خلال إقامة مواقع لها على الشبكة.

ولازالت الدراسات في هذا المجال تؤكد أن إستخدام الإنترنت لم يؤثر بدرجة ملموسة على معدلات قراءة الصحف المطبوعة في مختلف أنحاء العالم، مثلا الصحف المطبوعة الإيطالية لا زالت تلقى راجا كبيرا رغم تضاعف استخدام الإنترنت في ايطاليا بمعدل (23) مرة في السنوات الأخيرة⁽¹³⁾.

الصحف الإلكترونية مكمل للصحف المكتوبة :

إنه في تاريخ وسائل الإتصال منذ نشأتها وحتى الآن لم تلغ وسيلة إتصال متطورة الوسيلة القديمة بل تستوعبها وتطورها، وينتج عن تفاعل الوصيلتين وسيلة جديدة، تتيح إمكانات جديدة ومتعددة للجمهور في الإتصال وتبادل المعلومات. وشبكة الانترنت باعتبارها الطليعة في عصر وسائل الإعلام والإتصال الحديثة، والتي تتميز بمزايا عظيمة، لكن ماهي إلا إحدى عناصر التكنولوجيا الحديثة المساهمة في الإزدهار والتطور⁽¹⁴⁾، وإن الآلاف من الخمسة ملايين موقع على الشبكة الموجودة، قد تم تكوينها بواسطة الإعلام التقليدي، وأن المؤسسات الإعلامية التقليدية قد تحولت إلى الشبكة لإنشاء شبكات داخلية ثرية في المعلومات للإستخدام في داخل مكاتبها، والعديد منها يستطيع الوصول إلى مجموعات من السجلات العامة أو المعلومات الخلفية بالنسبة لعدة موضوعات⁽¹⁵⁾.

يذكر جيرارد تيري في تقرير له إلى رئيس وزراء فرنسا عن طريق الإعلام السريع، أن الصحافة المكتوبة الورقية، وهي من أهم وأقدم مصدر للأخبار والمعلومات سوف تنتفع إنتفاعا متزايدا بالشبكات الجديدة، حالما تكون حولت بالكامل عملياتها الإنتاجية إلى أرقام، وفي حين أن الشبكات الإلكترونية الجديدة تنمي المنافسة التي تعمل بمثابة حافز إقتصادي، فإنها أيضا تتيح للصحافة فرصة كبيرة، بحيث تزيد من تنوع محتوياتها وتنمية خدمات مستحدثة⁽¹⁶⁾، وإنه في شأن بقاء الصحافة التقليدية بعد ظهور الجريدة الإلكترونية فإنه أمر مضمون، لأن الواقع قد أثبت هذا مع جل الوسائل التي ظهرت بعد الصحافة المكتوبة، والتي لم تقض على بريقها وتميزها، لأنه لكل وسيلة

جاذبيتها وسحرها وإمكانياتها التي قد تحول دون الإقلاع تماما عن إستخدامها، فكل وسيلة يمكنها البقاء إلى جانب غيرها من الوسائل، بشرط أن تكون قادرة على التجديد، والابداع، والتمتع بالجرأة والخيال اللازمين لمنافسة سواها من الوسائل⁽¹⁷⁾، وبشأن الشك في صعود الصحيفة المطبوعة أمام الصحيفة الإلكترونية، فإن الخبراء والإعلاميين يجيبون أن الصحيفة الإلكترونية لن تقضي على الصحافة الورقية، لأنه ليست المرة الأولى التي تواجه فيها الصحافة التقليدية مثل هذه التحديات، فمن قبل أعلن الكثيرون عن موت الصحافة مع بدء الإرسال التلفزيوني، ورغم ذلك إزدهرت في وجوده إزدهارا لم تشهد من قبل، حتى أن عدد الصحف التي صدرت في الولايات المتحدة الأمريكية بلغ في يوم من الأيام، 1550 صحيفة، وفي هذا الموت الوشيك للصحافة التقليدية قد حل محله إدراك الناس الذين يعانون من كثرة المعلومات والفرق فيها بأنهم سيتعطشون للحقيقة، وإن الجمهور يحتاج أكثر من أي وقت مضى إلى جامعين جدد ومهرة ليفرزوا كل هذا الخلط والفوضى في مجتمع المعلومات....

يرى هذا الإتجاه أن العلاقة بين الصحيفة الإلكترونية والورقية علاقة تكاملية، وهم لا يشاطرون تلك المواقف التي ترى بأن عهد الصحافة التقليدية آيل للزوال، ويؤكدون على أن المواقع الإلكترونية ما هي إلا جزءا من العملية الصحفية الحديثة، ولا يعقل أن توزع صحيفة مكتوبة اليوم دون أن يكون لها موقعا إلكترونيا يستجيب للعادات الجديدة في مجال القراءة.

تجربة الصحافة الإلكترونية في الجزائر :

رغم أن الجزائر كانت متأخرة نوعا ما في مجال الصحافة الإلكترونية، مقارنة بالدول العربية والأوروبية، إلا أن تجربة الصحافة المكتوبة مع الانترنت لأول مرة كانت نهاية سنة⁽¹⁸⁾ 1997، حيث كانت جريدة الوطن باللغة الفرنسية السباقة إلى اعتناق النشر الإلكتروني، وأنشاء أول موقع لها على الويب، وهذا بعد إلغاء الاحتكار على مركز البحث العلمي والتقني أمام المزودين الخواص للانترنت، حيث يتطلب الحصول على موقع بشبكة الانترنت من مسؤول أي جريدة سجلا تجاريا لكل هيئة ذات طابع تجاري ووجود مقر مركزي أو مكتب تنسيق بالجزائر مع دفع اشتراك مالي كل سنة بقيمة 1000 دج⁽¹⁹⁾.

ولجات الصحف المكتوبة الجزائرية إلى انشاء مواقع الكترونية لها، مع المحافظة على النسخة الورقية، لغرض تحقيق رواج أكبر للجريدة، وللحاق بركب التطور التكنولوجي في مجال النشر الإلكتروني، حيث تلت جريدة El Watan جريدة Liberté في جانفي 1998، فجريدة اليوم باللغة العربية في فيفري 1998، وتليها جريدة الخبر باللغة العربية وهي من بين أكبر الجرائد توزيعا في الجزائر⁽²⁰⁾،... الخ، وبهذا أصبح لكل صحيفة مكتوبة بالجزائر موقعا الكترونيا على الشبكة، أما صحيفة Algeria Interface فقد كانت أول صحيفة الكترونية التي ليس لها أصل

ورقي، والتي أسسها أحد الإعلاميين الجزائريين عام 1996، ثم انطلقت في العمل في نوفمبر 1999 وكان شعارها نقل الاخبار بشكل موضوعي والمحافظة على المبادئ الأساسية لحرية التعبير والدفاع عن حقوق الإنسان وتعزيز القيم الديمقراطية⁽²¹⁾.

وفي الأخير نخلص الى ان هناك اختلاف واضح بين الباحثين من حيث تقييمهم لاداء وسائل الاعلام التقليدية والحديثة، وفي اطار تحديدهم لطبيعة وحجم التأثيرات التي تمارسها الصحافة الرقمية التفاعلية على مقروئية واستمرارية الصحافة المكتوبة مستنديين في ذلك على التبريرات المختلفة لتفسير هذه النتائج التي توصلوا اليها من خلال الابحاث، التي تباينت منها ما يؤكد فعالية الصحافة الالكترونية في السيطرة على اتجاهات الافراد وفي قدرتها على جلبهم واستقطابهم، واخرى ترى ان هذه الوسيلة الالكترونية تحتاج الى سنوات عديدة حتى تبلغ تأثير الصحافة المكتوبة، وفي مقابل ذلك دراسات اثبتت ان مستقبل الصحافة الورقية مضمون، وما الصحافة الالكترونية الا مكمل للمكتوبة. فإذا كانت الصحافة الإلكترونية تختلف عن الوسائل الإعلامية الأخرى في العديد من الأمور الجوهرية فإن القاسم المشترك بين إهتماماتها، يتمثل في المضامين التي تعتبر مؤشر نجاح الأنباء، فسيظل دائما هو صاحب الأهمية الأولى⁽²²⁾، وعليه فإن ما ينبغي ان يميز الجرائد الإلكترونية في الجزائر هو تقديم أكثر المعلومات شمولاً، وأفضل الوسائل للوصول إليها، وهذا كونها تعد من الوسائل الأكثر إستفادة من الحدود الجغرافية للعالم بأسره، وباتت تعني القمة في التعبير عن حرية الرأي، بعيداً عن مقص الرقيب وقوانين المطبوعات والنشر.

الإحالات والهوامش:

- 1 - جون ميرل، رالف لويشتاين، الاعلام وسيلة ورسالة، (تر) ساعد خضر العرابي الجارشي، الرياض، ص 70.
 - 2 - محمود علم الدين، الصحافة في عصر المعلومات، القاهرة، ط 1، العربي للنشر والتوزيع، 2000، ص 271
 - 3 - زيد منير سليمان، الصحافة الالكترونية، عمان ط 1، دار اسامة للنشر، 2009، ص 55
 - 4 - نجوى عبد السلام: تجربة الصحافة الالكترونية المصرية والعربية، المجلة العلمية لبحوث الاعلام، القاهرة، جامعة القاهرة، كلية الاعلام، ديسمبر 1998، ص 204.
 - 5 - المرجع نفسه، ص 57
 - 6 - ماجد سالم تربان، الانترنت والصحافة الالكترونية، ط 1، مصر، الدار المصرية اللبنانية، 2008، ص 129
 - 7 - المرجع نفسه، ص 280
 - 8 - Sophie Boukharie, internet ,le grand bouleversement de paysage médiatique culture et société . rfi,n 199,4 fevrier 1998 p2.
 - 9 - مروة محمد كمال الدين، مستقبل طباعة الصحف العربية رقمياً، ط 1، دون ذكر مكان النشر، الدار المصرية اللبنانية، ماي 2007، ص 274.
- * تقنية الوسائط الفائقة، تتيح هذه التقنية تقديم الاخبار، والمعلومات بأشكال ووسائل عديدة من صوت وصورة.
- 10- Yannick Estienne, le journalisme après l' internet ,preface d erik neveu ,l harmattan :communication et civilisation 2007,p 140.
 - 11 - ماجد سالم تربان، مرجع سبق ذكره، ص 11

- 12 - محمد عبد الهادي ، تكنولوجيا المعلومات في المكتبات ، ومراكز المعلومات العربية بين الواقع والمستقبل ، وقائع المؤتمر العربي الثامن للمعلومات ، القاهرة ، الدار المصرية اللبنانية ، ص 309
- 13 - سمير محمود ، الحاسب الالى وتكنولوجيا صناعة الصحف ، دون ذكر مكان النشر ، دار الفجر للنشر والتوزيع ، 1997 ، ص 29
- 14 - محمد تمبور عبد الحسيب ، تكنولوجيا ومستقبل طباعة الصحف ، القاهرة ، مجلة الدراسات الاعلامية ، 1990 ، ص 59
- 15 - سمير محمود ، مرجع سبق ذكره ، ص 15
- 16 - جون ماكسويل هاملتون ، جورج كريمسكي ، (تر) احمد محمود ، صناعة الخبر في كواليس الصحف الامريكية ، ط 2 ، دون ذكر مكان النشر ، دار الشروق 2010 ، ص 10.
- 17 - امنة نبيح ، المدونات العربية الالكترونية بين التعبير الحر والصحافة البديلة ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علوم الاعلام والاتصال ، 2007 ، 2008 ، ص 69.
- 18 - يمينه بلعالي ، الصحافة الالكترونية في الجزائر بين تحدي الواقع والتطلع نحو المستقبل ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علوم الاعلام والاتصال ، جامعة الجزائر ، 2006 ، ص 148 .
- 19 - نورالدين تواتي ، الصحافة المكتوبة والسمعية البصرية في الجزائر ، ط 1 ، دون ذكر مكان النشر ، دار الخلدونية ، 2008 ، ص 32
- 20 - شريف درويش اللبان ، تكنولوجيا النشر الصحفي ، الاتجاهات الحديثة ، ط 1 ، دون ذكر مكان النشر ، الدار المصرية اللبنانية ، 2001 ، ص 126.
- 21 - نورالدين تواتي ، مرجع سبق ذكره ، ص 126.
- 22 - فرانك كليش ، ثورة الانفوميديا ، الوسائط المتعددة وكيف تغير عالمنا وحياتك؟ ، (تر) حسام الدين زكرياء ، مجلة عالم المعرفة ، العدد 253 ، يناير 2000 ، ص 407.

الرؤيا والقراءة لدى الصوفية

بوزياني عبد الحق

طالب دكتوراه جامعة تلمسان

تمهيد :

تحضي الرؤيا لدى جميع المجتمعات بوضعية هامة ضمن نسيجها النفسي والسوسيوثقافي لما تقدمه من توازنات نفسية وحلول لحالات قد يستعصى على العقل استيعابها أو فهمها. ولذلك فهي تدخل ضمن إطار عمل العقل اللاوعي للإنسان، غير أن الاختلاف الثقافي أو لنقل التنوع الثقافي هو الذي يعطي الرؤيا صبغتها المتغيرة من مجتمع إلى آخر، ومن أثنيه إلى أخرى. ولا ينطبق هذا على المجتمعات المسماة بدائية أو تلك المعروفة بالمجتمعات التي لا تعتمد على الكتابة بل هي أيضا ضمن النسيج الثقافي للمجتمعات المسماة بالصناعية، وإن كانت مكانتها قد اهتزت لديها بفعل الحداثة الرافضة في الكثير من مواقفها لما هو غيبي أو ميتافيزيقي أو ما يبدو مظهرا من مظاهر التخلف. ولن نبالغ إذا قلنا إن الرؤيا كما هي ليست بعيدة عن التأويلات والاستعمالات السياسية والاجتماعية والدينية بدرجات متفاوتة وحسب وجودها في الذات اللاواعية لكل مجتمع أو أثنيه. ولعل المجتمعات العربية والإسلامية من أكثر المجتمعات توظيفاً للرؤيا في الحياة اليومية، لارتباطها بالدين الذي يقدم لها الإطار الشرعي الذي يمكن أن تفهم أو تؤول فيه؛ ومن ثمة توظيفها اجتماعيا وثقافيا. وبما أننا هنا بصدد البحث عن تجلياتها في الشخصية الصوفية والشخصية الشريفة سنحاول معرفة دورها في إثبات الانتساب إلى آل البيت، إذ أنها قد تكون من أكثر الوسائل اللامادية استعمالاً لتأكيد أو إثبات أو إدعاء قرابة آل البيت، كونها تتمحور أساسا حول شخص الرسول صلى الله عليه وسلم أو عدد محدود من الصحابة أهمهم علي بن أبي طالب، ولذلك سنفترض منذ البداية أننا في مجال الرؤيا الصالحة.

وتكون وسيلة عملنا هي استنطاق بعض النصوص التاريخية التي وردت في كتب الطبقات الصوفية وغيرها، مع تقديم قراءات لبعض رموزها الصوفية ومبتعدين عن تعبيراتها لأن ذلك يتطلب معرفة عدد كبير من الرموز المعتمدة في تأويل الأحلام، وهذا ليس مجالنا. كما أننا لن غفل عن ذكر معارضي الصوفية من علماء الظاهر، الذين يشككون و يكذبون إدعاءات الصوفية التلقّي المباشر من النبي بمرائيهم في حال النوم واليقظة، وما يترتب عنها من إفساد للشريعة والعقيدة وتخريب لعقول المسلمين. على أن هدفنا الأساسي هو إبراز مرائي الصوفية وتأكيداتها وإثباتها النسب أو الانحدار النبوي بشكليه البيولوجي والروحي.

1/ مرجعية سنية: يستند مدعي الرؤيا الصالحة إلى مجموعة من الأحاديث النبوية التي نقسمها إلى أحاديث الرؤيا

الصالحة وأحاديث رؤيته صلى الله عليه وسلم.

أ- في الرؤيا الصالحة: يجب الإشارة أولا أن الرسول في بداية نزول الوحي كان يتلقاه في شكل رؤى لمدة ستته أشهر، قبل أن يتلقاه يقظة كما حدث في التلقي الأول في غار حراء. ومن هنا احتلت الرؤيا في حياته و حياة الصحابة حيزا هاما. فقد جاء في حديث أبي قتادة قوله صلى الله عليه وسلم "الرؤيا من الله والحلم من الشيطان ثم يضيف الحديث نفسه السلوك الذي ينبغي للمسلم اتخاذه في الحالة الثانية "فإذا حلم أحدكم حلما يكرهه فيلتفت إلى يساره ثلاثا و ليتعود من شرها. لن تضره"⁽¹⁾. وقد ربطت أحاديث كثيرة بين الرؤيا والنبوة كجزء منها، ففي حديث أبي هريرة قوله صلى الله عليه وسلم "لم يبق من النبوة إلا المبشرات، قيل وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة"⁽²⁾. وفي حديث آخر له يقول: إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان إذا انصرف من صلاة الغداة؟ قال: "هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا؟ ويقول إنه ليس يبقى بعدي من النبوة إلا الرؤيا الصالحة"⁽³⁾. أما الأحاديث التي تنص على الرؤيا كجزء من النبوة، فمنها حديث أنس بن مالك عن عبادة بن الصامت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "رؤيا المسلم جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة"⁽⁴⁾. وفي صيغ أخرى "... جزء من سبعين جزءا من النبوة"⁽⁵⁾.

ب/ رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم: وردت أحاديث كثيرة اختلف في تأويلها الفقهاء والصوفية، منها حديث عبد الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي"⁽⁶⁾ وفي صيغة أخرى "إنه لا ينبغي للشيطان أن يتمثل في صورتي"⁽⁷⁾ وفي لفظ آخر "... فإنه لا ينبغي للشيطان أن يتشبه بي"⁽⁸⁾. ويضاف إلى رؤيا المنام تحقق الرؤية يقظة في أحاديث أخرى، كما في حديث أبي هريرة "من رآني في المنام فسيراني في اليقظة - أو لكأنا رآني في اليقظة - ولا يتمثل الشيطان بي"⁽⁹⁾ و للبخاري أحاديث أخرى منها حديث أبي قتادة "من رآني فقد رأى الحق"⁽¹⁰⁾؛ و حديث أبي سعيد الخدري "من رآني فقد رأى الحق، فإن الشيطان لا يتكونني"⁽¹¹⁾. وقد جمع البخاري في حديث أنس بن مالك بين الرؤيا كجزء من النبوة ورؤيا النبي "من رآني، فقد رآني، فإن الشيطان لا يتمثل بي. ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة"⁽¹²⁾. و ممن أجاز رؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظة بعد وفاته ابن حجر الهيتمي، واعتبره خاص بالنبي لا يجوز لغيره. وهو بذلك يجيب عن مسألة أشعلت نار الحرب بين الصوفية الذين ادعى الكثير منهم ذلك، و الفقهاء الرافضين للأمر. ثم إن الهيتمي يقسم رؤيا النبي يقظة إلى رؤية بعيني الرأس ورؤية بعيني القلب⁽¹³⁾، والفرق بين التأويلين واضح، إذ أن أحدهما حسي والآخر معنوي.

ويرجح الشعراني الرؤية بالقلب استنادا إلى قول محمد المغربي الشاذلي "رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم يقظة تعني يقظة القلب لا يقظة الحواس الجسمانية. وأن الرائي لا يرى الرسول إلا بروحه المتشكلة بتشكيل الأشباح {الأجساد}، وأن روحه لا تنتقل من البرزخ إلى هذا الرائي، وهذا لكرامتها وتنزيهاها من كلفة المجيء"⁽¹⁴⁾. وهذا الرأي يكاد يتعارض مع رأي ابن حجر الهيتمي في ذلك، وقد يعد استثناء في بحر كبير من أقوال الصوفية ومرايهم التي لا تكاد أحيانا تستبين فيها الحس من المعنى. وبما أن التصوف مسألة ذوق قبل أن تكون مسألة عقل فإننا نجد الشيخ أبو المواهب الشاذلي يغلب الحضور الحسي والمعنوي الدائمين للرسول صلى الله عليه وسلم في حياة العارف بالله، معتمدا في ذلك على رأياه للرسول وقوله له عن نفسه "لست ميتا، وإنما موتي عبارة عن تستري، عمن لا يفقه عن الله، وأما من يفقه عن الله فهي أنا أراه ويراني"⁽¹⁵⁾.

وقبل هؤلاء الصوفية كان الغزالي قد قال " عجائب الرؤيا الصادقة ينكشف بها الغيب، وإذا جاز ذلك في النوم فلا يستحيل ذلك في اليقظة"⁽¹⁶⁾. والغزالي بذلك يخوض في جدلية النبي والولي التي شغلت ولا زالت الصوفية والعلماء، إذ يؤكد الغزالي أن الرسول أخبر عن أمور غيبية ومستقبلية كما جاء في القرآن، وأنه إذا جاز ذلك للنبي فإنه جائز لغيره. وهذا الغير ليس هنا سوى الولي، لأنه إذا كان النبي قد كشف بحقائق الأمور، وشغل بإصلاح الخلق فإن الولي أيضا مكاشف بالحقائق، ولا يشتغل بإصلاح الخلق⁽¹⁷⁾. وهذا مما لا شك يحيلنا إلى الحديث السابق "من رآني في المنام فسيراني في اليقظة"، وتكون قناة الاتصال هي المكاشفة التي لا غنى للولي عنها في تحقيق ذاته المتمثلة بالنبي في أحد خصائصه النبوية المؤيدة من الله بالوحي وملائكة الوحي.

و مما يدل على شيوع رؤيته صلى الله عليه وسلم يقظة لدى الصوفية، ما ورد على لسان والدته إبراهيم المتبولي الذي كان يرى النبي في المنام فيخبرها بذلك، فتقول له "إنما الرجل من يجتمع به في اليقظة". فلما صار يجتمع به في اليقظة ويشاوره على أموره، قالت له "الآن قد شرعت في مقام الرجولة"⁽¹⁸⁾. وتظهر المرأة كولية عارفة بالله تريد أن تصل بابنها إلى مقام أعلى، تتحقق معه ذات الولي كما لو أنها تنتقل من مرحلة الطفولة إلى مرحلة البلوغ، في شكل من أشكال المسارات التي لا غنى عنها للولي مهما بلغ سنه. وهو أشبه بطقوس المجتمعات البدائية، وإن كان ذلك لا يتم لدى الصوفي في طقوس دينية واجتماعية مؤسساتية. وقد نقل عن أبي حمزة والبارزي والياقعي وغيرهم أنهم رأوا الرسول في المنام، ورأوه بعد ذلك يقظة وسألوه عن أشياء غيبية فأخبرهم فكانت كما أخبر؛ وعدها أبو حمزة من جملة كرامات الأولياء⁽¹⁹⁾. والمؤكد لديهم حصول الرؤيا والرؤية يقظة، وما يتبعهما من كشف ومكاشفة وشهود ومشاهدة، تحدث أحوالا للصوفي وترقيه إلى مقامات علياء.

كما أكد الرؤيا ثلاثة ممن أشاد بهم ابن تيمية وهم الشيخ عبد القادر الجيلاني وأبي مدين الغوث وأبي بكر العربي المعروف بقواصمة أو عواصمة⁽²⁰⁾. وعلى هذا يكون الصوفية قد رسموا صورة دقيقة لآلية الرؤيا، فذكروا أن لذاته عليه السلام نورا منفصلا عنها قد امتلأت بالعلم وهذا النور تظهر فيه ذاته عليه السلام كما تظهر صورة الوجه في المرأة⁽²¹⁾. وفكرة نورانيته عليه السلام هي في صلب نظرية الإنسان الكامل التي قال بها ابن عربي وابن سبعين وعبد الكريم الجيلاني والشاعر ابن الفارض وأحمد التجاني....

2/ مفهوم الرؤيا: إذا استندنا بالمطلق إلى الحديث النبوي فإن الرؤيا تكون وثيقة الصلة بالمسلمين أو المؤمنين في لفظ آخر، فلا مجال لتوسيعها إلى بقية الديانات والملل والنحل. وأن الآخرين يشتركون مع المسلمين في الحلم باعتباره إنسانيا. لكن الإشكال أن الكثير من الصوفية يوسعون مفهوم الإيمان لغير المسلمين، فيعتبرون كل من يعيش حياة التصوف والزهد ينتمي إلى عالم الإيمان، ويشترك في ذلك أصحاب الديانات السماوية والوثنيين من بوديين وطاويين وغيرهم. مما يجعل فهمهم للرؤيا في حد ذاته معرض للاهتزاز، وإن وجد عندهم من لا تعارض لديه بين التصوف الإسلامي وحقيقة الإيمان. وعلى هذا تتعدد المفاهيم، باختلاف المشارب الفكرية والعلمية والإيديولوجية أيضا، فعند ابن خلدون " الصورة المنزلة من الروح العقلي المدرك هي رؤيا، والصورة المأخوذة من الحافظة التي كان الخيال قد أودعها مند اليقظة فهي أضغاث أحلام"⁽²²⁾. وعند القسطلاني المعنى أكثر شمولية من حيث كونها ما يراه الشخص في منامه⁽²³⁾. ثم أنه يورد

رأيين مختلفين ، أحدهما لأبي بكر بن العربي الذي يعتبرها إدراكا في قلب العبد على يد ملك أو شيطان بحقيقتها أو بعبارتها ، وإما تخليطا . أما الآخر فهو ما قال به أبو بكر بن الطيب من كونها اعتقادات وليست إدراكا . والاعتقاد عنده على خلاف المعتقد لأن الرائي قد يرى نفسه بهيمة أو طائرا⁽²⁴⁾ . وقد رجّح المصنف الرأي الأول القائل بالإدراك لكونها جزء من النبوة عند الرسول و كجزء من أجزاء النبوة على سبيل المجاز عند غيره⁽²⁵⁾ . وغير بعيد عن رأي أبي بكر بن العربي ، يرى هادي العلوي أن الصوفية قد اصطلاحوا على تسمية المنام الكريم باسم الرؤيا ومنها رؤيا رب العزة أو شيخ المريد أو حبيبته الكونية . وأما الحلم فهو أن يرى الخليفة أو الولي⁽²⁶⁾ . وقد عوض المؤلف مصطلح الرؤيا الصالحة بالمانام الكريم ، و هو مصطلح اعتمده أيضا ابن أبي الدنيا في كتابه "المنامات" ، ثم إنه من الواضح إدخال هادي العلوي المنام الكريم في حقل المقدس واعتباره الحلم ضمن دائرة المدنس . وإلى هذا "فإن الرؤيا من أركان التصوف وطريقة من طرق الإدراك والعمل وفلسفة تقوم على الفيض والإشراف ، مرتبطة في أصولها بالعقل والإبداع"⁽²⁷⁾ .

الصوفي لا يمكنه إهمال الرؤيا أو التخلي عنها ، فهي دائمة الحضور في يومياته ، يعبر بها عن أمور مدركة و أخرى خفية ، ويكون هو الوحيد القادر على فك رموزها وإشباع ذاتها المتطلعة دوما إلى ما هو أسمى وأعلى ، في محاولة أخرى لنفي ذاتها الطينية التي يؤديها بالرياضات ، ويستعين عليها بالإلهام والكشف والرؤيا ، متنقلا من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام في شكل تصاعدي لا يقبل الرجوع إلى الخلف ؛ وهكذا هو حال الصوفي دائما .

3/ دلالات الرؤيا : تحمل الرؤيا دلالات متعددة مرتبطة بالنفس والمجتمع فهي تتسم بالصالح لدى ابن عربي باعتبارها من المبشرات التي أبقيت على الأولياء من آثار النبوة ، يراها الرجل المسلم أو ترى له ، وهي حق وحي ، ولا يشترط فيها النوم ؛ لكن قد تكون في النوم وفي غير النوم . وفي أي حال كانت فهي رؤيا في الخيال بالحس لا في الحس⁽²⁸⁾ . وهي كلمة الرب لعبده حسب الحكيم الترمذي الذي أورد حديثا نبويا جاء فيه " إن رؤيا المؤمن كلام يكلمه الرب تعالى لعبده في منامه " . فتأتي البشرية على قلبه في اليقظة ، فإن القلب خزانة الله و روحه يسري إلى الله تعالى في منامه⁽²⁹⁾ . هذه الآلية النفسية والاجتماعية المطبوعة بصيغة كيماوية ليست حكرا على الولي بالمعنى الصوفي أي الولاية الخاصة ، أو ولاية خاصة الخاصة من العارفين بالله ، بل هي مرتبطة بالذات المسلمة ، إذا ما سلمنا أنها لا تعني في معناها سوى الصلاح كونها جزء من النبوة أو ما تبقى منها ، أي أننا نستثنى الأحلام التي مصدرها الشيطان والتي هي الأكثر انتشارا .

يكون الحلم متصلا بالإنسان في مفهومه الأناسي من حيث وحدة الإنسان ، ومن حيث تعدده كثقافات ومجتمعات . ولهذا فإن جميع المجتمعات من أكثرها تقدما إلى أكثرها تثقفا {المجتمعات البدائية} تتفاعل معها إن على المستوى الفردي أو على المستوى الجماعي بمستويات مختلفة ، وبطرق تقديسية أو بنوع من النظرة العلمية الرافضة لها علنا و المعترفة بها ضمنا لدى المجتمعات العقلانية والتي أخضعها للدراسات كما هو الحال لدى علم النفس ودرسته لها من الجانب المرضي .

لكن ما الذي يجعل الرؤيا في صلب الممارسة الصوفية ؛ يقدم التحليل النفسي الأناسي مجموعة من الوظائف التي تؤديها الرؤيا وهي :

1* نافذة الصوفي على الوحي أو هي جسر بينه وبين الغيبي (30). وهذا يؤكد الحديث المتعلق باعتبارها جزء من النبوة إذ أنها مثل الكشف تفتح للولي المجال واسعا لتقديم كراماته ومشاهداته ومغامراته ورؤاه عن نفسه وعن مردياته وآخرين.

2* أعطى الصوفيون الكبار لأحلامهم قيمة لرفع الذات وللتقريب بينهم وبين النبي (31). فالصوفي هنا لا يقبل أن يكون إلا في أقرب نقطة من النبي، وهي نقطة الولي. التي تقربه أكثر فأكثر من الله. بل من الصوفية من تجاوز النبوة إلى الذات الإلهية ومشاهدتها ورؤيتها ومحاورتها، والتماهي معها وإدعاء الحلول، كما هو الحال لدى صوفية الحلول، و صوفية وحدة الوجود من أمثال البسطامي والحلاج وابن عربي...

3* هي فرصة لاستقبال التعاليم من الكائن الأسمى والكائن الأسمى (32). لا يمكنه أن يكون لدى صوفية الإسلام إلا الله، والتعاليم هي ما يرد إلى الولي عن طريق الكشف والرؤيا والإلهام كجزء من الأجزاء النبوة المختصة بالولي.

4* هي وسيلة تثبتت لجدول القيم الخاصة بالولي وطريقة إقناع للذات أولا وللغير (33). والقيم الخاصة هي ما يبثه الشيخ في مردياته من ذوق أي من علم الباطن أولا ثم من علم الظاهر ثانيا. ويذهب علي زيعور إلى أبعد من ذلك عندما يعتبر الحلم وسيلة للتنفس أو إشباع الغرائز والميول المكبوتة ورمزية تشبع أمنيته الصوفي في ترك الواقع (34).

و تحليله هذا يقربنا أكثر إلى اعتبارها حالة مرضية لا تتوقف عند ذاتية الصوفي بل هي شاملة للذات العربية في منظوره العلمي. ثم إن مسألة إشباع الغرائز والميول المكبوتة التي يربطها أساسا بغريزتي الأكل والنكاح ليست مسيطرة على كل الصوفية، إذ أنهم لم يكونوا كلهم رهبانا ولا في حالة صيام دائم. أما رمزية ترك الواقع فهي ليست مهيمنة على يومياتهم، و حكايات الصوفية تظهر العديد من الصوفية الذين يهيمنون على وجوههم لمدة طويلة ثم يعودون إلى الاختلاط بالناس. وقد نفى الغزالي التصوف المطلق بقوله "لوبيقي المرء في حالة التصوف لنصف يوم لأصيب بالجنون". النصوص التي اهتمت بالرؤيا هي ميراث صوفي وإنساني كبير، يؤكد أهميتها في حياتهم. وقد أوردت كتب الطبقات و كتب المناقب العدد الكبير منها، مما لا يترك مجالا للشك في اعتبارها أكثر من ممارسة اجتماعية ممارسة دينية. وهذا ما عبر عنه بوضوح أبو حامد الغزالي بقوله "اعلم أن أرباب القلوب يكشفون بأسرار الملكوت تارة على سبيل الإلهام بأن يخطر لهم على سبيل الورد عليهم من حيث لا يعلمون، وثارة على سبيل الرؤيا الصادقة، وثارة على سبيل كشف المعاني بمشاهدة الأمثلة كما يكون في المنام - وهذا أعلى الدرجات وهي من درجات النبوة العالية" (35). يحدد الغزالي بوضوح وسائل التلقي عند الولي وهي الإلهام والرؤيا والكشف ويربطها ارتباطا وثيقا بالنبوة من دون أن يدعي أنها هي النبوة ذاتها أو يقول بعلوها على النبوة.

4/ المنكرون على الصوفية مراتبهم: ينكر الفقهاء على الصوفية الإغراق في المنامات وفي تأويلاتها وتوظيفها الديني والاجتماعي. وقد سئل الإمام مالك بن أنس عنها فأجاب "أبالنبوة يلعب" (36). ويأتي هذا الإنكار عليهم أيضا لتركهم الاشتغال بالفقه (37)، ولذلك فإن حجة الاعتماد على الرؤى والمنامات واعتبارها حجة هي باطلة لدى الفقهاء لأنها ليست مصدرا من مصادر التشريع (38). أما المسائل المنكرة على الصوفية في هذا المجال هي:

1* التكرار المفرط في رؤيا النبي.

2* رؤياه بذاته وقطع الصوفية قطعاً تاماً أنه هو.

3* رؤيته في اليقظة

4* إصدار أحكام تشريعية في هذه المراني أو تأكيد حديث أو تصحيحه ؛ والأمثلة في ذلك متعددة. نورد منها قصة أبي المواهب الشاذلي الذي سأل النبي في رأياه عن حديث ابن حبان " أكثروا من ذكر الله حتى يقولوا مجنون " فأجاب النبي " صدق ابن حبان في حديثه و صدق راوي أذكروا الله فإني قلتها معاً ، مرة قلت هذا و مرة قلت هذا " (39). ثمة أن العلماء لا ينكرون كلياً الرؤيا فقد أورد بن كثير نقلاً عن أحمد بن حنبل في مسنده رؤيا ابن عباس للرسول صلى الله عليه وسلم المتصلة بمقتل الإمام الحسين ، ووجد ابن كثير في الحديث اسناداً قوياً ولكنه مع ذلك أخذ عليه تفرد أحمد بن حنبل به (40).

وإذا كان الأمر بهذا الموقف اتجاه رؤيا وردت في أحد اصح كتب الحديث فلا غربة أن يكون موقف العلماء بشدة تجاه المنات من مراني الصوفية ومدعي التصوف. أما ابن رشد فيقول: إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد لا يرى بصورته التي خلق التي خلق عليها ، وقد يراه الرائي نفسه بعدة صور - ولا يجوز أن تختلف صور النبي عليه السلام ولا صفاته - (41). ويضيف الشاطبي أن ما يأتي في الرؤيا يجب أن يعرض على أحكام العلم ،... إلى أن يقول "إن ما يخرم حكماً شرعياً ليس بحق في نفسه بل هو إما خيال أو وهم وإما إلقاء من الشيطان. وقد يخالطه ما هو حق وقد لا يخالطه " (42). يرد الصوفية بقولهم أن الولي لا يشرع لكون ذلك للنبي وحده ، أما الولي فينبى الحقائق الكشفية بطريق الولاء والوراثة للأنبياء (43). وبصدد ما ادعاه الصوفية من لقاء الرسول صلى الله عليه وسلم يقظة و تلقينهم عنه أحكاماً شرعية ملزمة فإن العلماء يرون أنها فتحت الباب على مصراعيه للكذب الفاحش على الرسول صلى الله عليه وسلم (44). وقد تنبه أحد كبار التابعين وهو سفيان الثوري إلى ما يمكن أن تحمله الأحلام وتأويلاتها وتعبيرها من خطر على العقيدة والدين ، فقد كان يرد على من ادعى بأنه رآه في المنام بقوله "أنا أعلم بنفسى من أصحاب المنامات " (45). وإذا كان الأمر متعلقاً بشخصه فكيف يكون موقفه من مدعي رؤية النبي باستمرار في حال المنام واليقظة ؟ لا شك أن صرامة منهجه ستكون أشد وأقوى.

اهتمت كتب المناقب و طبقات الصوفية و كتبهم إجمالاً بذكر مراني الشيوخ ، ويبدو هذا مرتبطاً ارتباطاً واضحاً بالولاية التي يتحقق جزء منها بهذه الجزئية الواردة في الحديث النبوي في كونها جزء من ستة و أربعين أو من سبعين جزء من النبوة. ولهذا فإن تجليات الرؤيا تظهر في عدة أبواب منها تأكيد النسب النبوي ، ويكشف بها للمريد عن شيخه قبل أن يلتقي به ، ويصل بعضها إلى ما قد يشوب حوله الظنون في إدعاء التشريع . ونجد فيها حوارات بين الرائي والنبي بعضها فيه إطالة لا يضاهاها أطول الأحاديث الصحيحة أو الحسنات في حواراته مع الصحابة. وهي توظف لتقديم أجوبة عن مسائل النسب و عن قضايا في الاعتقاد والتشريع ، يجيب فيها النبي عن أمور غير واردة في الحديث النبوي ذاته ، كما هو الحال في هذا المثال ، الذي سأل فيه جعفر بن الخلدی الرسول عن التصوف ، فأجابه النبي ترك الدعاوي و كتمان المعاني ، وعن الفقر ، فأجاب " هو سر من أسرار الله تعالى يودعه فيمن يشاء " (46). وفي هذا أيضاً رد على العلماء المنكرين لوجود التصوف في حياة النبي و الصحابة. 5/ تأكيد النسب النبوي: الانحدار النبوي بشقيه

البيولوجي والروحي وتأكيد أحدهما أو كلاهما يتم لدى الصوفية وأحيانا لدى الأشراف بواسطة الرؤيا كوسيلة مدعمة للوسائل المادية أو معوضة لها في حال غيابها. وهكذا تكون الرؤيا إلى جانب تأدية الوظيفة التربوية الروحية، وسيلة تؤكد النسب النبوي إذ أن الصوفية يرتبطون بالنبي بشجرة روحية تحقق النسب الديني⁽⁴⁷⁾. وتكون أيضا وسيلة يضعها الله في يد من لا يستطيعون إثبات هذا النسب بالشهود والوثائق. تضاف إلى الكرامة. وتكون الكرامة والرؤيا وسيلتان معوضتان لما فقد في إثبات النسب النبوي. الكرامة هنا من حيث كونها الوريث الشرعي للمعجزة والرؤيا من حيث أنها جزء من أجزاء النبوة⁽⁴⁸⁾، بل هي نفسها كرامة فقد عدت من الأدلة القاطعة على الكرامة⁽⁴⁹⁾. والعلاقة بينهما متينة فكلاهما لا يخضع لمقولتي المكان والزمان، وكل منهما يفصح عن أوليات لاواعية تحمي الذات و يكشف مشكلات الشخصية وطبقاتها التحتية وهمومها المستقبلية وإسقاطاتها، ويطل على مخزن التجارب البشرية الأولى أو الأنماط الأساسية في اللاوعي الجماعي...⁽⁵⁰⁾.

هل الانتساب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وإدعاؤه بالكشف والإلهام والرؤيا هو انتساب رمزي لا يتعدى كونه محاولة من المدعي تحقيق ذاته المتسامية والتي ترى الدونية في كل شيء إلا في شخصيتين هما شخصية النبي كل الأنبياء وشخصية الولي كل الأولياء وبالأخص شخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم و شيخ المريد؟ أم أنه انتساب فعلي و عملي بما يترتب عنه من ميراث نبوي و ميراث صوفي ؛ وإن كان الميراث الصوفي هو في حد ذاته ميراث نبوي كما يدعي الصوفية؟

المتتبع للنماذج المتعددة لدى الصوفية في هذا المجال يخيل إليه منذ البدء أنه لا رمزية في إدعاء النسب بل هو انتساب حقيقي بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، وقبل الفصل في هذا إن أمكن سنقدم نماذج لمحاولة إثبات الانحدار النبوي من شخصيات صوفية وأخرى شريفة أو أنها حاملة للشرف و التصوف في ثنائية هي الأسمى حسب المعتقد الصوفي - مبهرة أحيانا وغير مكثرة بها أحيانا أخرى.

و الملاحظ أن كتب الطبقات و المناقب ليست كلها ذات مرجعية شرفوية، والصوفية ليسوا كلهم غارقين في بحر البحث عن الشرف الطيني وخاصة صوفية القرون الأولى؛ إذ تبدو الظاهرة الشرفوية تاريخيا مرتبطة بالقرون التي تشكلت فيها الصوفية كتيار اجتماعي و اتخذت الاستشراق طابعا شبه رسمي مع بداية تأسيس الزوايا و الطرق الصوفية. ومع ذلك فإن عددا من بكار الصوفية و أوتادها ورد عنهم أو عن غيرهم قصص و مرثي تصب كلها في محاولة إثبات الانحدار البيولوجي الشريف المتفرد و العابر للزمن و الأوطان. و من ذلك أن الشاعر الصوفي عمر الفارض رأى المصطفى في نومه فسأله إلى من تنتسب؟ فأجابه يا رسول الله إلى بني سعد قبيلة حليلة فقال له النبي "بل نسبك متصل بي"⁽⁵¹⁾، وقد أولها المناوي بأنها نسب روحي وليس نسبا بيولوجيا، بتعليقه "يعني نسبة محبة و تبعية"⁽⁵²⁾. مما يعني أنه أفرغ الرؤيا من كل تأويلات أخرى، و هو بذلك وضع هذا الانتساب ضمن النسب العام لجميع المسلمين للنبي عبر العصور. و هو القائم على المحبة و الإتياع، ثم إنه لم يطلعنا على تأويل صاحب الرؤيا. مما يجعلنا في حيرة من أمرنا، إلى أن نتكشف لنا مرة أخرى أهمية الرمزية عند الصوفية وهي الرمزية التي لا يمكن فصلها عن الذوق.

تأكيد النسب و الانحدار النبوي لم يشكل هاجسا نفسيا أو اجتماعيا عند أبا الحسن الشاذلي ، إذ أن المصادر التي تثبت نسبه الشريف متعددة ، ولكن الهم الأول للشاذلي هو الميراث النبوي ، وفي هذا تتدخل الرؤيا لتحقيق جزءا من هذا الميراث الرجوع إلى جده بحسب تعبيره. و تخبرنا الرؤيا أن الرسول صلى الله عليه وسلم وضع أصبعه على سرة الشاذلي وجعل يديره فوق رأسه ، وأنه تم تعليمه هذا الدعاء "يا رب أجعل لي جزءا من النور الذي به محمد صلى الله عليه وسلم رأى ما كان و ما سيكون"⁽⁵³⁾. وتشير هذه الرؤيا إلى مصدر التلقي الكوني الذي يشبه دوران الدراويش الدوارين ، ليكتسب الولي القدرة على التصرف في الكون بالنيابة على الخالق ، ويبقى المدد المحمدي يبدو محوريا إذ به يتلقى الولي القوة الخارقة المعبر عنها بالكرامة لمعرفة ما سيكون كبديل عن النبوة التي لا يمكن إدعاؤها بأي حال من الأحوال. ثم إن الحلم يتلاحم فيه جليا الانحدار الدموي بالانحدار النبوي بالولاية. والكل يجعل منه استمرارية للوجود المحمدي⁽⁵⁴⁾.

هذا الوجود المحمدي هو مبتغى كل ولي بطريقة أو بأخرى وإن كانت الوسيلة هنا هي الرؤيا لكنها في الحقيقة الصوفية ليست المبتغى في حد ذاتها بقدر ما هي تحقيقا لتجليات نورانية مستمدة من الإنسان الأعظم بحسب تعبير بعض الصوفية و هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

في النموذج التالي الرؤيا حاضرة بقوة ليس لإثبات القرابة بين الولي و النبي فحسب بل لتأكيد قبول صاحبها شكلا و مضمونا ، و أعني بالشكل الجانب البيولوجي و بالمضمون أفكاره و معتقداته و تصوفه. يروي القصة الأمير عبد القادر الشريف النسب و القادري التصوف ، ويقول أنه لما بلغ المدينة المنورة ، وقف اتجاه الوجه الشريف و سلم على النبي ، وقال "يا رسول الله كليمك بأعتابك ، يا رسول الله نظرة منك تغنيني ، يا رسول الله عطفة منك تكفيني." و أنه سمع رسول الله يقول له "أنت ولدي و مقبول"⁽⁵⁵⁾. وجدانية الأمير اتجاه النبي من القوة بمكان و مراده كما يتضح لي ليس إثبات النسب البيولوجي بقدر ما هو تحقيق النسب الروحي بمعنى آخر تحقيق الولاية الكاملة من النبي الكامل. و مع ذلك فإن الإجابة النبوية احتوت على الجانبين البيولوجي و الروحي معا. و بعد هذا نجد أن الأمير لا يكتفي بالسمع بل يريد رؤية الشخص الشريف ، و هذا ما سيتحقق لاحقا ، فحسب روايته جلس اتجاه القدمين الشريفين ، و صق و غاب عن العالم . فسمع قائلا يقول "هذا سيدنا التهامي" فرفع بصره في حال الغيبة فاجتمع به بصره و هو خارج من شبك الحديد من جهة القدمين الشريفين ثم تقدم النبي إلى الشباك الآخر و خرقه إلى جهتي – يقول الأمير – فرأيته فخما مضخما باديا متماسكا غير أن شبيه الشريف أكثر و حمرة وجهه أشد . مما ذكر أصحاب الشمائل . فلما دنى مني رجعت روحي⁽⁵⁶⁾.

هذه الرؤيا العجيبة تحمل من الدلالات و المدلولات الصوفية ما هو استغراق كلي في ذات المحبوب . ويتمظهر ذلك في هذا الحاجز المادي { الشباك } الذي يفرق بين المحب و محبوبه ، وهو الحاجز الذي لم يكن موجود في القرون الأولى لوفاة النبي ، والذي تحول في المخيلة الشعبية الجزائرية إلى رمز يعبر عن النبي و يعوض لمصطلح الروضة الشريفة فالأدعية الشعبية تقتن بالشباك أو بالقبر مباشرة كما هو الحال في تلمسان ، عند النسوة المسنات خاصة ، فعند اقتران التسليم على إحداهن بحركة فيها انحناء تجاه إحداهن قد تدعو لك بزيارة قبر النبي أو التسليم على { شباك النبي } . و تكون الرابطة بين احترام المرأة المسنة و الاقتراب من الشباك النبوي رابطة حركية مغلقة و مغلقة بطابع التقديس لصاحب

المكان . و هو الشباك النبوي الذي أوصى الشيخ محمد الهبري العزاوي مريديه في الحج أن لا يمسه كما يفعل العامة بل الأجدد هو الابتعاد عنه بمترين والوقوف باحترام أمام رسول الله⁽⁵⁷⁾.

تتجسد القربة الدّموية والروحية في رؤيا سيدي محمد بن علي الحوتي { القرن 18 } وفيها يأخذ الرسول بيده و يضعها على يده الشريفة ثم يطلب منه أن يشدها لكي تنعقد بينهما الصّبة ، ثم يرفع الرسول عن يده اليمنى تنورة ردائه ويطلب منه أن يشد بقوة ، ليأمر علماء الشريعة أن يمروا تحتها ، ويعيد العمل ذاته ليمر أصحاب الولي من علماء الحقيقة ، وكل هذا بحضور شيخ الرائي ، لتنتهي الرؤيا بقول الرسول "أنت ولدي"⁽⁵⁸⁾.

تطرح هذه الرؤيا إشكالية الصّبة و الأخوة كونها تتسم بطقس تتم فيه الصّبة بين الولي و النبي، وهو ما يخالف أصلا التمييز النبوي بين أصحابه و إخوانه الذين هم كل من آمن به و لم يره في حين و جوده حيا ، لكنها أيضا تغني عن كل الوسائل المادية لإثبات الانحدار النبوي لكون الولي في حد ذاته معترف له بنسبه الشريف ، وإنما الرؤيا هي تأكيد صوفيا على العلاقة التي تجمع الولي بالنبي ، خاصة و أنها تتم بحضور شاهد قوي هو شيخ الرائي . الوظيفة الأخرى التي تحققها الرؤيا للرائي هي العلية على علماء الظاهر و علماء الباطن بما فيهم شيخه ، كما أنها تمكنه من علم الباطن و الظاهر و الجمع بينهما . أما المرور تحت التنورة فهي ترمز إلى العبور إلى مقام أعلى ، و تؤكد القربة الروحية بين الولي و النبي . أما رؤيا أبي العباس أحمد بن أبي بكر بن مرة فيخبره فيها النبي بأنه إنما خلق من عضده و يناديه يا أحمد⁽⁵⁹⁾ . هذه الرؤيا توحى بوجود علاقة أسرية حميمة أحد أقطابها النبي و الآخر هو الولي فيما يشه إلى حد ما علاقة الأبوة و البنوة إن حملنا هذه الرؤيا بهذا المعنى القوي والذي هو غاية من غايات الولي .

تضعنا الرؤيا التالية في إطار أقرب من الرؤيا السابقة ، وإن كانت أوسع في محتواها الرمزي ، و هي رؤيا لأبي إسحاق بن علي بن عمر { المتوفى في سنة 809 } ، و تقول أنه رأى الرسول صلى الله عليه وسلم يقول له " يا إبراهيم ، اقرأ عليا سورة مريم ، إلى أن وصل إلى قوله تعالى { وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا }⁽⁶⁰⁾ . فقال النبي " نعم يا إبراهيم إلا أهل اليمن "⁽⁶¹⁾ . الخصوصية الأولى لهذه الرؤيا هي كونها موجهة إلى أهل اليمن الذين دعى لهم النبي بقوله " اللهم بارك لنا في يمننا "⁽⁶²⁾ . أما الثانية فهي استثناء أهل بلد دون غيرهم من ورود جهنم ، علما أن الآية شاملة لجميع البشر. ثالث الخصوصيات هي مناداته للصوفي باسمه "يا إبراهيم" مما يبرز مرة أخرى خصوصية العلاقة بين المنادي و المنادى عليه ، في شكل هو الأعلى في السلم الاجتماعي مجسدة في رابطة الأب بابنه ، سواء على المستوى البيولوجي أو على مستوى الرابطة الروحية بين الولي و النبي .

و أما الفقيه التلمساني محمد بن عبد الله الرّقاوي 1815/1230 فتعرف على نسبه الشريف برؤيته للنبي ؛وتحصل عليها التيجاني برؤيا في حال اليقظة⁽⁶³⁾ . وقد يلجأ الصوفية ذاتهم للأشراف للتأكد من مسألة ما ، فقد طلب الشيخ شمس الدين من الشريف محمد أن يسأل جده النبي إذا رآه في أمانة ، فلما رآه كانت الأمانة التي أخبر بها النبي هي الصلاة التي كان يصليها شمس الدين الحنفي في الخلوة قبل غروب الشمس⁽⁶⁴⁾ . و من النادر جدا أن يلجأ الصوفي لوساطة يحقق بها ذاته ، إذ أن غالبية شيوخ الطرق الصوفية ورد عنهم رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في حال المنام أو حال اليقظة .

أما عبد القادر الجيلاني فقد نقل عنه قوله "رأيت في المنام كأني في حجر عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها و أنا أرضع ثديها الأيمن ، ثم أخرجت لي ثديها الأيسر فرضعته ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا عائشة ، هذا ولدنا حقاً"⁽⁶⁵⁾. تشير هذه الرؤيا إلى رضاعة الكبار التي ورد فيها أحاديث عن عائشة رضي الله عنها⁽⁶⁶⁾ ، وهي التي تكسب الرضيع قرابة مصدرها الرضاعة كما لدى الصبية ، ويبدو أن اختيار العقل الباطن للسيدة عائشة هو اختيار واع لكونها الوحيدة من نساء النبي التي عملت بالحديث الوارد عنها والمتعلق بأبي حذيفة و حليفه سالم ليتمكن من الدخول على سهلة بنت سهيل زوج أبي حذيفة لكونه ليس من محارمها . وأما القراءة الأخرى للرؤيا ففيها انتساب مباشر للنبي عن طريق إحدى زوجاته ، وإن لم تنجب السيدة عائشة أبداً ، ولذلك تفرض القراءة الصوفية نفسها بما يمكن أن تمثله الرضاعة من رمزية الاغتراف من منابع آل البيت من علم ظاهر و باطن علما أن السيدة عائشة يعرف عنها أن من أكثر زوجات النبي تفقها في الدين .

خاتمة

الحاصل أن الأمثلة و النماذج المستعملة و الموظفة للرؤيا متعددة وفي مجالات مختلفة ، ونحن إذ تطرقنا إلى بعضها فإننا يمكن أن نخلص إلى أهميتها في السير بالمريد في الطريق الصوفي بما تقدمه للشيخ وللمريد من حلول لإشكالات نفسية أو اجتماعية أو دينية والتي تواجهه في بحثه عن كل ما يمكنه من نفي نفسه والاستغراق في ذات الإلهية أو المحمدية . لكن من دون أن نتجاهل هنا الانتقادات الكثيرة الموجهة من العلماء للصوفية في هذا المجال ووصفهم إياهم في أحيان كثيرة بالكذب على الله و على النبي ، بل واتهام بعضهم بالكفر خاصة عندما يتعلق الأمر بالتشريع عن طريق و نحن إذ تطرقنا إلى بعضها فإننا يمكن أن نخلص إلى أهميتها في السير بالمريد في الطريق الصوفي بما تقدمه للشيخ وللمريد من حلول لإشكالات نفسية أو اجتماعية أو دينية والتي تواجهه في بحثه عن كل ما يمكنه من نفي نفسه والاستغراق في ذات الإلهية أو المحمدية . لكن من دون أن نتجاهل هنا الانتقادات الكثيرة الموجهة من العلماء للصوفية في هذا المجال ووصفهم إياهم في أحيان كثيرة بالكذب على الله و على النبي ، بل واتهام بعضهم بالكفر خاصة عندما يتعلق الأمر بالتشريع عن طريق الرؤيا .

الإحالات والهوامش:

- 1 - أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري - صحيح مسلم - تحقيق وتصحيح: محمد فؤاد عبد الباقي - دار الحديث - القاهرة ط2 - 1991/1412 - حديث 1/2261 - ج4 - ص1771.
- 2 - محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري - صحيح البخاري - تخريج: صدقي جميل العطار - دار الفكر والطباعة والنشر - بيروت - حديث رقم 6990 - ج4 - ص316.
- 3 - أبي عبد الرحمن بن شعيب النسائي - كتاب السنن الكبرى - حققه: حسن عبد المنعم شلبي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط1 - 2001 - حديث رقم 574 - ج7 - ص1037. وفي سنن أبي داود - رقم 5017 - ج7 - ص364.
- 4 - صحيح مسلم - حديث رقم 7/2264 - ج4 - ص1774. وعند النسائي رقم 7577 و7578 وعند البخاري رقم 6983 و6988 - ج4. وعند الترمذي رقم 2271، وعند أبي داود رقم 5018.

- 5 - أبي عبد الله بن يزيد القزويني ابن ماجة - سنن ابن ماجة - حققه: محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء الكتب العربية - ج 1 - رقم 3897 - ص 1283، وعند مسلم 9/2265، وعند النسائي 7579.
- 6 - أبي عيسى بن عيسى الترمذي - الجامع الكبير - حققه: د. بشار عواد معروف - دار الغرب الإسلامي - بيروت ط 1 - 1996 - حديث رقم 2276 - ج 4 - ص 121. وعند ابن ماجة رقم 3901.
- 7 - سنن ابن ماجة حديث رقم 3902 - ج 2 - ص 1284. وعند مسلم رقم 13/2268 - ج 4 ص 1776.
- 8 - صحيح مسلم - رقم 13/2286 - ج 4 ص 1776.
- 9 - أبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني - سنن أبي داود - حققه: شعيب الأرنؤوط و محمد كامل قره بللي و عبد اللطيف حرز الله - دار الرسالة العالمية - دمشق - ط 1 - 1430/2009 - حديث رقم 5023 - ج 7 - ص 371. وعند مسلم برقم 10/2266 - ج 4 - ص 1775. وعند النسائي رقم 7582 - ج 7.
- 10 - صحيح البخاري - حديث رقم 6996 - ج 4 - ص 318.
- 11 - نفسه - رقم 6997 - ج 4 - ص 318.
- 12 - نفسه - حديث رقم 6994 - ج 4 - ص 318.
- 13 - محمد بن عبد العزيز الشايع - آراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية عرض و تقديم في ضوء عقيدة السلف - مكتبة دار المنهاج للنشر و التوزيع - الرياض - ط 1 - 1427 - ص 466.
- 14 - عبد الوهاب الشعراني - الطبقات الكبرى المسمى لواقع الأنوار القدسية في مناقب العلماء والصوفية - تحقيق و ضبط أ. د: أحمد عبد الرحيم السايح و المستشار: توفيق علي وهبة - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة - ط 1 - 2005/1426 - ج 2 - ص 215/214.
- 15 - نفسه - ص 215/214.
- 16 - أبي حامد الغزالي - إحياء علوم الدين - دار الكتب العلمية - بيروت - ط 3 - 2004 - ج 3 - ص 24.
- 17 - المرجع نفسه - ج 3 - ص 24.
- 18 - عبد الوهاب الشعراني - الطبقات الكبرى - مرجع سابق - ج 2 - ص 166 - وعند المناوي - ج 3 - ص 84.
- 19 - بلهاسمي بن بكار - كتاب مجموع النسب والحساب والفضائل والتأريخ في أربعة كتب - مطبعة ابن خلدون - تلمسان - 1961/1381 - ص 19.
- 20 - عبد العزيز بن عبد الله - معلمة التصوف الإسلامي - ج 3 - آثار التصوف المغربي في الفكر الصوفي الشرقي - دار نشر المعرفة - ط 1 - 2001 - ص 173.
- 21 - المرجع نفسه - ج 3 - ص 174.
- 22 - عبد الرحمن ابن خلدون - المقدمة - اعتنى به: مصطفى شيخ مصطفى - مؤسسة الرسالة ناشرون - بيروت - ط 1 - 2005/1426 - ص 513.
- 23 - أحمد بن محمد القسطلاني - المواهب اللدنية بالمنح المحمدية - تحقيق: صالح أحمد الشامي - المكتب الإسلامي - بيروت - ط 2 - 2004/1425 - ص 516.
- 24 - المرجع نفسه - ص 519.
- 25 - القسطلاني - المواهب اللدنية - مرجع سابق - ص 520.
- 26 - هادي العلوي - مدارات الصوفية تراث الثورة المشاعية في الشرق - دار المدى للثقافة و النشر - دمشق - ط 1 - 1997 - ص 79.
- 27 - الموسوعة العربية العالمية - المجلد 15 - مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر و التوزيع - الرياض - ط 2 - 1999/1419 - ص 211.
- 28 - محي الدين بن عربي - الفتوحات المكية - دار الكتب العربية الكبرى - مصر - 1329 - ج 3 - ص 39.
- 29 - الحكيم الترمذي - ختم الأولياء - تحقيق: عثمان إسماعيل يحي - المطبعة الكاثوليكية - بيروت - 1965 - ص 373.
- 30 - علي زيعور - الكرامة الصوفية و الأسطورة والحلم القطاع اللاواعي في الذات العربية - دار الأندلس - بيروت - 1984 - ط 2 - ص 254.

- 31 - المرجع نفسه - ص255.
- 32 - المرجع نفسه - ص255/256.
- 33 - المرجع نفسه - ص258.
- 34 - المرجع نفسه - ص259.
- 35 - أبي حامد الغزالي - إحياء علوم الدين - مرجع سابق - المجلد 1 - ص80.
- 36 - القسطلاني - المواهب اللدنية - مرجع سابق - ص516.
- 37 - إحسان إلهي ظهير - دراسات في التصوف - دار الإمام المجدد - القاهرة - ط1 - 2005/1426 - ص132.
- 38 - د. محمد بن أحمد إسماعيل المقدم - أصول بلا أصول بحث واف في ردّ عدوان الصوفية ومدعي المهديّة على مصادر التلقّي والمرجعية الشرعية - دار ابن الجوزي - القاهرة - ط1 - 2008/1429 - ص63.
- 39 - إحسان إلهي ظهير - دراسات في التصوف - مرجع سابق - ص134. وعند الشعراني ج2 - ص151.
- 40 - أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير - البداية والنهاية - تحقيق: صدقي جميل العطار - دار الفكر - بيروت ط2 - 1997 - ج5 - ص709.
- 41 - محمد بن إسماعيل المقدم - أصول بلا أصول - مرجع سابق - ص68.
- 42 - المرجع نفسه - ص68 و69.
- 43 - عبد الوهاب الشعراني - الطبقات الكبرى - مرجع سابق - ج2 - ص138.
- 44 - محمد بن إسماعيل المقدم - أصول بلا أصول - مرجع سابق - ص120.
- 45 - د. عبد الحليم محمود - سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث - دار المعارف - ط2 - القاهرة - ص56.
- 46 - الشيخ محمد المنالي الزبّادي - سلوك الطريق الوارية بالشيخ والمريد والزّاوية - تحقيق د. نعيمة بنونة ود. أحمد الشّرقاوي بوكاري - المطبعة والوراقة الوطنية - مراكش - ط1 - 2010 - ج1 - ص39.
- 47 - houari touati- entre dieu et les homes-edt. de l'école des hautes études en sciences sociales-paris -1994-p24.
- 48 - idem-p24.
- 49 - عبد الرزاق المناوي - الكواكب الدّورية في تراجم السّادة الصّوفية أو طبقات المناوي الكبرى - تحقيق وتقديم د. عبد الحميد صالح حمدان - المكتبة الأزهرية للتراث - القاهرة - ط7 - ج1 - ص15.
- 50 - علي زيعور - الكرامة والأسطورة والحلم... - مرجع سابق - ص29.
- 51 - عبد الرزاق المناوي - طبقات المناوي الكبرى مرجع سابق - ج2 - ص14.
- 52 - /المرجع نفسه - ج2 - ص148.
- 53 - Alexandre papovic et autres - les voies d'allah-edt. Marinoor-paris -tome1 - denis gril- le saint fondateur -p115.
- 54 - idem - denis gril - le saint fondateur -p115.
- 55 - الأمير عبد القادر - كتاب المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد - دار البقعة العربية - ط2 - 1966 - ج1 - ص160.
- 56 - نفسه - ج1 - ص160.
- 57 - الحاج مصطفى العشعاشي - السلسلة الذهبية في التعريف برجال الطريقة الدرقاوية - تحقيق: مصطفى يلس بن الحاج محمد - مطبعة سقال - تلمسان.
- 58 - houari touati-entre dieu et les hommes- op-cit-p241
- 59 - أحمد بن أحمد الزّبيدي - مخطوط طبقات الخواص أهل الصّدق والإخلاص - ص11.
- 60 - سورة مريم - الآية رقم 71.
- 61 - أحمد بن أحمد الزّبيدي - مخطوط طبقات الخواص ... مرجع سابق ص17.

- 62 - صحيح البخاري - ج 4 - ص 342 - حديث رقم 7094.
- 63 - houri Touati - entre dieu et les hommes - op - cit - p240.
- 64 - *عبد الوهاب الشعراني - الطبقات الكبرى المسماة بلوائح الانوار في طبقات الاخير - ج 2 - المطبعة العامرة الشرفية - مصر - 1317 هـ - ج 2 - ص 125 وفي طبعة 1299 هـ ص 81 / وغير موجودة في طبعة 2005.
- 65 - إحصان إلهي فلهير - دراسات في التصوف - مرجع سابق - ص 274.
- 66 - صحيح البخاري - ج 3 - ص 15 - حديث 4000 و ص 346 - حديث 5088 - و عند مسلم - ج 2 - ص 1076 - حديث 26/1453 و ص 1078 - حديث 31/1454.

مصلحة الحالة المدنية في الجزائر، المهام والأهمية

د. يحيى لعمارة محمد

قسم علم الاجتماع كلية العلوم الاجتماعية

جامعة عبد الحميد بن باديس – مستغانم –

ملخص:

كثيرا ما ينظر إلى مصلحة الحالة المدنية تلك النظرة الدونية البسيطة التي تنحصر دورها في مجرد تلقي التصريح عن الوقائع الحيوية وتسليم وثائق وشهادات وعقود تثبت حدوثها. ولكن الحقيقة أن هذه المؤسسة تلعب دورا أكبر بكثير من ذلك. حيث يكتسي تسجيل الأحداث الديموغرافية وإحصاءاتها من ولادة الفرد حتى وفاته وكل التغيرات التي تطرأ على حالته من زواج وطلاق، أهمية بالغة الأثر ليس للفرد فقط كما قد يتنهاى للبعض بل حتى للدولة ومؤسساتها الحكومية وغير حكومية التي لها علاقة بإعداد السياسات وصنع القرارات الموجهة إلى تنمية اجتماعية واقتصادية.

من هذا المنطلق يمكن طرح التساؤلات التالية ومحاولة الإجابة عنها:

- أين تكمن أهمية الحالة المدنية؟ بمعنى آخر ما هو الدور الذي تلعبه مصلحة الحالة المدنية؟
- لماذا تسجل الأحداث الديموغرافية في مصلحة الحالة المدنية وخاصة الإحصائية منها؟
- ما مجالات استخدام إحصائيات الحالة المدنية؟

Résumé:

Beaucoup porte un regard simple et naïve sur l'état civil, qui limite son rôle sur le fait de recevoir les déclarations des faits d'état civil, l'attribution des documents administratifs et des certificats ainsi que des actes qui attestent l'existence de ses événements. Mais la réalité c'est que cette institution joue un rôle beaucoup plus grand car elle contribue à enregistrer les événements démographiques et les statistiques de l'état civil depuis la naissance de l'être humain jusqu'à son décès et tous les changements qu'il subit tel que le mariage ou/et le divorce, une importance cruciale pas uniquement pour l'individu comme pourraient penser quelques uns, mais même pour l'état et ses institutions gouvernementales ou non gouvernementales impliquées dans la mise en œuvre de toutes les actions visant le développement social et économique.

A partir de cela, on peut poser les questions citées ci-dessous et essayer d'y répondre:

- Ou se réside l'importance de l'état civil ? Autrement dit quel rôle joue l'état civil ?
- Pourquoi inscrire- on les faits d'état civil et les statistiques de l'état civil ?
- Quels sont les domaines qui ont besoin des statistiques de l'état civil ?

مقدمة :

كل بحث علمي لا بد أن يمر بعملية جمع المعطيات الإحصائية، تنظيمها وتحليلها ليصل في النهاية للأسباب الكامنة وراء حدوث الظواهر، بالاستعانة بثلاثة مصادر أساسية للملاحظة هي: التعدادات السكانية العامة، المسحات بالعينة والتسجيل الحيوي (الحالة المدنية).

ينفذ الإحصاء العام للسكان عادة مرة كل عشر سنوات، يوفر صورة تتصف بالشمول لأفراد المجتمع ككل كما تشير له كلمة "عام"، إلا أن هذه الصورة ساكنة تعبر عن حالة السكان في لحظة معينة ومحددة. وتجرى المسحات باستخدام العينة عادة في الفترات البيئية للإحصاءات، فهي تستخدم كبديل للمصادر الأخرى ولتتبع الصورة المتوفرة من التعداد ولتوفير بيانات عن خصائص أخرى لم تدرس بعد أو بيانات أكثر دقة وتفصيلا عن المتغيرات التي تناولها الإحصاء، إلا أن هذا المصدر كثيرا ما يتعرض للأخطاء الشائعة في اختيار عينة البحث. أما نظام التسجيل في مصلحة الحالة المدنية فهو يعطي صورة ديناميكية عن الأحداث الديموغرافية⁽¹⁾ Evénements démographiques التي تحدث في المجتمع والتغيرات التي تطرأ عليه باستمرار، فهو بذلك يتميز بحركية الإحصاءات الحيوية التي تضعه في مقدمة المصدرين الآخرين ما دام يتسمان بسكون صورتها.

حسب موهو Moheau⁽²⁾ ديموغرافي من القرن 18: "لا يمكن أن تكون هناك آلة سياسية فعالة وموجهة، ولا إدارة جيدة وناجعة في بلد حالة سكانه"⁽³⁾ غير معروفة.⁽⁴⁾ وعليه فإن تقييم الوضعية الديموغرافية والتخطيط من أجل تنمية بلد ما، تستدعي بالضرورة معرفة جيدة وواسعة لخصائص مجتمعه وتطوره عبر الزمن.

لقد أضحت جل الميادين غير قادرة على السير قدما بكيفية طبيعية دون توفر مصلحة كالحالة المدنية بإمكانها تزويد الدولة ومؤسساتها بجميع المعلومات الإحصائية التي قد تدعوا إليها الحاجة في مختلف المجالات الاقتصادية، الاجتماعية، الصحية والإدارية... الخ. ومن ثم يجب أن تحصل الدولة وبصفة منتظمة على معطيات إحصائية حول حركة السكان⁽⁵⁾ Mouvement de la population، ويعتبر التسجيل الحيوي أي تسجيل الأحداث الديموغرافية المتعلقة بالظاهرة الديموغرافية⁽⁶⁾ Phénomène démographique وإحصاءاتها في مصلحة الحالة المدنية من أهم مصادر جمع البيانات السكانية.

تعريف الحالة المدنية :

يعرفها المستشار السابق بالحكمة العليا عبد العزيز سعد في كتابه نظام الحالة المدنية في الجزائر، على أنها "نظام يعني ويهتم بمجموع الصفات الطبيعية والقانونية الشخصية التي تلازم كل إنسان طبيعي وتكون مرتبطة بذاته

وبشخصيته، بحيث تميزه عن غيره من الناس فتحدد علاقته بزوجته وأولاده وأبائه، وتكون مصدرا لبعض حقوقه وواجباته الوطنية والعائلية فتبدأ بولادة هذا الشخص حيا وتمر بحالات زواجه وطلاقه ثم تنتهي بوفاته⁽⁷⁾

الحالة المدنية هي قواعد تنظم التواجد الشرعي للفرد داخل الأسرة والمجتمع وتعتمد على أهم الأحداث المميزة لحياته ومنها الولادة، الزواج والوفاة.⁽⁸⁾

لكن لا يمكن التوقف عند هذا الحد من التعريف بل يجب الذهاب إلى أبعد من ذلك، بما أن المصلحة تقوم في الوقت نفسه عند تلقي التصريح عن الأحداث وتقييدها على السجلات الإدارية بتسجيل إحصائيات هذه الوقائع وتدوينها على استمارات إحصائية، تكون بمثابة قاعدة أساسية يستعين بها كل مستخدم وتعود بالنفع للمواطن والمجتمع.

ومن هذا المنطلق يمكن القول أن الحالة المدنية هي عبارة عن مصلحة حكومية ذات طابع شرعي، هيكل إداري ضمن هياكل الجماعات المحلية تقدم خدمة حضرية عمومية لكافة أفراد المجتمع لممارسة جميع الحقوق من ناحية، ومن ناحية أخرى تعد من المصادر الهامة لمعرفة الحركة الطبيعية للسكان⁽⁹⁾ Mouvement naturel de la population سنويا، ولها دوران هامان يبرزان من خلال نظامين أساسيين:

1. نظام تسجيل الأحداث الديموغرافية:

إن نظام الحالة المدنية له علاقة مباشرة بكيان الأمة ووجودها، فبواسطته يتم تتبع مراحل وجود الإنسان عن طريق تنظيم حالات الميلاد، الزواج والوفاة، وما يترتب بعد ذلك من آثار متعلقة بحقوقه وواجباته كحصوله على الوثائق الإدارية والرسومية المستعملة في شتى الميادين التي لها ارتباط مباشر ويومي به. حيث أكد عبد العزيز سعد على أهمية نظام الحالة المدنية واعتبره "دعامة أساسية لبناء قواعد المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية".⁽¹⁰⁾

وعليه فإن الدور الأول هو بمثابة دور إداري، يتمثل في تنظيم التواجد الشرعي للفرد داخل الأسرة والمجتمع وإعطاء إطار قانوني للحدث الديموغرافي (مواليد، وفيات، زواج وطلاق).

إن المعلومات التي توفرها سجلات الحالة المدنية، لها فائدة بالغة الأهمية تتجلى في مزايا اجتماعية يتصف بها كل فرد من المجتمع، حيث لا يستطيع الاستغناء عنها ولا العيش بدونها.

يتم إصدار شهادة الميلاد من سجلات الولادات، التي تضبط الهوية الشرعية لكل فرد، جنسيته، نسبه وتاريخ ميلاده الذي يثبت سنه خلال مراحل حياته. كما تستخدم الشهادة في الحصول على بطاقة التعريف الوطنية التي لا يخفى أهميتها في التعريف بهوية حاملها، من أجل إبرام عقود وصفقات مختلفة كصرف الشيكات أو الحوالات... الخ.

وتستعمل كذلك شهادة الميلاد في أخذ إجازة الأمومة المدفوعة الأجر لرعاية الرضع ومن الاستفادة من مختلف الخدمات كالتأمين والضمان الاجتماعي وغيرها من القطاعات التي تفرض وجودها في ملفاتها. كما يمكن استخدام سجل الولادات كأداة استعلام بالنسبة لأجهزة الأمن حيث تساعد في ضبط والتأكد من هوية الأفراد التي تحوم حولهم الشبهات أو الفارين من العدالة لارتكابهم جرائم، وعليه يمكن اعتبارها وسيلة لممارسة السلطة وحفظ القانون وتدعيم النظام العام في البلد. كما تتجلى أهمية هذه السجلات سياسيا في إعداد لائحة الشباب في سن الخدمة الوطنية وتحضير القائمة الانتخابية.

تستخدم شهادة الوفاة أولا للحصول على رخصة الدفن. كما تعتبر وثيقة هامة في إجراءات الميراث والحصول على مزايا التقاعد للوريث أو الوريثة وفي حالة إعادة زواج أحدهما. تستخدم كذلك في "المطالبة بالتأمين على الحياة"⁽¹¹⁾. كما يمكن طلبها كوثيقة إدارية من طرف بعض المديريات مثل مجلس القضاء لإثبات جنسية الفرد. أما فيما يخص عقد الزواج فهو من أهم "المواضيع الذي تتصل بحالة الإنسان خلال جزء كبير من حياته، ويستمر أثره إلى ما بعد وفاته"⁽¹²⁾، إذ يعد عقد الزواج دليل على القران، تاريخ ومكان حدوثه، فهو يستخدم للحصول على حقوق الميراث وبعض أنواع الدعم والإعانات، وكذلك إثبات شرعية المولود أو الأسلاف.

تستخدم شهادة الطلاق خاصة في حالة إثبات أو تبرير الحق في زواج جديد أو ولادة طفل بعد الطلاق. تعد هذه الشهادات الجوهرية، التي تم ذكر أهم مزاياها ومجالات استخدامها مطلوبة دوما في ميادين تعليم الأولاد، والوضعية المهنية، وفي عدة حالات ذات صلة بالإدارة كتسليم شهادة السوابق العدلية ورخصة السياقة وجواز السفر وتكوين ملف التوظيف والتقاعد وضبط التعويضات والمنح وإحصاء الخاضعين للتجنيد... الخ. "تسجيل الوقائع الحيوية له بصفة عامة أهمية بالنسبة لتحديد الهوية من أجل الحصول على الحقوق المدنية، مثل الالتحاق بالمدارس وإصدار جوازات السفر وتسجيل من لهم حق الانتخاب والاستحقاقات الاجتماعية وغير ذلك، وكذلك تحديد المسؤوليات"⁽¹³⁾.

كما تهدف هذه الوثائق إلى "إثبات وبيان اسم ولقب كل شخص، وتحديد نسبه وموطنه. وإلى معرفة ما إذا كان متزوجا أو أعزبا، وما إذا كان راشدا أو قاصرا، وطنيا أم أجنبيا، حتى يمكن تفادي ما عساه أن ينشأ من مشكلات، وحتى يمكن تعيين كل حق من الحقوق المترتبة عن كل صفة من هذه الصفات وما يتبعها من واجبات فردية وعائلية ووطنية."⁽¹⁴⁾

تساهم السجلات التي أخذت منها الشهادات السالفة الذكر في الحفاظ على أصالة الأمة بالحفاظ على طبيعة الأسماء وخصائصها أي تركيبها، نطقها ونغمها وطريقة كتابتها كما نص عليها القانون. ويمكن الحديث كذلك عن

إمكانية دراسة تاريخ العائلات وتعقب حياة أفرادها وبالتالي تاريخ المجتمع وخصائصه من خلال تصفح سجلات الحالة المدنية. وباختصار فإن نظام الحالة المدنية التوثيقي له أهمية بالغة الأثر، فبدونه يصعب التحدث عن دولة حديثة.

الدور الثاني يحظ باهتمام أقل من الدور الأول من طرف المجتمع والمسؤولين، يتعلق بالمهمة الإحصائية للحالة المدنية، بحيث تمثل قاعدة للبيانات التي تهتم عدة ميادين مرتبطة بمعرفة الواقع الديموغرافي للسكان وبالدراسات والبحوث في جل الميادين، خاصة الاجتماعية والاقتصادية منها.

بما أن نظام الحالة المدنية خاضع لرقابتين، الأولى إدارية وصائية⁽¹⁵⁾ متمثلة في شخص الوالي والثانية قضائية متمثلة في شخص النائب العام، فهو يلقى قبولا واهتماما أكثر مما يلقاه النظام الإحصائي للحالة المدنية. رغم وجود مؤسسات حكومية كالديوان الوطني للإحصائيات تعمل على جمع هذه البيانات الإحصائية إلا أن سلطاتها محدودة ومراقبتها المستمرة لعمل أعوان المصلحة تبدو غير ناجعة. "ولا تقتصر الرقابة... في صورتها الإدارية الوصائية... أو القضائية فحسب بل تتعداها إلى شكل آخر يمارس من قبل مواطني البلدية عن طريق اتصالهم المباشر بالبلدية أو بواسطة قنوات تتحدث بدلا عنهم"⁽¹⁶⁾ كقنوات منظمات المجتمع المدني، الجمعيات الناشطة أو القنوات الإعلامية. ولكن هذا النوع من الرقابة الشعبية يفترض وجود مواطنون ذو وعي ثقافي ومستوى علمي، ودراية كافية بدور مصلحة الحالة المدنية لا سيما الدور الثاني ألا وهو الإحصائي.

2. نظام تسجيل إحصاءات الحالة المدنية؛

حسب الأمم المتحدة (1953) "النظام الإحصائي للحالة المدنية يتضمن التسجيل الرسمي للإحصائيات المتعلقة بالأحداث الحيوية التي تتضمن: المواليد الأحياء، الوفيات، وفيات الأجنة، الزواج، الطلاق، التبني، تثبيت النسب، الاعتراف الشرعي والانفصال الرسمي"⁽¹⁷⁾.

يحتوي النظام الإحصائي للحالة المدنية على إنشاء وثيقة الحالة المدنية Bulletin d'état civil، استمارات إحصائية تملأ في الوقت نفسه الذي يتم فيه تسجيل الحادثة الديموغرافية على سجلات الحالة المدنية، ليتم إرسالها فيما بعد إلى الجهة المعنية المخولة على مستوى الوطن بجمع الإحصائيات المتعلقة بالحالة المدنية ألا وهو الديوان الوطني للإحصائيات، ومن خلالها يتم إعداد إحصاءات الحالة المدنية Statistiques de l'état civil لاستغلالها من أجل التخطيط لمستقبل أحسن.

ويمكن أن نستنتج من هذا التعريف ما يلي :

- الالتزام بتصريح الأحداث الديموغرافية وخاصة الإحصائية منها.

• إرسال الاستمارات الإحصائية للجهات المعنية.

• تنظيم النتائج، تحليلها وتفسيرها مع وضع التوصيات وكتابة التقارير المناسبة ونشر النتائج.

القرار المؤرخ بتاريخ 30.09.1934 من طرف الحكومة العامة للجزائر أحدث قفزة نوعية في تاريخ الحالة المدنية في الجزائر بإنشاء لأول مرة استمارات إحصائية فردية⁽¹⁸⁾ لكل حادثة من الحوادث الديموغرافية، مع تكليف ضابط الحالة المدنية بملئها قبل تسجيل الحادثة في السجلات الإدارية وإرسالها للمصلحة المركزية للإحصائيات، حاليا الديوان الوطني للإحصائيات.

منذ الفاتح جانفي 1981، شرع الديوان بتطبيق طريقة جديدة لجمع البيانات الإحصائية المتعلقة بالحالة المدنية وذلك بتنفيذ مسحان واحد شامل⁽¹⁹⁾ ما يزال ساري المفعول والآخر عن طريق العينة⁽²⁰⁾ تم الاستغناء عنه مع انتهاء سنة 2008 دون ذكر الأسباب من طرف الإدارة الوصية. الشمولية من ناحية والعينة من ناحية أخرى تسمحان بالوصول إلى أهداف معينة ومحددة مبدئيا، كل مسح على حدا يخضع لاستغلال ودراسة دقيقة لبيانات الحالة المدنية ابتداء من تجميعها، تفحصها ومراجعتها، تصحيحها وترميزها وصولا إلى تفريغها وتنظيمها وتحليلها باستخدام نظام الإعلام الآلي، لكي تصبح أخيرا من ضمن إحصاءات الحالة المدنية أو المؤشرات الديموغرافية المدونة في مختلف منشورات ومطبوعات الديوان الوطني للإحصائيات.

النتائج الخام لإحصائيات الحالة المدنية منشورة في عدة مطبوعات كال دليل السنوي للإحصاء الجهوي للحالة

المدنية Annuaire statistique régional des faits d'état civil

حيث نجد فيه بالنسبة للجهة الغربية للبلاد ما يلي:

- جدول إجمالي للإحصائيات الأربعة للحالة المدنية.
- توزيع الولادات الحية حسب الجنس، الشهر ومكان التسجيل لكل بلدية.
- توزيع المواليد الأموات حسب الجنس، الشهر ومكان التسجيل لكل بلدية.
- توزيع الزيجات حسب الجنس، الشهر ومكان التسجيل لكل بلدية.
- توزيع وفيات كل الأعمار حسب الجنس، الشهر ومكان التسجيل لكل بلدية.
- توزيع الوفيات الأقل من سنة حسب الجنس، الشهر ومكان التسجيل لكل بلدية.

كما نجد في مطبوعة "البيانات الإحصائية" Données Statistiques - Démographie

Algérienne ما يلي:

• عدد الحوادث الديموغرافية على مستوى الوطن

- تطور عدد السكان
- بنية السكان حسب الجنس والمجموع الكلي
- تطور عدد الولادات الحية
- تطور الوفيات العامة
- تطور وفيات الرضع
- جدول الوفيات حسب الجنس والمجموع الكلي
- تطور أمل الحياة عند الولادة
- تطور عدد الزيجات المسجلة في الحالة المدنية
- توزيع الحوادث الديموغرافية الأربعة حسب ولاية التسجيل
- توزيع الحوادث الديموغرافية حسب الجنس وشهر التسجيل

يمكن أن نجد النتائج منشورة كذلك في كتيب "الديموغرافيا في الجزائر Démographie en Algérie"،

ولا بأس أن نعرض عليها:

الخصوبة Fécondité:

- توزيع الولادات حسب عمر الأم
- معدل الخصوبة حسب العمر
- Descendance خلف
- معدل خام للتكاثر Reproduction ومتوسط العمر عند الأمومة
- خلف مستوفى Descendance atteinte حسب عمر الأم
- مماثلة إنجابية Parité حسب العمر الحالي للأم والعمر عند الزواج
- احتمال اتساع الأسرة Probabilité d'agrandissement des familles complètes
- فترة بين توالدية Intervalle inter génésique
- مماثلة إنجابية حسب المستوى التعليمي والحالة الفردية.

الوفاتية Morrtalité:

- توزيع الوفيات حسب العمر
- توزيع الوفيات حسب العمر وسبب الوفاة

- بنية الوفيات بالأشهر والأيام

الزواجية Nuptialité؛

- توزيع الزوجات حسب عمر الزوجين
- متوسط العمر عند الزواج الأول
- متوسط العمر عند الزواج الأول والمستوى التعليمي
- متوسط العمر عند الزواج الأول وزواج الأقارب Consanguinité
- المستوى التعليمي وزواج الأقارب

تكتسي مصلحة الحالة المدنية أهمية بالغة الأثر في الجاني الإحصائي ليس فقط للدولة ومؤسساتها العمومية بل للمجتمع كذلك وأي نظرة مخالفة لهذه الحقيقة تمثل أهم مكونات أسباب الإشكاليات التي تنجم عن سوء تسيير أو إدارة مؤسسة الحالة المدنية. ولكن أين تكمن هذه الأهمية وتتجلى؟

إن التسجيل الإحصائي للوقائع الحيوية في مصلحة الحالة المدنية يلبي حاجات متعددة في شتى الميادين، حيث توفر مصلحة الحالة المدنية من جراء نظام التسجيل المتبع كما هائلا من البيانات السكانية الخاصة بمختلف الحوادث الديموغرافية التي وقعت في المجتمع، فهو بذلك يعطي صورة ديناميكية عن الوضع السكاني لأي بلد والتغيرات التي تطرأ عليه باستمرار. وإن تحدثنا عن مجالات استخدام الإحصاءات الحيوية فنجد لها عديدة يمكن تلخيص أهمها فيما يلي على سبيل المثال وليس الحصر:

- اعتمادا على إحصاءات الحركة الطبيعية للسكان، يمكن تحليل الوضع الديموغرافي للسكان بإظهار وقياس الحجم اللحظي الجاري للظاهرة الديموغرافية والتعرف على مستوياتها، وذلك عن طريق حساب مختلف المقاييس أو المؤشرات الديموغرافية كمعدلات الولادات، الوفيات، الزواج والطلاق... الخ.
- إظهار تطور أحجام الظواهر الديموغرافية خلال أزمنة متعددة، مما يسمح بدراسة تاريخية ديموغرافية للبلاد مع إمكانية مقارنة مؤشرات هذه الظواهر على الصعيدين الداخلي والخارجي، وعليه معرفة خصائص البنية السكانية لبلد ما بالنسبة لبلدان أخرى.
- التعرف على الملامح الديموغرافية للمجتمع، أهمها التركيب النوعي والعمرى المستخدم في تصميم جداول مثل جدول الوفياتية Table de mortabilité، جدول البقاء أو الحياة Table de survie، جدول الخصوبة Table de fécondité، جدول الزواجية Table de nuptialité، و جدول الطلاقية Table de divortialité... الخ، هذه الأخيرة تصف وقوع الحادثة الديموغرافية وتوفر بعض مستويات الظاهرة،

كمستوى الخصوبة المحدد عادة من معدل الخصوبة الإجمالي أو الكلي Taux globale de fécondité
المنبثق من جدول الخصوبة ومستوى الوفاة الذي يحدد توقع الحياة عند الولادة Espérance de vie à la
naissance الذي يوفره جدول البقاء.⁽²¹⁾

- إجراء توقعات مستقبلية عن حجم ونمط ومستوى الظواهر الديموغرافية، كإمكانية توقع عدد سكان بلد ما في غير سنوات الإحصاءات العامة للسكان والسكن وإمكانية تقييم بيانات المصادر السكانية الأخرى، كتقييم عدد سكان بلد ما في إحصائيين متتاليين.
- انجاز تقديرات للمؤشرات الديموغرافية وإجراء تقييمات ذات صلة بالبرامج التنموية والخدمات واتخاذ القرارات والقيام بالإجراءات المناسبة من أجل تحقيق مشروعات الدولة ومؤسساتها. كتقدير عدد السكان البالغين السن القانوني للعمل لتوفير مناصب شغل أو كذلك البالغين سن التمدرس لإنشاء مدارس وتأطيرها.
- دراسة المستوى الصحي للمواطنين، تقويم ومراجعة البرامج الصحية العامة مع وضع خطط جديدة لتغطية احتياجات الجهات الصحية، وذلك لتحسين الأحوال الصحية للسكان ومكافحة الأوبئة باستخدام أسباب الوفاة ودرجة انتشار الأمراض والفئة المعرضة للخطر والمشكلات الصحية المتعلقة بالإنجاب كالأجهاض والولادات الميتة. مع تقدير مجتمع النساء المتزوجات في سن الحمل اللاتي يجب أن يستخدمن وسائل تأجيل الحمل، ودرجة نجاح هذا الاستخدام، ومدى الحاجة إلى الخدمات أثناء فترة الحمل والخدمات ما بعد الحمل، وخدمات الأمومة والضمان الاجتماعي وغيرها التي تدخل ضمن برنامج تنظيم الأسرة من أجل تحقيق مستوى معين للخصوبة وعناية كاملة بصحة المواليد وأمهاتهم.
- مقاييس الزواج المنبثقة من تسجيل إحصاءات الزواج في الحالة المدنية، تمكن المؤسسات الحكومية من إجراء تخطيط اجتماعي، حيث توفر معلومات عن عدد ونوع وطبيعة الأسر المستجدة مما يجعل تقدير وتوفير احتياجات أفراد هذه الأخيرة من مساكن وشغل وتعليم وخدمات عمومية أمرا ممكنا. كما يمكن دراسة العائلات دراسة تاريخية، "في المجتمع المغلق من الممكن التوصل إلى إعادة تركيب العائلات انطلاقا من مصدر الحالة المدنية، وبواسطة هذه العملية ندرك تاريخ العائلات في بدايتها بفضل زواج الأزواج في تاريخ ما مثلا تاريخ الإحصاء أو التحقيق، أو ندرك نهاية الزواج حينما يموت أحد الزوجين".⁽²²⁾
- إحصاءات الطلاق تنير الطريق عن الكثير من المشكلات الاجتماعية وأسباب تفكك الرابطة الزوجية لتفادي وقوعها وتساعد في تكوين الأسر مع ظاهرة الزواج.

- إن البيانات الإحصائية المنبثقة من الحالة المدنية تكون قاعدة لأغلب الأبحاث السكانية المتخصصة كدراسة انثروبولوجية لأسماء المواطنين مثلا من حيث الأصول الثقافية والاجتماعية والمرجعية الدلالية.
- في الأخير، وفي حالة إصابة النسختين أو السجلين الأصليين للحالة المدنية بالتلف بسبب كارثة طبيعية أو حرب أو أعمال تخريبية، وقصد إعادة إنشاءهما وتعويضهما يمكن الاعتماد على سجلات مصالح الإحصاء أي الاعتماد على الإحصاءات المدونة في استمارات الحالة المدنية الخاصة بالديوان الوطني للإحصائيات على سبيل المثال.

خاتمة:

لا يمكن الحديث عن مواطنة فرد ما إلا إذا تم الاعتراف به من طرف الدولة على أنه مواطن ينتمي إلى إقليمها وحدودها، وهذا الاعتراف لا يأتي من العدم بل من جراء تسجيل حيوي لولادة هذا الفرد في سجلات الحالة المدنية. ومن ثم يصبح لهذا الأخير صفة المواطن الخاضع لنظامها القانوني والذي يترتب عليه واجبات ومسؤوليات ويتمتع بحقوق سواء كانت اجتماعية، سياسية، اقتصادية أو ثقافية. وأولا هذه الواجبات واجب الإدلاء بالبيانات الإحصائية في الوقت نفسه الذي يتم فيه التصريح عن الحدث الديموغرافي.

إن المجتمع في تغير مستمر إلا أن جميع أفرادهم الفناء، وهذا ما يجعل الخصائص الاجتماعية والاقتصادية للسكان في تغير مستمر هي كذلك، لذلك فإن وصف المجتمع لا بد أن يقتزن بزمن معين، وهذا يستلزم بالضرورة استمرار الدراسات السكانية لتقديم أحدث صورة له.

تعد الحالة المدنية مصدرا ثريا للبيانات التي تحتل مكانة مرموقة في المنظومة الوطنية للمعلومات. حيث تشكل إحصاءاتها مرجعا أساسيا للدولة ومؤسساتها الحكومية وغير حكومية (الديوان الوطني للإحصائيات، الجماعات المحلية والمؤسسات والمتعاملين الاقتصاديين وجميع الهيئات الوطنية والدولية). كما تشكل منطلقا وقاعدة لمختلف الدراسات والتحليل والإسقاطات والتنبؤات في مجالات واسعة وشاسعة كعالم الشغل والبطالة والبنية الديموغرافية ومستويات التعليم والتكوين ومرافق السكن ورفاهية المجتمع وصحته... الخ.

وبالتالي فإن الاهتمام من جهة بنظام الحالة المدنية معناه الاهتمام بكيان الأمة ككل وسيادتها والمحافظة عليه معناه المحافظة على ذاكرة الأمة، ماضيها، تاريخها ومصير أجيالها. والاهتمام من جهة أخرى بالنظام الإحصائي للحالة المدنية يعني توجيه السياسة والتخطيط، والمحافظة عليه يعني بناء دولة ورخاءها وبدونه لا يمكن إحداث عملية التنمية واستمرارها.

ولا بأس أن نقترح بعض التوصيات في الموضوع على سبيل المثال وليس الحصر:

- الحرص الشديد على الإدلاء بكافة الحوادث الديموغرافية التي قد تحدث للمواطن في الآجال المحددة لها.
- الحرص أكثر على الإدلاء بالبيانات الإحصائية ليثبت دوره في المشاركة في الشؤون العامة للدولة وبناء مختلف السياسات الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية... الخ.
- من واجب كل شخص فينا أن يوفر المعلومات الإحصائية لطايبها لكسب تأييده وتعزيز سلوكه المدني اتجاه القضايا الخاصة بالسكان والمساهمة في تطوير المجتمع وتنميته.
- تنمية الوعي العام بمعنى الإحصاء والإحصاءات وتبيان أهمية محو الأمية الإحصائية، وإشاعة الثقافة الرقمية بين المواطنين. من مبدأ إذا كان الارتقاء بالإحصاء يساعد في الارتقاء بالمجتمعات، فإن العكس صحيح أيضا، حيث يؤدي رقي المجتمعات إلى الارتقاء بالإحصاءات. ومن ثم ممارسة مواطنة سليمة وحكم رشيد وتنمية سوية.
- اعتماد تقنية المعلومات باستخدام الإدارة الالكترونية من أجل مصلحة مدنية رقمية قادرة على مواكبة الحاضر ومتطلباته سواء من الناحية الإدارية أو من الناحية الإحصائية.
- الحرص على توفير الإمكانيات المادية والموارد البشرية المؤهلة وتطوير قدراتهم، لتقديم خدمات مميزة ذات جودة عالية على قدر أهمية مصلحة الحالة المدنية.
- المساهمة الفعالة لكافة مزودي ومستخدمي البيانات الإحصائية الخاصة بالحالة المدنية، انطلاقا من مناقشة وصياغة القوانين المتعلقة بالنظام الإحصائي وصولا إلى عملية نشر النتائج واتخاذ القرارات.

الإحالات والهوامش :

1 – الأحداث الديموغرافية: واقع يتعلق بفرد ويؤثر مباشرة على بنية السكان Structure des populations وتطورهم ... الولادات Naissances والزيجات Mariages والطلاق Divorces والوفيات Décès والهجرات Migrations تعتبر دون أي نقاش أحداثا ديموغرافية.

2 - Jean-Baptiste Moheau (1745-1794) est un [démographe français](#), considéré comme l'un des fondateurs de la [démographie](#). Dans son ouvrage *Recherches et considérations sur la population de la France* publié en 1778, a été le premier à aborder la question de la mortalité différentielle selon les couches sociales. Cet ouvrage reste cependant tourné vers l'étude de la population.

3 – حالة السكان يعرفها رولان بريساي في معجم مصطلحات الديموغرافيا على أنها "عدد السكان في تاريخ محدد وتركيبهم تبعا لخصائص متنوعة".

4 – TADJEDDINE, A. (1996). *Analyse critique et comparative de deux sources d'information local*, poste graduation spécialisé, option : population et développement, institut de démographie, Oran.

5 – حركة السكان يعرفها رولان بريساي على أنها "التغيرات التدريجية لحالة السكان في خلال فترة تحت تأثير الأحداث الديموغرافية التي وقعت في خلال الفترة نفسها".

6 – الظاهرة الديموغرافية: وقوع أحداث Evénement من فئة معينة. وهكذا تقابل أحداث الوفيات ظاهرة الوفياتية Mortalité كما تقابل ظاهرة الزواجية Nuptialité والزيجات Mariages والولادية Natalité والخصوبة Fécondité الولادات Naissances

والطلاقية Divortialité أحداث الطلاق Divorces والهجرة Migrations تغيرات مكان الإقامة Résidence. إذن تستعمل كلمة ظاهرة في الديموغرافية في معنى محدد. ولكنها لا تشكل مفهوما مترابعا إذ أنها تستعمل لتعيين بعض جوانب ظاهرة عامة. وهكذا، تشكل زواجية العازبين والأرامل والمطلقين بحد ذاتها ظواهر مرتبطة بظاهرة تتسم بقدر أكبر من العمومية وهي الزوجية:

- 7 - سعد، عبد العزيز. (2010). نظام الحالة المدنية في الجزائر. (الطبعة الثالثة)، دار هوم، الجزائر، ص. 6.
- 8 - بن عبيدة، عبد الحافظ. (2004)، الحالة المدنية وإجراءاتها في التشريع الجزائري، دار هوم، الجزائر، ص. 70.
- 9 - الحركة الطبيعية للسكان: نتكلم على الحركة الطبيعية للسكان حين نستثني الهجرات عند دراسة حركة السكان.
- 10 - سعد عبد العزيز، المرجع السابق، ص. 47.
- 11 - بوينس، ايرس. (1994)، الالتزام بالبرنامج الوطني لتحسين الإحصاءات الحيوية ونظام تسجيل الأحوال المدنية: حالة الأرجنتين، إعداد المعهد الوطني للإحصاءات والتعدادات، سلسلة أوراق عمل في مجال نظم التسجيل المدني والإحصاءات الحيوية، ورقة عمل رقم 9، اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا، الأمم المتحدة، نيويورك، ص. 3.
- 12 - سعد عبد العزيز، المرجع السابق، ص. 50.
- 13 - أوديل، فرانك. (1994). استخدام سجلات الأحوال المدنية والإحصاءات الحيوية في الخدمات والبرامج الصحية، منظمة الصحة العالمية، سلسلة أوراق عمل في مجال نظم التسجيل المدني والإحصاءات الحيوية، ورقة عمل رقم 6، اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا، الأمم المتحدة، نيويورك، ص. 1.
- 14 - سعد عبد العزيز، المرجع السابق، ص. 6.
- 15 - بوعمران، عادل. (2010)، البلدية في التشريع الجزائري، دار الهدى، الجزائر، عين مليلة. ص. 94.
- 16 - المرجع نفسه، ص. 135.
- 17 - TABUTIN, D. (1984), La collecte des données en démographie, méthode, organisation et exploitation, département de démographie, Université Catholique de Louvain, Ordina éditions, Liège (Belgium). p. 63
- 18 - سبعة استمارات شرع في العمل بها ابتداء من الفاتح جانفي 1935 لكافة بلديات الوطن هي كالتالي: (استمارة الولادات الحية، استمارة الولادات الميتة، استمارة الوفيات، استمارة الزواج، استمارة الطلاق، استمارة الاعتراف بالطفل الغير شرعي، استمارة التسجيل أو التصحيح).
- 19 - يشمل هذا المسح كافة بلديات الوطن بعدد 1541 بلدية ويخص الأربع حوادث ديموغرافية (الولادات، الوفيات، المواليد الميتة والزواج) التي تحدث في البلدية خلال الشهر. يتم تدوين البيانات في استمارات بحث أطلق عليها اسم استمارة حركة السكان الشهرية Bordereau Numérique Mensuel، ترسل إلى ملاحق الديوان الوطني للإحصائيات قبل حلول اليوم العاشر من الشهر الموالي. البحث يسمح بالحصول على بيانات خامة للوقائع الحيوية بصورة منتظمة وسريعة لكافة المستويات الجغرافية (الوطنية، الولائية والبلدية)، وتكوين فكرة حول الوضع الديموغرافي للبلد ومعرفة حركة السكان مع حساب مختلف وأهم المؤشرات الديموغرافية.
- 20 - يخص عدد محدد من بلديات الوطن، يتضمن هذا البحث على العموم، كمية هائلة من المعلومات إذا ما قورن مع البحث الأول (B.N.M.). تحليل الاستمارات الجماعية يسمح بمعرفة شاملة وسنوية للحجم والتركيب أو البنية الديموغرافية للبلد حسب بعض المتغيرات، مع تحليل وصفي مختلف وأهم العوامل السوسيوثقافية، الاقتصادية والاجتماعية المحددة لارتقاء المجتمعات في زمن معين.
- 21 - رولان، بريس. (1990). معجم مصطلحات الديموغرافيا. ترجمة حلاؤفل رزق الله، (الطبعة الأولى)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.
- 22 - لويس، هنري. (1984). الديموغرافيا تحليل ونماذج. تعريب الجيلالي صياري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص. 150.

المرأة والمشاركة السياسية بتونس (نتائج بحث موجه بمنطقة 'جمال')

راجح النابلي

أستاذ علم الاجتماع بالمعهد العالي للعلوم الإنسانية بتونس

وزهير بن جنات

أستاذ علم الاجتماع بالمعهد العالي للرياضة بقفصة

ملخص

يهدف هذا العمل إلى فهم السلوك الانتخابي للمرأة التونسية عموماً والعمل على عقلنته بما يتماشى وما تمّ تحقيقه من مساواة بينها وبين الرجل في مستوى القوانين الانتخابية حيث قام على عمل ميداني كيفي تمّ انجازه بمنطقة جمال بتونس بالاعتماد على تقنية البحث الموجه. لقد بينّ البحث الميداني أن مشاركة المرأة في الانتخابات هو أمر محكوم في الغالب بتقاطع الإرادة الفردية لتأكيد الذات والوضعيات الاجتماعية والسياسية المناسبة. كما بينّ أن النساء يعانين أكثر من الرجال عوائق وصعوبات ذات أبعاد عدة تعطل مشاركتهن السياسية منها ما يرتبط بطريقة اشتغال الأحزاب السياسية بشكل عام ومنها ما يتعلق بالتنشئة الاجتماعية التي تؤسس لنمط اشتغال معين للفضاء العام. وهكذا تمتد جذور التمييز السياسي ضد المرأة إلى مثل هذه القيم والتمثيلات التي تقسم الحقوق الاجتماعية بطريقة غير متكافئة وتجعل السياسة حكراً على الرجال حتى وإن كانت القوانين تؤسس لاقتسام أكثر عدلاً بينها وبين المرأة. كما يمكن للفردانية وغياب ثقافة التطوع أن تفسّر بعض أوجه هذا السلوك.

Résumé

Le présent travail vise à comprendre le comportement électoral de la femme tunisienne d'une manière générale et de prévoir les possibilités de sa promotion en fonction du niveau d'équité et d'égalité réalisé au niveau des textes juridiques. Ce travail s'est basé sur une enquête de terrain par la recherche-action effectuée dans la région de Jammel en Tunisie.

L'enquête a montré que la participation de la femme aux élections se détermine le plus souvent en fonction de 2 facteurs : la volonté d'affirmation de soi d'une part et les conditions sociales et politiques des femmes d'autre part. L'enquête a montré également que les femmes souffrent de plusieurs obstacles qui entravent leur participation politique et dont certains se rapportent au mode de fonctionnement des partis politiques d'une manière générale et certains d'autres sont plutôt liés à la socialisation qui détermine d'une manière ou d'une autre le mode de fonctionnement de l'espace public. Il paraît ainsi que les sources de discrimination politique contre les femmes sont liées à ce genre de valeurs et de représentations qui partagent très inégalement les champs sociaux entre l'homme et la femme et qui considèrent la politique comme l'apanage de l'homme même lorsque les textes juridiques permettent un partage plus équitable de l'espace public. L'absence de la culture de volontariat et l'individualisme excessif sont également des facteurs qui pourraient expliquer le faible engagement politique de la femme.

لقد أفرزت ثورة جانفي 2011 بتونس واقعا سياسيا جديدا لم يعهده التونسيون من قبل. فتضاعف عدد الأحزاب السياسية والجمعيات المدنية عشرات المرات وفتحت وسائل الإعلام أمام قيادات وخطابات ومواقف سياسية جديدة وفتح المجال العام أمام الجميع. وإذا كانت انتخابات المجلس التأسيسي التي انعقدت في 23 أكتوبر 2011 قد مثلت فرصة حقيقية أمام النخب السياسية والاجتماعية لنشر تصوراتها المستقبلية للبلاد وكسب ثقة الرأي العام، فإن ما حققته المرأة في هذا الإطار لم يكن بالمستوى المطلوب. حيث لم تتجاوز نسبة مشاركة النساء اللاتي تم تمثيلهن في إطار ما عرف بتونس بـ"قانون المناصفة" * باقتسام عدد مقاعد القوائم الانتخابية بالتساوي مع الرجال، الـ 23%. كما لم تحصل النساء سوى على حوالي 22% من عدد مقاعد المجلس التأسيسي.

وإذا كان من المعروف لدى الباحثين في علم الاجتماع أن "المجتمعات لا تغيّر القوانين"، فإن الرأي العام التونسي عموما قد تفاجأ بإحصائيات ما بعد الانتخابات وخاصة في ما يتعلق بالمرأة. بل إن تحاليل إعلامية وسياسية عدة قد بيّنت أن المرأة لم تكن فقط "مرشحا من الدرجة الثانية" بالنظر إلى العدد الضئيل للنساء اللاتي احتلن رؤوس القوائم (7%) بل وكذلك بالنظر إلى التردد الكبير والارتجالية اللذان ميّزا عمليات تشريك النساء في القوائم الانتخابية المهيمن رجاليا على كل تفاصيلها إعدادا وتسجيلا ونشرا وتوزيعا.

لقد بيّنت انتخابات سنة 2011 بتونس أن قرار المرأة في ما يخص الانتخابات، ترشحا ومشاركة وتصويتا، لم يكن على ما يبدو مستقلا بالقدر الكافي وهو لا يعكس إرادتها الحرة ولا كذلك ما يمكن أن تكون قد اكتسبته من خلال سلسلة الإصلاحات القانونية التي مست مكائنها العائلية والاجتماعية منذ ظهور مجلة الأحوال الشخصية سنة 1956.

وهكذا تظهر القراءة الجندرية (genre) لنتائج انتخابات المجلس الوطني التأسيسي أن التمكين الاجتماعي والسياسي للمرأة لا يمر فقط عبر القوانين – على أهميتها – بل وكذلك عبر ما يمكن أن يميّز المجتمعات في لحظات تاريخية معينة من ديناميكية وتغير اجتماعيين تلعب فيهما قواها الحية وحركاتها الاجتماعية من أحزاب سياسية وجمعيات ونقابات ومنظمات الدور الرئيسي كما تستوجب كذلك من هياكلها البحثية ومجموعاتها العلمية والابداعية انخراطا فعليا لاستحداث ذلك التغير وتوجيهه.

وعلى هذا الأساس اتخذ الهدف العام للبحث منحيين: منحا نظريا يتلخص في فهم مدى انخراط المرأة التونسية في المجال السياسي وذلك من خلال المنطق العام الذي يحكم سلوكها السياسي عموما والانتخابي على وجه التحديد، ومنحا برغماتيا يتمثل في الرغبة في عقلنة هذا السلوك قدر الإمكان والرفع من كفاءة المرأة بما يخول لها مشاركة أفضل

في العمل السياسي عموماً وذلك وفق خطة عمل تم وضعها بالتنسيق مع إحدى الجمعيات النسوية الناشطة بمدينة "جمال".

إشكالية البحث الموجه واستراتيجيته المنهجية

1. الإشكالية

قبل موعد انتخابات المجلس التأسيسي، أطلقت الحكومة التونسية حملة تحسيسية لتشجيع النساء على الإقبال على صناديق الاقتراع. كان الهدف من مبادرة "يجب أن أذهب" التي انتهت يوم الخميس 20 أكتوبر 2011 أي قبل أيام من الموعد الانتخابي تدعيم حضور النساء في الساحة الانتخابية وتوسيع المشاركة القاعدية. لقد قدم الفيديو الذي تم استعماله في إطار هذه الحملة نماذج لأربع نساء: أستاذة وخياطة وطالبة وعاملة فلاحية. "لي موعد مع الحرية، مع الديمقراطية، مع الكرامة، مع المواطنة، مع المساواة"، الانتخاب هو حق ومسؤولية كل امرأة تونسية"، هكذا يقول هذا الفيديو الذي يهدف كما بينت وزيرة شؤون المرأة والأسرة بتونس آنذاك في إحدى الندوات خلال شهر سبتمبر 2011، هو تشجيع النساء على المشاركة في الحياة السياسية وإثبات حضورهن في المجلس التأسيسي.

لقد تم إطلاق هذه الحملة التي دامت عشرين يوماً في ضوء المشاركة المتواضعة والحضور الضعيف للمرأة في الساحة السياسية بالبلاد عقب الثورة. فرغم أن الهيئة العليا لتحقيق أهداف الثورة قد أقرت مبدأ المساواة بين الجنسين في القوائم الانتخابية، إلا أن عدد النساء رئيسات القوائم كان ضعيف جداً، فقط 13% من النساء قمن بالتسجيل لهذا الموعد كما بينت الهيئة العليا المستقلة للانتخابات خلال شهر أوت 2011.

وعلى اعتبار أن مشاركة المرأة في السياسة تحتاج منها تعبئة موارد فردية وعائلية واجتماعية من شأنها تدعيم دخولها وحراكها داخل الفضاء العام (la sphère publique) بما يتطلب ذلك من صراع مع ثقافة سياسية تسلطية وقيم اجتماعية ذكورية، فإن المسألة مرتبطة إذن بتعدد ظروف مشاركة المرأة في عالم السياسة وخاصة في مواقع القرار السياسي التي تبدو - في تونس كما في عديد الدول الأخرى - حكراً على الرجال.

إن غاية الإشكالية التي تربط المسارات الفردية بالشبكات الاجتماعية وبالعلاقة بين التحالفات والصراعات التي تميز عالم السياسة عموماً هي الانتباه إلى المشاركة السياسية للمرأة باعتبارها مساراً عاماً تتداخل فيه علاقات النوع وتأثير الثقافة والعادات وعلاقات القوة التي تخترق الحقل السياسي والاجتماعي عامة.

وعلى هذا الأساس يبدو أن مشاركة المرأة في الحياة السياسية عموماً وسلوكها الانتخابي على وجه الخصوص هما أمران يرتبطان بسياقات ثقافية وحقوقية واجتماعية وسياسية تحيل بشكل مباشر إلى مسألة المساواة والمواطنة. ولذلك كان السؤال المطروح هو التالي: إلى أي حد ترتبط المشاركة السياسية للمرأة وولوجها عالم السياسة ومواقع

القرار بديناميكية فردية وجماعية تتداخل فيها المسارات والموارد والشبكات، لغاية تدعيم القيادات النسائية من ناحية، ومنطقيات (logiques) فردية قائمة على التحالفات والصراعات والطرق الخاصة لإثبات الذات والرقى في عالم السياسة من ناحية أخرى؟

2. الاستراتيجية المنهجية

لقد كانت المقاربة المعتمدة في هذا العمل موجهة باختيار منهجي يهدف إلى انتاج معرفة صالحة وضرورية للفعل والتدخل. وتتمثل في وضع استراتيجية بحث من شأنها أن تمكننا من بلورة خطة عمل ضمن أفق فعل اجتماعي. وتتمثل المسألة أساسا في المزاوجة بين مجهودات وتجارب الباحث / الباحثين والفاعلين لغاية التأثير على سير الأشياء وكذلك يكون الهدف من دمج البحث بالفعل هو استحداث التغيرات وتسهيلها، وتأسيس معارف علمية جديدة. هذه المقاربة التي يتم تطبيقها منذ انطلاق العمل مع الفاعلين المعنيين هي مقارنة كميّة وتقريب من ثنائية الاستكشاف / الاكتشاف (exploration / découverte) التي تتماشى والمنطق الافتراضي الاستنتاجي.⁽¹⁾

✓ أهمية المرحلة الاستكشافية

إن المرحلة الاستكشافية هي مرحلة ضرورية لأنها توجه مسار البحث عن طريق أخذ خصوصية الحقيقة الاجتماعية المدروسة بعين الاعتبار حيث يتعلق الأمر هنا باستكشاف براغماتي يهدف إلى بناء مسار البحث لغاية الإجابة عن اهتمامات الفاعلين الميدانيين.⁽²⁾ وعوض اعتبار الميدان كوحدة للثبوت من إشكالية محددة بصفة مسبقة، فإن المرحلة الاستكشافية تعتبر الميدان نقطة انطلاق لهذه الأشكلة⁽³⁾. لقد قامت المرحلة الاستكشافية على عقد اتصالات مع الفاعلين السياسيين والجمعياتيين من النساء على وجه الخصوص والقيام ببعض المقابلات التفهيمية وفق دليل مقابلة مع بعض الأشخاص الذين وقع اختيارهم من بين هؤلاء الفاعلين على أساس مواقفهم المفتاحية ومواقفهم بشأن مشاركة المرأة في الحياة السياسية عموما

يرتبط اختيار الأشخاص المستجوبين خلال المرحلة الاستكشافية بتعبئة الباحث (الباحثين) لمعارفه (هم) وبمدى تفرغ الأشخاص المرجعيين أي أفراد يحتلون مواقع مفتاحية داخل حقل البحث تسمح لهم بالتحدث على أساس معرفتهم بالأسباب وحتى بتوضيح وتفسير ما يعيشه حقل البحث من ديناميكية وتغير.

إجمالا تكمن أهمية هذه المرحلة خاصة في تحديد مجالات البحث والعناصر المرتبطة بالمشاركة السياسية للمرأة بـ"جمال"، تحديد أهداف العمل والفرضيات الميدانية، إعداد وتعديل دليل المقابلة وضبط استراتيجية البحث بعين الاعتبار

✓ مجال الدراسة : منطقة "جمال"

راوح تعاملنا مع مجال الدراسة بين غايتين تتعلق أولاهما بمحاولة فهم الظاهرة المدروسة في إطار خصوصيتها المجالية (معمدية جمال) والاجتماعية، وتتعلق ثانيتهما بمحاولة الانفتاح على المجال الجغرافي والاجتماعي العام لمنطقة الدراسة بما يمكن أن يفيد في إطار استكشاف ما قد يطرأ على الفاعلين وسلوكياتهم من تغيرات قد لا تتاح فرصة فهم دواعيها وبواعثها لاحقا. فهذه المعتمدية التابعة إداريا لولاية المنستير هي أنموذج لعديد القرى الساحلية التونسية التي تتميز، بالإضافة إلى ارتفاع عدد سكانها (حوالي 65 ألف نسمة عام 2014) **، بمحافظتها على الطابع الريفي - المديني الخاص وذلك رغم ضمّ مجالها الجغرافي كلياً إلى المجال البلدي، وهو ما جعلها تجمع اليوم بين تقليدية تعكس تردداً في تبني نمط الحياة الحضري بما من شأنه - ربما - أن يفسر بعض خفايا المشاركة الضعيفة للمرأة في الانتخابات، وتجديداً يفيد الانخراط في المستقبل ويمكن بواسطته أن نفهم بعض خفايا الانخراط الايجابي لبعض القوى المدنية في مسار التغيير الاجتماعي بما يعنيه من إبداع لواقع اجتماعي وسياسي وثقافي جديد.

✓ البحث الميداني الفعلي

قام البحث الميداني الفعلي أساسا على المقابلات الفردية المعمقة التي تم إجراؤها مع أفراد العينة وكذلك على ورشات التنشيط للمجموعات الاستراتيجية التي تم تحديدها في ضوء نتائج العمل الاستكشافي. وقد تمحورت هذه الورشات حول نقاط بعينها بعضها استكشافي تفهمي يروم الحصول على المعلومة وبعضها الآخر عملي براغماتي يرمي إلى التحسيس لموضوع البحث ورفع كفاءة النساء المشاركات في المجال السياسي.

3. وصف العينة

بما أن الأمر يتعلق ببحث كيفي يهدف بحكم طبيعته التفهمية إلى تحديد الاتجاهات وفهم الممارسات⁽⁴⁾ وليس إلى قياس الآراء والمواقف، فإن مسألة تمثيلية العينة لا يمكن أن تنحصر في العدد والنسبة بالنظر إلى عدد المواقع. بعبارة أخرى، إن المسألة لا تتعلق بمضاعفة عدد المستجوبين إلى حدّ معين، ولا بالإحاطة بجملة المتغيرات (النوع، المهنة والصفة، العمر، الوسط الجغرافي، إلخ)، بل الأهم من ذلك هو تحديد الفاعلين الأكثر تأثيرا عن طريق إشعاعهم الفردي وقدرتهم على تنزيل أفعالهم في إطار شبكات اجتماعية واسعة. ويأخذ اختيار هؤلاء الأشخاص أو المخبرين المفضلين بعين الاعتبار طبعاً، العناصر الأساسية التي تحدد المشاركة السياسية للمرأة في "جمال" على غرار العلاقات بين النساء والرجال، بين المدينة والريف، بين المحلي والشامل، وكذلك العلاقات الجيلية و التجاذبات الانتخابية والقدرة على التواصل والتأثير على الآخرين.

وهكذا، سمحت لنا العناصر الأولية التي استقيناها من المرحلة الاستكشافية بتحديد حجم العينة بثمانين امرأة مصنّفات حسب عديد المتغيرات الاجتماعية. وقد توزعت العينة بين مجموعة أولى تعدّ خمس وخمسين امرأة شملها العمل الكيفي الفردي باعتماد تقنية المقابلة الفردية، ومجموعة ثانية تعدّ 25 امرأة ممن شملنّ العمل الكيفي الجماعي باعتماد تقنية تنشيط "الفرق الاستراتيجية".

وفي حين كان اختيار النساء المشكّلات للمجموعة الأولى قصدياً من خارج جمعية "صوت المرأة" مراعين في ذلك تنوع الفئات العمرية ومستوياتهنّ التعليمية ووضعيتهنّ المهنية وانتمائهنّ الجغرافي الحالي، فإن المجموعة الثانية قد تم اختيارها عشوائياً من بين عضوات الجمعية وبعض المتعاطفات معها ممن حضرن جميع أو بعض الورشات التنشيطية التي تمّ تنظيمها في إطار هذه الدراسة.

الخصائص العامة لعينة البحث

العمر	18 - 30	30 - 45	45 - 60	60 فأكثر
المستوى التعليمي	ابتدائي (2)	ابتدائي (2)	ابتدائي (2)	ابتدائي
	ثانوي (2)	ثانوي (2)	ثانوي (2)	ثانوي
	جامعي (2)	جامعي (2)	جامعي (2)	جامعي
الحالة المدنية	عزباء (2)	عزباء (2)	عزباء (2)	عزباء (2)
	متزوجة (2)	متزوجة (2)	متزوجة (2)	متزوجة
	مطلقة / أرملة	مطلقة / أرملة	مطلقة / أرملة	مطلقة / أرملة
المهنة / الوضعية المهنية	طالبة	طالبة	طالبة	طالبة
	إطار عال	إطار عال	إطار عال	إطار عال
	إطار متوسط	إطار متوسط	إطار متوسط	إطار متوسط
	عاملة	عاملة	عاملة	عاملة
	عاطلة	عاطلة	عاطلة	عاطلة
	شؤون المنزل	شؤون المنزل	شؤون المنزل	شؤون المنزل
الانتماء الجهوي الأصلي	جمال (1)	جمال (1)	جمال (1)	جمال (1)
	غير جمال (1)	غير جمال (1)	غير جمال (1)	غير جمال (1)
العدد لجمالي	19	18	15	04

علاقة المرأة بالشأن العام

يتنزل طرحنا لمسألة الاهتمام بالشأن العام ضمن هذه المرحلة من الدراسة في إطار التمشي العام الذي قاد العمل الميداني منذ بداياته. إذ قامت الإشكالية الأساسية للبحث على أساس أن مسألة المشاركة في الانتخابات لا يمكن فهمها إلا في إطار التصور العام الذي قد يساهم في توجيه أفعال الفاعل الاجتماعي في علاقته بالشأن العام سياسيا كان أم ثقافيا أم اجتماعيا. وهكذا يمكن القول أنه كلما كان المجتمع ديمقراطيا وتعدديا كلما كانت مجالاته العامة الثقافية والسياسية والاجتماعية أكثر انفتاحا واستعدادا لإدماج أكبر عدد ممكن من أفراد المجتمع.

1. المشاركة في الانتخابات

حتى نستطيع الإحاطة بمسألة حضور النساء 'الجمائيات'*** في الانتخابات بشكل خاص وفي المشهد السياسي عموما، من المهم أن نحدد مفهوم المشاركة. ففي معناها الواسع، تحيل هذه العبارة إلى عديد المراجع والإجراءات والوسائل التي تسمح للمواطنين، نساء ورجالا، بأخذ نصيبهم في القرارات التي تعني جماعة ما والمساهمة في تسيير الشأن العام. وكما بينا سابقا، فإن المشاركة غير ممكنة خارج قيم الديمقراطية القائمة على أساس التشريك الضروري للمواطنين الفاعلين. وفي هذا المعنى، تحيل المشاركة في الانتخابات إلى ممارسة المواطنة السياسية التي تسمح للأفراد باعتبارهم مواطنين بالتمتع بحقوقهم المدنية اللازمة للانتماء للوطن (الانتخاب، الوصول إلى مواقع المسؤولية، الحريات العامة، الانتماء إلى الأحزاب السياسية وإلى النقابات، المشاركة في التظاهرات الاحتجاجية، إلخ).

وبالإضافة إلى هذا، تقوم المشاركة في الانتخابات على منطق حتمي لا يجب أن نستعين به. فانتماء الشخص إلى حزب سياسي أو نقابة أو جمعية، يسمح له بالحضور والتعريف بنفسه كعضو من الجماعة السياسية مع كل ما تخفيه من قيم ومعايير ورموز وأنماط سلوك وشعائر وشبكات تحالف. وعلى هذا الأساس نجد أنه كلما كانت النساء منخرطات أو ناشطات في الأحزاب أو الجمعيات أو الهيئات النقابية كلما كان التزامهن بالمسار الانتخابي، تسجيلا وترشحا وتصويتا، أكبر. تقول إحدى السيدات (لمياء 26 سنة، أستاذة) المنخرطة بأحد الأحزاب السياسية "المرأة وجب عليها الانخراط في كل ما يعني وطنها لأنها نصف المجتمع. صحيح أن كفاءتي لم تسمح لي بالترشح إلى الانتخابات ولكني كنت من أول من شاركوا يوم التصويت".

وهكذا كلما كان الانخراط الاجتماعي للمرأة كبيرا كلما كانت مشاركتها في الشأن العام أكثر فاعلية وعقلانية. هذه الصورة يمكن أن تفسر لنا لماذا ترفض بعض النساء الانخراط في الانتخابات ولماذا لا تولي بعضهن، على اختلاف درجاتهن العلمية والمهنية والاجتماعية، أية أهمية تذكر لحق الانتخاب. تقول إحدى المستجوبات (39 سنة، عاملة

بمصنع) "النقابة !!!! أحنّا أنجّموها النقابة !!! أنا حتى الاجتماعات ما نجبهمش، بيداو يتعاركوا في بعضهم... السياسة هاذي ما هيّاش متاع نساء.. المرا مكانها الطبيعي دارها وصغارها".

ووفق المنطق نفسه يمكن أن نفهم كيف تقبل بعض النساء، من ربّات البيوت والعمالات ولكن أيضا من الطبيبات والعملات، أن تضحي بحقها في الانتخاب بداعي رعاية الأبناء أو الاهتمام بالمنزل أو منع الزوج لها من القيام بذلك. فعموما، وعلى الرغم من أهمية ما يمكن أن يكون للمستوى التعليمي من تأثير في هذا المستوى، فإننا لا نجد مثل هذه السلوكيات السلبية المتعلقة بالشأن الانتخابي عموما إلا لدى نوع من النساء يتميزن أساسا بضعف انخراطهن الاجتماعي وانكفائهن حول تمثّل اجتماعي منمّط للمرأة لا يسمح لها في الغالب باستثمار ذاتها ولا قدراتها في ما هو شأن مواطني. وهو أمر يتدعم دون شك عندما نلاحظ أن كل النساء المنخرطات في هياكل مدنية أو سياسية من نقابات أو جمعيات أو أحزاب قد قمن إراديا بالتسجيل والانتخاب، بل إن هذا النوع من النساء هو في الحقيقة من يملك الحد الأدنى من المعلومات والوقائع التي سمحت له حتى بالتجاوز معنا في الشأن السياسي العام والانتخابي على وجه الخصوص. وبالإضافة، لقد تبيّن لنا من خلال العمل الميداني أن المشاركة السياسية للمرأة تتحدّد ضرورة بالانتماء إلى مجموعة مؤسسة تمنح للفرد طاقات مؤسّساتية وبشرية ومجال تعبير وفعل. إذ من المهم أن نأخذ في الاعتبار درجة وكثافة المشاركة في الانتخابات التي تختلف حسب موقع المرأة أي بين أن تكون مناضلة قاعدية أو "محترفة سياسة". وعلى هذا النحو، يقاس الإقبال على الانتخابات بمعيّار الحظوظ والفرص السانحة على المستوى الفردي (الموارد والخصائص الشخصية) وعلى المستوى الاجتماعي (مختلف أشكال الشبكات، السياق السوسيو- سياسي، المؤسسات السياسية، إلخ)⁽⁵⁾.

ويبدو واضحا كذلك أن هناك عنصر آخر وجب تناوله عند اهتمامنا بالمشاركة في الانتخابات وفي السياسة عموما، إنه التمييز بين "المشاركة التعاقدية" والمشاركة غير التعاقدية أو الاحتجاجية (protestataire).⁽⁶⁾ وتركز الأولى على فعل الانتخاب لتشمل سلوكيات سياسية متعددة تتجاوز العلاقة بالأحزاب أو بالمجتمع المدني عموما. أما بالنسبة للثانية فبإمكانها أن تكون حقوقية أو منسبائية أو سياقية ويمكن أن تعبر عن حالات من ردّ الفعل الذي لا يرقى لمستوى الانخراط السياسي الفعلي (إمضاء العرائض، المشاركة في الاجتماعات، المشاركة في الإضرابات...).

ومن المهم كذلك أن ننتبه إلى الأهمية المتزايدة التي يحتلها المستوى المحلي للمشاركة السياسية والمواطنة. فالقيمة المسندة إلى المشاركة في الانتخابات وفي السياسة على المستوى المحلي والمجالي ليست بجديثة. فقد بين ألكسيس دي توكفيل (Alexis de Tocqueville) كيف أنه "بتكليف المواطنين بإدارة الشؤون الصغرى وليس بمنحهم حكم الشؤون الكبرى، يمكن أن نشدهم أكثر للشأن العام".⁽⁷⁾

ويهدف تثمين المحلي وسياسة الجوار (politique de proximité) إلى تأسيس وساطة بين السلطة المركزية والسلطة الجهوية والمحلية من جهة وبين السلطة البلدية والمواطنين من جهة أخرى. وهذا يرتبط بإرادة سياسية تهدف إلى تدعيم الديمقراطية التشاركية كتنمة للديمقراطية التمثيلية وهو ما يصلح لشرعنة اختيارات وتوجهات السلطة المركزية. وعلى هذا النحو، يسير كل شيء كما لو أن الزعامة المحلية تمثل العمل السياسي غير المغترب على عكس الزعامة الوطنية التي يمنعها ابتعادها عن الميدان من إدراك الحقيقة.⁽⁸⁾

2. مراكز الاهتمام الرئيسية ومدى الانخراط في الشأن العام

تبيّن المعطيات الميدانية أن جملة الخصائص التي ميّزت علاقة المرأة الجمالية بالشأن العام تتمحور أساسا حول

نقاط ثلاث :

أولا : بقدر ما نجد لدى بعض أفراد العينة وعيا كافيا بأهمية الشأن العام ويتعدده فإننا نجد لدى البعض الآخر لا مبالاة واضحة تجاه القضايا العامة الرئيسية بل وأحيانا انقطاعا تاما عما يحصل في الحقل العام من تحولات وأحداث. إذ مثلما نجد من النساء من تهتم بالسياسة والجمعيات والفن والإعلام والرياضة، إلخ فإننا نجد منهن من لا تتعدى مجالات اهتمامها الرئيسية الحقل المنزلي (الطبخ، رعاية الأبناء، الخياطة، التزيين ومتابعة المسلسلات التلفزيونية).

ثانيا : على الرغم من الوعي الكبير الذي أظهرته بعض النساء في ما يتعلق بأهمية الشأن العام، فإن هذا الأخير لا يشكل في الغالب مجال الاستثمار الفردي والعائلي المفضل بالنسبة للمرأة "الجمالية". فبالنظر إلى العدد الضئيل من النساء المنخرطات في الجمعيات والأحزاب (ست نساء) يمكن القول أن اقتناع أغلبية النساء بأهمية المرأة بالشأن العام والنظرة الايجابية التي تتمتع بها المرأة الناشطة في المجال السياسي والمدني، لم يستتبعه انخراط في الحركات المدنية والتزام بمطامح التغيير الاجتماعي الذي يمكن أن تفرضه مثل هذه الحركات. وربما وفق هذا المنطق فقط، يمكن ان نفهم كيف أن المستجوبات ليست لهنّ في مجملهن (84%) أية علاقات مع هذا النوع من النساء بل إنهنّ لا يرغبن في مجملهن في معرفة مثل هؤلاء النساء ولا في الاضطلاع بموقع قيادي في صلب مثل هذه الحركات.

ثالثا : يبدو أن علاقة المرأة "الجمالية" بالشأن العام تتحدد بناء على تمثيلها لهذا الأخير من ناحية ولذاتها من ناحية أخرى. فالشأن العام الذي هو في نظر الغالبية الساحقة من المستجوبات (87%) مجال اهتمام النساء والرجال على حدّ السواء محكوم في ذات الوقت بتمثيل سلبي للمرأة في مستوى قدرتها على الفعل داخل هذا المجال. فالنساء "الجماليات" لا يزلن محكومات بمنطق تنفيريّ من الشأن العام يجعل من الانخراط الفعلي في الأحزاب أو الجمعيات أو النقابات أمرا

ثانويًا لا يعني للمرأة الشيء الكثير. مثل هذا الأمر نلاحظه خاصة في إجابات النساء حول الأسئلة المتعلقة ببعض تفاصيل الانتخابات الأخيرة مثلًا إذ وبغض النظر عن اختلاف المستويات التعليمية لأفراد العينة، قلّمًا وجدنا إحاطة دقيقة أو شبه دقيقة من طرفهنّ بموضوع الانتخابات أو بنتائجها أو بنسبة مشاركة المرأة أو بعدد المقاعد النسائية بالمجلس التأسيسي أو حتى بأسماء أبرز الوجوه السياسية التي تقود البلاد خلال هذه الفترة من تاريخها.

هكذا يتبيّن أن المشاركة في الانتخابات ليست مجرد قرار يتم اتخاذه يوم التصويت بل هي بالأحرى مسار متكامل من التخطيط والأفعال يبني حسب التجارب الفردية والاجتماعية للأفراد المواطنين في الشأن العمومي العام. وفي هذا الإطار بالذات استفسرنا في المقابلات التفهيمية على مراكز اهتمام النساء المستجوبات. وكانت النتائج حول هذا الأمر غير مشجعة:

مراكز الاهتمام				
الفن والثقافة	العمل	شؤون المنزل	الحياة السياسية والجمعياتية	الرياضة
40%	7%	72%	31%	31%

وبالنهاية، تبين المعطيات الإحصائية أن علاقة نساء "جمال" بالشأن العام هي في الغالب علاقة ضعيفة حيث لم تتجاوز نسبة النساء اللواتي أظهرن بعض الاهتمام بالحياة السياسية أو الجمعياتية الـ13% كما لم تتجاوز نسبة النساء اللواتي يملكن تجارب سياسية أو نقابية أو جمعياتية الـ17% من المستجوبات.

ليس من الغريب إذن أن يتأثر انخراط المرأة في مسار التغيير السياسي والاجتماعي هذا بكل وضوح بانعدام تجربتها. لقد كانت مشاركة هؤلاء النساء في انتخابات المجلس التأسيسي التي تمثل حجر الزاوية لهذا التحول السياسي والاجتماعي ضعيفة وذلك رغم الإصلاح القانوني والمجهودات التي بذلتها الدولة وكل قوى المجتمع المدني الحية.

وفي مقابل ضعف الاهتمام بالشأن العام لدى هؤلاء النساء، نلاحظ أنّ المجالات الرئيسية التي لا تزال تحظى باهتمام المرأة "الجمالية" هي عموماً مجالات تتميز تقليدياً بطابعها الأنثوي/النسائي كالفن والأدب ومتابعة البرامج التلفزية، أي كل ما له علاقة بالفضاء الخاص/المنزلي. الذي يعتبر تقليدياً مجالاً أنثوياً بامتياز. فالمرأة الجمالية لا تمارس الفن والأدب في الفضاء العمومي بل في الفضاء المنزلي وعبر شاشات التلفاز أي داخل نفس الفضاء الذي تقوم فيه بقضاء سائر شؤون المنزل. هكذا، يمكن أن نفهم لماذا لا تتجاوز نسبة النساء اللاتي قمن بالتسجيل في الانتخابات بطريقة إرادية الـ44% من جملة المسجلات، كما بلغت نسبة من تم تشجيعهن على التصويت من طرف الجمعيات الناشطة

في هذا المجال 28%، فيما امتنعت 28% أخريات عن التسجيل تماماً، كما هو الحال بالنسبة إلى التصويت إذ لم تشارك سوى 39% من النساء اللاتي قمن سابقاً بالتسجيل في التصويت، في حين غابت 61% منهن عن هذا الموعد.

السلوك الانتخابي والمشاركة السياسية

حتى نتناول مسألة المشاركة السياسية للنساء بجمالٍ عموماً وفي الانتخابات على وجه الخصوص، رأينا من الضروري أن نحصر اهتمامنا في "أنماط التأقلم السياسي"⁽⁹⁾ وما قد يفرضه الانخراط في مشروع فردي أو جماعي من نتائج على الصعيدين الشخصي والجماعي. ونستعمل عبارة "أنماط التأقلم السياسي" هذه للانتباه إلى نوعية وحجم تأثير محددات المشاركة السياسية وآثار "تعديد الفضاء السياسي"⁽¹⁰⁾ لما بعد جانفي 2011. بعبارة أخرى، يتعلق الأمر بالإحاطة بأنماط الاندماج في كل مستويات العالمين السياسي والمدني: مجلس نواب، بلدية، أحزاب سياسية، نقابات، جمعيات مدنية... إلخ.

1. المسيرات السياسية: التنشئة السياسية للنساء

لقد كشفت المعطيات الميدانية التي تم تحصيلها من خلال المقابلات التفهيمية وورشات تنشيط المجموعات الاستراتيجية أن هناك عديد الأشكال لدخول فضاء العمل السياسي. كما توجد "قناتان للمشاركة السياسية" تسمحان بتوضيح أنماط استثمار المشهد العمومي السياسي ألا وهما: المطلب الاجتماعي والمؤسسي من ناحية أولى والإرادة والمبادرة الفردية من ناحية ثانية:

✓ المطلب الاجتماعي والمؤسسي

يتعلق الأمر هنا بمجموع الأفعال العمومية التي تترجم عن طريق إدخال مقاييس "الفعل الإيجابي" ووضع آليات تهدف إلى تدعيم مشاركة النساء في الحياة السياسية على المستوى الوطني وعن طريق التنسيق مع الجماعات المحلية والجهوية. عديدات هنّ المستجوبات (من المنتميات إلى مختلف الأحزاب السياسية) اللاتي ركّزن على الدعم العمومي في مستوى تدعيم المشاركة السياسية للمرأة.

وإذا كان هذا المطلب الاجتماعي والمؤسسي يظهر عن طريق النصوص القانونية والخطابات الرسمية والمقاييس والقرارات التي تم اتخاذها، وفق مبدأ التناسف وتساوي الحظوظ، فإنه يظهر كذلك في التعبير عن حاجة حقيقية لتمثيلية نسائية صلب بعض الهياكل السياسية وهو مطلب يكون الشعور به خاصة على المستوى المحلي. هكذا، يبدو أن النساء بجهة جمال مرغوب فيهنّ في عالم السياسة وذلك لاعتبارات قانونية مرتبطة بشروط التناسف وبإرادة معلنة في مستوى الخطاب السياسي على الأقل لمنحهنّ فرصة الدخول إلى العالم العمومي، ولاعتبارات تاريخية مرتبطة بمكانة المرأة "الساحلية"**** عموماً إذ تتمتع بقدر من الاعتراف الاجتماعي، ولكن كذلك نظراً لهجرة الرجال

لعالم السياسة أو لضعف أذائهم داخل الفضاء العام وسلبيتهم السياسية أحيانا. وللتخفيف من هذه "الفافة" السياسية، ووفق منطق الديمقراطية التشاركية، عمل الفاعلون السياسيون الجهويون بمختلف توجهاتهم إما على الاستقطاب السياسي من داخل الفضاء المحلي أو على تعبئة الكفاءات النسائية المحلية القاطنة خارج "جمال".

هكذا يتحدد ولوج المرأة عالم السياسة بتفاعل مختلف هذه المتغيرات حيث يلعب كذلك دورا محددا في أذائها السياسي أي بين أن تكون فاعلا حقيقيا أو "عنصرا تمثيليا". وفي إطار ثقافة تقليدية، يمكن أن يكون ضعف فاعلية المرأة الناشطة سياسيا أو انعدامه نابعا، ظاهريا على الأقل، من قبول ورضا حيث يكون دخول عالم السياسة والتجارب بذلك هدفا في حد ذاته فننهم مثلا كيف أن بعض الناشطات في أحزاب سياسية يجهلن مثلا ترتيب الأحزاب الفائزة في الانتخابات وكذلك مكونات الائتلاف الحاكم فيكون الفرق بينهن وأولئك اللواتي لا ينشطن سياسيا طفيف جدا ولا يتجاوز في أحيان كثيرة امتلاك أو عدم امتلاك بطاقة الانخراط في حزب من الأحزاب. هذا النوع من الناشطات السياسيات يتعلق أساسا بنساء دخلن عالم السياسة ليلعبن الدور التمثيلي لا الدور الفاعل.

أما النساء اللواتي تتم تعبئتهن من خارج مجتمعهن المحلي (جمال)، فهن في الغالب نساء قد نجحن في تجاوز الثقافة التقليدية باشتغالهن وإقامتهن خارج "جمال"، في العاصمة مثلا، وكثيرا ما يكون انخراطهن في الأحزاب السياسية الناشطة بمدينتهن الأم عنوانا لتعلقهن بها من ناحية ولتعلق الحزب والمدينة عموما بكل الطاقات الناجمة من النساء من ناحية أخرى.

وبين لنا البحث الميداني كيف أن النشاط الثقافي والاهتمام بالشأن العام يمكن أن يكون مدخلا للعودة إلى الوطن الأم أو بالأحرى استجابة لنداء مجموعات الرفقاء وطريقة مثلى للحفاظ على شبكة علائقية قديمة وتحقيق نوع من التمايز الاجتماعي يصعب تحقيقه في المدن الكبرى وخاصة في العاصمة حيث التنافس السياسي والاجتماعي والثقافي على أشده. وفي هذا الإطار تبرز تجربة إحدى المنخرطات في جمعية نسوية (سلمى، 35 سنة، محامية) اختارت العاصمة للعمل والإقامة وجمال للنشاط المدني والجمعياتي. تقول سلمى "أنا لا أستطيع أن أغيب عن اجتماعات وأنشطة الجمعية، أترك طفلي وزوجي وأنتقل إلى هنا، بل إن زوجي يعرف مسبقا أنني لا يمكن أن أتخلي عن الجمعية مهما كان السبب".

أما إيمان (27 سنة، متزوجة، وعاملة بمصنع خياطة) فقد أكدت أن التجربة السياسية للمرأة لا تعبر في الغالب عن رغبة هذه الأخيرة وانخراطها الواعي والفعلي في العمل السياسي بل هو في الغالب انخراط تحت الطلب الاجتماعي.

مثل هذه التجربة استطاعت سلمى أن تكونها عندما كانت في السابق تنشط ضمن خلية الحزب الحاكم آنذاك ولكن في المقابل لا نجد في سلوك هذه الشابة، ولا في مواقفها أي دليل على فهمها للسياسة بل وحتى على اهتمامها

بالشأن العام فهي مثلاً لم تتمكن من تحديد الهوية السياسية للرؤساء الثلاثة^{*****} الذين أفرزتهم انتخابات 23 أكتوبر 2011 التي تعتقد أن موضوعها كان "اختيار رؤساء للبلاد".

قد يكون الطلب الاجتماعي أحياناً صادراً عن مجموعات الأتراب أو الأصدقاء وحتى العائلة ليمثل بذلك الانخراط في الشأن العام الوطني مدخلاً للاهتمام بالشأن العام المحلي. ولكنه كذلك قد يصدر عن قادة محليين أو أحزاب سياسية أو جمعيات وهيكل محلية ضمن ما يعرف في السياسة بـ"الانتقاء التعبوي" أي انتقاء الأشخاص الذين تبدو عليهم علامات الإشعاع والقبول الاجتماعي والاستفادة من قدراتهم تلك.

✓ الإرادة والمبادرة الذاتية

تبين شهادات النساء المستجوبات أن مشاركة المرأة في الانتخابات وفي السياسة بشكل عام هي بالتأكيد نتاج بناء اجتماعي (شبكات عائلية، مهنية، حميمية، جهوية) لكنها يمكن أن تنخرط في مشروع فردي بالأساس. فتكون المشاركة في الشأن العام في هذه الحالة طريقاً لإثبات جدارة ما لم تسمح لها الظروف الموضوعية ربما بالتطور أو لاستحضار ماضٍ سياسي تلمذي أو طلابي وحتى أحلام شباب ضائع عبر الزمن أو كذلك لاستثمار خبرات سابقة ومنحها "مجاناً" لمن يطلبها.

هذه في الحقيقة بعض الدوافع التي تقف، وبشكل مباشر، وراء استلهاً بعض الكفاءات السياسية النسائية السابقة ماضيها للعودة إلى الساحة فتراها تعيد انتاج أحلامها في الوحدة العربية مثلاً أو في "إحياء انتصارات الأمة" ولكن، ولكي تعطي لمبادئها بعداً معاصراً من شأنه أن يضفي عليها بعضاً من الشرعية الواقعية، تراها لا تتردد في عقد نوع من العلاقة بين أحلامها والمطالب الاجتماعية والاقتصادية للشباب الذي قاد الاحتجاجات التي مهدت للثورة. تلك هي بالضبط حالة السيدتان "ف" و"ح" (أستاذتان ناشطتان في أحد الأحزاب القومية وفي إحدى الجمعيات) حيث لا تزالان تؤمنان بحلم الوحدة العربية ولكن وفق "ديكور" جديد عنوانه الغالب العدالة الاجتماعية والديمقراطية والحرية.

إن الإرادة الفردية في الانخراط في الفضاء العمومي وتحمل أعباء السياسة (تعبئة، اجتماعات)، قد يعكس كذلك رغبة في نقل خبرة علمية أو عملية مجاناً لفائدة فئات مقصية اجتماعياً من الفضاء السياسي. هذه حالة أخرى نراها خاصة عند بعض النساء ذوات المستويات التعليمية العليا اللواتي يطمحن، وإن كنَّ لا يصرّحن دائماً بذلك، إلى ترعّم حركة التغيير الاجتماعي التي انخرطت فيها البلاد عموماً. بعض هؤلاء النساء يدعمن رصيدهن العلمي المعترف به اجتماعياً من خلال المهن التي يتعاطينها (طبيبة، أستاذة) ببعض ما قد تتطلبه سياقات السياسة من أرصدة إضافية. (تجربة نضالية مصطنعة أو حقيقية، ورع ديني، نزعة حدائية)، هذه حالة أخرى لنساء أقمن تجاربهن السياسية على أساس مشاريع فردية خاضعة لمنطقيات المنافسة والمراوغة والمفاوضة السياسية.

2. المنطقيات الخفية للمشاركة السياسية والسلوك الانتخابي للمرأة

تتعدد منطقيات المشاركة السياسية وخاصة منها المشاركة في الانتخابات وتتنوع. فهي نتيجة نسق من الأفعال والخطابات التي تهدف إلى تعزيز حضور المرأة في الساحة السياسية من ناحية وتبليغ صوتها كقوة انتخابية من ناحية أخرى. ومثلما تتحدد المنطقيات بطبيعة الهياكل والمنظمات السياسية في حد ذاتها، فإنها لا تكون بمعزل عن رهانات سائر الحقول المدنية وما قد يخترقها من صراعات وتنازلات.

وفق هذا، تكون المشاركة السياسية للمرأة بمدينة جمال نتاجا لسيرورة متجذرة في ثقافة المجتمع المحلي وكيفية انخراطه في أنساق التغيير التي تراكمت عليه منذ عشرات السنين. فالمشاركة السياسية للمرأة ليست أبدا بمعزل عن مكانتها داخل العائلة وحقل العمل والثقافة والنشاط المدني بوجه عام.

وعلى هذا الأساس بدا لنا أنه كلما كانت المرأة أكثر "انعتاقا" من الفضاء المنزلي، كلما كان إقبالها على النشاط السياسي أكبر حجما وأكثر تأثيرا. بل إن النشاط داخل المجال السياسي هو دليل تحرر وانفتاح وطموح على نحو ما ورد في إجابات أغلب أفراد العينة على هذا السؤال. فالمرأة النشطة سياسيا هي في عيون المرأة الجمالية "طموحة"، "واعية"، "متحررة"، "متفوقة"، "قوية".

وبالإضافة إلى هذا، لا تبدو أهمية الانعتاق من إلزامات الفضاء المنزلي في تدعيم مشاركة المرأة السياسية بجمال في مستوى المشاركة القيادية وحسب، بل تلاحظ كذلك في مستوى المشاركة القاعدية وحتى الدنيا في الشأن السياسي العام. هذا ما يتأكد مثلا عندما نلاحظ أن السبب الأساسي لعدم مشاركة بعض النساء في التصويت خلال انتخابات المجلس الوطني التأسيسي مرتبط في الغالب بالفضاء المنزلي كالتزامات العائلية أو رعاية الأبناء أو رفض الزوج، ... إن الغالبية الساحقة من النساء اللاتي لم يلتحقن بصناديق الاقتراع يوم 23 أكتوبر 2011 هنّ من ربّات البيوت أي بوجه ما ممن لم ينجحن بعد في ولوج الفضاء العمومي للدراسة أو للعمل أو للترفيه.

وبالإضافة إلى المنطق الاجتماعي العام، تحتكم مشاركة المرأة السياسية إلى منطقيات أخرى فنيّة أو مصلحية. ويكون المنطق الفني حاضرا عندما تتحول مشاركة المرأة في المجال السياسي مثلا إلى هدف في حد ذاته نظرا لما قد يحيل إليه من تمايز عن فئات اجتماعية أخرى قد لا تكون شديدة الاقتناع بذلك. ويتأكد هذا المنطق عندما نلاحظ مثلا أن المستوى التعليمي هو، بوجه ما، المحدد الأساسي لمشاركة أو عدم مشاركة المرأة الجمالية في المجال السياسي سواء كانت هذه المشاركة قيادية أو قاعدية. تقول إحدى النساء (58 سنة، أستاذة) ممن تبدو عليهن علامات عدم الرضا على نتائج الانتخابات الفارطة "الثورة قد تضيعها المرأة غير المتعلمة التي لا تعرف حقيقة بلدها وتاريخه كما أنها غير واعية بقيمتها كمرأة بل ترى في نفسها كأننا من درجة ثانية".

وهكذا يكون المستوى التعليمي لدى غالبية المستجوبات، بما في ذلك أولئك اللاتي يتعارضن كليا أو جزئيا مع المرأة السابقة، ضمنا أساسيا لسداد الرأي وحسن الاختيار أي بمعنى آخر لمشروعية النشاط السياسي بالنسبة إلى المرأة. هذا في الحقيقة ما يتأكد من خلال إجابات أغلب أولئك النساء اللاتي لا ينوين الترشح للانتخابات القادمة نظرا لضعف مستوياتهن التعليمية. وضمن نفس منطق التمايز هذا تجد المرأة المتعلمة نفسها أمام رهان تأكيد جدارتها الاجتماعية سواء عبر الترشح للانتخابات أو التصويت باعتباره حدا أدنى للالتزام الاجتماعي والأخلاقي. تقول السيدة نادية (30 سنة، عزباء، أستاذة معطلة): "المشاركة في الانتخابات ليست فقط حق من حقوق الإنسان بل هي واجب على كل مواطن فلا يمكن الحديث عن مواطنة دون مشاركة في الانتخابات". كما يظهر المنطق الفئوي التمايزي كذلك في سلوك بعض الفئات النسائية ممن اختارت التوجه إلى صندوق الاقتراع انتصارا لقيم أخلاقية أو دينية أو إيديولوجية ولذلك تجد أن اختيارهن للمرشحين لا يقوم بالضرورة على أسس عقلانية كالكفاءة أو البرنامج بقدر ما يعكس انخراطا في مشروع فئوي تمايزي بالأساس.

أما المنطق المصلحي، فإنه يظهر في مواقف بعض النساء اللاتي يرين في مشاركتهن حماية لمصالحهن كنساء أو كفئة من النساء أولا وكذلك ضمنا لمستقبل أبنائهن وفق ما يرينه مناسباً. تقول إحدى الفتيات (لمياء، 27 سنة، أستاذة): "المرأة لا أحد يدافع عنها غير المرأة، ولا أحد يدرك حقيقة ما يمكن أن تعيشه المرأة إذا لم تفتك حقوقها وحقوق أبنائها غير المرأة". هذا ويتزايد الانخراط في هذا المنطق خاصة كلما تزايد الشعور بمخاطر محدقة قد تفرزها نتائج انتخابات لم يشاركن فيها.

لقد بين العمل الميداني أن النساء الأكثر انخراطا في الشأن العام، هن أكثر حرصا على التصويت أولا وعلى أن يكون اختيارهن للمرشحين قائما على أسس الكفاءة والخبرة والمهارة. أما أولئك النساء الأقل انخراطا في الشأن العمومي فإنهن الأكثر قابلية على ما يبدو إلى أن يبنين سلوكهن الانتخابي على مواقف دينية أو ثقافية أو إيديولوجية جماعية لا على مبادئ عقلانية فردية.

مقومات استراتيجية لدعم المشاركة السياسية للمرأة

لقد كان المنطلق الأساسي لهذه الدراسة متمحورا حول غايتين: معرفة محددات علاقة المرأة التونسية عموما والجمالية على وجه الخصوص بالشأن العام وتصور خطة عمل لتحرير سلوكها الانتخابي وعقلنته. ويأتي حديثنا في ما سيأتي عن عوائق مشاركة المرأة في الحياة السياسية وأهم ما يمكن أن يشكل مقوما لدعم هذا السلوك ضمن هذا الإطار بالذات. فالسلوك الحر والعقلاني لا يمكن أن يؤتى من طرف من لا تعترف له المؤسسات أو العقليات أو البنى بأحقية في التحرر والاعتناق وبجدارته في الاختيار وتحمل المسؤولية الفردية والاجتماعية.

1. حدود المشاركة السياسية

تكشف المعطيات الميدانية أن حظوظ الدخول إلى الحياة السياسية وظروف السير نحو السلطة تختلف بين الجنسين، فالنساء معرضات أكثر من الرجال، إلى عوائق من مختلف الأنواع بإمكانها أن تعطل مشاركتهن السياسية. وإذا كانت حدة هذا الاختلاف بين الرجل والمرأة في مستوى المشاركة في الحياة الاجتماعية والسياسية بوجه عام تختلف من مجتمع إلى آخر بناء على خصائص هذا المجتمع أو ذاك ونوعية العلاقة التي يقيمها مع الفرد أولا ومع الشأن العام ثانيا فإن التعامل مع المرأة بوصفها امرأة يمثل في حد ذاته السبب الأساسي لإقصاء النساء من المسألة الديمقراطية⁽¹¹⁾.

✓ العوائق ذات الطابع الهيكلي

تتعلق المسألة هنا بعوائق تنظيمية وبنائية متوارثة في قسمها الأعم. إنها عوائق مرتبطة بأنماط اشتغال تمييزية تجاه المرأة تمّ توارثها عبر الزمن وترسخت في البنى الذهنية والسلوكية للفاعلين السياسيين التقليديين منهم أو الجدد. وسواء تعلق الأمر بالمستوى القيادي أم بالمستوى القاعدي، فإنه يمكن القول أنه في الأحزاب السياسية كما في الجمعيات والنقابات كان النمط السائد على مدى عقود هو نمط رجولي أكثر ميولا إلى إقصاء النساء واستنقاص دورهن. ربّما هذا ما قد يفسّر ضعف إقبال النساء على الشأن السياسي في السابق كما حاليا ف"انعدام الثقة في السياسة" هو في الحقيقة موقف كثير التواتر بين عدد كبير من النساء "الجماليّات" اللاتي يرفضن إلى الآن الانخراط في العمل السياسي. هذا ما قد يفسر إذن ضعف إقبال النساء بجمال على التسجيل الارادي في انتخابات المجلس الوطني التأسيسي (70%) والتصويت (60%) والترشح (0%) وحتى الاستعداد للترشح مستقبلا (5%).

✓ العوائق ذات الطابع الثقافي

تساهم التنشئة الاجتماعية الأولية التي تؤمنها العائلة والمدرسة ومجموعات الأتراب على وجه الخصوص في غرس أحكام معيارية وتمثلات وقيم مرتبطة بالأنوثة والذكورة تنظم العلاقات الاجتماعية بين الجنسين ونمط اشتغال المؤسسات الاجتماعية (المجال الخاص، المجال المهني، المجال السياسي، المجال الجمعياتي، التنظيم النقابي). وهكذا تمتد جذور التمييز السياسي ضد المرأة إلى مثل هذه القيم والتمثلات التي تقسم الحقوق الاجتماعية (العمل، الجمعيات، السياسة، النقابات، الترفيه، الثقافة، الرياضة...) إلخ) بين الرجل والمرأة بطريقة غير متكافئة وتجعل السياسة والانتخابات تماما كما هو الحال بالنسبة إلى عديد الحقوق العمومية حكرا على الرجال.

وفي ظل هذا التقسيم غير المتكافئ للحقوق الاجتماعية بين الرجل والمرأة نجد أن التضحية بالحقوق في التصويت الذي ينتمي إلى مجال رجالي بامتياز هو المجال العام يكون تحت راية الاعتناء بالأبناء أو قضاء شؤون الأسرة وهي مسائل تنتمي إلى مجال أنثوي هو المجال الخاص أو العائلي.

✓ الفردانية وغياب ثقافة التطوع

دون أن يكون حكرا على النساء، يرى العديد من أفراد العينة الذين تم استجوابهم أن هذا العائق يمكن أن يفسر أزمة مشاركة المرأة في الشأن السياسي بشكل عام. فقرار الانخراط في الساحة العامة يمكن أن يقوم على عملية احتساب للكلفة والكفاية (coûts / bénéfices) على نحو ما يسميه البعض بـ"سوق المشاركة"⁽¹²⁾ وهنا تكمن المفارقة. فالمرأة التي هي دائما رهينة ثقافة ذكورية قلما تسمح لها بتزعم الساحة العامة قد تجد نفسها مضطرة إلى تجنب نفسها وعائلتها أحيانا مشاق المخاطرة والحال أن النتيجة محسومة مسبقا. هذا ما تؤكدته مثلا النسبة الضعيفة للنساء اللاتي ترأسن القوائم أثناء انتخابات المجلس الوطني التأسيسي رغم إقرار القانون لمبدأ المناصفة. أما على المستوى المحلي فالأمر يتأكد من خلال ضعف اقبال النساء على الشأن السياسي إذ لا يتعدى عدد النساء المنخرطات في أحزاب سياسية الأربع أي ما يمثل 7% تقريبا من جملة أفراد العينة.

✓ صعوبة بلوغ المعلومة

رغم أهمية الوسائط الحديثة في الإعلام والاتصال، ترى بعض المستجوبات أن الثقافة السياسية ضعيفة بالنسبة إلى أغلب الفئات النسائية نظرا لافتقادهما المعلومة. فبالإضافة إلى ما يمكن أن تتعرض له المرأة داخل الفضاء العائلي من تعطيل لبلوغ المعلومة سواء بسبب مشاغلها المنزلية أو بسبب أسبقية الرجل عليها في استعمال الوسائط الحديثة، فإن نقص المعلومة القانونية والسياسية والحقوقية يمكن أن يعود إلى انحباسها في فضاءات رجالية إقصائية بطبعها (المقاهي، المطاعم...) على الرغم من دورها المركزي في بلورة الرأي العام وتحديد سياقاته.

✓ ضعف الشبكات الشخصية

عديدات هن النساء اللاتي أكدن أن الفضاءات العامة لا تسمح للنساء، عكس الرجال، بتوسيع شبكة علاقاتهن مما يعطل مشاركتهن في الحياة السياسية ويقلل حظوظ بلوغ مواقع القرار السياسي مع العلم وأن تعيين واختيار المرشحين وكذلك تعبئة الناخبين ترتبط في جانب كبير بشبكة العلاقات. وفي مدينة تفتقد إلى حد الآن لأماكن ترفيه أو نواد عائلية أو نسوية كجمال، يصبح من الصعب على المرأة عقد شبكات علانقية نضالية أو مصلحة أو عاطفية من شأنها أن تكون محضنة لبروز قيادات سياسية أو ثقافية أو اجتماعية نسوية محلية. وفي ظل غياب مثل هذه الأماكن تبقى الشبكات النسوية قائمة في الغالب على أسس تقليدية أولية قرابية أو جغرافية أما الشبكات العضوية السياسية أو المهنية أو الثقافية فتبقى ضعيفة الوجود والتأثير.

ترتبط بعض العوائق التي أشارتها بعض المستجوبات بعدائية الرجال الذين يعتبرون النساء اللاتي يستثمرن عالم السياسة كمنافسات لهم سواء داخل الفضاء السياسي العام أو داخل الفضاء العائلي. إذ يبدو أن المجتمع المحلي بجمال لا يزال في بعض مستويات تفاعله الاجتماعي حبيس ثقافة تقليدية تقصي المرأة من الحقوق العامة المحسوبة اجتماعيا على الرجال لا على النساء. عديدة هي الأمور التي يمكن أن تؤكد مثل هذا الواقع منها مثلا اقتتاد المدينة إلى مقاه ونواد ومحلات ترفيهية نسائية أو مختلطة على اعتبار أن مجمل الساحات والمحلات العامة هي تقريبا حكر على الرجال. بل أسرت لنا بعض عضوات الهيئة المديرة في جمعية "صوت المرأة" أنهن يجدن صعوبة في دعوة بعض الوجوه الرجالية إلى الجمعية والقيام صحبتهم ببعض الأنشطة بالمدينة.

لقد حملت المقابلات الفردية مع النساء الجماليات عديد المواقف والروايات التي تؤكد أن الرجل يمكن أن يمثل في حد ذاته عائقا أمام انخراط المرأة في الشأن العام والانتخابي على وجه الخصوص بل إن 30% تقريبا من النساء المستجوبات قد اعتبرنه عائقا مباشرا يمنع المرأة من ممارسة حقها الانتخابي.

2. من أجل مشاركة سياسية أفضل للنساء

تبين نتائج الدراسة إذن أن مسألة المشاركة السياسية للمرأة ترتبط بمحددات اجتماعية منها ماهو ماكروسوسيولوجي عام ومنها ماهو فردي أو ميكروسوسيولوجي. ويتمظهر الوجه الأول لهذه المحددات في عوامل الثقافة والمؤسسات والتنشئة الاجتماعية والبنى الذهنية والعقلية الذكورية السائدة وهي كلها عوامل عامة تحيل على الطابع الاجتماعي والثقافي للسلوك السياسي والمدني بصفة عامة. أما الوجه الثاني لهذه المحددات فيتمظهر أساسا في ما قد يخضع له السلوك الانتخابي من حسابات فردية مصلحة أو مبدئية أو فئوية.

هكذا، وحتى ندعم المشاركة السياسية للمرأة في الانتخابات وفي عالم السياسة عموما، لا بد من إرساء استراتيجية فعل تأخذ في الاعتبار مختلف الأبعاد المتحركة في حضور النساء وتدخلهن في الفضاء العام على أساس ما تم استنتاجه من العمل الميداني.

وعلى هذا الأساس يظهر أن حضور المرأة على الساحة السياسية محكوم بمنطقتين: منطق قبلي يحيل إلى مكانة المرأة في العائلة وكيفية تقسيم الأدوار بينها وبين الرجل وما قد ينتج عن ذلك من نحت للمواقف والتمثلات والسلوكيات. ومنطق بعدي يتعلق بكيفية ومدى تدخل النساء على مستوى الأحزاب السياسية التي تمثل حقلا لممارسة المواطنة والنفوذ السياسي. ويتكون الفضاء الوسيط بين العائلة والأحزاب السياسية من خلال هياكل سياسية تمثيلية ووسائل إعلام وجمعيات. ونقصد بالهياكل السياسية التمثيلية المجالس البلدية والجهوية والريفية وكذلك لجان الأحياء والاتحادات

النقابية القطاعية والنقابات السكنية. أما وسائل الإعلام والتواصل فتضمّ الجرائد والإذاعات والتلفزة والانترنيت التي تربط بين الأفراد، في حين تساهم الجمعيات التي تنشط في عديد الحقول (الاجتماعي، الرياضي، الاقتصادي، الثقافي، البيئي) في مسألة التنمية عن طريق مختلف الأنشطة التطوعية أو الربحية التي تتماشى وقوانينها الأساسية.

مثل هذه الإستراتيجية التي ترمي إلى تحسين مشاركة النساء في الانتخابات لا بد لها أن تأخذ في الاعتبار إلتقاء المحلي والشامل.

✓ مؤسسات التنشئة : العائلة والمدرسة

تتم التنشئة الاجتماعية الأولية في صلب العائلة وتتأسس الروابط بين النساء والرجال مع ما تقرّه من توزيع غير عادل للأدوار. ويمثل التمييز بين عالم عائلي خاص ومخصص للنساء من ناحية وعالم عمومي وسياسي يسيطر عليه الرجال من ناحية أخرى، أساس هذا التوزيع غير العادل. يبدأ السياسي الذكوري إذن من داخل العائلة. وبرغم الإصلاحات القانونية والاجتماعية والسياسية التي سمحت بتحرير النساء في تونس منذ تبني مجلة الأحوال الشخصية في 1956، فإن توزيع الأدوار لم يتغير كثيرا ويبقى عدد الرجال الذين يساهمون في الاعتناء بالمنزل وتربية الأبناء غير كبير.

ومن جانبها، تبقى المشاركة السياسية للنساء ضعيفة ونادرا ما يتم تثمين وتحمل مسؤولية الرغبة في التحول إلى امرأة سياسية. ولهذا السبب لا بد لأي إستراتيجية حقيقية للتغيير أن تبدأ بالخلية الأسرية. كما تبدو الحاجة إلى مجهود توعوي تؤمنه وسائل الإعلام والجمعيات أكيدة لغاية عدم إعادة إنتاج الهيمنة الذكورية وبالتالي السلبية النسائية في عالم السياسة.

وفي نفس السياق، فإن المدرسة التي تساهم في التنشئة الأولية والتي تكون رجال ونساء الغد مدعوة إلى إعادة النظر في البرامج التعليمية وخاصة العمل على ألا تترسّخ التفاوتات بين الرجال والنساء في الممارسات المدرسية والاجتماعية. أما المعلمين والمعلمات فإن دورهم مهم جدا في عدم إنتاج التفرقة الجنسية أثناء الدروس. فالاختلاط بين الجنسين يجب أن ينشأ مبكر جدا، مع الطفولة، وفي السنوات الأولى للتمدرس. وإذا ما لم تغير العائلة والمدرسة في مستوى توزيع الأدوار الذكورية والأنثوية، فإن الديمقراطية بين الجنسين ستكون صعبة التحقيق.

إن مراجعة الكتب المدرسية والتنظيم في صلب النوادي المدرسية والجامعية والنقاشات المتعلقة بالعلاقات بين الجنسين والمشاركة المختلطة في فرق العمل وكذلك في أنشطة الترفيه هي مسائل وجب دعمها في إطار استراتيجية تستهدف العائلة والمدرسة بوصفهما مؤسستان أوليتان للتنشئة مدعوتان للعب دور أساسي في إعادة بناء العلاقات بين النساء والرجال.

أما لجان الأولياء فهي مدعوة إلى ممارسة دور مجموعات الضغط للحد من الخطابات والممارسات التمييزية تجاه التلميذات. ولإدراك هذه الغاية يبدو من الضروري أن تقوم الجمعيات النسائية ووزارتنا التربوية والمرأة والأسرة بحركة تحسيسية للجان الأولياء كما أنه من المهم كذلك أن نقطع مع الفكرة التي تفصل بين المدرسة والعائلة على قاعدة تصوّر ثنائي يولّد تملصا مؤسساتيا تحمل بواسطته كل منهما الأخرى مسؤولية الفشل التربوي.

✓ الهياكل السياسية والمدنية التمثيلية

إن وجود النساء صلب الهياكل السياسية والمدنية التمثيلية ألا وهي المجالس البلدية والجهوية والريفية وكذلك لجان الأحياء واتحادات النقابات القطاعية ونقابات السكن الجماعي هو ما يجب دعمه بالنظر إلى ضعفه حسب الهياكل والجهات والقطاعات. ومن المؤكد أن تمثيلية النساء في الأوساط النقابية القاعدية هي الأضعف، ويعود ذلك إلى عدة أسباب تتداخل في إطارها عوامل التاريخ والثقافة وعدم وجود سياسة لدعم المرأة في مواقع القيادة وكذلك تصور العمل النقابي ذاته القائم على تنظيم ذكوري يحتاج بالضرورة إلى مجهود إضافي لتغييره. نفس هذا الأمر نجده في سائر الهياكل التمثيلية الجماعية مثل المجالس البلدية حيث لا تزال المرأة عاجزة عن تسجيل حضور فاعل وبناء فيها وكذا الأمر بالنسبة للمجالس الجهوية والريفية.

✓ الحقل الإعلامي

تشكل وسائل الإعلام، بفضل تنوعها وقدرتها على التأثير في الرأي العام كقنوات تواصل جماهيري، قاعدة للحياة السياسية وللديمقراطية التشاركية. ويتميز الحقل الإعلامي بنقص مزدوج: صورة المرأة التي تبدو سلبية باستمرار ومشاركة المرأة في النقاشات السياسية التي تكون دائما هامشية بما في ذلك تلك البرامج التي يكون فيها التنشيط نسائيا. ولتجاوز هذا الخلل لابد من إصلاح نظام الإعلام وضمان ظهور المرأة إعلاميا حتى تتمكن من التعبير أكثر عن آرائها وإرسال صورة فاعلة تقطع مع الأحكام النمطية التي تقدمها ومضات الإشهار والمسلسلات المتلفزة. كما أنه من المهم أيضا أن ندعم كل النقاشات حول كل المسائل المتعلقة بتحرير المرأة اليوم والتي صارت محل تساؤل من طرف الخطاب الرجعي الذي تبنته بعض القنوات الفضائية. يبقى أن ننبه إلى ضرورة تنظيم حلقات تكوينية للصحفيين وسائر المتدخلين في المجال الإعلامي عموما، رجالا ونساء، تتمحور حول اعتماد مقاربة النوع الاجتماعي في طرح المسائل السياسية والثقافية والاجتماعية.

✓ الجمعيات والأحزاب السياسية

باستثناء بعض الأحزاب ذات التوجه الحداثي التي أعدت برامج إرادية لدعم المرأة في مختلف هياكلها، فإن أغلب الأحزاب السياسية التونسية تتميز بضعف التمثيلية النسائية في مستوى القاعدة والهرم على حدّ السواء. أما في

الجمعيات المدنية، فإن النساء التونسيات قد استطعن بوضوح أن يسجلن حضورهن. ولكن مع ذلك، تبقى تمثيليتهن ضعيفة خاصة في مستوى المواقع القيادية¹³. ويظل وجود امرأة في موقع رئيسة جمعية أو كاتبة عامة أو أمينة مال أمرا نادرا.

ولتدعيم الزعامة النسائية، من الضروري تركيز سياسة حصصية (politique de quotas) في هيئات القرار وفي القوائم الانتخابية لتحسين حضور المرأة سياسيا والحد من ظاهرة العنف اللفظي الذي كثيرا ما تتعرض له المرأة في عالم السياسة كما أن تركيز مؤسسة تعنى بدعم الزعامة السياسية النسائية على غرار "أكاديمية سياسية نوعية" (Académie politique du Genre) بإمكانه أن يوفر تكوينا مناسباً للنساء من كوادر الأحزاب السياسية والجمعيات قد يشكلن احتياطيا وطنيا مهماً لسائر المحطات الانتخابية القادمة.

✓ المحلي والشامل

إن لتمييز المحلي والشامل من الأهمية بمكان ليس فقط لأن مستويي الانتماء هاذين يقتضيان تناسقا في المستوى الوطني بل كذلك لأن سياق العولمة حيث تندرج مختلف التغيرات في نظرنا يقتضي دون شك في مستوى الخطابات والممارسات السياسية الأخذ بعين الاعتبار لعلاقات الأفراد بالساحتين الوطنية والعالمية.

لقد بينّ البحث الموجه الذي قمنا به في جهة جمال أن هناك خلافا بين العاصمة والجهات الداخلية من ناحية، كما بينّ من ناحية أخرى انكفاء غالبية النساء السياسيات الماكبات بالتأكيد لمختلف الأحداث العالمية دون أن يمتلكن قدرا عاليا من الوعي بالتحويلات التي يعيشها العالم اليوم على كل المستويات الاقتصادية والثقافية والسياسية والتواصلية.

ولهذا السبب نرى من المهم العمل من أجل إدماج البعد العالمي في خطابات وممارسات النساء السياسيات مع مراعاة طموح النساء المشروع إلى تحقيق حراك سياسي نحو مراكز القرار الوطنية والعالمية ودون أن يكون ذلك بالضرورة فرصة لتفريغ الجهات من كوادرها لصالح المركز.

وفي هذا السياق، يمكن لسياسة توازن جهوي تدعم داخل البلاد بالنظر إلى تونس العاصمة أن توفر إطار حياة مناسب لمنح امتيازات للنساء السياسيات وعائلاتهن لغاية تشجيعهنّ على البقاء في أماكنهنّ. أخيرا، يجب على السلطات تشجيع الإطارات السياسية النسائية الجهوية والوطنية على الانفتاح على العالم عن طريق وسائل الإعلام وخاصة عن طريق الاستعمال المجاني للانترنت وتوأمة المدن والسفر والمبادلات والمشاركة في الندوات العالمية وتدعيم ذلك من قبل المواطنين والمواطنات.

خاتمة عامة وتوصيات عملية

يمثل هذا العمل الذي تم انجازه بمدينة "جمال" بالساحل التونسي إحدى محاولات التدخل العلمي والمدني والاجتماعي قصد فهم منطقيات العمل السياسي للمرأة عموما من ناحية، والرفع من كفاءتها وتحسين خبراتها السياسية من ناحية أخرى. فالمشاركة في الانتخابات، كوجه من وجوه المشاركة السياسية بشكل عام، صارت من المسائل المطروحة على مختلف الأصعدة: محليا ووطنيا وعالميا. وكبحث ميداني، حكمت هذا العمل غايتان تتعلق أولاهما بمعرفة أسباب تعطل مشاركة النساء التونسيات عموما والجماليات على وجه الخصوص في الانتخابات والعوامل التي من شأنها أن تعيق المشاركة السياسية للمرأة. أما ثانيتهما، فترتبط بطبيعة البحث ذاته أي البحث الموجه (recherche - action) الذي جعل من عقلنة سلوك الناحية هدفا ميدانيا للعمل العلمي.

على المستوى المنهجي، حاول هذا البحث الاستفادة من تقنيات العمل الميداني بشكل عام راميا في ذات الوقت التقيد بخصوصيات مثل هذه الأعمال "التدخلية" أي بوصفه تدخلا علميا في مجال الدراسة. ولذلك، اعتمدنا في بحثنا مقارنة كيفية لا تبحث في تواتر الآراء بل ترمي إلى فهم المواقف والتوجهات العامة للسلوك الانتخابي باعتباره سلوكا مركبا تتفاعل فيه عوامل ومحددات عدة. وتبعا لذلك عمدنا في بحثنا هذا الرجوع إلى المقابلات المعمقة أو التفهيمية وكذلك إلى تقنية "الفرق الاستراتيجية". وهكذا، كانت عينة البحث متنوعة وثرية عدديا وكيفيا في الآن ذاته.

لقد بينت المقابلات المعمقة أن مشاركة المرأة في الانتخابات تتحدد في الغالب بعناصر فردية مرتبطة بالرغبة في تحقيق الذات وكذلك بالظروف الاجتماعية والسياسية الموضوعية التي تسمح أو لا تسمح للفرد - رجلا كان أو امرأة - بولوج عالم السياسة القائم أصلا على الانتقائية والانغلاق.

لقد اتضح من خلال البحث أن النساء الجماليات محكومات بعوامل لا تسمح لهن بالمشاركة الفاعلة في الحياة السياسية. وأول هذه العوامل مرتبطة بالمجال المدني عموما، سياسيا كان أم نقابيا أم جمعياتيا، إذ لا تزال تسيطر على المجالات المدنية هذه آليات اشتغال إقصائية تجاه النساء مرتبطة بدورها بمخلفات تنشئة اجتماعية تمييزية ويتمثلات مغلوطة للأنوثة والذكورة ولللاقات بين الجنسين بشكل عام بما يجعل من السياسة والانتخابات حكرا على الرجال.

على المستوى العملي، يؤكد البحث الميداني أن الحركات الاجتماعية من أحزاب ومنظمات وهيئات وجمعيات مدنية، هي بالفعل أساس كل محاولة لتمكين النساء من حقوقهن السياسية تعبيرا وترشحا وتصويتا. فهي تمثل الوجه الميداني الملموس لإرادات التغيير التي يمكن أن تنشأ في سياق وطني شامل أو محلي مخصوص يسمح لبعض الإرادات الواعية والحرّة بأن تحلم وأن تسعى لتحقيق ما حلمت به.

* في إطار هذا القانون تم إقرار مبدأ المناصفة في توزيع عدد المقاعد بين الرجال والنساء في كل القوائم الانتخابية على أن يقوم ترتيب أعضاء القوائم على أساس احترام مبدأي التناسف والتواتر بين الرجال والنساء.

- 1 - Robert Mayer et Francine Ouellet, « La recherche dite 'alternative'. la recherche-action, la recherche participative, l'intervention sociologique, la recherche féministe et la recherche conscientisante », in Robert Mayer, Francine Ouellet & alii, *Méthodes de recherche en intervention sociale*, Montréal/ Paris, Gaëtan Morin éditeur, 2000, p. 290.
- 2 - Ruth Canter Kohn & Pierre Nègre, les voies de l'observation. Repères pour les pratiques de recherche en sciences humaines, Paris, L'Harmattan, 2003, pp. 153-154.
- 3 - Jean-Claude Kaufmann, *L'entretien compréhensif*, Paris, Nathan, Coll. 128, 1996, pp. 19-24.

** المعهد الوطني للإحصاء. التعداد العام للسكان والسكنى. 2014. النتائج الأولية: السكان حسب المعتمديات والوسط والجنس. تقرير منشور بموقع

المعهد www.ins.tn

- 4 - Dominique Schnapper : La compréhension sociologique. Puf. 1999. Pp9-16

*** نستعمل هذا النعت في مختلف مراحل البحث للدلالة على النساء اللاتي ينتمين جغرافيا إلى مجال الدراسة منطقة جمال.

- 5 - Arnstein S. R., 1969. « A Ladder of Citizen Participation », Journal of the American Institute of Planners, 35 (4), pp. 216-224, cité dans « La participation politique et ses défis : territoires, action collective et registres », Conférence internationale organisée par la Chaire UNESCO, « Politiques urbaines et citoyenneté », l'UMR CNRS 5600 et l'Ecole Nationale des Travaux Publics de l'Etat, Lyon, 10-11 décembre 2007, publié sur Internet: <http://www.afs-socio.fr/ac-polurbaine.pdf>
- 6 - Cf. Bernard Denni et Patrick Lecomte, *Sociologie du politique*, Grenoble, Presses Universitaires de Grenoble, 1990.
- 7 - Cf. Claude Polin, De la démocratie en Amérique – Tocqueville – Analyse critique, Paris, Hatier, 1973, pp. 50-52
- 8 - Anne Couvidat & Julien Dewoghelaere, op. cit., p. 29.
- 9 - François Dubet, « Pour une définition des modes d'adaptation sociale des jeunes à travers la notion de projet ». *Revue de sociologie française*, Année 1973, Volume 14, Numéro 2, pp. 221-24.
- 10 - « La participation politique et ses défis : territoires, action collective et registres », op. cit., p. 8. Projet de renforcement du leadership féminin et de la participation des femmes à la vie politique et au processus de prise de décision en Algérie, au Maroc et en Tunisie.

**** نستعمل هذا الوصف نسبة لجهة الساحل التونسي حيث يجدر منها عديد الوجوه السياسية الرجالية والنسوية.

***** المقصود هنا كل من محمد المنصف المرزوقي رئيس الجمهورية ومصطفى بن جعفر رئيس مجلس النواب وحمادي الجبالي رئيس أول حكومة بعد

انتخابات المجلس التأسيسي.

- 11 - Françoise Héritier : Masculin / Féminin : Dissoudre la hiérarchie. Odile Jacob. 2012. P261.
- 12 - Nonjon M., « Professionnels de la participation : savoir gérer son image militante, Politix, (70), 2005, pp. 89-112.
- 13 - تبين إحدى الدراسات المنجزة سنة 2010 أن نسبة النساء اللاتي استطن بلوغ مواقع قيادية في الهيئات الرياضية مثلا ضعيفة جدا رغم أن المجال الرياضي يعتبر نسبيا أكثر انفتاحا أمام النساء من باقي المجالات الأخرى. للتعمق انظر:

Rapport de recherche : L'accès des femmes aux postes de décision dans les organisations sportives fédérales. Publication de l'Association « Sport au Féminin ». Tunis 2010.

الاعلام الجديد بين الإيجابية والسلبية : حالة تكنولوجيا الإعلام والاتصال

د. نعمر عباس

كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير،

جامعة مستغانم الجزائر.

ملخص:

تمر المجتمعات العربية والإسلامية نتيجة للثورة التقنية والرقمية بتحولات جد عميقة حيث شهدت نهاية القرن العشرين تطورات هائلة في مجال تكنولوجيا الإعلام والاتصال وانفجار المعلومات وارتباط أفرادها وجماعاته ودوله بشبكات متطورة، تسهل انتقال المعلومات العلمية والاقتصادية والثقافية إلى جميع أنحاء العالم، وقد أدت هذه الدرجة في التطور إلى سرعة توسيع تكنولوجيا الإعلام التي استطاعت أن تغزو جميع الميادين وبالإضافة إلى ذلك فإن التلاقي بين التكنولوجيات المختلفة في مجال الاتصالات مكن من إنشاء شبكات معقدة والربط بينها مما يتيح المعالجة والسرعة في نقل البيانات، فمن جهة هناك دمج أقوى لوسائل الاتصال وتوحيد أشمل لشبكاته، ومن جهة أخرى هناك توحيد أكبر لمصادر المعلومات وبهذا المعنى أضحت لتكنولوجيا الإعلام والاتصال وزن هام في المجتمعات المعاصرة إذ أصبح البعد اللامادي من أفكار ومعلومات ومعارف يشكل مرحلة جديدة في التحول الضروري لمواجهة هذا المحيط الذي يتسم ببعض الانعكاسات السلبية والإيجابية لهذا التطور التكنولوجي.

مقدمة:

لقد أصبح للاتصالات وشبكة المعلومات أهمية واسعة في المجتمعات الحديثة من خلال الشكل الجديد للارتباط بين الأطراف العالمية المختلفة واندماج المنظومة الإعلامية والاتصالية التي تساهم في تفتح الأفراد وإطلاعهم على العالم بكل منجزاته، فلقد أصبح هناك توحيد أسهل لشبكات الاتصال وأدواته ودمج أقوى للوسائل والاتصالية فإذا كانت الثورة الصناعية قد حدثت نتيجة لاختراع الآلات، فإن الحساسات الآلية ووسائل الاتصال عن بعد قد أنتجت ثورة في تكنولوجيا الإعلام والاتصال وإذا كانت الثورة الصناعية قد غيرت طبيعة العمل وأدت إلى الرفع من مستوى المعيشة، فإن الثورة التكنولوجية غيرت الاقتصاد وخلقت صناعات جديدة، وقدمت طرق جديدة لأداء الأعمال حتى وصف الحاسب الآلي بأنه الآلة التي غيرت العالم حيث أصبحت تكنولوجيا الإعلام والاتصال تخترق كل مجالات الحياة ولم تعرف البشرية في وقت ما مثل هذا التزايد والسرعة في الاتصال وهذا في ظل المستحدثات التقنية المتقدمة التي تتحكم في معالجة المعلومات وإيصالها وظهور شبكة الانترنت التي ساهمت في نقل وتبادل الأفكار والمعلومات بالصورة والصوت عبر

مختلف أنحاء المعمورة فتطور وسائل الاتصال الحديثة والمتعددة فتح مجالات عديدة وجديدة أمام التحولات الاجتماعية والاقتصادية وغيرها، ورغم أن هذه التحولات تتركز في الدولة المتقدمة بدرجة كبيرة إلا أنها تنتقل تدريجياً إلى المناطق الأخرى التي نتج عنها تدريجياً نحو مجتمعات المعلومات وهي المجتمعات التي تستخدم فيها المعلومات بكثافة كوجه للحياة في مختلف المجالات.

1. طبيعة تكنولوجيا الإعلام والاتصال

تشكل تكنولوجيا الإعلام والاتصال قاعدة أساسية للتكنولوجيات المعاصرة، فهي تعتبر صيغة عامة تشمل التكنولوجيا المستعملة في مراكز البحث المعاصرة من أجل التطبيقات العلمية⁽¹⁾ وتكنولوجيا الإعلام والاتصال لها مظاهر متعددة الأبعاد اقتصادية اجتماعية ثقافية سياسية وقد أدى انتشارها الواسع إلى إحداث تغيرات في المجتمع وتأثيرات كبيرة وهذا ما يعطي لهذه التكنولوجيات البعد الاجتماعي حيث أصبح هناك ارتباط بين تكنولوجيا الإعلام والاتصال ومجتمع المعلومات.

1.1. المعلوماتية وتكنولوجيا الإعلام والاتصال

قبل التطرق إلى تعريف تكنولوجيا الإعلام والاتصال، نبدأ بتحديد مفهوم ثورة تكنولوجيا الاتصال وتكنولوجيا المعلومات لنخلص في الأخير إلى تعريف هذه التكنولوجيات التي يصعب إيجاد تعريف موحد لها بسبب تنوعها وتعقدها.

يقصد بثورة تكنولوجيا الاتصالات، تلك التطورات التكنولوجية في مجالات الاتصالات التي حدثت خلال الربع الأخير من القرن العشرين والتي اتسمت بالسرعة والانتشار والتأثيرات الممتدة من الرسالة إلى الوسيلة، إلى الجماهير داخل المجتمع الواحد أو بين المجتمعات، وهي تشمل ثلاث مجالات⁽²⁾.

① ثورة المعلومات أو ذلك الانفجار المعرفي الضخم، المتمثل في الكم الهائل من المعرفة.

② ثورة وسائل الاتصال المتمثلة في تكنولوجيا الاتصال الحديثة، التي بدأت بالاتصالات السلكية واللاسلكية، وانتهت بالأقمار الصناعية والألياف البصرية.

③ ثورة الحسابات الإلكترونية التي امتزجت بوسائل الاتصال واندجت معها والانترنت أحسن مثال على ذلك.

أما مفهوم تكنولوجيا المعلومات فيشير إلى جميع أنواع التكنولوجيا المستخدمة في تشغيل ونقل وتخزين المعلومات في شكل الكتروني وتشمل تكنولوجيات الحسابات الآلية ووسائل الاتصال وشبكات الربط، وأجهزة الفاكس وغيرها من المعدات التي تستخدم بشدة في الاتصالات⁽³⁾.

ومن خلال كل هذا نلاحظ بأن ثورة تكنولوجيا الإتصال قد سارت على التوازي مع ثورة تكنولوجيا المعلومات ، ولا يمكن الفصل بينهما فقد جمع بينهما النظام الرقمي ، الذي تطورت إليه نظم الإتصال فترابطت شبكات الإتصال مع شبكات المعلومات⁽⁴⁾ .

فالنتيجة الراهنة لثورة المعلومات هي اندماج التقنيات المختلفة مع وسائل الإتصال ، من أجل المزيد من التيسير في العمل ، والمعروف بأن المعلومات تعد المكون الأساسي لعملية الإتصال ، وهي كل ما يؤثر على مستوى فهم وقناعة الفرد إتجاه موقف معين .

على الرغم من عدم وجود اتفاق حول تعريف تكنولوجيا الإعلام والاتصال ، إلا أن هنالك تأكيد كبير على ضرورة تناولها بشكل مجمل من خلال تعريف شامل وواسع ، وحسب التعريف الدولي فإن تكنولوجيا الإعلام والاتصال هي تلك النشاطات الإقتصادية التي تساهم في جعل المعلومات مرئية ثم معالجتها ، تخزينها ، ونقلها بطرق إلكترونية . وهناك تعريف آخر هاربرت سيمون Herbert Simon الحائز على جائزة نوبل للعلوم الاقتصادية سنة 1978 حيث يرى بأن : " تكنولوجيا الإعلام والاتصال تساعد على جعل كل معلومة مسموعة أو رمزية أو مرئية أو تقراً على حاسوب أو كتب أو مذكرات تخزن في ذاكرات إلكترونية"⁽⁵⁾ أي أن تكنولوجيا الإعلام والاتصال هي نتيجة لتلاقي التكنولوجيات المتنوعة مما يسمح بتبادل ومعالجة المعلومات عن طريق وسائل إتصالية جد متطورة مثل شبكة الانترنت التي أخذت بعد جديد في نشر واقتسام المعلومات وهي ليست فقط شبكة معلوماتية ولكن إعلام جديد للإتصال ومركز لتبادل المعرفة ونشرها .

وفي هذا المجال نجد أن المعلوماتية لا تعني فقط حوسية إلكترونية للمعلومات التي تسمح بخلق قيمة مضافة علمية وإنما أصبح لها ارتباطات مختلفة بمجالات تطبيقية ، وعادة ما تمثل المعلوماتية في الهيكل الكلي للمعلومات والمعرف التي تتضمنها عملية التحويل ، وهي تتجسد في التجهيزات الفنية التي ترتبط بالأدلة والذاكرة الإنسانية ، وقد قسم Zenely في سنة 1986 التكنولوجيا المعلوماتية إلى الأقسام الثلاثة التالية⁽⁶⁾ :

- ① الأجهزة أو العتاد Hardware : البنية الفنية والترتيب المنطقي للتجهيزات المستعملة لتنفيذ المهام .
- ② البرمجيات Software : تتمثل في مجموع القواعد والإرشادات واللوغارتميات المستعملة في الأجهزة لتنفيذ المهام .
- ③ الإدراك والفهم والمعرفة Brainware : يمثل الأسباب والغايات والأهداف المطلوبة لاستعمال وتوسيع وتطوير التكنولوجيا وفق طرائف وأساليب خاصة .

وهكذا بتفاعل هذه الأجهزة الثلاثة أصبحت المعلوماتية بمثابة الشبكة العصبية في الذكاء الصناعي، وبذلك اعتبرت تكنولوجيا الإعلام والاتصال قمة التقدم الذي حازت عليه المعلوماتية حيث تظهر هذه التكنولوجيا من خلال ظاهرتين أساسيتين وهما⁽⁷⁾ :

أ- الجمع بين الكلمة مكتوبة ومنطوقة والصورة ساكنة ومتحركة، وبين الإتصالات سلكية ولاسلكية، أرضية أو فضائية، ثم تخزين المعطيات وتحليل مضامينها وإتاحتها بالشكل المرغوب وفي الوقت المناسب وبالسعة اللازمة.

ب- اعتماد الأسلوب الرقمي Digital للقيام بكل هذه العمليات.

ويرى المؤيدين لتكنولوجيا الإعلام والاتصال كأداة جديدة، أن الثورة التكنولوجية ستجلب إليها كذلك قطاعات الاقتصاد التقليدي والذي يحتل جزء كبير في الاقتصاد⁽⁸⁾ حيث أن تكنولوجيا الإعلام والاتصال لا تؤدي وظيفة خاصة ولكنها تشكل أيضا دعامة ضرورية للتكنولوجيات الأخرى المستعملة في القطاعات التقليدية والقطاعات المتقدمة، حيث أن درجة نفاذها ومسارها التكنولوجي الذي هو في توسع مستمر يجعلها ترفع من التنمية وكذلك تطوير الصناعات والمؤسسات التي تتبناها⁽⁹⁾.

2.1. خصائص تكنولوجيا الإعلام والاتصال

لقد شهد العالم تحولات كاسحة ومتسارعة تجري على المستوى الكوني بفعل ثورة الاتصالات وانفجار المعلومات، والذي يتجسد في الحواسيب والشبكات الالكترونية والأنظمة الرقمية، وسواها من التقنيات العالية والوسائط المركبة التي تتيح نقل المعطيات والمعلومات أو إدارة لأعمال والأموال من على بعد وبسرعة قصوى⁽¹⁰⁾ وهذا ما جعل تكنولوجيا الإعلام والاتصال تتمتع بقدرات عالية وتأثيرات متزايدة، وانطلاقا مما سبق يمكن استخلاص بعض الخصائص التي تتميز به هذه التكنولوجيا فيما يلي :

• **التفاعلية** : أي أن المستعمل لهذه التكنولوجيا يمكن أن يكون مستقبل ومرسل في نفس الوقت، فالشاركون في عملية الاتصال يستطيعون تبادل الأدوار وهو ما سمح بخلق نوع من التفاعل بين الأفراد والمؤسسات وباقي الجماعات وبإدخال مصطلحات جديدة في عملية الاتصال (مثل: المشاركون بدل من المصادر، الممارسة الثنائية، التبادل ... إلخ)⁽¹¹⁾.

• **الاجماهيرية** : وتعني أن الرسالة الاتصالية من الممكن أن تتوجه إلى فرد واحد أو إلى جماعة معينة، وليس إلى جماهير ضخمة كما كان في الماضي، وتعني أيضا درجة تحكم في نظام الاتصال بحيث تصل الرسالة مباشرة من منتج الرسالة إلى مستهلكها⁽¹²⁾.

- **اللاتزامية:** وهي خاصية تتميز بها هذه التكنولوجيات، حيث يكون بإمكان المستخدم إرسال واستقبال الرسائل في أي وقت مناسب، وهو غير مطالب باستخدام النظام في الوقت نفسه، فمثلا في نظام البريد الإلكتروني إرسال الرسالة لا يكون في حاجة إلى وجود متلقي لهذه الرسالة، وهذا ما يقصد به التحكم في نظام الاتصال.
- **الشيوع والانتشار:** وهو قابلية هذه الشبكة للتوسع والانتشار عبر مختلف مناطق العالم، وهذا ما يسمح بتدفق المعلومات عبر مسارات مختلفة مما يعطي لهذه التكنولوجيا الطابع العالمي.
- **قابلية التوصيل:** وتعني إمكانية الربط بين الأجهزة الاتصالية المتنوعة الصنع بغض النظر عن البلد الذي تم فيه الصنع، وهذا ما يعبر عنه بالانتقال من تكنولوجيا التنوع إلى تكنولوجيا التكامل.
- **القابلية الحركية:** فهناك وسائل اتصالية كثيرة يمكن لمستخدميها الاستفادة منها في الاتصال من أي مكان إلى آخر أثناء حركته مثل الهاتف النقال، بمعنى الانتقال من الأجهزة الثابتة إلى الأجهزة المتنقلة.
- **سهولة الاستخدام:** حيث تتسم وسائل الاتصال الحديثة بسهولة وبساطة التشغيل، ونموذج ذلك جهاز الفيديو، وجهاز الفاكس، وأجهزة الكمبيوتر والانترنت⁽¹³⁾.

انطلاقا من الخصائص التي تميز هذه التكنولوجيا، يظهر لنا سر قوتها، والتي سمحت بوجود شكل جديد من الارتباط بين الأطراف العالمية المختلفة، وأن تحدث تغيرات جوهرية في سلوكيات وممارسات الأفراد والمؤسسات والحكومات على السواء، وقد تركت هذه الخصائص تأثيرها على المجتمعات وعلى نظم المعلومات، من خلال التطوير السريع والحاسم في أساليب تخزين واسترجاع المعلومات، مع ظهور ثقافة مؤسساتية جديدة وتغير العديد من الممارسات الاقتصادية.

2. دور تكنولوجيا الإعلام والاتصال في تنمية المجتمع

التحليلات والكتابات حول تكنولوجيا الإعلام والاتصال وتأثيراتها المختلفة تقود إلى تقييمات قوية لهذا التأثير كما توضع الانحرافات المعتبرة بين الدول المصنعة فيما يتعلق بأهمية النشاطات المنتجة لتكنولوجيا الإعلام والاتصال في الاقتصاد من جهة، ومن جهة أخرى عرض واستعمال هذه التكنولوجيا في النشاط الإنتاجي⁽¹⁴⁾ فالثورة التكنولوجية التي مست تكنولوجيا الإعلام والاتصال كانت لها انعكاسات إيجابية على الأفراد والمجتمع حيث سرعت الإنتاجية وساهمت في رفع الناتج الوطني الخام.

إن التفاعل بين تكنولوجيا الاتصالات وتلك الخاصة بالمعلومات تحدد مستوى الإنتاجية للذين يستعملون هذه السلع كتفسير للتطورات الناتجة⁽¹⁵⁾ ولا شك أن هذه الاستعمالات سوف تسد النقص في التكنولوجيا القديمة وتفجر آفاقا جديدة، حيث سمحت تكنولوجيا الإعلام والاتصال بظهور خدمات عديدة ومتنوعة لتلبية حاجات الأفراد إلى

المعلومات والترقية وتوجيه طاقاتهم نحو البناء و التعمير مثل الحاسبات الشخصية المتنقلة والأقمار الصناعية والألياف الضوئية والاتصالات الرقمية⁽¹⁶⁾ وأدى ذلك إلى التقليل من الاتصالات الشخصية المباشرة لوجود شبكة اتصال وسيطة بين الأفراد والمنظمات وشبكة معلوماتية تساعد على اتخاذ أحسن قرار فجودة القرارات مرتبطة بشكل كبير بجودة المعلومات المتحصل عليها.

2. 1. التأثيرات الإيجابية لتكنولوجيا الإعلام والاتصال

تنشأ تأثيرات تكنولوجيا الإعلام والاتصال على النمو من قناتين وهما الإنتاج واستعمال هذه التكنولوجيات والتي تنشأ منها قناة مزدوجة تغذي النمو لاقتصاد ما⁽¹⁷⁾ فالتكنولوجيا في شكل آلات وتجهيزات ووسائل تقنية تسهل الإتقان في الأعمال والإسراع فيها، والتكنولوجيا في شكل معارف تقنية وعلمية تمكن من تطوير مختلف القطاعات، والخدمات، والنشاطات الاقتصادية وغيرها⁽¹⁸⁾ وهذا يعكس الدور الأساسي لهذه التكنولوجيا في التنمية بشقيها الاقتصادي والاجتماعي التي بدورها تزيد من قدرة المجتمع على مكافحة الجريمة والعنف وكل ما يزعزع الاستقرار ويحدث هذا بتوفير الموارد اللازمة لخلق أجهزة وقوى حديثه مدربة ومزودة بأفضل المعدات الخاصة⁽¹⁹⁾ وتعتبر التكنولوجيا المتطورة من بين الوسائل التي تقدم هذه الخدمات.

و تساهم تكنولوجيا الإعلام والاتصال في التحسين المستمر وفي الربح لذلك لابد أن تضع مشاريع التنمية في مقدمة بنودها تطوير البنية الأساسية لأجهزة الاتصال لأن تطوير هذه الأجهزة من شأنه أن يحدث تأثير مضطر على بقية المشاريع ويولد الرغبة ويضاعف من مجهودان الشعوب في البناء والتنمية، وقد استحدث علماء الاتصال بهذه المناسبة فرع من فروع الاتصال أسموه الإعلام التنموي⁽²⁰⁾ هذه ميزة واضحة تبرز وضع تكنولوجيا الإعلام والاتصال في قائمة المشاريع التنموية التي لها انعكاساتها على امن واستقرار المجتمعات المعاصرة التي تتجه نحو الاندماج والتكامل في مختلف المجالات خصوصا الاقتصادية والسياسية و والأمنية فالمفهوم العقلاني للتكامل الأمني قائم على قاعدتين وهما:

القاعدة الأولى: هي الهدي الإلهي في القرآن الكريم الذي يربط بين كفالة حاجات الإنسان والأمان من الخوف، فالحصول على الحاجات يحفظ الحياة والبقاء، والأمن من الخوف يتيح الطمأنينة والراحة.

القاعدة الثانية: وهي الاستخدام السليم الواعي لما يتوصل إليه العلم في شتي ميادين الحياة الاجتماعية لرفع مستوى النعيم بين أفراد المجتمعات التي تؤمن بأن إصلاح الأحوال الاجتماعية كفيل بتحقيق الأمن والاستقرار و التقليل من فرصة وجود الإجرام والتطرف⁽²¹⁾ وباعتبار تكنولوجيا الإعلام والاتصال من أبرز مفرزات الثورة العلمية فلقد منحت الدول إمكانيات هامة في تحقيق الأمن والسلام على كافة الأصعدة محلياً وعالمياً، خاصة في ظل اتساع

رقعة الإرهاب والتطرف وتنامي الأفكار التي تدعو إلى العنف والكراهية، عموماً يمكن حصد الآثار الإيجابية لتكنولوجيا الإعلام والاتصال على الاقتصاد والمجتمع فيما يلي:

- زيادة الاختراعات والتجربة من والإنتاجية والتي تؤدي إلى تخفيض التكاليف والأسعار وزيادة المنتجات الآمنة والصحية.
- دخول أحسن إلى الخدمات الأساسية وزيادة عائد الاستثمار في التعليم والصحية.
- استجابة أحسن من قبل أصحاب القرار والمسيرين لمختلف الشرائح والأقليات.
- تقوية رأس المال الاجتماعي من خلال الروابط بين الأشخاص والمجموعات.
- زيادة فرص النمو الاقتصادي.
- تنمية قدرات الأفراد من خلال اكتساب معارف جديدة نتيجة للتدفق الهائل للمعلومات.
- مساعدة المؤسسات على تحقيق قدر كبير من المرونة، والتقليل من النفقات مع تقديم طرق جديدة في ممارسة الأعمال.
- تحقيق تكامل عالمي لأسواق رأس المال من خلال وضع ترتيبات وإجراءات أكثر مرونة لضمان حركة رأس المال على المستوى العالمي.

2.2. تكنولوجيا الإعلام والاتصال ونظام الحكومة الإلكترونية

بناءً على ما سبق على حكومات البلدان العربية والإسلامية إعادة بناء مؤسساتها العامة وأنظمتها القانونية، وأن تتخذ موقفاً واضحاً من المستجدات والتقييم المستمر لسياساتها مسيرة للعصر وللتقدم التقني والاستفادة من التقنيات والأساليب الحديثة، وتعميق مشروع الحكومة الإلكترونية الذي يساعد على أداء المهام بشكل فعال وبكل شفافية في إطار تفعيل سياسات المساءلة التي تضمن النزاهة والكفاءة في توفير الخدمات.

وفي هذا السياق فإن الحكومة الإلكترونية هي معرفة متطورة في تطور المعرفة الإدارية وتقنياتها التطبيقية، فهي تقوم بإغناء الفكر الإداري بمفاهيم تتصل بالمعرفة الإلكترونية وتقنيات الاتصال والمعلوماتية⁽²²⁾ الحكومة الإلكترونية كمفهوم ترتبط بتعظيم استخدام تكنولوجيا الإعلام والاتصال لتحرير حركة المعلومات والخدمات من أجل التغلب على القيود والعوائق المادية الموجودة في الأوراق والأنظمة التقليدية ويشمل نظام الحكومة الإلكترونية الأهداف التالية⁽²³⁾:

- توفير الجهد والوقت اللازم لإنجاز الأعمال وتطوير الخدمات الإلكترونية.
- تحسين مستوى الإنتاجية وكفاءة العاملين مع تقليل الازدواجية والتشابك الوظيفي.

- تسهيل خدمات المواطنين الصحية والتعليمية، والاستجابة للخدمات الإضافية الأخرى.
- سرعة إنجاز المعاملات الاقتصادية والتجارية وتسهيلها.
- تقليل الجهد المالي والبشري الناتج عن المتابعة اليومية.
- شفافية الأجهزة الحكومية والقضاء على الواسطة.

وتطبيقات الحكومة الإلكترونية تؤدي إلى تحسين الخدمات المقدمة بالاستفادة من الإمكانيات التي تقدمها تكنولوجيا الإعلام والاتصال التي تلعب دور هام في تبسيط الإجراءات المطلوبة والتنسيق بين الأجهزة الحكومية وزيادة الشفافية وتدعيم الإجراءات المضادة للفساد، وهذا ما يشير إلى الحكم الجيد الذي يعكس الدور النسبي للدولة « يمكن اعتبار الحكم الجيد كممارسة السلطات الاقتصادية السياسية والإدارية من أجل إدارة الشؤون العامة عند كل المستويات، وهي تشمل الآليات، الإجراءات والمؤسسات التي تدور مصالح المواطنون حولها، ممارسة حقوقهم المشروعة، أداء واجباتهم وإدارة خلافاتهم، وعلى هذا الأساس فإن الحكم الجيد كغيره من الأشياء الأخرى يعبر عن المشاركة، الشفافية والمسئولية إنه أيضا يعبر عن الفعالية والعدالة، ويقوم بترقية المستوى الاجتماعي في إطار القانون ... الحكم الجيد له ثلاثة ركائز: اقتصادية، سياسية وإدارية... وهي تظم الدولة ولكن أيضا القطاع الخاص ومؤسسات المجتمع المدني»⁽²⁴⁾

إن لتكنولوجيا الاعلام والاتصال فوائد كبيرة للإنسانية فهي تسهم بدرجة كبيرة في تعزيز التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وبالتالي فإنها تصب في خدمة العملية السياسية وتوجهات القيادات الحكيمة إلى الاهتمام بالأمن الفكري ؛ لكونه الركيزة الأساس لكل استقرار وازدهار فالأمن بشكل عام يعبر عن كل التدابير التي يتبعها مجتمع معين او مجموعة من المجتمعات الأمن الجماعي لحماية البقاء من خلال تهيئة عوامل الاستقرار وتنمية وتطوير القدرات بما يحمي المصالح القائمة ويعزز المصالح التي تسعى لتحقيقها. ويتمحور هذا المفهوم حول فكرة الدفاع عن البقاء ضد الأخطار الخارجية وأيضا الداخلية أو أية أخطار أخرى تهدد هذا البقاء وتمس المصالح القائمة أو تعوق تحسين شروطه والمصالح المترتبة عليه في المستقبل⁽²⁵⁾ ، وهذا كله يساعد في إذكاء الوعي بما تجلبه تكنولوجيا المعلومات من فوائد بناء مجتمع معلوماتي جامع وذو توجه تنموي يضع البشر في صميم اهتمامه، ويقوم على أساس القانون الدولي والاحترام الكامل والالتزام بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان حتى يتسنى للإنسان في كل مكان إنشاء المعلومات والمعارف.

3. الانعكاسات السلبية لتكنولوجيا الإعلام والاتصال

لقد سمحت تكنولوجيا الاعلام والاتصال بوجود فضاء افتراضي وهذا الفضاء يمكن أن تنشأ من خلاله الجريمة عبر اعتماد مبدأ الاختراق المعلوماتي لحدود النظام السائد وذلك لمباشرة زمرة من الأنشطة الغير مشروعة والتي تشمل⁽²⁶⁾ :

- سرقة واستغلال البرمجيات دون وجود إذن مسبق بذلك.
 - الدخول الى ساحة النظم الحاسوبية، وشبكات الهواتف بأنواعها لاستغلال الموارد المتاحة فيها ونشرها.
 - التلاعب بالبيانات وتغيير محتوى ملفات الغير، أو إتلافها أو نقلها ونشرها.
 - مباشرة أعمال قرصنة على الخدمات العامة والخاصة المتاحة على الشبكات كما هو الشأن بالنسبة للانترنت التي تساعد على عملية القرصنة وسرقة المادة التي تتمتع بحقوق النشر والتأليف واستخدام هذه المادة دون تفويض أو ترخيص من أصحابها وهذا ما يسمى بالجرائم المعلوماتية.
 - ممارسة أنشطة ارهابية بمستوياتها ازاء البنى التحتية للدول، او المؤسسات او الافراد.
- وعموما يمكن حصد الانعكاسات أو الآثار السلبية التي تترتب عن تكنولوجيا الإعلام والاتصال والتي يتم تلخيصها فيما يلي:
- في كثير من الصناعات يتقلص الاتجاه نحو توظيف الأفراد إن كانت هذه التكنولوجيا مفيدة بالنسبة للمنظمات، وبالتالي يكون هناك أشخاص لم يسعفهم الحظ في الحصول على منصب عمل.
 - يرى البعض بأن السيادة الوطنية أصبحت مهددة نظرا لحرية تحرك المعلومات والاتصالات والأموال عبر الحدود الوطنية⁽²⁷⁾ كما هو الشأن بالنسبة للخصوصية الثقافية التي باتت مهددة بتفوق اللغة الإنجليزية.
 - استطاعت تقنية البلوتوث الحديثة في عالم الهواتف النقالة أن تسقط ضحايا الكامرا المخفية خصوصا منهم النساء مما يدفع إلى ممارسة العنف ضدهم من طرف أسرهم.
 - التطور التقني الهائل في أجهزة الكمبيوتر يساعد في عملية تبييض الأوراق النقدية باستخدام جهاز المسح الضوئي وهذا يمثل تهديدا للاقتصاد الوطني.
 - إمكانية الاستخدام السلبي لشبكة الانترنت في نشر الأفكار والدعوات التي تحرض على العنف والكرهية مما يساهم في انتشار الفكر المتطرف في كثير من المجتمعات والبيئات.
 - حقوق المستهلك تضع الحكومة أمام معضلة فرض الرقابة من أجل الصالح العام دون المساس بالحرية والتفتح والتنظيم التلقائي للانترنت⁽²⁸⁾.
 - استخدام بعض الأجهزة الحديثة التي تنبعث منها الموجات الكهرومغناطيسية قد تؤدي إلى تغيير المجال البيئي للإنسان والحيوان، ومن الممكن أن تؤدي إلى حدوث بعض أنواع السرطان⁽²⁹⁾.
 - التكنولوجيا تجعل العلاقات بين المتعاملين أقل إنسانية كعلاقة الطبيب بالمريض أثناء الجراحة عن بعد.

- إمكانية اختراق الشبكات من خلال الدخول الغير مشروع فيها للحصول على معلومات أو ارتكاب جرائم الفيروسات لإحداث خلل في أداء المنظومة، أو إتلاف مواردها المعلوماتية⁽³⁰⁾.

ومن خلال كل هذه الانعكاسات على المجتمعات المعاصرة يظهر كيف أن تكنولوجيا الإعلام والاتصال أصبحت تحتل مكانة هامة في أغلب القطاعات و شملت حتى الأفراد و المجتمعات في تعاملاتهم وهذا يرجع أساسا إلى الخصائص التي تتمتع بها و على رأسها السرعة في الأداء و سهولة الاستخدام الأمر الذي سهل من انتشارها الواسع وأعطى لها الطابع العالمي الذي يظهر من خلال التغيرات في الحياة الاجتماعية التي انحصرت تحت لواء المجتمع المعلوماتي.

الخاتمة.

لقد أدخلت تكنولوجيا الإعلام والاتصال أنماط جديدة في الممارسات وسمحت بالقيام بأعمال ومهام كان من المستحيل الوصول إليها خلال السنوات القليلة الماضية وهذا نظراً للخصائص والمميزات التي تتمتع بها والتي عرفت انتشار واسع عبر مختلف مناطق العالم، وفتحت المجال أمام تدفق المعلومات عبر مسارات عديدة، الأمر الذي أدى إلى تزايد أهمية المكونات المعلوماتية الغير وأصبح مجتمع المعلومات هو المجتمع الغالب.

ومع نهاية القرن العشرين بدأ تحول بعض المجتمعات إلى ما يعرف بالمجتمعات المعلوماتية التي تعتمد في تطورها على تكنولوجيا الإعلام والاتصال التي كانت لها بعض الانعكاسات الإيجابية والسلبية، خاصة مع توسع نطاق استخدام شبكة الانترنت التي تعدت العالم العلمي ووصلت إلى مجموع المؤسسات والشريحة العامة، وقد ألهمت هذه الشبكة العنكبوتية العديد من المستعملين وأصبح بالإمكان إرسال واستقبال الرسائل في نفس الوقت مع خلق نوع من التفاعل، بالإضافة إلى سهولة الولوج إلى مصادر المعلومات والخدمات والدعاية.

إن ما تحتاجه الدول النامية هو الوعي الكافي للتحديات التي تعترضها في ميدان المعرفة العلمية والتكنولوجية، فلابد لحكومات هذه الدول أن تعد العدة كي تقلص من الفجوة الرقمية وأن تضع الإجراءات والقواعد الميسرة والمحفزة للأفراد والمؤسسات لممارسة الأنشطة واستثمار الأموال فكفاءة الأفراد والمؤسسات لا تكون بمعزل عن خصائص ومقومات الجهاز الحكومي الذي بطبيعة خصائص بينته العامة يمكن أن يؤثر بقوة على كفاءة وفعالية المنظمات والمجتمعات، ويلعب دوره في كيفية استغلال هذه التكنولوجيات والحد من مظاهرها السلبية، والعمل على توعية الأفراد.

1 - Giusepp Usai, Technologie de l'information des communications et du calcul au service du développement local, in Antonio Sassu et Abdelkader Sid Ahmed, Technologie de l'information et développement économique local, édition Isprom, Paris, 2004. P. 272.

- 2 - سامية محمد جابر، نعمات أحمد عثمان، الاتصال والإعلام (تكنولوجيا المعلومات)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000، ص. 108.
- 3 - معالي فهمي حيدر، نظم المعلومات مدخل لتحقيق الميزة التنافسية، الدار الجامعية، إسكندرية، 2002، ص. 253.
- 4 - شريف درويش اللبان، تكنولوجيا الاتصال المخاطر والتحديات والتأثيرات الاجتماعية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2000، ص. 102.
- 5 - Bouhenna Ali, "Les en yeux des NTIC dans l'entreprise", Revue économie et management, n° 03 Mars 2004, P. 68.
- 6 - زاييري بلقاسم، بن لحسن هوارى، "انعكاسات التكنولوجيا على الموارد البشرية في المؤسسات الاقتصادية"، ملتقى وطني حول التكنولوجيات الراهنة، جيجيل 15/14 مارس 2006، ص. 51.
- 7 - شريف درويش اللبان، مرجع سابق، ص. 102.
- 8 - Afredo Del Monte, Tic et déséquilibres régionaux, in Antonio Sassu et Abdelkader Sid Ahmed, op.cit, P. 197.
- 9 - Giusepp Usai, op.cit, P.272.
- 10 - مؤيد عبد الجبار الحديثي، العولمة الإعلامية، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 2002، ص. 81.
- 11 - بومعيل سعاد، فارس بوباكور، أثر تكنولوجيا الإعلام والاتصال في المؤسسة الاقتصادية، مجلة الاقتصاد والمناجمنت، جامعة تلمسان، عدد 03 مارس 2004، ص. 205.
- 12 - فلاح كاظم المحنه، العولمة والجدل الدائر حولها، الوراق للنشر والتوزيع، الأردن، 2002، ص. 259.
- 13 - نفس المرجع، ص. 259.
- 14 - Gilbert Cette, et autres "le comportement de demande en capital TIC", Revue économie internationale, n° 98/2004, P. 60.
- 15 - Alfredo Del Monte, op.cit, P. 197.
- 16 - Gilbert Cette, et autres, Art. cit, P. 60.
- 17 - Gene Sperling et Rekhu Balu, "pour un pacte mondial de l'éducation", revue finances et développement, Juin 2005, p. 38.
- 18 - محمد سعيد أوكيل، اقتصاد وتسيير الإبداع التكنولوجي، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، 1994، ص. 24.
- 19 - محمد هاشم عوض، العلاقة بين السياسة الأمنية والتنمية، عن دور العلوم الاجتماعية والتطبيقية في ترشيد السياسات الأمنية في الوطن العربي، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب، الرياض، 1990، ص. 45.
- 20 - علي محمد شمو، الاتصال الدولي والتكنولوجيا الحديثة، دار القومية العربية للثقافة والنشر، بدون تاريخ، ص. 284.
- 21 - حسن الساعاتي، التكامل الأمني ووقاية المجتمع من الجريمة، عن دور العلوم الاجتماعية والتطبيقية في ترشيد السياسات الأمنية في الوطن العربي، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب، الرياض، 1990، ص. 28.
- 22 - محمد بن إبراهيم أحمد التويجي، الحكومة الإلكترونية مدخل لأداء متميز، المؤتمر العلمي الدولي حول الأداء المتميز للمنظمات والحكومات 08-09 مارس 2005، جامعة ورقلة، ص. 192.
- 23 - عبد الفتاح بيومي حجازي، النظام القانوني لحماية الحكومة الإلكترونية، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 2003، ص. 22.
- 24 - زاييري بلقاسم، الحكم الاقتصادي الرشيد والكفاءة الاقتصادية، المؤتمر العلمي الدولي حول الأداء المتميز للمنظمات والحكومات، 08-09 مارس 2005، جامعة ورقلة، ص. 93.

- 25 - سعد حافظ، محددات الأمن العربي، معهد التخطيط القومي في القاهرة، مجلة المستقبل العربي 2، 293، 7، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2003، ص. 35.
- 26 - رواء زكي يونس الطويل، تنمية وتفعيل التكنولوجيا في ظل العصر الرقمي والإعلام والعولمة والأرهاب، مركز الدراسات الإقليمية، جامعة الموصل العراق، بدون تاريخ، ص. 08.
- 27 - مؤيد عبد الجبار الحديشي، مرجع سابق، ص. 220.
- 28 - محمد منصف تطار، النظا والمصرفي الجزائري والصيرفة الإلكترونية، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة بسكرة، عدد 01، جوان 2002، ص. 188.
- 29 - شريف درويش اللبان، مرجع سابق، ص. 34.
- 30 - محمد نصر مهنا، في النظرية العامة للمعرفة الإسلامية للفضائيات العربية والعولمة الإعلامية والمعلوماتية، المكتبة الجامعية، إسكندرية، 2003، ص. 511.

ظاهرة الاعتناء بالأنساب الشريفة بمنطقة معسكر

أبوراس الناصر والعربي المشرفي أنموذجا

تقي الدين بوكعب

طالب دكتوراه بجامعة أحمد بن بلة وهران 01

ملخص :

تكتسي كتب الأنساب ومدوناتها عموما أهمية كبيرة وذلك لشمولييتها و سعيها إلى التأريخ لعموم الفروع الشريفة ، كما تعتبر من المصادر التاريخية الهامة التي من خلالها يمكن وضع تصور عام للمجتمع الجزائري خلال فترة التواجد التركي بالمنطقة ، هذا المجتمع الذي كان يولي عناية خاصة لكل من ينتسب للبيت النبوي الشريف ما جعل البعض ينتسب إليه للاستفادة من بعض الإمتيازات.

إن الهدف من هذه المقالة هو النظر في حركة التأليف في الأنساب الشريفة بمنطقة معسكر وكيفية توثيقها ورصد مختلف مصادر الأنساب بالمنطقة ومحاولة تصنيفها وفق مضامينها ومحاولة معرفة المنهجية التي كتبت بها . كما يهدف هذا المقال إلى التسلط الضوء على الجدل الفكري الذي حدث آنذاك خاصة بين الشيخ أبي راس الناصر والعربي المشرفي فيما يخص نسب أشرف غريس ومعرفة حجج كل طرف .

مقدمة

اهتم العرب منذ الجاهلية بعلم الأنساب ، و تواصل هذا الاهتمام بعد الإسلام ، مركزين على بيت النبوة . ولقد أولى المغاربة عموما و الجزائريون خصوصا و سكان منطقة الراشدية بشكل خاص عناية تامة وكاملة للمنتسبين لهذا البيت ، الذين فروا إلى المنطقة من القتل الذي تعرضوا له في المشرق الإسلامي.

يحتل التأليف في الأنساب الشريفة بمنطقة معسكر ضمن ما ألف في الأنساب بالجزائر عموما المراتب الأولى و الحظ الأوفر وهذا راجع لعوامل تاريخية واجتماعية و دينية تتمثل في بروز عدة أسر شريفة بالمنطقة جمعت إضافة إلى النسب العلم و السيف . و نتيجة للقداسة التي أحيط بها المنتسبون لهذا البيت كثر ادعاء الإنتساب إليهم لأغراض سياسية و مطامع دنيوية ، ما أدى إلى ظهور نسبة حاولوا تحقيق الشريف من غير الشريف . مما أدى إلى حدوث صراعات فكرية و ردود علمية بين النافين لشرف بعض الأسر و المدافعين عنها .

يمكن تقسيم مؤلفات الأنساب الخاصة بمنطقة معسكر إلى قسمين حسب الإقليم الذي تخصصت فيه أو حسب الأسر التي تحدثت عنها

1 – مؤلفات الأنساب المتخصصة في الأقاليم :

أ عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشرف غريس :

لأبي زيد عبد الرحمن التوجيني وقفت على ثلاث نسخ منه فبينها اختلافات يسيرة وقد طبع بدار القاسمي لكنه يحتاج لتحقيق أكبر . النسخة الأولى وهي من نسخ الشيخ البشير يوم الأربعاء 29 رمضان 1380 هـ / 15 مارس 1962 ،

تقع في 8 لوحات. النسخة الثانية في 9 لوحات تام ويظهر في الآخر أن الذي نسخها هو العربي بن أحمد المشرفي .
النسخة الثالثة مبتورة الآخر تقع في 10 لوحات. لهذا الكتب عدة شروح منها فتح الرحمن في شرح عقد الجمان لابن
الجوزي المزيلي يقع هذا الشرح في 404 صفحة وهو مبتور الآخر وكذا شرحه أبو راس لكن شرحه هذا في حكم المفقود و
اسمه إيضاح الغميس وأنوار البرجيس بشرح عقد الجمان النفيس.

ب مخطوط لأبي راس الناصر في النسب :

لا يحمل هذا المخطوط عنوانا قام بنسخه السيد جلول الجيلالي يوم الخميس 14 مارس 1978 عدد صفحاته
14 صفحة ، ذكر فيه صاحبه نسب النبي الأعظم صل الله عليه واله وسلم وبعض مناقب الزهراء ثم عرج إلى نسب إدريس
الأصغر بن إدريس الأكبر .

ثم بعد ذلك تطرق لأنساب أشرف معسكر فتحدث عن نسب سيدي بن يخلف و سيد محمد بوجلال و سيدي دحو
بن زرفة و سيدي أحمد بن علي و سيدي عمر بن دوبة و سيدي محمد بن يحيى و سيدي قادة بن مختار .

ج – القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم :

نشر هذا المخطوط ضمن مجموع الحساب لابن بكار بلهاشمي وقد اطلعت على نسخة مخطوطة منه و بعد
المقارنة بالمطبوعة تبين لي أنها نفسها ، جاء هذا الكتاب في مقدمة و ثلاث فصول

أما المقدمة ضمنها أسباب و دواعي تأليف الكتاب و هو الاضطراب في أنساب الحشم و كثرة الخوض في أنسابهم و أوضح في
مقدمته أنه سيقصر على ذكر الرؤساء و الفضلاء و أعيان الأشراف .

الفصل الأول ذكر فيه أشرف غريس وهم أولاد سيدي دحو بن زرفة و سيد أحمد بن علي و سيدي محمد بن يحيى مقرئ الجن
و المشارف و مهاجرة و سيدي أحمد الورغي و السيد العين بن الماقي و سيد عبد القادر بن المختار ، أما الفصل الثاني
تحدث عن العرب موجودين بناحية غريس الذين ليسوا بأشراف ، أما الفصل الثالث خصصه لقبائل الزناتة الموجودين
بالمنطقة و يرى الطيب بن المختار أنهم أقدم من العرب بالمنطقة .

2- مؤلفات الأنساب المتخصصة في الأسر :

أ- ياقوتة النسب الوهاجة في ضمنها التعريف بسيدي محمد بن علي ملولى مجاجة

وقفت على نسختين لهذا المخطوط الأولى نسخة المكتبة العامة بالرباط تحت رقم 1534 كتبة بخط مغربي
واضح عدد صفحاتها 180 صفحة أما النسخة الثانية فهي نسخة لمكتبة الوطنية الجزائرية بخط مغربي عدد صفحاتها
38 صفحة وهي التي اعتمد عليها .

ضمنها مقدمة و أربعة أقسام

أما المقدمة بين فيها دواعي هذا التأليف و ذكر اسم الكتاب ، تطرق في القسم الأول إلى نسب سيدنا محمد صل
الله عليه وآله وسلم و الخلفاء الراشدين و تطرق في القسم الثاني إلى التعريف بمولانا الحسن رضى الله عنه في القسم
الثالث أشار إلى ذرية سيدنا الحسن تحدث بالخصوص عن شرفاء منطقة غريس وهم أولاد سيد دحو بن زرفة و سيد أحمد
بن علي و أولاد سيدي عبد القادر بن المختار و أولاد سيدي محمد بن يحيى و أولاد سيدي العيد الماقي و خلوية و سيدي

عطا الله و الزلامطة و أولاد سيدي علي بن المرين وفي هذا القسم خصص المشرفي حيزا كبيرا لذكر نسب وعلماء أسرته و تفريعاتها . أما في القسم الرابع فقد خصصه للتعريف بسيدي محمد بن علي المجاجي و ناقش مختلف الآراء حول نسبه و أصله . اعتمد المشرفي في كتابه هذا على جملة من المصادر وهي عقد الجمان و مختصر البيان لابن الجزري و غيرهما . للإشارة حقق هذا الكتاب مرتين لكن لم يسعفني الحظ و البحث في الظفر بأحد العاملين فلذا اعتمدت النسخة المخطوطة منه .

ب- تنوير قلوب أهل التقوى و المعارف بذكر نسب سادات غريس الموسومين بالمشارف

محمد بن الحاج البيدي المدعو بابن عبد الرحمن انتهى من كتابتها في شهر رمضان عام 1178 هـ ووقفت له على نسختين إحداهما نسخة عن الأخرى و بالتالي اعتمدت المنسوخة عن الأصل لوضوحها .

قسم كتابه هذا إلى مقدمة و فصلين و خاتمة ، أما المقدمة ذكر فيها سبب تأليفه هذا و هو أنه سأل أحد الإخوان أن يضع في المشاركة رسالة تبين نسبهم و فضلهم ⁽¹⁾ كما حدد موقعهم الجغرافي قائلا المشارف القاطنين بإزاء أم عسكر ⁽²⁾ . أما الفصل الأول فتطرق فيه إلى ذكر العائلات الكبرى في المشارف وهي أولاد السيد أحمد أبي الجلال و أولاد سيدي علي و أولاد سيدي عب و أولاد سيدي منصور مشيرا الى أنه اقتصر على المشهور منهم ⁽³⁾ . أما في الفصل الثاني فتطرق إلى ما وقف عليه من شهادات العلماء حول ثبوت نسب هذه الأسرة واستند إلى شهادة مصطفى الرماصي و شهادة سيدي دحو بن زرفة و شهادة أبي زيد عبد الرحمن صاحب عقد الجمان ⁽⁴⁾ ، أما في الخاتمة فنبه إلى وجوب تعظيمهم و تقديرهم و إكرامهم ⁽⁵⁾ .

ج- الجواهر الصافية في بيان نسب البجائية

السيد بن عودة بن آغة السيد الحاج محمد المازاري بن آغة السيد قدور الكبير ابن آغة السيد اسماعيل آغة بن السيد البشير الباحث الثاني يقع هذا المخطوط في 20 صفحة تمت كتابته بتاريخ السبت السادس عشر شوال 1302 هـ الموافق لـ 1885/07/29 ⁽⁶⁾ قسمه مقدمة و أربعة فصول .

تطرق في المقدمة إلى سبب تأليفه هذا الكتاب فقال : " أردت بحمد الله وضع تأليف أحقق فيه نسب البجائية " ⁽⁷⁾ ، أما الفصل الأول فكان في رفع نسب البجائية إلى غاية آدم عليه السلام ، الفصل الثاني في كونهم من بني هلال لا من بني مغزوم ، الفصل الثالث في سبب تسميتهم بالبجائية و أول قادم منهم إلى الجزائر ، الفصل الرابع في ذكر فروعهم و سيرة أعلامهم . كما جاء في ختام لكتاب تقرير كل من محمد بن يوسف الزباني الذي مدحه بقصيدة طويلة و تقرير للشيخ أحمد نكروف الملياني الغريسي قال عن الكتاب : " يا له من كتاب جليل عزيز لقد أبلغ المراد فيه و أجاد " ⁽⁸⁾ .

أما عن المصادر التي استعان بها فقد ذكرها في مقدمة كتابه وهي تواتر الأخبار و كتب الأئمة مثل الوسائل إلى معرفة القبائل لأبي راس و ترجمان العبر لابن خلدون و عقد الجواهر فيمن سكن المعسكر للقاضي محمد بن مولاي على الشريف .

كيفية توثيق نسب الأسر الشريفة بمنطقة معسكر :

بعد الإطلاع على شجرتين الأولى لأسرة المشارفة و الثانية تخص أسرة سيدي دحو بن زرفة فإن توثيق نسب هاتين الأسرتين يكون على النحو الآتي :

في مخطوطة ذات ورق ملفوف يكتب أولا عقد الجمان النفيس كون هذا الكتاب ضم أسماء الأسر الشريفة بمنطقة معسكر ، ثم أسفله توضع تقاييد للعلماء يثبتون من خلالها شرف هذه الأسرة فمثلا في ملفوفة أسرة المشارفة نجد عقد الجمان النفيس ، ثم بعد ذلك تقاييد للبيدري المسمى تنوير قلوب أهل التقوى و المعارف السابق الذكر وتقيد آخر للشيخ بوعمران ، على الحواشي نجد اختتام قضاة و علماء يشهدون لهذه الأسرة بالشرف لكن لسوء حفظ هذه المخطوطة صعب عليّ قرأت هذه الحواشي وطول هذه الملفوفة 02 م .

أما أسرة سيدي دحوفنفس الشبيئ نجد في البداية عقد الجمان النفيس ، ثم تقاييد لبعض العلماء حول صحة نسب وشرف سيدي دحو و في الحواشي اختتام لفقهاء و قضاة يشهدون بصحة نسب هذه الأسرة ، ومن مميزات هذه المخطوطة الملفوفة أن في بدايتها نجد ختم الزهار آخر نقباء الأشراف في الجزائر وطولها حوالي 03 م .

أما الطريقة الثانية فهي أن يكتب عمود نسب أسرة معينة ثم يعرض على الفقهاء والعلماء والقضاة حتى يشهدوا بصحته ويضعون اختتامهم أسفل هذا العمود ، ومثال ذلك عمود أسرة بوشنتوف⁽⁹⁾ .

مخطوط رد العربي المشرفي (10) على أبي راس الناصر :

رغم أن هذا الكتاب لم يرد ذكره في قائمة مؤلفات المشرفي التي أوردها في كتابه ذخيرة الأواخر ورغم أن كل من ترجم له لم يذكره ، إلا أنه لا شك عندي في نسبة هذا المخطوط له وهذا لعدة قرائن وهي كالآتي :

1- ذكر اسمه في بداية المخطوط إذ قال : " يقول أفقر العباد إلى مولاه العلي أبو محمد العربي بن علي المشرفي الحسنى " (11) .

2- إحيائه في هذا المخطوط إلى أحد مؤلفاته وهو الحسام المشرفي إذ قال : " وقد ذكرناهم في تاريخنا الذي ألفناه في الرد على عالم مراکشة الفقيه الكنسوس المسمى بالحسام المشرفي لقطع لسان الجعري الناطق بخرافات الجعسوس سين الظن الكنوس " ، وهذا يؤكد نسبة الرد إلى المشرفي بما لا يدع مجال للشك .

3- تشابه بعض المعلومات خاصة فيما يمس بتراجم أسرة المشارفة مع ملاحظة أن العربي المشرفي ينوه بفضل هذه الأسرة وأعلامها في أغلب المؤلفات التي اطلعت عليها ، مثال ذلك ذكره لثراء الشيخ الرماصي لعمره التراري في غير واحد من كتبه .

يظهر مما ورد في المخطوطة أنها كتبت على مرحلتين المرحلة الأولى سنة 1285 هـ⁽¹²⁾ وفي هذا الصدد يقول المشرفي : " وبعده ملكه الأشراف العلويون ولا زال ملكهم به الى زمن التاريخ وهو عام 1285 " ، أما تاريخ الإنتهاء منه فهو في : غرة ذي القعدة حرام سنة 1292 هـ⁽¹³⁾ ، ولعله يمكن تعليل سبب تأخره في إنهاء الرد طوال هذه الفترة إلى عاملين :

- انشغاله بتحصيل قوت يومه و عياله خاصة وأنه كان فقير الحال يقول في هذا الصدد : " ولا واليت النظر فيه مرتين لشغل الظاهر منا و الباطن ولا سيما من لا ثروة له في هذه المواطن والعيال والأولاد كل يوم تطلب منا الزاده " .

- انشغاله بتأليف و إنهاء كتب أخرى حيث أنه أنهى كتابه الحسام المشرفي في 19 محرم 1285 / 12 ماي 1868 ، وأنهى كتابه الآيات والحوادث في 29 صفر 1285 / 21 جوان 1868.

ومن خلال المخطوط يتضح أن أحدهم سأل العربي المشرفي أن يكتب ردا على قوم استحلوا أعراض السادات المشارف وسبوا بعضهم إذ يقول : " وهذه مبيضة عجالة ألفها كاتبها مسؤولة منه لسائله " ⁽¹⁴⁾ . وإن كان المشرفي لم يصرح باسم من سألته لكن أرجح أنه محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي السابق الذكر ، والذي كان يزور الجزائر كثيرا ، حيث أنه أفرد مبحثا في ذكر نسبه ونسب أسرته في رده السهام الصائبة الذي أشرنا إليه سابقا ⁽¹⁵⁾ .

إذن سبب التأليف هو الرد على من سب أسرة المشارفة ، ثم في ثنايا المخطوط يصرح المشرفي أن القوم الذين لمح إليهم في المقدمة ما هم إلا الشيخ أبوراس الناصر إذ يقول : " ثم أن النفس الأمارة بالسوء حملته على أن تكلم في المشارف " ، أي أن سبب تأليفه لهذا المخطوط هو الرد على أبي راس الناصر الذي نفى حسب زعمه الشرف عن كل أشرف غريس .

ابتدأ المشرفي رده هذا بالتعريف بنفسه و ذكر اسمه ثم بمقدمة بين فيها فضل أهل البيت ومكانتهم مستدلا بآيات قرآنية ومحدرا ممن تراوده نفسه الطعن والتكلم فيهم ، ثم بين سبب تأليفه هذا فقال : " فإن براءة الاستهلال توطئة لقوم استحلوا أعراض السادات المشارف والقادات الغطارف غاية الاستحلال فسبوا بعضهم من ذريتهم " ⁽¹⁶⁾ ، ثم نوه بفضل أسرة المشارفة ومكانتهم خلال العهد العثماني ، هنا عرج إلى أصل الأتراك و نبذة من تاريخهم مطيلا في شرح لفظة التركمان مشيرا إلى تعاقب السلاطين العثمانيين الذين عاصروهم ، وكذا علاقة الأتراك والعثمانيين بالجزائر بالعلماء وخصوصا المشارف ، ناقلا مشاهداته أو ما سمعه خلال دراسته بوهرا.

وهنا ينتقل لترجمة علماء المشارف الذين كان صيتهم مشهورا وعلمهم مرفوعا كالشيخ عبد القادر المشرفي و السقاط المشرفي ناقلا لأشعارهم وإجازاتهم وحالهم أثناء التدريس ، بعد ذلك ينتقل مباشرة إلى ذكر السبب الحقيقي لتدوينه هذا الكتاب وهو الرد على أبي راس الذي حسبته نفى الشرف عن أشرف منطقة غريس وبالخصوص المشارف معللا ذلك بالحسد والنفس الأمارة بالسوء ، ليرد عليه مستدلا بما سطره ابن الجزري الكلبي وما جاء في عقد الجمان النفيس وبما تواتر لدى العامة من أنهم أشرف ومستشهدا بما جاء في بائية سيدي عيسى بن موسى ومرثية الشيخ مصطفى الرماصي لشيخه عمرو الترابي .

بطبيعة الحال هذه القرائن التي استند إليها في رده على أبي راس تخدم الموضوع كونها خاصة بأعيان وشرفاء وعلماء المنطقة وبالتالي كان موقفا في اختيار أدلته وبراهينه .

لينحرف بعد ذلك عن موضوعه بذكر تاريخ البربر والفرق بين المرباط والزناطي وأصل البربر ، ثم الحديث عن الدول الإسلامية المتعاقبة وتاريخ كل دولة وتاريخ بناء مدينة فاس ، وقد أخذ هذا حيزا كبيرا من الرد وهذا خطأ منهجي .

ثم نوه المشرفي بحكم الساب واللاعن لذرية النبي صل الله عليه واله وسلم في مختلف المذاهب مستشهدا بما جاء في كتاب وصلة الزلفى ، يظهر لي بعد مقارنة هذا الكلام بما ورد في فتح الرحمن في شرح عقد الجمان أنه نقل هذه الأحكام الفقهية منه بالحرف ، بالتالي نستنتج أنه كان كثير النقل من مصادر أخرى وكان واسع الإطلاع .

ليختم المشرفي رده هذا باعتذار عن تقصيره وقصور فكره معللا ذلك بانشغاله في كسب قوته وقوت عياله ، ثم يدعم رده هذا بمجموعة أشعار منها ما يخدم موضوعه كقصيدة السنوسي الدحاوي في مدح أسرة المشرفي و قصيدة لابن عبو المشرفي تبين علاقة المشاركة ببقية الأسر الشريفة بمعسكر خاصة سيدي دحو ، ومنها ما لا يخدم موضوعه كتصانيد عبد القادر الجيلاني وقصيدة الإشبيلي .

عموما كان منهج المشرفي معتمدا على السرد ونقل أكبر عدد من النصوص التي تبين فضل وقدر آل المشرفي و علماء أسرة المشاركة ، وإن لم يذكر أدلة الشيخ أبي راس في طعنه في نسبهم مما يؤكد أنه لم يطلع على ما كتبه هذا الأخير . كتابات أبي راس الناصر⁽¹⁷⁾ في علم النسب :

هل كتب أبو راس الناصر في علم النسب ؟ الجواب نعم . فبرجوع إلى كتابه فتح الإله نجد أنه ذكر عدة عناوين منها : شرح القعد النفيس في ذكر الأعيان من أولياء غريس ، و عنوان شرح الجمان للشيخ عبد الرحمن⁽¹⁸⁾ ، و عنوان مروج الذهب في نبذة من النسب ومن انتهى إلى الشرف و ذهب⁽¹⁹⁾ ، الذي هو حسب ما جاء في الدر المهدي هو شرح آخر للعقد الجمان إذ يقول أبو راس الناصر : " وانظر كتابنا مروج الذهب في ذكر من للولاية انتهى و ذهب شرح النفيس في ذكر الأعيان من أهل غريس"⁽²⁰⁾ ، ذكر يحي بوعزيز عناوين أخرى وهي إيضاح الغميس لشرح العقد النفيس في ذكر الأعيان من أهل غريس و عنوان أساس البنين لشرح الجمان لشيخ عبد الرحمن⁽²¹⁾ .

بطبيعة الحال كل هذه العناوين هي في حكم المفقود ، كذلك ورد عنوان آخر للشيخ في باب النسب في فهرس مخطوطات مكتبة الجامع الأعظم بتازة ، و وقفت له على مخطوطة في أنساب أشرف غريس نسخها الأستاذ جلول الجيلالي و سبق وأن أشرت إليها في الفصل السابق لكن محتواها و أسلوبها بعيد كل البعد عن أسلوب أبي راس الناصر و لمسته ما جعلني أستبعد نسبتها إليه .

إنه من المحال بمكان من هذه العناوين التأكد إذا ما كان الشيخ أبو راس قد طعن في أنساب أشرف المنطقة كما قال المشرفي أم لا ، و يظهر لي بعد قراءات متعددة لمخطوط المشرفي أنه لم يطلع على ما سطره الشيخ أبو راس ، و إنما بلغه أن الشيخ نفي الشرف عنهم و دليل ذلك أن المشرفي لم يورد و لو نص واحد من كلام أبي راس يثبت مزاعمه .

يبقى هناك مخطوط واحد وهو كذلك في حكم المفقود أشار إليه السيد GUIN . تحت عنوان أنوار البرجيس في شرح العقد النفيس . قبل الحديث عن فحوى ومحتوي ما قاله هذا الباحث نطرح سؤال هل أنوار البرجيس هذا هو أحد شروح عقد الجمان التي ذكرها أبو راس في فتح الإله ؟ أم هو شرح آخر له ، إذ المعروف عن أبي راس أنه قد يشرح نظما أو كتابا عدة شروح ، مثال ذلك أنه شرح منظومة العقيدة سبعة شروح⁽²²⁾ . لا يمكن في نظري الإجابة على هذه الأسئلة ما لم نطلع على هذه المخطوطات والتي هي في حكم المفقود حتى الآن .

نعود إلى مقال السيد GUIN . بعنوان DE LE SUPPRESSION DU MANUSCRIT⁽²³⁾ ، أي إتلاف المخطوط ، فيذكر صاحب المقال أنه تم إتلاف هذا المخطوط (أنوار البرجيس)⁽²⁴⁾ من طرف أشرف المنطقة وخص بالذكر المشاركة و أولاد سيدي دحو و أولاد سيدي قادة⁽²⁵⁾ ، ثم أشار أن الذي باشر إتلاف هذه المخطوط هو كل من السنوسي بن عبد القادر و سي الحاج محمد بن مصطفى⁽²⁶⁾ . إذن يظهر جليا و يتأكد أن الشيخ أبو راس حقيقة تكلم في

بعض أنساب أشراف المنطقة وإلا لما تحمل هؤلاء عناء إتلاف هذا المخطوط . و مما يؤكد ذلك قول صاحب القول الأحوط : " غير أنه _ يعني أبو راس _ بعد موته بأمد حصل له نقض عند أهل الراشدية و سببه أنه ألف كتابا في النسب و صحح فيه من هو شريف من غيره فحصل الإنكار عليه بذلك " (27) ، بل إن صدى هذا الأمر وصل حتى إلى الصحراء فقد ورد في مخطوط لتاريخ الزاوية البكرية ما يلي : " قال صاحب كتاب عجائب الأسفار يتعذر معرفة الأشراف في وقتنا لإندهم في البرابر و العرب وقد نفى الكثير من الأشراف لهذا السبب " (28) . ولعل ما يزيد في توثيق هذه الآراء و تدعيمها قول الشيخ أبي الناصر في كتابه زهرة الشماخي ما يلي : " أن النسب و التاريخ ضعفا في هذا الزمان و إندرسا فلا يكاد يتفق فيه اثنان حتى يقع اختلافا كثيرا في الأمة الواحدة لإختلاط الأنساب ... " (29)

فإذا ثبت أن الشيخ أبو راس الناصر حقيقة تكلم في النسب و نفى نسبة بعض الأسر الغريسية ، وكان قبل ذلك شهد للمشارف أنهم أشراف كما أشار المشرفي بقوله على لسانه : " وقال أنهم من دوحة الشرف " (30) . فلما تراجع أبو راس عن رأيه الأول ؟ هل حقيقة كما قال المشرفي من باب الجسد ؟ لكن لما يحسدكم إن كان لأجل الشرف فهو يصرح بأنه شريف ، وإن كان لأجل العلم فهو كذلك عالم وقد أقر له القريب و البعيد بالعلم و إن كان لأجل المناصب فهو كذلك تقلد مناصب عديدة و إن كان من أجل التقرب من الحكام فهو كان قريب منهم و معدودا من علماء البلاط . وإذا ثبت أنه نفى الشرف عن أعيان و أشراف المنطقة فمن باب أولى أن ينفي نسبه هو ، خاصة أن الذين نفى نسبهم هم من شهدوا له بأنه شريف ، حيث شهد له كل من الشيخ مصطفى بن المختار من ذرية سيد قادة و الشيخ عبد القادر بن السنوسي من ذرية سيدي دحو (31) ، علما أنه و حسب رواية I. GUIN فإن السنوسي بن عبد القادر وهو ابن عبد القادر بن السنوسي سابق الذكر هو الذي باشر إتلاف مخطوط أبي راس .

أما بالنسبة للمخطوط الذي أشرت إليه سابق في الفصل الثاني في مبحث كتابات الجزائريين في علم النسب ، فبعد الإطلاع عليه و مقارنة مضمونه و أسلوبه مع بقية مؤلفات أبي راس الناصر التي تمكنت من الإطلاع عليها ، ظهر لي أنه ليس من تأليفه و مثله في ذلك كتاب درأ الشقاوة و الذي قام بنسخه نفس الأستاذ جلول الجيلالي (32) ، عليه ترجح لي أن هذا الكتاب ليس من مؤلفات أبي راس ولا يمكن الوثوق بما جاء فيه .

موقف المشرفي من قضية النسب :

يفتخر المشرفي كثيرا بنسبه فما من مؤلف له وفتت عليه إلا و يشيد بنسبه و أنه شريف و عليه يرى أنه يجب على العامة تعظيم الأشراف (33) ، بل يذهب إلى أن من سب أهل البيت فقد خرج من الدين (34) لأن الساب لهم ساب لرسول الله و الساب لرسول الله ساب لله و الساب لله كافر لا مجال للحديث الذي رواه الحاكم في مستدركه عن أم سلمة قالت قال رسول الله صل الله عليه وآله وسلم : " من سب عليا فقد سبني و من سبني فقد سب الله تعالى " (35) ، قال القاضي عياض : " و سب آل بيته و أزواجه و أصحابه و تنقصهم حرام ملعون فاعله " (36) . كما يستدل على فضل أهل البيت بقوله تعالى : " إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا " (37) .

موقف المشرفي هذا من أهل البيت و وجوب محبتهم و تعظيمهم ليس بجديد فقد سبقه إلى ذلك كثير من العلماء ، فقد نقل الورتلاني عن الشيخ أحمد زروق قوله : " إنه يجب على الناس تعظيم الأشراف أي تعظيم و محبتهم لوجه جدهم

الذي انتموا اليه وانتسبوا اليه" (38). لكن المرفوض من هذه المواقف هو قول الورتلاني مثلاً : " وإن وقعت منهم الأذية لأحد فيجب أن يعتقدها كالأمر السماوي من الله" (39) ، ومن قبيل الغلو ذاك قول المشرفي عن أبي راس الناصر : " ومن أجل طعنه في نسبهم صرصرت الريح العقيم على ذريته فأجيحت فصار كأنه لم يعقب عقباً من ذكر يذكره أو أنثى تحمد عاقبتها وتشكر" (40) .

مواقف المشرفي من أبي راس الناصر :

بعد الإطلاع على بعض مؤلفات المشرفي يمكن أن نخرج بموقفين له من شخص الشيخ أبي راس الناصر :

أ – موقف العداء والطنن :

لم يدخر المشرفي في رده على أبي راس الناصر جهداً في الطعن في شخصه ووصفه بأوصاف تقذح في عدالته ، حيث وصفه بالحسد حيث قال : " وقد نظر الشيخ أبو راس في المشارف و أولاد سيدي دح وقت نفيه النسبة عنهم بعين السخط" (41) ، و وصفه المشرفي وإن لم يصرح باسمه بالفسق على أساس أن من طعن في نسب الأشراف فقد فسق واستشهد بحديث رسول الله قتال المسلم كفر و سبابه فسق (42) . وقد تمادي المشرفي في تجريجه لأبي راس الناصر حين تكلم عن ذرية هذا الأخير فقال ما نصه : " ومن أجل طعنه في نسبهم صرصرت الريح العقيم على ذريته فأجيحت فصار كأنه لم يعقب عقباً من ذكر يذكره أو أنثى تحمد عاقبتها وتشكر" (43) ، و حقيقة كان على المشرفي أن يترفع عن مثل هذا الكلام خاصة وأنه سيشير لاحقاً إلى بعض حفدة الشيخ أبي راس الناصر ويثني عليهم .

ب – تراجع المشرفي عن موقفه السابق :

إن المشرفي متغير المزاج وبالتالي مواقفه تتبع مزاجه وعليه لا يمكن التأكد من مواقفه إلا بوضعها في إطارها الزمني والمكاني الصحيح ، وبالنسبة لموقفه من أبي راس نلاحظ أنه سيتغير عما ذهب إليه في الرد ، حيث سيتغير كلياً في كتابه ذخيرة الأواخر والذي ألفه بعد تأليف الرد حيث انتهى منه سنة 1299 هـ (44) . وصف المشرفي في كتابه هذا الشيخ أبا راس بالأوصاف الآتية : " كانت للشيخ أبي راس المذكور اليد الطولي في التاريخ العربي والعجمي من أول الدنيا إلى آخرها وكان في علم الفروع آية وفي السيرة النبوية والتاريخ حافظاً و حجة رحمه الله" (45) ، و وصفه مرة أخرى فقال : " العلامة أبو راس المعسكري" (46) ، وأشار إلى حفيده ابن بنته واسمه أبو راس المازوني وأنه كان من علماء الفقه المشهورين (47) حيث أشار الحفناوي أنه كان مفتي مازونة (48) . فلنلاحظ هنا تغير موقف المشرفي من أبي راس الناصر و من بعض ذريته .

خاتمة :

أثناء هذه الدراسة تعرضنا لبعض كتب الأنساب التي ألفها علماء منطقة معسكر أو التي ألقت حولهم و تمكنت من الإطلاع عليها ، وبعد مقارنة المعلومات ظهر أن بعض هذه الكتابات لم تخضع لمعايير علمية دقيقة حتى وجدنا للأسرة الشريفة الواحدة في بعض الأحيان عدة أعمدة نسب ، مما يجعل على الشك في تحريف هذه الكتب أو الزيادة في أصلها ، وهذا ما يطرح إشكالية مصداقية هذه المصادر .

يظهر أن قضية النسب أو الانتساب للبيت النبوي الشريف أخذت حيزا كبيرا من اهتمامات علماء ، أعيان و أشرف الجزائر عموما ، والغرب الجزائري خصوصا ، و الراشدية أرض غريس على وجه أخص ، و تبقى هذه الكتابات مصدرا هاما من مصادر تاريخ الجزائر و مرآة تعكس الذهنية الجزائرية آنذاك .

إن رد المشرفي على أبي راس الناصر لدليل على استمرارية الجدل القائم الذي كان خلال فترة التواجد التركي ، و استمر إلى ما بعد الاحتلال الفرنسي ، وإن هذا الرد حاول فيه صاحبه التاصيل والتأكيد على انتماء أسرة المشارفة إلى البيت النبوي ، لكن للأسف فمعظم مخطوطات الشيخ أبي راس التي تتحدث عن هذا الموضوع و حيث يمكن للمطلع عليها أن يعرف حقيقة هذه الدعوي هي الآن في حكم المفقود و بالتالي لا يمكن الجزم في أمر هذا الخلاف ما لم نطلع على ما سطره الشيخ أبو راس الناصر .

تدخل هذه المخطوطات التي نحن بصدد دراستها ضمن هذا الصراع الفكري ، فأهميتها من جهة تعد ضمن كتابة التاريخ المحلي بناحية غريس من معسكر ، و من جهة أخرى كونها تتناول موضوعا حساسا ألا وهو ثبوت نسب أسر معينة و من جهة ثالثة هو المناقشة العلمية بين الشيخ أبي راس الناصر والعربي المشرفي ، الذي لم نظفر بأحد قد رد عليه على حسب اطلاعي . كما تكمن أهمية هذه المخطوطات أيضا في كون أصحابها قد ترجموا فيها لكثير من علماء المعسكر الذين كان صيتهم مشهورا وعلمهم مرفوعا خلال العهد العثماني .

الإحالات والهوامش :

- 1 - البيديري : تنوير قلوب أهل التقوى بنسب سادات غريس الموسومين بالمشارف ، مخطوط مصور بمكتبة خاصة ، اللوحة 01
- 2 - البيديري : المصدر السابق ، اللوحة 01
- 3 - المصدر السابق ، اللوحة 02
- 4 - نفسه ، اللوحة 3 - 5
- 5 - نفسه ، اللوحة 5
- 6 - بن عودة بن محمد المازاري : الجواهر الصافية في بيان نسب البهايثية ، مخطوط مصور بمكتبة خاصة ، اللوحة 20
- 7 - بن عودة بن محمد المازاري : نفس المصدر ، اللوحة 01
- 8 - بن عودة بن محمد المازاري : المصدر السابق ، اللوحة 20
- 9 - مخطوط مصور بمكتبة خاصة بمعسكر
- 10 - هو أبو محمد العربي بن علي بن عبد القادر المشرفي تاريخ ميلاده ما بين 1804 و 1805 . يعتبر من أغزر علماء الجزائر إنتاجا فكريا حيث أحصى له أبو القاسم سعد الله 28 عنوانا رتبها ترتيبا أبجديا ، ثم جاء الباحث عبد الحق شرف و أحصى له 32 عنوانا رتبها حسب مضامينها ، ذكر العربي المشرفي في كتابه ذخيرة الأواخر 11 عنوانا . وافته المنية سنة 1313 هـ / 1895 م ، وقيل أنه توفي سنة 1893 ، والأول مشهور . انظر ترجمة المشرفي :
- العربي المشرفي : رد العربي المشرفي على أبي راس الناصر في قضية نسب أسرة المشارفة ، دراسة و تحقيق تقي الدين بوكعب ، رسالة ماجستير تاريخ الجزائر الحديث جامعة وهران 2013_2014
- 11 - المشرفي : رد العربي المشرفي على أبي راس الناصر ، مخطوط مصور بمكتبة خاصة ، اللوحة 01
- 12 - الموافق لـ 1868 م

- 13 - الموافق لـ : 1875 م
- 14 - العربي المشرفي : الرد ، اللوحة 37
- 15 - تبقى هذه الفكرة فرضية حتى نطلع على ما سطره محمد المشرفي في سهامه
- 16 - المشرفي : الرد ، اللوحة 03
- 17 - هو الإمام الحافظ الهمام و شيخ الإسلام ومفتي الأنام أبوراس محمد بن احمد صاحب المصنفات الشهيرة والتحقيقات الغزيرة ترجم لنفسه في كتابه فتح الإله ولد بالقرب من معسكر بين جبل كرسوط و هونت على ما قيده بنفسه في المصدر السابق وهذا سنة 1150 هـ الموافق لـ 1737 توفي الشيخ رحمه الله يوم الأحد 15 شعبان 1238 الموافق لـ 27 أبريل 1823م وقد تجاوز التسعين سنة ودفن قرب داره ومسجده حيث ضريحه المعروف به اليوم انظر :
- أبوراس الناصر : فتح الإله و منته بالتحدث بفضل ربي و نعمته ، تحقيق محمد بن بد الكريم ، المؤسسة الوطنية للكتاب 1990
- 18 - أبوراس : فتح الإله ، ص 180
- 19 - أبوراس : المصدر السابق ، ص 181
- 20 - أبوراس الناصر : الدر المهدى في شرح غوثية أبي المهدي ، مخطوط مصور بمكتبتي ، اللوحة 02
- 21 - يحي بوعزيز : موضوعات و قضايا من تاريخ الجزائر و العرب ، ج 01 ، دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع 2004 ن ص 168
- 22 - أبوراس : فتح الإله ، ص 181
- 23 - 1. GUIN : DE LE SUPPRESSION DU MANUSCRIT, R A, V 31-1887 , PP 72-80
- 24 - يعطي يحي بوعزيز عنوان آخر للمخطوط الذي تم إتلافه حيث يقول عن مروج الذهب هذا الكتاب هو الذي ضيعوه أولاد سيدي دح على ما قيل . انظر :- يحي بوعزيز : موضوعات و قضايا ، ص 170
- 25 - 1. GUIN : ibid , P 78
- 26 - Op.cit , P 78
- 27 - جورج دالفان : القول الأخوط ببعض ما نتشر من علوم بالمغربين الأقصى والأوسط ، مخطوط مصور ، اللوحة 04
- 28 - محمد البكراوي : تاريخ الزاوية البكرية ، مخطوط مصور بأدرار ، اللوحة 102
- 29 - أبوراس الناصر : زهر الشمراخ في علم التاريخ ، تقديم وتحقيق حبيب يعقوب ، دار الحمراء للنشر و التوزيع بلعباس الجزائر 2014 ، ص 37
- 30 - المشرفي : الرد على أبي راس ، اللوحة 13
- 31 - أبوراس : فتح الإله ، ص 29
- 32 - توجهت إلى بيت السيد جلول الجيلالي لأسأله عن هذا المخطوط فقال لي أنه يحوي زيادات كثيرة وهي زيادات النساء .
- 33 - المشرفي : الرد على أبي راس ، اللوحة 14
- 34 - المصدر السابق ، اللوحة 34
- 35 - الحاكم النيسابوري : المستدرك على الصحيحين ، ج 4 ص 212 ، رقم الحديث 4617
- 36 - القاضي عياض : الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، تحقيق احمد فريد المزيدي ج 02 ، المكتبة التوفيقية ، ص 325
- 37 - سورة الأحزاب آية 33
- 38 - الورتيلاني الحسين بن محمد : نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار ، قام على خدمتها محفوظ بوكراع و عمار بسطة ، ج 01 ، المعرفة الدولية للنشر و التوزيع الجزائر 2011 ، ص 247
- 39 - الورتيلاني : المصدر السابق ، ص 247
- 40 - المشرفي : الرد على أبي راس ، اللوحة 12
- 41 - المشرفي : الرد على أبي راس ، اللوحة 13
- 42 - المشرفي : المصدر السابق ، اللوحة 34
- 43 - نفسه ، اللوحة 12

- 44 - المشرقي : ذخيرة الأواخر والأول فيما ينتظم من أخبار الدول ، دراسة وتعليق عبد المنعم القاسمي الحسني ، ماجستير أصول الدين جامعة الجزائر مارس 2001 ، ، ص 115
- 45 - المشرقي : المصدر السابق ، ص 04
- 46 - العربي المشرقي : فتح المنان بشرح قصيدة ابن الونان ، مخطوط مصور ، اللوحة 25
- 47 - العربي المشرقي : ذخيرة الأواخر ، ص 91
- 48 - الحفناوي أبو القاسم محمد : تعريف الخلف برجال السلف ، ، ج 02 ، ص 578

الهجرة غير الشرعية في الجزائر : دراسة في الخصائص والأسباب

إبراهيم زروقي

باحث من جامعة تلمسان

مقدمة :

تعد هجرة البشر من منطقة إلى أخرى ظاهرة إنسانية قديمة قدم إنسان، حيث كانت الظروف الحياتية والمناخية تفرض على الفرد التنقل المستمر من مكان إلى آخر، المجاعات والفقر والزلازل وانتشار الفيضانات وانتشار الأوبئة والحروب كلها عوامل فرضت على الإنسان الهجرة من موطنه إلى مناطق أخرى. ويختلف الغرض من الهجرة من مجرد زيارة للعلاج أو رحلة للدراسة إلى هجرة دائمة بحثاً عن عمل أو بهدف الاستقرار.

أولاً : المفاهيم الأساسية

أ- الهجرة :

لغة : الخروج من أرض إلى أرض، قال الأزهري : وأصل المهاجرة عند العرب خروج البدوي من باديته إلى المدن، وسمي المهاجرون مهاجرين لأنهم تركوا ديارهم وحالتهم التي نشأوا بها⁽¹⁾.

اصطلاحاً : يقصد بها انتقال الأفراد من مكان إقامتهم إلى أماكن أخرى يقول جونار Gonnard الهجرة في ترك البلد والالتحاق بغيره سواء منذ الولادة أو منذ مدة طويلة بقصد الإقامة الدائمة وغالباً بقصد تحسين وضعية العمل⁽²⁾.

ولقد عرف أنتوني غدتر الهجرة بأنها " دخول الناس إلى بلد آخر للاستقرار فيه. والمهاجرة هي عملية انتقال الناس وارتحالهم من مواطنهم للاستقرار في بلد آخر"⁽³⁾.

ب- الهجرة غير الشرعية :

فهي الهجرة التي تقوم خارج النظم القانونية للمعمول بها بين الدول، وبطلق على هؤلاء المهاجرين في بعض الجهات عبارة المهاجرين غير الموثقين أو غير المسجلين و"المهاجرين السريين".

وتعد دول الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة الأمريكية من أكثر البلدان تأثراً بالهجرة غير الشرعية، وقد تبين إن السياسات المقيدة في أوروبا قد جعلت الوضع أكثر صعوبة للهجرة القانونية إلى غرب أوروبا، والنتيجة أنه في 1973 قد سجل أكثر من نصف مليون أجنبي يعملون ويعشون في أوروبا بطريقة غير مشروعة ومعظمهم يشتغلون في إنجاز الطرق، البناء، والزراعة والفنادق أو الخدمات العامة⁽⁴⁾.

ومنذ بداية الربع الأخير من القرن العشرين ازدادت معدلات الهجرة غير الشرعية، من الدول الفقيرة إلى الدول الغنية بحثاً عن العمل، وتعد منطقة شمال إفريقيا من المناطق التي تنطلق منها الهجرة غير الشرعية نحو إيطاليا ومناطق من اليونان وإسبانيا وكذلك هجرة الصينيين نحو "هونغ كونغ"، وفي منطقة أمريكا اللاتينية تنشط هجرة غير شرعية من كولومبيا والشيلى وباراغواي نحو الأرجنتين. ويلاحظ أن غالبية المهاجرين غير الشرعيين الذين سلكوا الحدود البرية والبحرية، تعرضوا إلى أحداث مأساوية. كما يلاحظ أن غالبية المهاجرين غير الشرعيين من العمالة غير الماهرة التي تؤدي أعمالاً هامشية، وتحت شروط عمل قاسية وأجور متدنية، وتعرضوا لأخطار ومشكلات اقتصادية واجتماعية وصحية⁽⁵⁾.

هذا ويلجأ المهاجرون غير الشرعيين إلى أساليب عديدة، مثل التعاقد مع منظمات التهريب، والتسلل عبر الحدود البرية والبحرية، الزواج الشكلي الذي يسمح بالحصول على الإقامة، استخدام الوثائق المزورة، وعدم العودة بعد انقضاء أجل الإقامة المؤقتة، وتشير دراسات إلى أنه في ظل الظروف والأزمات الاقتصادية المتلاحقة تنشط حركة تهريب الأشخاص الذين يبحثون عن فرص عمل لتحسين الأوضاع الاقتصادية. وتقوم بالتهريب البشري عصابات تبحث عن الأرباح الطائلة، مستغلة الأزمات الاقتصادية والحروب والكوارث التي تصيب المجتمعات الفقيرة وبعض الدول النامية⁽⁶⁾.

ج- الجريمة المنظمة؛

- الجريمة والجرم لغة : الذنب، تقول (جرم وأجرم وأجترم) والجرم بالكسر لجسد وقوله تعالى : " ولا يجر منكم شأن قوم"⁽⁷⁾ ، أي لا يحملنكم⁽⁸⁾ ، و" تجرم" عليه أي ادعى عليه ذنباً لم يفعله⁽⁹⁾ ، كما يطلق لفظ الجريمة على المخالفة القانونية التي يقرر القانون لها عقاباً بدنياً أو معنوياً.

وتعرف الجريمة لغوياً على أنها قطع الشيء ويقال الجريم الثمر اليابس والجرامة ما سقط من ثمر النخل والجريمة النواة للثمر⁽¹⁰⁾.

أما كلمة المنظمة فهي مشتقة من "نظم" اللؤلؤ جمعه في السلك ومن "نظم" الشعر و"الانتظام" الاتساق ويفيد فعل نظم للتدليل على الوضع أو الحالة التي تكون عليها الجماعة أو الاتحاد الذي تجمعت إرادة فيه على تحقيق أغراض معينة⁽¹¹⁾.

وعلى الرغم من الخطورة البالغة للجريمة المنظمة ومع تعدد الدراسات التي تناولت ظاهرة الإجرام المنظم سواء كانت هذه الدراسات على المستوى الوطني أو على المستوى الدولي إلا أنه لا يوجد حتى الآن تعريف جامع متفق عليه لهذه الجريمة وذلك بسبب تعدد أنواع وأشكال الجريمة المنظمة⁽¹²⁾.

إلا أنه يمكن حصر العناصر المتفق عليها التي تقوم عليها المنظمة وهي :

- 1- وجود منظمة إجرامية تتألف من ثلاثة أشخاص أو أكثر.
- 2- ارتكاب جريمة خطيرة.
- 3- الاستمرار في ممارسة الأنشطة الإجرامية.
- 4- استعمال وسائل وطرق تتسم بالدقة والتعقيد في تحقيق أهدافها.
- 5- الدافع أو الباعث هو تحقيق الربح باستخدام العنف.

وقد ظهرت الجريمة المنظمة العابرة للحدود أو الجريمة المنظمة عبر الدول نتيجة للتوسع التجاري بين الدول وعولمة اقتصاديات الدول وما نتج عنها من عولمة الثقافة وكذلك الجريمة فنشأت منظمات خطيرة تعمل على مستوى دولي ومنظم متجاوزة الحدود الدولية ومختزقة لأكثر من دولة ومعتمدة استراتيجيات معينة وتحالفات بين المنظمات الإجرامية الوطنية والخارجية لفرض السيطرة على الدول مما جعلها من أكبر التحديات التي تواجه الدول بكافة أشكالها وبدون تمييز بين المتقدمة منها والمتخلفة، ومن أشهر المنظمات الخطيرة المافيا الإيطالية، وعصابات الثالوث في جنوب شرق آسيا، وعصابات الياكوزا، وعصابات الكارتل الكولومبية.

ثانيا : الخصائص الأساسية للهجرة المعاصرة :

لقد حدد اثنان من الباحثين في شؤون الهجرة العالمية "casteles & miller 1993 أن اتجاهات الهجرة وأنماطها في المستقبل القريب ستتميز بأربع خصائص أساسية هي⁽¹³⁾ :

- 1- التسارع : ليست الهجرة ظاهرة جديدة، غير أنها أخذت بالتسارع المتزايد في العقود الأخيرة لتصبح جزءا لا يتجزأ في عملية التكامل العالمي، حيث سترتفع أعداد المهاجرين عبر الحدود إلى مستويات غير مسبوقة .

2- **العولمة** : اتخذت الهجرة طابعا عالميا واتسعت مجالاتها لتشمل أعدادا أكبر من الدول سواء منها المرسله أو

المستقبلة للمهاجرين، حتى أصبح بعض علماء الاجتماع يطلقون على أيامنا هذه "عصر الهجرة".

3- **التأنيث** : إذ أن أعداد النساء المهاجرات أخذت في التزايد خلافا لحركات الهجرة السابقة التي تشمل

الرجال في أغلب الأحيان، ويرتبط تزايد هجرة النساء ارتباطا وثيقا بالتغيرات التي تطرأ على سوق العمل العالمي، بما في ذلك تزايد الطلب على العاملات في البيوت وتوسع السياحة الجنسية والمتاجرة بخدمات النساء .

4- **التنوع** : حيث ستقوم البلدان المضيضة بقبول أنواع مختلفة من المهاجرين خلافا لسياستها السابقة التي

تستقبل بموجبها فئات محددة، ولقد درج الدارسون على تمييز أربعة نماذج في الهجرة لوصف التحركات السكانية في العالم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية فهناك⁽¹⁴⁾ :

* النموذج التقليدي الكلاسيكي للهجرة : ويصدق على بلدان مثل : كندا، والولايات المتحدة وأستراليا التي نشأت ونمت في السياق التاريخي باعتبارها دولا تضم شعوبا من المهاجرين ،وقد قامت هذه الدول بتشجيع الهجرة واجتذابها بالرغم من وجود الكثير من القيود وأنظمة الحصص "الكوتا" على من يقدون إليها سنويا.

• النموذج الكولونيالي الاستعماري : فتمثله دول مثل بريطانيا وفرنسا اللتان تميلا إلى إعطاء الأفضلية

للمهاجرين القادمين من البلدان التي كانت خاضعة لسيطرتها الاستعمارية في السابق دون غيرهم.

• نموذج العمال الضيوف : وتتبعه دول مثل ألمانيا وسويسرا وبلجيكا، إذ بموجب هذه السياسة يجري قبول

المهاجرين ودخولهم إلى البلاد على أساس مؤقت، ولتلبية احتياجات سوق العمل بصورة خاصة، ولكنهم لا يتمتعون بحقوق المواطنة حتى لو أمضوا فترات طويلة من العمل والاستقرار في ذلك البلد.

• نموذج الهجرة غير المشروعة : الذي أصبح واسع الانتشار في الآونة الأخيرة نظرا للقيود المتشددة التي تفرضها

الدول الصناعية على الهجرة ويستطيع كثير من المهاجرين الذين يدخلون بلدا بصورة سرية أو تحت ستار ذريعة أخرى أن يعيشوا بطريقة غير قانونية بعيدا عن أنظار السلطات الرسمية في ذلك المجتمع.

إضافة إلى ما تقدم، نجد أن للهجرة خصائص أخرى نذكر منها :

- الهجرة خاصة إنسانية – سكانية : تعتبر الهجرة خاصية إنسانية سكانية تتمثل في الانتقال من مكان

إلى آخر ، إِمّا بحثا عن حياة أفضل أو هروبا من وضع سيئ، هذه الخاصية الديموغرافية المتمثلة في حق التنقل ثم الاعتراف بها عالميا، منذ أكثر من ربع قرن ضمن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

- الهجرة ظاهرة عالمية تستلزم التعاون الدولي : قالت رئيسة البرلمان الألماني السابقة "ريتا زوسموت" التي شاركت في إعداد التقرير الدولي عن الهجرة : "إن الهجرة ظاهرة عالمية وهو ما يفرض بالتالي انتهاج سياسة عالمية تشترك فيها الأسرة الدولية"⁽¹⁵⁾.

- الهجرة عنصر إخصاب: ويتجلى ذلك في إعلان "فرانكو فراتيني" نائب رئيس المفوضية الأوروبية في المؤتمر الذي أقيم في العاصمة البرتغالية لشبونة في شهر سبتمبر 2008، حول الهجرة القانونية، إن الاتحاد الأوروبي "يجب أن يكون براغماتيا في مجال الهجرة ويقتنع بأن القارة العجوز في حاجة إلى اليد العاملة المؤهلة للحفاظ على مستوى النمو الاقتصادي، وكذلك الديمغرافي مبرزا أن على أوروبا أن تنظر إلى الهجرة بوصفها عنصر إخصاب وظاهرة لا يمكن تفاديها في عالم اليوم، وليس بوصفها تهديدا".

- الهجرة ظاهرة مرنة:

لم تتغير موجات الهجرة من حيث اتجاهها فحسب، بل من حيث طبيعتها أيضا، لقد كان المهاجرون بصورة دائمة جماعات شديدة التنوع فمنهم المستوطنون الدائمون، والعاملون بموجب عقد، وأصحاب المهن من العابرين والمهاجرين غير الشرعيين، وكذلك طالبو حق اللجوء السياسي واللاجئون، والأشخاص ينتقلون من فئة إلى أخرى حسبما تسمح الظروف أو تتيح الفرص، فقد يدخلون بصفة سياح مثلا ويتجاوزن ما تسمح به أذونات الإقامة، فيغدون مهاجرين غير شرعيين، ثم ينالون بطاقة إقامة بصفة مقيمين دائمين وأخيرا يصبحون مواطنين بالتجنس.

ثالثا : أسباب الهجرة غير الشرعية في الجزائر – نتائج دراسة ميدانية :

أ- الإجراءات المنهجية للدراسة.

1- منهج الدراسة:

تصنف هذه الدراسة في إطار البحوث الوصفية التي تهدف إلى تشخيص أبعاد الهجرة غير الشرعية في المجتمع الجزائري من خلال البحث في :

- المداخل الأساسية في تفسير الهجرة غير الشرعية.
 - الاتجاهات السوسيوأنثروبولوجية المفسرة للهجرة غير الشرعية.
 - أسباب الهجرة غير الشرعية الرئيسية في المجتمع الجزائري.
 - سياسة الجزائر في الوقاية والتصدي للهجرة السرية والأشكال الأخرى للجريمة المنظمة.
- وتبعاً لهذه الأهداف، تم استخدام المنهج الوصفي المدعم بالمسح الاجتماعي.

2 - مجتمع الدراسة :

اقتصرت الدراسة على عينة من المهاجرين السريين المقيمين في الغرب الجزائري والذين :

- ضبطوا في حالة تلبس وكانوا محل تحقيق ومتابعة قضائية.
- أولئك الذين تم طردهم من الخارج وتحويلهم إلى أرض الوطن عبر موانئ الغرب الجزائري (الغزوات ووهران). وكانوا محل متابعة قضائية أيضا.

3- خطوات الدراسة :

تضمنت الدراسة الحالية الخطوات التالية :

- مراجعة وتوظيف الدراسات المكتبية التي تعتمد على رصد التراث العلمي المتعلق الظاهرة المدروسة (الهجرة السرية، الاغتراب...)
- جمع النصوص التنظيمية المعمول بها في إطار الهجرة السرية.
- حوارات متعددة وثرية مع إطارات متخصصة ومهاجرين غير شرعيين.

4- فرضية الدراسة :

يمكن القول أن الفقر والاغتراب ينالان من جوهر شخصية الفرد الجزائري، فيدفعه إلى ممارسة سلوك الهجرة السرية، فالاغتراب الاجتماعي والفقر هما السبب (المتغير المستقل) والهجرة غير الشرعية نتيجة (المتغير التابع). وعلى ضوء هذه المعطيات، تمت صياغة الفرضية العامة على الشكل التالي:

إن ظاهرة الهجرة غير الشرعية بالمجتمع الجزائري تعكس في أبعادها الهوية الموجودة في الثقافة التي يعيش فيها المهاجر غير الشرعي... فقر، اغتراب، يأس، فقدان المعايير.

5- أدوات الدراسة وتقنياتها :

1- العينة :

*العينة الأصلية :

قابلت أكثر من 650 مهاجر غير شرعي واستقر رأيي على انتقاء عينة أصلية تتكون من 186 مهاجر غير شرعي ، من الذكور الجزائريين، الذين تورطوا في ارتكاب فعل الهجرة غير الشرعية (الفعل المعاقب عليه بقانون العقوبات الجزائري) والذين :

- ضبطوا في حالة تلبس وأحيلوا على الضبطية القضائية والعدالة لتابعهم قضايا.
- أبعدها أو طردوا من الخارج نحو وطنهم على الموانئ الجزائرية (الغزوات ووهران)، وتمت متابعتهم كذلك قضائيا..

إن العينة المنتقاة هي عينة عمدية، وهذا الاختيار له ما يبرره على مستوى الفرضية والمتغيرات المعتمدة في الدراسة الحالية، ألتقى الباحث بالعينة المختارة في حياتهم العادية، بالموطن الأصلي الذين يقيمون فيه. وهذا ما يضيف على الدراسة أهمية خاصة.

2- وسائل جمع البيانات:

تم استخدام الأدوات التالية:

* الملاحظة المباشرة:

* المقابلة الموجهة:

المقابلة الموجهة المدعمة باستمارة بحث تحتوي على مجموعة من الأسئلة.

وقد تم تصميم الاستمارة خصيصا لهذه الدراسة وفق الخطوات العلمية المتعارف عليها في هذا الإطار، وبما يتماشى مع أهداف الدراسة ومحتواها، وقد ارتكز تصميم الاستمارة على معلومات وأفكار مستمدة من عدة مصادر أساسية هي:

- الدراسات السابقة في مجالي الاغتراب والهجرة غير الشرعية.
- الدراسات التي استخدمت طرق الارتباط بواسطة الأساليب الإحصائية، خاصة تلك التي استخدمت (معامل ارتباط بيرسون) للكشف عن العلاقة بين الاغتراب والسلوك المتطرف ومنه الهجرة غير الشرعية.
- المقابلات التي أجريت مع أكاديميين وباحثين في العلوم الاجتماعية والعلوم الانسانية وكذلك الخبراء المعنيون بقضايا الهجرة غير الشرعية.
- الدراسات المعنية بالهجرة وواقع الأسرة الجزائرية في عصر العولمة المتوحشة والتوترات العالمية والمحلية.
- وقد ارتبطت الأسئلة (إلى جانب الخصائص العامة للعينة) بالعوامل التالية:
- التنشئة الاجتماعية الخاطئة (التطرف التربوي).
- العلاقات الاجتماعية السلبية والمشكلات الاجتماعية الهدامة.
- الحرمان الاجتماعي والعزلة الاجتماعية.
- الاغتراب عن الذات والشعور بالإحباط.
- العوامل الاقتصادية المجحفة المولدة للتراث الفاحش.
- التمرد السياسي وفقدان الثقة في الممارسات السياسية.
- الثقافة الهامشية.

- العنف المؤسسي الخفي وانهيار معايير الضبط الاجتماعي.

وقد تم التحقق من صدق الاستمارة المستخدمة في الدراسة الحالية باستخدام طريقة صدق المحتوى، وقد تم تنفيذ هذه الطريقة من خلال المراجعة الدقيقة لبنود الاستمارة بهدف التأكد من أن هذه البنود تقيس الموضوع المطلوب قياسه.

وبموجب اعتماد الاستمارة في صورتها النهائية أصبحت جاهزة للتطبيق أداة لجمع البيانات.

6- طريقة تحليل البيانات:

تم الاعتماد على طريقة جمع الأجوبة وتصنيفها تبعا لأبعاد الهجرة غير الشرعية، وتنظيمها بحسب علاقتها بكل متغير من متغيرات البحث. والأساس المنطقي لهذه الطريقة هو اكتشاف العلاقة الوظيفية الموجودة بين المتغير المستقل والمتغير التابع، وبالتالي للوصول إلى اختبار صدق الفرضية من عدمها، بالوقوف على نسب مئوية ذات دلالة إحصائية (تفوق 50%) تؤدي مفهوم أبعاد الهجرة غير الشرعية وعلاقتها بالاغتراب الاجتماعي والفقر وفقدان المعايير الاجتماعية.

رابعاً - نتائج عامة.

تأسيساً على ما سبق، يمكن استخلاص ثلاث أبعاد أساسية، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالإشكالية المطروحة والفرضية العامة المعتمدة، وهي:

* توجد علاقة ارتباطية بين عاملي الفقر والبطالة والهجرة السرية.

- فيما يخص هذه النتيجة، فقد دلت النتائج المتحصل عليها، أن هناك علاقة ارتباطية بين متغيري الفقر والبطالة والهجرة السرية.

فالنتائج تبرر الغالبية من المهاجرين السريين بطالين، الجامع منهم وغير الجامعي، كما أنهم ينتمون إلى أسر كبيرة يصل عدد أفرادها إلى أكثر من سبعة أفراد، علاوة على أنه ولا واحد منهم تمكن من تكوين أسرة.

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على تفاقم ظاهرة البطالة وزيادة حجم الفقر تعد من الأسباب المباشرة التي تجعل الشاب الجزائري مضطراً إلى مغادرة وطنه الأصلي بحثاً عن مصدر للرزق.

فالبطالة تعتبر العامل الرئيسي الكامن وراء إصرار آلاف الشباب الجزائري على الهجرة السرية التي لم تعد تقتصر على الشباب الأمي فقط، بل طالت حتى الجامعيين الذين لم يجدوا عملاً يناسب مؤهلاتهم العلمية، فاشتغلوا في المقاهي وفي ورشات البناء وفي الإدارة المحلية كأعوان غير دائمين بأزهد الأجور.

والجدير بالذكر أن ظاهرة الهجرة السرية لم تكن معروفة في الجزائر التي هي قريبة من غرب أوروبا ، ومع ذلك فإن الجزائريين لم يهاجروا عندما كان الغرب مفتوحا لهم دون تأشيرة إلى غاية النصف الأول من ثمانينات القرن الماضي ، فهناك أسباب جديدة وراء هذه الظاهرة ، من بينها تدني مستوى عيش الفرد ، وارتفاع مستوى البطالة والفقر في المجتمع الجزائري.

ويعتبر الفقر الذي هو نتاج ظاهرة البطالة أحد العوامل المشجعة على الهجرة السرية إذ يفيد آخر تقرير لبرنامج الأمم المتحدة للتنمية كما تقدم معنا أن الجزائر توجد في رتبة متدنية من مؤشر الفقر ، حيث تم إحصاء 17 بالمائة من السكان أي ما يعادل 6 مليون جزائري يعيشون في مستوى الفقر.

ثم إن تداعيات العولمة وما سببته من انعكاسات سلبية على اقتصاد بلادنا وما أفرزته من هيمنة المؤسسات المالية التي أخضعت الكون إلى منطق المعاملات المصرفية التي لا تولي أي اعتبار للإنسان وتحدث انعكاسات كارثية على الشعوب الفقيرة.

وتعجبني مقولة العالم الديمغرافي الفرنسي " ألفريد صوفي " وهو يلخص إشكالية الهجرة بقوله : " إما أن ترحل الثروات حيث يوجد البشر وإما أن يرحل البشر حيث توجد الثروات".

* " توجد علاقة إرتباطية بين عامل اليأس (الاغتراب) والهجرة السرية".

- فيما يخص هذه النتيجة ، دلت المقابلات الميدانية ، أن هناك علاقة إرتباطية بين متغير اليأس أو الاغتراب والهجرة السرية.

فالنتائج تبرر أن المهاجرين السريين ركبوا البحر على متن قوارب مطاطية أو خشبية لا تتوفر فيها أدنى أسباب الأمان والسلامة أمام أهوال البحر وأخطاره ، ليلتحقوا ببلاد الغرب وبدون وثائق تثبت الهوية .

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على حالة اليأس والاغتراب التي يعيشها الشباب الطامح إلى حياة أفضل ، إذ أصبحوا يفضلون المغامرة مع احتمال الموت في عرض البحر على البقاء في وضع يروونه لا يطاق ، وكأنهم يقولون " الموت ولا البقاء في الجزائر".

كيف لا وهم يرون أن الآفاق تضيق أمامهم يوما بعد يوم حتى لتكاد تنغلق وآلاف من خريجي الجامعات يقارعون البطالة والتأخر في تكوين الأسرة ، ويرون أن السنوات التي أمضوها في الدراسة لم تنجح سوى في إعطائهم قلب "حيطيست"، حتى أن الكثير منهم لازالت وضعيتهم اتجاه الخدمة الوطنية في انتظار التسوية ، علاوة على أن آفاق المستقبل باتت مجهولة في ظل الفشل الذريع الذي عرفته الإجراءات السياسية الخاصة باستقطاب الشباب ، وعدم قدرة الأحزاب أو حتى الجمعيات على التكفل بمشاكلهم (العينة المستجوبة غير منخرطة في أي حزب سياسي).

إن ركوب قوارب الموت ما هي في الحقيقة إلا وسيلة أخرى من وسائل التعبير عن اليأس على غرار الانتحار وتناول المخدرات والإدمان على الإنترنت واللجوء إلى العنف والإرهاب.

*** توجد عاقلة إرتباطية بين عامل فقد المعايير الاجتماعية والهجرة السرية .**

- فيما يخص هذه العينة، دلت المقابلات الميدانية، أن هناك علاقة إرتباطية بين متغير فقد المعايير الاجتماعية والهجرة السرية.

حيث بات المهاجر السري يشعر أن الحب والود والتعاون أصبحوا غير موجودين بين الناس، كما يعتقد أن مقولة "من جد وجد" لم تجد من يدعمها، كيف لا وقد أمضى معظم وقته يدرس ويجتهد ليجد نفسه بطالا، عالية على والديه، بعدما كان يسعى لأن يخفف العبء عن والده بعد إيجاده لعمل، كل هذا جعله يقتنع أنه ليس ثمة عدالة اجتماعية في مجتمعه، خاصة وأن هناك من استفاد من امتيازات جديدة جعله غنيا بعد عشية وضحاها كما أن كرامة الإنسان وقيمتها أصبحت مرهونة بما يملكه من مال وثروات.

فبات الشاب الجزائري يحس بالقلق والخوف من المستقبل وأنه لا يمكنه تحقيق ما يطمح إليه بالطرق المشروعة.

إن اللجوء إلى المجهول - الحرق - بدون وثائق إثبات الهوية ودون إخبار الوالدين في وسط ظروف غامضة وخطيرة تاركاً خلفه وطنه ومسقط رأسه، وأعز الناس إليه، هو نتاج فقد المعايير الاجتماعية المبنية على الحب والود والتعاون والتكافل والقرباة وحب الوطن، وتكافؤ الفرص، والمساواة والعدل.

الخلاصة :

إن تعقد العلاقات بين الأفراد والجماعات والدول والتطور المذهل الحاصل على كافة المستويات قد أثر كثيرا في عالم الجريمة بمختلف أنماطها، فأصبح يشمل كافة عناصر تكوينها وتشكلها فانتقلت بذلك الجريمة من المجتمع الداخلي إلى المجتمع الدولي، فظهرت منها أنواع جديدة على كافة المستويات المحلية، الإقليمية والدولية فزادت معاناة المجتمع الدولي من الجريمة المنظمة عبر الوطنية خصوصا المخدرات، تبييض الأموال، الجرائم المعلوماتية، تزيف العملات، الاتجار بالبشر، الفساد وغيرها.

وأمام هذا الانتشار المذهل والاجتياح السريع للجريمة العابرة للحدود لمختلف المجتمعات، فقد وجد المجتمع الدولي نفسه عاجزا عن مواجهة عصابات وأنشطتها بمفردها، فكانت الحاجة ماسة لإيجاد آليات وطنية ودولية فعالة للتصدي لهذا النوع من الأنشطة الإجرامية، خاصة مع قدرة هذه العصابات على ممارسة أنشطتها في أكثر من دولة ضمن تحالفات علنية أو خفية يصعب إختراق شبكاتنا نتيجة إحكام التخطيط والتنظيم والتنفيذ.

ولا يخفى على أحد أن العصابات الإجرامية المنظمة تستغل مثل هذه المواقف لتكثيف نشاطاتها الإجرامية والتغلغل في عمق المجتمع.

ولكون الهجرة السرية هي إحدى صور وأنماط الجرائم العابرة للحدود، فقد باتت ظاهرة تخرق كل الحواجز الطبيعية وتدوس على القوانين مهما كانت صرامتها، وأصبحت من أهم التحديات المعاصرة التي تواجهها في الشمال كما في الجنوب، لما لها من تأثيرات اقتصادية وديمقراطية واجتماعية على الدولة المعنية، ولقد خلفت هذا الظاهرة انعكاسات متعددة، وكل الإجراءات المتخذة للتصدي لها والحد من تأثيراتها أظهرت محدوديتها.

ويمكن القول إن الأسباب العميقة لهذه الظاهرة ترجع بالأساس إلى تباين مستويات التنمية بين مختلف بلدان العالم.

وقد أخذت ظاهرة الهجرة السرية أبعادا خطيرة بعد ظهور شبكات منظمة للجريمة، ما يتطلب تكثيف الجهود بين الدول المصدر والعبور والاستقبال، للاتفاق حول اتخاذ تدابير مشتركة بهذه إيجاد الحلول الناجعة والفعالة لهذه المشكلة.

لقد أصبح في حكم اليقين، أن الحلول الجزئية والظرفية أضحت غير فعالة، وأن المعالجة الأمنية وحدها لم تعد كافية، لذلك فقد أضحت لزاما إيجاد حلول توافقية لظاهرة يجمع بين البعد الأمني وسياسات التنمية، واتخاذ تدابير جماعية من أجل تحقيق نمو اقتصادي واجتماعي – ما يعني أمنا قوميا – للبلدان المرسلات للمهاجرين.

وهكذا فإنه يتعين على الدولة المستقبلية للمهاجرين أكثر من أي وقت مضى، ضرورة دعم البلدان المصدرة للمهاجرين لمواجهة مشكلات الفقر، البطالة والتخلف، وذلك بإتخاذ التدابير الكفيلة بخلق مشاريع تنموية وضمان تنمية مستدامة على مستوى المناطق التي تتميز بكثافة سكانية عالية للفئات المرشحة للهجرة والقيام بحملات واسعة للتوعية بمخاطرها، وتنفيذ برامج لإعادة الإدماج الاجتماعي والاقتصادي للمهاجرين المرشحين للعودة إلى أوطانهم إضافة إلى وضع برامج لتشجيع الاستثمارات، وبالمقابل يجب اتخاذ إجراءات رديعية من شأنها تفكيك شبكات التهريب والمتاجرة في البشر.

إن محاربة الهجرة السرية تتطلب –على المدى الطويل– مواجهة الأسباب الاقتصادية التي تقود إليها وفي مقدمتها الفقر والبطالة وضعف برامج التنمية من خلال إستراتيجية لإجراء إصلاحات تنموية شاملة اقتصادية واجتماعية وتحقيق أمن قومي مستدام في بلدان الدفع.

الإحالات والهوامش :

- 1 - لسان العرب لابن منظور الإفريقي المصري، المجلد الخامس عشر، طبعة جديدة محققة، دار صادر، بيروت، 2005، ص. 23
- 2 - rené Gonnard, Essai l'histoire de l'immigration, paris, 1927, pp, 19- 20.
- 3 - أنطوني غدنز، بمساعدة كاين بيرد سال ترجمة وتقديم : الدكتور غايز الصباغ، علم الاجتماع (مع مدخلات عربية)، المنظمة العربية للترجمة، مؤسسة جمانة، ط 4، بدون تاريخ، ص. 32
- 4 - الأمين القلاعي، العولمة والهجرة الدولية، المرجع السابق، ص. 68
- 5 - عثمان حسن محمد نور، ياسر عوض الكريم مبارك، الهجرة غير المشروعة والجريمة، المرجع السابق، ص 8 - 9.
- 6 - المرجع نفسه، ص. 18
- 7 - الآية 8 سورة المائدة.
- 8 - محمد راتب النابلسي، التفسير المختصر. سورة المائدة، تفسير الآية 8، من الموقع الإلكتروني : <http://www.nabulsi.com/blue/ar/print.php?art=3941>
- 9 - محمد أبوبكر الرازي، مختار الصحاح، بيروت، مكتبة لبنان، 1989، ص 89.
- 10 - المساعد العربي، تقسيمات الجرائم في القانون الجزائري، من الموقع الإلكتروني : http://droit7.blogspot.com/2013/10/blog-post_2572.html
- 11 - فائزة يونس الباشا، الجريمة المنظمة في ظل الاتفاقيات الدولية والقوانين الوطنية، القاهرة، دار النهضة العربية، 2002، ص. 30
- 12 - رشيف سيد كامل، الجريمة المنظمة، ط 1، القاهرة، دار النهضة العربية، 2000، ص. 16
- 13 - أنتوني غدنز بمساعدة كاترين بيردسال، ترجمة وتقديم الدكتور فايز الصياغ، علم الاجتماع "مع مدخلات عربية"، ص 335.
- 14 - المرجع نفسه ص 333-334.
- 15 - [http : // www.swissinfo.ch/ara/suissinfo.htm/?site](http://www.swissinfo.ch/ara/suissinfo.htm/?site) sect.

ظاهرة الوعدة الشعبية في الجزائر بين الاعتقاد والممارسة

كريم خيرة

قسم الفنون-كلية الآداب و اللغات و الفنون

جامعة جيلالي ليابس-سيدي بلعباس

تعرف الهوية بأنها إدراك الفرد لذاته .وقد اتسع هذا المفهوم داخل العلوم الاجتماعية لكي يشمل الهوية الاجتماعية، والهوية الثقافية، والهوية العرقية السلافي» وهي مصطلحات تشير إلى توحيد الذات مع وضع اجتماعي معين، أو مع تراث ثقافي معين، أو مع جماعة سلالية»⁽¹⁾ وقد أفرد جوردون مارشال عدة تعريفات مفصلة للهوية لدى علماء النفس والاجتماع .وخلص إلى "أننا لا يمكننا أن نعثر على معنى واضح لمصطلح الهوية داخل علم الاجتماع الحديث؛ حيث يستخدم بشكل عام تبعاً لمعنى مفهوم الذات عند الباحث، وتبعاً لمشاعره وأفكاره حول ذاته -مثلاً الحال في مصطلحي "هوية النوع" و"الهوية الطبقية". "لذا يرى البعض أن هويتنا تعد نتاجاً للتوقعات المرتبطة بالأدوار الاجتماعية التي نشغلها ونستدمجها، الأمر الذي يعني أن الهوية تتشكل عبر عملية التنشئة الاجتماعية. و في مقابل ذلك، يرى البعض الآخر "أننا نصوغ ذاتنا بشكل أكثر فاعلية من خلال المواد التي تقدم لنا أثناء عملية التنشئة الاجتماعية، أو عبر الأدوار المختلفة التي نؤديها"⁽²⁾.

وهي مرتبطة بتوحيد الذات مع التراث الثقافي من ناحية، و بعملية التنشئة الاجتماعية من ناحية أخرى، ويمكننا تتبع هذا المفهوم من خلال رصد بعض الممارسات الشعبية في الجزائر وتشكلت عبر التراث الثقافي، ولا تزال باقية حتى الوقت الراهن .وقد تكون هذه الممارسات احتفالية ومرتبطة بمكان معين له بعده الثقافي والتاريخي مثل الوعدة الشعبية.

إن الحديث عن ظاهرة الوعدة هو حديث عن الطقس باعتباره اللغوي إشارة إلى الطريقة الدينية، أي هو بمعنى النظام والترتيب وإقامة الشعائر⁽³⁾ أما المعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة فلا يمكن حصره في تعريف جامع يكون محل اتفاق الباحثين المتخصصين، فقد خاض علماء النفس وعلماء الفولكلور والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع جهوداً جبارة لمحاولة سبر أغوار هذه الممارسة الإنسانية وكل ما يحيط بها، وأحسن من عبر عنها الباحث السوري "فراس السواح" بقوله "مجموعة من الإجراءات والحركات التي تأتي استجابة للتجربة الدينية الداخلية، وتهدف إلى عقد صلة مع العوالم القدسية"⁽⁴⁾، فالمقصود بالطقس هو تلك الشعائر والممارسات التي يؤديها المرء مع أقرانه في مناسبات محددة ذات

طابع قديسي، أي شكل من أشكال العبادة الدينية أو مظهرها يضيف على الحياة الاجتماعية طابعا من التقييد التنظيمي والتعبير الاحتفالي، وهذا ما حاولت الرؤية السوسولوجية التوصل إليه .

والوعدة شكل من أشكال الطقس، فهي سلوك إنساني وممارسة تتكرر في ثبات من الزمان والمكان، وتخضع لنظام وقواعد مضبوطة ليست مكتوبة، بل راسخة في الذاكرة الشعبية كثقافة جماعية.

فكلمة "الوعدة" مشتقة من الفعل "وعد" بمعنى تعهد، تعهد بشيء ما، أي أخذ على عاتقه هذا الأمر الذي عزم عليه، وفي العرف الشعبي هي عبارة عن احتفال ديني يقوم به أبناء أو أحفاد أو سلالة ولي من الأولياء أو التابعين لطريقته قصد التبرك فهي «احتفال ديني يقوم به أشخاص من سلالة الولي والتابعين له من حيث يأتون للزيارة بلوازم التنظيم»⁽⁵⁾، حيث تلتزم الفئة القائمة عليه من هؤلاء بالدعوة للزيارة، فيأتون من كل المناطق الجزائرية وينظمون قرب ضريحه هذا الاحتفال، فيذبحون الكثير من الأغنام أو الأبقار أو الإبل ويعدون الطعام "الكسكس" ويقدمونه للزوار فتظهر على شكل محافل للكرم ومساعدة الفقراء والمحتاجين، فهي فرصة للالتقاء من أجل التكافل الاجتماعي وإظهار روح التعاون والتآخي والتماسك، وإثبات الوحدة تحت بركة هذا الولي المحتفل بذكره الحسنة لتخليد روحه ومآثره كما في حياته، كطقس ديني التماسا للبركة والفضل بالخير والتطلع لذلك، لأن في المعتقدات الشعبية الجزائرية أن الولي حينما يموت تظل روحه تنتقل في كل مكان وأكثر ما تجول على محيط الضريح، ولقضاء الحاجة فعلى الزائر "طالب الحاجة" الاستنجاد باسمه ليحقق له ما أراد وهذه الحالة كثيرا ما يلجأ إليها الناس أثناء وقوع المصائب والمحن وفي الشدائد والكوارث، فيلجئون إلى الاستنجاد بالولي، وهذه الاعتقادات ظلت على مدى سنوات عديدة راسخة في أذهان الناس ونفوسهم، ونقلت إلى الأجيال بتوارث الأفكار والمعتقدات حول منزلة الأولياء والصالحين وكرامتهم في حياتهم وبعد مماتهم، وشكلت تراثا شعبيا يطبع سلوك الناس وأفعالهم، وأضحت تشكل المشترك بينهم، وتبنيهم هذه المعتقدات يجعلهم مدافعين عنها بمختلف الوسائل لأنهم يرون فيها تجسيدا لماضيهم وأجدادهم، باعتبار هذا العمل قدوة وأخذوه بشكل من القداسة كإطار ديني يتحركون فيه، ولقداسة هذه الطقوس أصبحت المحافظة عليها وإحياء تقاليدها من الأهمية بمكان بالنسبة للمجتمع الجزائري، إبان الاستعمار الفرنسي.

والوعدة تسمى الوعد من الميعاد أي التقاء الناس في مكان ما، تقام منذ القدم، لأن مفهوم الوعدة لم يحدد بصفة دقيقة في أصلها لقلة الدراسات الانثروبولوجية ولغياب الدراسات الشعبية في هذا المجال وهذا ما جعل الباحث بوشمة معاشو يعتقد أن تكون الوعدة من اختراع الشعب الموريسكي الذين فروا إلى شمال إفريقيا واستوطنوا هناك «إن الوعدة حديثة العهد ترتبط بسقوط غرناطة وبأهلها الموريسكيين الذين هجروا الأندلس واستقروا بشمال إفريقيا بما في ذلك الجزائر»⁽⁶⁾ وتحتم عليهم في ظروفهم الجديدة ومقامهم الجغرافي الجديد تحديد موعد للالتقاء والتزاور، وعند التقيهم تنصب الخيام وتذبح الذبائح وتعد الأطعمة وتتخلل هذه الأفراح والمباهج إنشاد الأشعار من الموشحات والأزجال والاستمتاع بالموسيقى والرقص في احتفال شعبي، وفي كل موسم أو عام يتجدد اللقاء في نفس الزمان والمكان لإعلان الفرحة والتمتع بها، بموجب هذا الالتقاء والتجمع.

ويبدو أنه من هنا كانت الانطلاقة في تسمية الوعدة «ومن هنا أخذ الاحتفال اسم الوعدة وربما كانت في الأصل الوعد ثم تأنثت التسمية مع مرور الزمن تماما مثل ما تغيرت أمكنة وأزمنة حدوثها مع تغيير أحوال المجتمع الجزائري»⁽⁷⁾ وتوارث المجتمع الجزائري هذه العادات، فكانت القبائل الجزائرية تقيم هذه الولائم وتستدعي إليها القبائل المجاورة والقريبة منها، وتحيي هذا الموعد في يوم أو أيام خاصة بعد موسم الحرث أو الحصاد أو بناء مسجد أو لجمع صدقات للفقراء والمحتاجين، وغالبا ما يكون المكان قرب ضريح ولي من الأولياء الصالحين بالمنطقة ليلتمسوا البركة منه ويتمسحوا بضريحه لجلب الخير، أو قرب مقبرة مدفون بها أحد الأولياء، ولهذا أغلب الوعدات تنسب إلى ولي وتسمى باسمه.

والوعدة تصنف ضمن الطقس Rite وهي كلمة مشتقة من Ritus اللاتينية الأصل وتعني: «عادات وتقاليد مجتمع معين كما تعني أنواع الاحتفالات التي تستدعي معتقدات تكون خارج الإطار التجريبي»⁽⁸⁾، تثبت استمرار الأحداث والوقائع التاريخية ذات التأثير الواسع وتكون ذات شهرة وتميل إلى تكريس ديمومة حدث اجتماعي أو الأسطورة التي أوجدته، فهو استناداً إلى ذلك إعادة خلق وتحيين لماض غامض غالبا، لكنه يأخذ معناه من الدين، يستخدمونه على أنه فعل ديني⁽⁹⁾، وممارسة الطقس التقليدي أو الشعبي تكثر في الوسط الريفي وتوجه إلى المعتقد الديني أكثر من الوسط المدني، ويرى الباحث نور الدين طوالي أن التطبيق الشامل لطقوس الأمة ليس قبل كل شيء سوى برهان إضافي على تعلق الشعبي بالدين⁽¹⁰⁾، وإقامة الوعدة كطقس بكل مظاهرها وإجراءاتها عادة من العادات المرتبطة بالتراث الجزائري، وهي ظاهرة عرفتها المجتمعات والقبائل منذ القديم على اختلاف تسمياتها، لأن في المناطق السهبية تسمى "الزورة" وفي بعض الجهات تسمى العهدة، وانتشار هذه الظاهرة واستمرارها في مواسم معلومة حسب كل منطقة من مناطق الجزائر تكرر اعتقادا جازما في أن عدم إقامتها يؤدي إلى نقص البركة وزوال الخير مثل: تأخر نزول الغيث وضعف مردود الحصاد أو زوال النعم... إلخ هذا الارتباط الوثيق بهذه الظاهرة يمتد الارتباط بالواقع الاجتماعي للجزائريين، والإطار الشعبي العام الذي يتحركون فيه ينعكس على سلوكياتهم، يكمن في كونها تقاليد وعادات شعبية أفرزت هذا الطقس الذي شكل حاجزا واقيا أمام محاولات التغريب الفرنسية وأساليبها في الاستلاب الثقافي، وبفضل هذه العادات والتقاليد شيدوا حصنا منيعا ضد الغزو الثقافي المسيحي، وهذه العادات والتقاليد الشعبية المتوارثة شكّلت تراثا يتخذ شكل الطقوس في بعض الأفعال والسلوكيات، بناها المجتمع الجزائري ودافع عنها، وأخذت صبغة القداسة، فأصبحت «المحافظة عليها من الأهمية بمكان بالنسبة لجميع أفراد المنطقة أو الجهة "القبيلة"»⁽¹¹⁾، مثل الوعدة التي تعتبر ظاهرة من ظواهر الممارسة الشعبية الدينية، وبهذا المفهوم فهي تمثل جزءا من نظام الدين وجزءا من نمط الثقافة في المجتمع الجزائري، لتجذرها في السلوك الاجتماعي والمخيال الشعبي الذي يتأسس على اعتقادات دينية وأنساق ثقافية يتم بشكل لا يستدعي التفكير حول معنوياته.

والوعدة بكل ما تحمل من معان وما فيها من مظاهر ما هي إلا استمرار للعادات والتقاليد الشعبية، فهي إرادة جماعية تسعى إلى إعادة الاعتبار للعادات وللتقاليد، كما أنها تعكس ارتباطه بثقافته وتعلقه بدينه، وعند الجزائريين تأخذ هالة روحانية مستمدة من اعتقادهم في الولي حيا وميتا وتمثل شيئا مقدسا وممارسة طقوسية هدفها

التكفير عن الخطايا بواسطة التوسل إلى الله وجعل الولي هو الوسيلة لرفع الغبن أو الظلم، أو لجلب البركة والخير، لأنّ هذا المقدس كظاهرة اجتماعية فهو محكوم بالدلالات والرموز التي تتشكل بفعل المخيلة الاجتماعية⁽¹²⁾.

والوعدة ظاهرة أنثروبولوجية دينية ساهمت في الحفاظ على تماسك الشخصية الجزائرية، والترابط الاجتماعي بين أفراد المجتمع الجزائري، وحافظت على ثقافته وقيمه وتراثه المتوارث جيلا بعد جيل، كما شكلت لبنة من لبنات الهوية الجزائرية التي واجهت الثقافة الغازية التي حملها الاستعمار الفرنسي معه من أجل أن يحل محل الثقافة المحلية، كما رسخت الأفكار التراثية في نفوس الجزائريين، مكنتهم من مقاومة الاستعمار مدة احتلال الجزائر.

ودراسة ظاهرة الوعدة من الناحية الأنثروبولوجية يركز على أنها سلوك وتعبير عقائدي يترجم عن بعض الحاجات الفردية والاجتماعية، وأنها ظاهرة حضارية، جذورها مترسبة في اللا شعور الفردي، تتعلق بما هو عقائدي، مكونا من الثقافة التي صنعت المجتمع الجزائري⁽¹³⁾، وانطلاقا من هذه الأبعاد الثقافية والاجتماعية والأنثروبولوجية للوعدة فإنها كفلكلور ربطت المفاهيم الاعتقادية والتطلعات الدينية بمعطيات الواقع، ومنها ورث الجزائري عن آباءه وأجداده مفاهيم تتناسب مع جماعته ومجتمعه، ونظامها يوحي بتماسك الشخصية الجزائرية والحفاظ على اللبنات الاجتماعية المشكلة للمجتمع الجزائري.

والوعدة هي نذر، حيث يتجمع أتباع طريقة صوفية ما، أو هي تجمع شعبي يقومون بوليمة دينية مصحوبة بترديد الأذكار والتهاليل والتكبيرات وقلاوة لبعض أجزاء القرآن الكريم، والشعراء ينشدون القصائد الملحونة الدينية والمداحون يترنمون بمدائح الرسول وآل بيته، كما يتغنون بمآثر الخلفاء الراشدين وسيرة الصحابة وبطولات العرب ورواية النوادر والقصص الشعبية، بالإضافة إلى الفرق الغنائية التي تمتع الحاضرين بالأغاني البدوية والشعبية والرقصات الفلكلورية على وقع هذه الأغاني وبعض الألعاب السحرية، إلى جانب ذلك إنشاء سوق موسمية في هذه المناسبة، فتظهر براعة الصانع في الصناعة التقليدية والحرفية التي تعكس ثقافة المنطقة التي تقام فيها الوعدة، وعادة ما ترتبط الوعدة بذكرى وفاة ولي من الأولياء أو شيخ طريقة صوفية، فتتوجب الزيارة، والزيارة تتمثل في قدوم المريد أي التابع إلى شيخه أو من يقوم مقامه إذا كان ميتا محملا بمستحقات الطاعة والتبعية، وهذا حق الشيخ على المريد، فتكون بتقديم مبلغ مالي أو شاة أو ديك.... وغيرها، والأتباع يطلق عليهم الإخوان في مثل هذا التجمع، أي تجمعهم رابطة الأخوة في الإسلام وفي الأفكار والاتجاه الواحد وفي الطريقة الصوفية الواحدة، والزيارة تعني أيضا قيام الزائر بزيارة لبعض المواضع للتبرك تتعلق بأحد الأولياء في حياته أو بعد مماته، كزيارة الأضرحة كممارسة طقوسية يمارسها الزائر بمناسبة الوعدة، قصد التماس البركة والبحث عن الطمأنينة والهدوء، أو الاعتقاد في الشفاء من الأمراض النفسية والعضوية، أو تحقيق الأمنيات والرغبات، ولا يتأتى إلا بضرورة الحاجة إلى وسيط للشفاعة والتوسل، ومد يد التحالف بين الولي والزائر والاستفادة من دعوته والتعهد بزيارته حيا أو ميتا، والوعدة بهذا المفهوم هي تجديد للعهد وتقديم الولاء والاستسلام لأفكاره.

وتتخذ أشكال طقوسية إجرائية يبادر إليها الزائر لتكريس هذه الاعتقادات كتقبيل الأضرحة أو القباب أو الجدران، أو الشرب والاعتسال بالماء القريب من هذه الأماكن أو تقبيل الأزارات وإشعال الشموع ونشر البخور والإكثار من

الدعاء، واعتباره وسيطا في التوسل بينه وبين الله، ويقوم القائمون على مظاهر الوعدة بالزردة (الطعام)، وهي وليمة موسمية يحضرها الأتباع في مكان يحدد عند ضريح الولي وتكون فيها جمع التبرعات لصالح شيخ طريقة صوفية ما، وأحيانا تكون الزردة بمناسبة ختان أو احتفال بزواج، وهذه الوليمة يتم فيها إطعام الناس بالكسكس واللحم، ويتم فيها اللعب على الخيل والتبارز والاستمتاع بالأغاني الشعبية وإنشاد الشعر الملحون من الشعراء والمداحين، وتمارس فيها الألعاب السحرية، وكل طعام يقدم يسمى "المعروف"، وهذا "المعروف" يكرس التعلق بالعالم المقدس "الدين" من أجل التقرب إلى الخالق بواسطة هؤلاء العباد "الأولياء" الذين يحبهم الله، وأن المعروف الذي يقدم في الوعدة يزيل الشعور بعقدة الخوف من القوى الغيبية وممارسة هذا الطقس وفعله هو انتصار على هذا الخوف.

وإذا كانت للوعدة وظائف ودلالات متعددة منها ما هو ديني واجتماعي وثقافي، فهي سلوك مرتبط بالتراث الشعبي وعادة عرفها المجتمع الجزائري ومارسها، ونجدها منتشرة في الأرياف والقرى والمدن، والناس يحيون مواسمها ويحتفلون بإقامة طقوسها. واستمرارها وثيق الصلة بالمعتقد الديني والواقع الاجتماعي والثقافي للمجتمع الجزائري. والنتيجة المستخلصة أن الوعدة الشعبية تعتبر مصدرا رئيسا من مصادر الثقافة الدينية في الجزائر.

الإحالات والهوامش

- 1- شارلوت سيمور - سميث / موسوعة علم الإنسان : المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية / ترجمة مجموعة من أساتذة علم الاجتماع بإشراف محمد الجوهري - القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة، 1998، ص.731
- 2- جوردون مارشال / موسوعة علم الاجتماع / ترجمة محمد الجوهري وآخرون، مج - 3. القاهرة المجلس الأعلى للثقافة، 2001 ص.1570
- 3- لويس معلوف، المنجد في اللغة والأدب والعلوم، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، ط5، د ت، ص.468
- 4- فراس السواح، الأسطورة والمعنى، دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، منشورات دار علاء الدين، دمشق، سوريا، د ت، ص.129
- 5- بوشمة معاشو، سيدي غانم، تراث وثقافة، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، 2002 م، ص.13
- 6- المرجع نفسه، ص.15
- 7- المرجع نفسه، ص.15
- 8- طوالي نور الدين، في إشكالية المقدس : الدين .. الطقوس .. التغيرات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1988 م، ص.147
- 9- ينظر : المرجع نفسه، ص 34 و 35
- 10- ينظر : المرجع نفسه، ص 35 وما بعدها.
- 11- أحمد بن أحمد، ظاهرة الوعدة، دراسة أنثروبولوجية، رسالة ماجستير، معهد الثقافة الشعبية، تلمسان، الجمهورية الجزائرية، 1998-1999 م، ص.23
- 12- ينظر : بوشمة معاشو، سيدي غانم، تراث وثقافة، مرجع سابق، ص 13 وما بعدها.
- 13- للتفصيل أكثر ينظر : أحمد بن أحمد، ظاهرة الوعدة، دراسة أنثروبولوجية، مرجع سابق، ص 24 وما بعدها، وينظر : بوشمة معاشو، سيدي غانم، تراث وثقافة، مرجع سابق، ص 23 وما بعدها.

دلالات الثبات والصدق للصورة الجزائرية لرائز رسم الرجل المعدل

د. مقسم مختار، أستاذ علم النفس
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

ملخص:

تهدف الدراسة الحالية دراسة مدى صلاحية رائز رسم الرجل لغودنيف - هاريس لقياس ذكاء تلميذ المرحلة الابتدائية من المرحلة التحضيرية إلى السنة الخامسة بمنطقة سيدي بلعباس. ولتحقيق هذا الهدف العام ركزت الدراسة على التالي: هل يتمتع الرانز بدلالات ثبات جيدة، وذلك من حيث إعادة الاختبار؟ هل يتمتع الرانز بدلالات صدق جيدة، وذلك من حيث: محك تمايز العمر والمحك الخارجي؟ وانتهت الدراسة بالتحقق من إمكان تطبيق الرانز على البيئة الجزائرية مع التأكيد على بعض الخصائص الثقافية والحضارية لكل من البيئة الأمريكية والبيئة الجزائرية سواء في الإيقاع الشخصي أو المعايير.

مقدمة

لا شك أن معظم الروانز النفسية التي تقيس القدرات أو السمات الشخصية قد انتقلت من عالم الغرب إلى العالم العربي الذي ننتمي إليه، وقد أضحت كثيرة الاستعمال في شتى المجالات والأصعدة، وهذا الانتقال لهذه الروانز بما تحتوشه من مرجعية ثقافية مختلفة عن الثقافة السائدة في بلدان العالم العربي يطرح خطورة على مستوى التطبيق والتصحيح.

وقد اختلفت ممارسات علماء النفس العرب إزاء تطبيق هذه الروانز، فمنهم من اكتفى بترجمتها فقط، ومنهم من قام بتكييفها على البيئة العربية. ومنهم من تخير بعض الروانز والمقاييس التي سميت بـ: "الروانز المتحررة ثقافياً" وقام بترجمتها إلى اللغة العربية. ومن جملة تلك الروانز "المتحررة ثقافياً" رائز رسم الرجل لفلورنس غودنيف الذي يطبق في أكثر من دولة عربية ينبئ عن ذلك كثرة الدراسات العربية عليه. ولكن هل فعلاً هذه الروانز "متحررة ثقافياً" ولا تطرح أي إشكال في البيئة العربية عامة والجزائرية خاصة؟

1 - مشكلة الدراسة

يتجه العمل في الدراسة الحالية نحو توفير رائز ذكاء للاستخدام في البيئة الجزائرية بعد التأكد من خصائصه القياسية واستخراج دلالات ثباته وصدقه من خلال تطبيقه على هذه البيئة.

وكانت التساؤلات الفرعية كالتالي :

1. هل يتمتع الرائز بدلالات ثبات جيدة، وذلك من حيث إعادة الاختبار؟
2. هل يتمتع الرائز بدلالات صدق جيدة، وذلك من حيث:
 - أ. محك تمايز العمر
 - ب. والمحك الخارجي؟

2 - الدراسات السابقة حول الرائز في الطبعة المعدلة :

أما عن الرائز المعدل (غودنيف - هاريس 1963) فقد تتابعت البحوث بعد ظهوره تتابعا كبيرا لا يتسع المقام لتناوله بالتفصيل وحسبنا أن نشير إلى أنه في عام 1966 صدر مسح شامل لهذه الدراسات يبين أن النتائج تؤكد ثبات المقياس وصدقه، وأنه رائز غير لفظي للنضج العقلي، بالإضافة إلى حساسيته الشديدة للعوامل الثقافية التي تؤثر في تمثيل الطفل لمفهوم شكل الإنسان.

أما بالنسبة للدراسات التي أجريت على الرائز المعدل في البلدان العربية مع الإبقاء على البنود الـ 73 فهناك دراستان أولاهما : دراسة محمد متولي غنيمه عام 1976 و ثانيهما : دراسة صفوت فرج عام 1992 .

قام غنيمه في دراسته التي استخدم فيها محكات هاريس لتصحيح الاختبار بتحليل لرسوم الأطفال للرجل مرتديا الجلباب وهي الرسوم التي قدمها 300 طفلا من المجموع الكلي لعينته البالغ 1915 طفلا رسم بقيتهم الرجل بالملابس الأوروبية . واستخدم غنيمه في تصحيحه الأسلوب الذي اتبعه بدري في منح الدرجة على البنود إذ افترض أن الزي المرسوم يغطي الجزء المعين من الجسم ويتضمنه بالضرورة.

أما دراسة صفوت فرج والتي عرضها في كتابه المعنون : " الذكاء ورسوم الأطفال " فقد بلغ أفراد عينته السوية (1794) طفلا من الذكور والإناث في المرحلة العمرية من (4) سنوات حتى (7) سنوات سحبت عشوائيا من دور الحضانه والمدارس الابتدائية بالقاهرة الكبرى . وأضاف للمقارنة عينة من المتخلفين عقليا تتكون من (51) طفلا من (4) سنوات حتى (6) سنوات ، وعينة أخرى من الصم وضعاف السمع تتكون من (42) طفلا .⁽¹⁾

3 - أهداف الدراسة وأهميتها

أهمية الدراسة

تمثلت أهمية الدراسة في حاجة المؤسسات التربوية خاصة في الجزائر إلى وجود أدوات علمية دقيقة تتمثل في اختبارات الذكاء والتي تستخدم في عمليات التشخيص والاختيار والتطبيق اللازمة لاتخاذ القرارات المهمة المتعلقة بالعملية التربوية والناتج عن قلة ونُدرة اختبارات الذكاء المقننة على مستوى الجمهورية الجزائرية أو أجزاء منها وذلك بسبب عدم وجود مؤسسات متخصصة في عملية القياس النفسي إضافة إلى صعوبة عملية التقنين وتكلفتها المادية الكبيرة والتي جعلت الكثير من الباحثين يتنكبونها.

أهداف الدراسة

تهدف الدراسة إلى معرفة ما إذا كانت بعض الروائز غير المشبعة ثقافيا بإمكانها أن تؤثر على صلاحيتها لقياس ذكاء تلاميذ المرحلة الابتدائية بولاية سيدي بلعباس. ولتحقيق هذا الهدف العام ركزت الدراسة على التالي:

3. هل يتمتع الرائز بدلالات ثبات جيدة، وذلك من حيث إعادة الاختبار؟
4. هل يتمتع الرائز بدلالات صدق جيدة، وذلك من حيث:
 - أ. محك تمايز العمر
 - ب. والمحك الخارجي؟

حدود الدراسة

شملت الدراسة الحالية تلاميذ المرحلة الابتدائية من المرحلة التحضيرية إلى السنة الخامسة بالمدارس الابتدائية بمنطقة سيدي بلعباس وذلك في فترة زمنية امتدت من مارس 2009 إلى غاية نهاية الموسم الدراسي.

4 - منهج الدراسة وعينتها

استعمل الباحث المنهج الوصفي، وقد تكونت من (620) طفلا وطفلة من تلاميذ المرحلة الابتدائية تمتد أعمارهم بين خمس وعشر سنوات من مستوى التحضيري إلى مستوى السنة الخامسة ابتدائي تم اختيارهم باستخدام العينة العشوائية الطبقية من إحدى عشرة مدرسة كلها بمدينة سيدي بلعباس وضواحيها.

أدوات الدراسة

تم استخدام الأدوات التالية في الدراسة الحالية :

1. رانز رسم الرجل لغودنف تعديل دال هاريس 1963:

رانز رسم الرجل Draw a Man Test أو Draw a Man Intelligence Scale من الروائز غير اللفظية،

وقد أعدته الباحثة الأمريكية فلورونس غودنيف F, Goodenough عام 1926

وقد ظل يستخدم دون تعديل حتى عام 1963 على أساس تصحيح 51 عنصرا من العناصر التي رسمها

الطفل. إلا أنه في عام 1963 ظهر تعديل جديد شامل للرائز، وأصبح يسمى رانز الرسم لغودنيف هاريس

Goodenough Harris Drawing Test وقد شمل التعديل ثلاث جوانب هي:

الاول: في إجراء الرائز، فهو يطلب من الأطفال أن يرسموا ثلاثة رسومات يمثل الرسم الأول رجلا والثاني امرأة والثالث

طفلا بدل رسم رجل فقط كما هو في طبعة 1926.

الثاني: في البنود جدول التصحيح، فلقد رفعها هاريس من (51) في جدول غودنيف إلى حوالي (73).

الجانب الثالث: وهو زيادة مدى الرائز حتى وصل إلى سن 18 سنة.

ويتم تقسيم رسم الإنسان المنتج من قبل المفحوص في كلا الطبعتين وفقا لقائمة مقننة يحسب على أساسها نسبة الذكاء.

الخصائص السيكمترية للرائز:

أولا: ثبات الاختبار

وقد قام هاريس بتقييم ثبات المقياس مستخدما في ذلك طريقتين:

1. الاتساق بين المصححين، فلقد حسبت معاملات الارتباط بين الدرجات لكلا المصححين لنفس العينة

فتراوحت معظم معاملات الارتباط فوق 0.90.

2. فقد طبق المقياس بطريقة الإعادة وذلك بعد مرور فترة تصل إلى ثلاثة شهور وتراوحت بين الستينات

والسبعينات.⁽²⁾

3. ثانيا: صدق الاختبار:

يلاحظ من النظر في هذه النتائج أن معاملات الارتباط بين رانز الرسم لغودنيف والعديد من الروائز الأخرى

تتفاوت فيما بينها تفاوتاً كبيراً، إلا أنه يلاحظ أن معظمها يقع فوق معامل ارتباط 0.50.⁽³⁾

النتائج المدرسية:

حيث اعتمد على النتائج المدرسية ممثلة في المعدلات السنوية العامة والخاصة بكل من مادة اللغة العربية

والرياضيات وذلك من خلال كشوف نقاط التلاميذ التابعين للمدارس المختارة للموسم الدراسي 2009/2008.

الأساليب الإحصائية :

تم نقل النتائج المتحصل عليها إلى برنامج الحزمة الإحصائية للعلوم الاجتماعية والمعروف بـ (Spss) النسخة

15 وذلك بعد ترميزها .

5 - النتائج ومناقشتها :

1. ثبات الرانز :

استخدم الباحث لحساب ثبات الرانز عينتين إحداهما في الفئة العمرية (6و5 إلى 5و6) والثانية في الفئة

العمرية (6.6 إلى 7.5) وكانت النتائج كالتالي :

جدول رقم (12) يوضح معاملات ثبات الرانز لعينتين في فئتين عمريتين من الجنسين

المجموعة	العدد	الفئة العمرية	معامل الثبات
الأولى	25	5و6 إلى 5و6	0.78
الثانية	27	6.6 إلى 7.5	0.77

وتتسق هذه النتيجة مع نتائج دراسات سابقة من ذلك دراسة دروثا مكارثي (1944) حيث وجد معامل ثبات

بالإعادة (0.67) ودراسة ح.ج. مكاردي سنة 1948 أعطت النتيجة نفسها (0.69) ودراسة صفوت فرج (1992) حيث

وجد (0.73 و 0.79) على التوالي⁽⁴⁾ وهذا يدل على أن ثبات رانز رسم الرجل عبر الزمن لا يتعدى هذه النتيجة .

2. صدق الرانز :

أ. صدق محك تمايز العمر :

و لهذا الغرض استخدم الباحث اختبار (ت) لقياس الفروق بين المتوسطات الغير المرتبطة ، وتظهر هذه النتائج

كلها في الجدول رقم (13) التالي :

جدول رقم (13) يبين متوسطات الدرجات في رانز رسم الرجل حسب فئات العمر .

فئات العمر	المتوسط	الانحراف المعياري	عدد الحالات	اختبار (ت)	مستوى الدلالة	الدلالة
4و5 إلى 5و5	15.06	4.58	83			
5و6 إلى 6و5	19.17	6.21	116	- 5.12	أقل من 5 %	ذو دلالة عالية

ذو دلالة عالية	أقل من 5%	5.67 -	105	5.63	23.71	6و6 إلى 7و5
ذو دلالة عالية	أقل من 5%	1.61 -	105	5.94	25.00	7و6 إلى 8و5
من غير دلالة	أقل من 5%	3.72 -	111	4.78	28.09	8و6 إلى 9و5
ذو دلالة عالية	أقل من 5%	23.00 -	100	6.96	46.92	9و6 إلى 10و5

من خلال الجدول السابق يتضح أن جميع الفروق بين المتوسطات هي فروق ذات دلالة إحصائية عالية ماعدا الفرق بين السن 8 و السن 9 و بالتالي نجد أن كل متوسط يفوق المتوسط الذي يسبقه و ينقص عن المتوسط الذي يليه بمستوى عال من الموثوقية فالمسافات بين السن 5 و6، و بين 6 و 7، و بين 7 و 8، و بين 9 و 10 هي مسافات ذات فروق دالة. فإذا أردنا الاستنتاج و التعميم أمكن لنا القول بأن الإنجاز في رائز رسم الرجل يتلازم اطراديا مع السن.

ب. صدق المحك:

لما لم يكن هناك رائز مسبق مقنن لذكاء الطفل الجزائري، فقد حاول الباحث قياس صدق رائز رسم الرجل بحساب معامل الارتباط بين هذا الرائز وبين النتائج المدرسية لنفس الأطفال، فاختار من بين العشر مدارس مدرستين وقام بحساب معامل الارتباط لبيرسون (ر) بين نتائج رائز رسم الرجل لـ 16 طفلا من الفئة العمرية (6و7 إلى 8و5) وبين مجموع درجات الأطفال أنفسهم بالنسبة لكل من المعدلات السنوية: المعدل السنوي لمادة الرياضيات واللغة العربية والمعدل السنوي العام للسنة الدراسية 2008، 2009 ميلادية فكانت النتائج كالتالي:

جدول رقم (14) يبين معامل ارتباط بين نتائج رائز رسم الرجل و المعدل السنوي العام

المتغير	عدد الحالات	مستوى الدلالة	الدلالة
المعدل السنوي العام	16	0.048	دال
نتائج رائز رسم الرجل			

دال عند مستوى 0.05

أي أن معامل الارتباط بين نتائج رائز رسم الرجل و المعدل السنوي العام ذو دلالة عند مستوى 0.05.

وكان معامل الارتباط لبيرسون بين نتائج رائز رسم الرجل والمعدل السنوي لمادة اللغة العربية كالآتي :

جدول رقم (15) يبين معامل ارتباط بين نتائج رائز رسم الرجل والمعدل السنوي للعربية

المتغير	عدد الحالات	مستوى الدلالة	الدلالة
المعدل السنوي للعربية	16	0.048	دال
نتائج الرائز			

دال عند مستوى 0.05

أي أن معامل الارتباط بين نتائج رائز رسم الرجل وبين المعدل السنوي لمادة اللغة العربية ذو دلالة عند مستوى

0.05 . وكان معامل الارتباط لبيرسون بين نتائج رائز رسم الرجل والمعدل السنوي لمادة الرياضيات كالآتي :

جدول رقم (16) يبين معامل ارتباط بين نتائج رائز رسم الرجل والمعدل السنوي للرياضيات

المتغير	عدد الحالات	مستوى الدلالة	الدلالة
المعدل السنوي للرياضيات	16	0.249	غير دال
نتائج الرائز			

أي أنه لا يوجد أي ارتباط ذي دلالة إحصائية بين نتائج الرائز والمعدل السنوي لمادة الرياضيات.

ويستخلص الباحث إلى أنه يوجد ارتباط ذي دلالة إحصائية بين نتائج رائز رسم الرجل والمعدل السنوي العام

وكذا المعدل السنوي لمادة اللغة العربية عند مستوى 0.05، ولا يوجد أي ارتباط ذي دلالة إحصائية بين نتائج الرائز

والمعدل السنوي لمادة الرياضيات بالنسبة للفئة العمرية (7 و6 إلى 8 و5).

إن هذا التذبذب في النتائج قد يكون ناتجا عن عدم صدق الاختبارات المدرسية أو بالأحرى عدم موضوعيتها في

قياس الذكاء، أي عدم وجود ارتباط ذي دلالة إحصائية بين الاختبارات المدرسية ونسبة ذكاء الأطفال المفحوصين. أضف

إلى ذلك عدم دقة المعلمين في تقويم التلاميذ، وإلى عدم اعتماد التعليم المدرسي على ذكاء الأطفال كعامل منفرد.

وهذه النتيجة تتفق وما أسفرت عليه كل من دراسة محمد بطاينة بالأردن وعبد الجليل الزوبعي بالعراق ومالك

بدري بالسودان عن عدم وجود أي ارتباط ذي دلالة إحصائية بين نتائج رائز رسم الرجل وبين الاختبارات المدرسية⁽⁵⁾

لأسباب المذكورة سلفا .

6 - الاستنتاجات والمقترحات :

انطلق البحث من عدة تساؤلات تنصب حول إمكانية تطبيق رائز رسم الرجل الأمريكي الأصل على البيئة الجزائرية وبالأخص المنطقة الغربية وبالأخص مدينة سيدي بلعباس وانتهى البحث إلى إمكان التطبيق مع الإشادة بخصوصية كل مجتمع.

وحيث إن الباحث اتخذ من ولاية سيدي بلعباس كدراسة استطلاعية يمكن أن تعمم عبر القطر الجزائري وبذلك مهد الطريق لغيره في استخدام رائز رسم الرجل في قياس ذكاء الطفل الجزائري، ومهد من جهة أخرى لفتح الباب حول استخدام الروائز المختلفة في البيئة الجزائرية خاصة وأن البحوث الميدانية قد تلجأ إلى مثل هذه الروائز. وينتهي البحث بعدة توصيات واقتراحات أهمها الإشارة إلى الاهتمام بتطبيق الروائز النفسية المختلفة على المجتمع الجزائري تكييفاً أو إنتاجاً وهذا _ كما قد سبقت الإشارة إليه _ أمر تضطلع به الحكومات بإيعاز من الجامعات.

الاحالات والهوامش :

- 1 - فرج، صفوت، الذكاء ورسم الأطفال، القاهرة: دار الثقافة ، 1992 ص.123.
- 2 - Harris Dale B. Children's Drawings As Measures Of Intellectual Maturity (A Revision and Extention of the Goodenough Draw-a-ManTest). New york : Harcourt,Brace & world,Inc. 1963.
- 3 - هاريس، د.ب اختبار الرسم جودانف - هاريس، (ترجمة وإعداد فراج، محمد فرغلي والسيد، عبد الحليم محمود ومجدي، صفية)، القاهرة: مركز البحوث والدراسات النفسية، 2004، ص:12
- 4 - فرج، صفوت، الذكاء ورسم الأطفال، القاهرة: دار الثقافة ، 1992، ص:103
- 5 - بدري، مالك، سيكولوجية رسوم الأطفال ، بيروت : دارالفتح للطباعة والنشر، 1966، ص:63

المحور الثاني : الدراسات الفنية والأدبية

عنف الخطاب الروائي في "طائر الخبل" لعبد الله الرحّالي

سلطة اللغة في مواجهة لغة السلطة

فتحي فارس

(باحث في السرديات) / تونس

مقدمة : في العنف والأدب

اهتمّت العديد من الدراسات والبحوث النقدية⁽¹⁾ وغير النقدية أيضا (علم الاجتماع، النفس، الإناسة، ...) بما تقوله الكتابة الأدبية عن العنف، أي بالعنف باعتباره أحد الموضوعات الكبرى في الأدب الإنساني، قديمه وحديثه⁽²⁾، معتبرة النصّ الإبداعي وثيقة تعكس المكانة التي يحتلّها العنف في تجارب الأفراد والجماعات والشعوب، أي في تاريخ الإنسان. ولا شكّ أن هذا العمل هامّ باعتبار علاقة الكتابة بالوجود وشهادة الكاتب على ما يعيش، ولا مرأى في أنّه يساعد على معرفة العنف المعيش، العنف كما عاشه الإنسان في المكان والزمان، وبلوغ حقائق حول العنف والمجتمع والتاريخ والإنسان.

ولكنّ هذا المنحى ليس كافيا فالتعامل مع العنف موضوعا للأدب وغرضا له لا يستطيع أن يحيط بالمسألة في بعدها الجمالي الأدبي. ذلك أنّ المتأمل في كتابات العنف الأدبية يتبيّن أنها لا تكتفي دوما برسم العنف كما يقع في المجتمع والتاريخ، بل إنّ فعل الكتابة نفسه فيها يمكن أن يكون فعل عنف، أو فعل / انفعال من مورس عليه العنف، ويمكن للكتابة وهي تكتب العنف أن تأتي هي نفسها كتابة عنيفة مدمرة انقلابية انتهاكية. ومن ثمة تحتاج مباحث العنف في الكتابة والكتابة الروائية خاصّة - إن أرادت أن تكون ثريّة متكاملة - إلى التحرك في اتجاهين: اتّجاه كتابة العنف (المضمون) وعنف الكتابة (شعريّة العنف) أي إلى الكيفية التي يقول بها الأدب العنف، والإنصات إلى العنف من خلال محكيّه الخاصّ، من خلال أسلوبه ولفظه والفريدين، من خلال ما يصاحب هذا أو ذاك من إيقاع وتقطيع وتنغيم وانفعال وألم.

لذلك يضعنا النظر المتكامل في ثنائية الرواية والعنف أمام فرضيتين في البحث تختلفان؛ فرضيّة أولى تهتمّ برواية العنف، أي ماذا تقول الكتابة عن العنف؟ وهذا اختيار العديد من الدراسات السوسيولوجية والتاريخية التي

تعتبر الرواية وثيقة اجتماعية تاريخية والبحوث النقدية المضمونية (التيمايكية). والفرضية الثانية تدرس عنف الرواية، وهي فرضية تسأل عن كيف تقول الكتابة العنف وتبحث في عنف الكتابة وتسعى إلى إبراز شعرية العنف.

لكن هذه المحاولة، التي تتخذ من رواية طائر الخبل⁽³⁾ للكاتب التونسي عبد الله الرحالي موضوعاً للدرس، لن تركز كثيراً على الفرضية الأولى رغم ثراء المادة في هذا المبحث، وإنما ستهتم بالاختيار الثاني لتتساءل: كيف يكتب عبد الله الرحالي العنف؟ ماذا عن عنف الكتابة عنده؟ ماذا تشكل الكتابة بالنسبة إلى هذا الكاتب الذي عانى شتى أنواع العنف والقهر والألم؟ والتزاماً بذلك ندرس في البداية لغة العنف (عنف المعجم والتركيب) ثم يكون النظر في استراتيجيات تخيل العنف في هذه الرواية.

مقدمة 2: في الرواية

في ظلّ واقع إقليمي عاصف تعرف فيه شواطئ الهوية الذاتية والجمعية مدّاً وجزراً متواصلين وفي ظلّ سطوة الظلم والقهر في تونس "الحديثة" ولدت رواية عبد الله الرحالي "طائر الخبل" التي تتنزل ضمن مجموعة أعمال روائية عربية لنفس الجيل (مواليد الستينيات) عكف أصحابها على محاسبة ذواتهم معرفياً وإيديولوجياً ومراجعة تصوراتهم لأنفسهم والكون من حولهم. خاصّة وهم قد عاشوا مجموعة كبرى من الأحداث العربية والعالمية منذ منتصف سنوات الثمانين ونهاية القرن الماضي، هذه الفترة التي شهدت سقوط الاتحاد السوفياتي وتنامي المدّ الأصولي ومراجعات الثوابت القومية وعلى رأسها مسألة التطبيع وحرب الخليج الثانية 1991 وسقوط بغداد.... في هذا الرحم غير الرحيم وضع الرحالي رواية "طائر الخبل" فكانت من الأعمال الروائية العربية الجديدة التي اتخذت من واقع تونس العربية منطلقاً لتشكيل متخيلها السردي، وجعلت من العنف موضوعاً وأسلوباً في الكتابة الروائية، راسمة ملامح هوية مكشوفة عاكسة حطام الذكريات الموشومة على مريّا الزمن. ذلك أن عنف الذاكرة الروائية في "طائر الخبل" وما تبعثر من الأشواق على ضفافها يجعل الجروح الغائرة لا تندمل بل يحولها الزمان المسرود إلى ندوب في "نسغ الذاكرة"؛ ذاكرة يتقاتل على أبوابها الشوق إلى الماضي وحلم باهت يكاد ينطفئ.

في "طائر الخبل"، يحاول جابر الدشراوي (السارد/البطل) اعتصار الذاكرة المتخمة بالهموم وفواجع الزمن، يطير بالقارئ إلى "دشرة" منسية على تلة من تلال "تالة"، يبحث في دروب ماضٍ ولّى ولا يزال حاضراً عن وجهها القديم، يسأل حيّطان البيوت المتعبة، عن طفل حافي القدمين كان يركض على ربوة الدشرة يسرح شعر "ديسها" ويتعطر بطيب "شيخها". قبل سنوات كان يؤوب إلى "الخروبة" لينفض عن ذاكرته غبار المدن ورائحة الإسفلت، وكان يستمتع بعزوة الأهل، وقهوة الصباح وخبز الأم وكركرة الأطفال.

ثمّ اختلف كل شيء، لم تعد "دشرة الخروبة" كما كانت أصبحت خاوية على عروشها، داهمها جراد الفساد، لا شيء يؤنس وحشتها سوى صفير الرياح من شقوق الجدران المتصدعة ومقبرة تشهد على ذاكرة. تقف الذات وحيدة تبكي

الأطلال ، تبحث في شجرة عتيقة (الخروبة) عن وشم قديم . صارت الخروبة "نعوشا واقفة في العراق" لم تعد تستقبل العصافير في آخر النهار، هي الأخرى اغتالها الفؤوس وأصبحت مجرد ذكرى في ركن من الذاكرة ، يشعر جابر الدشراوي أن جزءا من ماضيه اكتسحته الرياح ، رياح الفساد وأتى عليه جراد الوطن فيردد مع الشاعر "لا.. الأهل أهلي ولا الديار ديار".

فكيف تعاملت رواية "طائر الخبل" مع العنف الذي سكنها؟

وما هي الاستراتيجيات التي اعتمدها الرحالي في تخييل ظاهرة العنف؟

وهل نجح نص الرواية في أن يشكك اندفاع التسجيل ومغرياته بما أوتي من إمكان التخييل؟

1) معجم العنف (امبريالية المعنى)

في "طائر الخبل" ، لا يتعلق الأمر بعمل روائي أدبي هادئ يدعونا إلى التفكير في العنف من خلال الاستعانة بالأدب، بل إن الأمر يتعلق بكتابة أدب عنيف يخرجك من طمأنينتك، ويستفزك، ويرغمك على التفكير. فليس مطمح الرواية نقل العنف كما جرى، بل هي تطمح إلى الدخول في احتكاك عنيف مع العالم، ومن هنا تأتي الكتابة عنيفة متوحشة، "تغثال بياض الورقة"، غريبة مدهشة "تنبش في أحافير الوجود" (ص 194).

وتبرز أول مظاهر هذا العنف المتوحش في معجم النصّ الروائي الذي يخترقه رصاص الكلمات من كل جانب ويلقي عليه بكلّ شيء حتى لا نكاد نسمع في الرواية إلا أنين الضحايا تنوء تحت ثقل الرزايا ولا نقرأ إلا عبارات الرثاء للمطحونين بألة القهر الجسدي واللفظي والنفسي الذي يسكن فضاءات اجتماعية عديدة مثل العائلة ، والقرية والخروبة والكلية والقيروان...

المعجم	العبارات	النماذج
النهاية	التلاشي، العدم، المحو، الموت، الدفن، القتل، النزيف، الأشلاء، الجثث، التقطيع، البتر....	باعنا الوطن يا سالم... فاغتالك البحر المرّ واغتالني حقنة المورفين. 245 / من بعيد رأيت الخروبة نعوشا واقفة في العراق 239 / كانت أشواق جزءا من حالة علاجي... وكنت أنت جزءا من تخثر القلب واشتهاء النزيف 163 كاشتداد النزيف، كالقطار العنيف... يمشي على جثة الذاكرة ص 14
الحريق	لهيب، الحارقة، تنوريفور،	الجسد محموم 164 والجبين تنور متقد والذاكرة تنور. / الحرب بين

الرماد، الحريق، الحمى، الشهيلي...	أولاد خليفة والصوابجية 239/ فرسان وخيل ومقارين وبارود ودخاخين تحت التلة 238 صيف 82 لم يكن فقط حاراً وجافاً.. كان أيضاً فوهة بركان تتطاير بالشرر 226
الجنون	الخبل، الجذب، الجنون، العتة، الهذيان المحموم، النوبة
الكتابة	اغتيال، اغتصاب، وبكل عنف أضع سطرا تحت آخر الكلمات... سطين، ثلاثة... حتى يتملى أسفل الجذاذة بخطوط متعرجة تغتال وجه البياض 194/ لماذا اغتال بياض الورقة؟ 195/ أتراه إفرازا لعالة عنف ترفض في أعماقي أن ترى الدنيا تمشي بالقلوب؟ 195
الظلم	العسف، القهر، الظلم، الاجتيال، الاغتصاب، السجن، العذاب عسف الزمن 163 / قهر العدم 191 / الصدفة اغتالت كل أحلامي 163/ كبرنا معا في أدغال الحيف والحرمان... أشعر أنني أكبره بأيام العذاب 245/ كان نجيبها أكبر ألف مرة من كل أوجاع الدنيا التي عشتها أنا في حياتي وجع الأم التي قهرها الزمن وجع الأحلام تتحطم كالنفخار العتيق على صخور الوطن، قهر الظلم والحيف والحرمان.. قهر الدنيا 235/236
الخوف	الرعب، الخوف، غزة صورة مرعبة... 170 / والوطن مسلسل رعب 171/
الوطن	سجن كبير، مارستان واسع اليوم الوطن في حالة يأس أسود الوطن ينتحر الوطن يجن. 185

يزرع السارد الكاتب العنف في كل مكان من الرواية انطلاقاً من العنوان "الخبل" إلى عنوان القصيدة التي كتبتها رحاب حبيبة جابر الدشاوي (السارد) وألقتها في مهرجان القيروان الشعري على مسامع نزار قباني "اغتصاب زليخة" إلى عنوان قصيدة صلاح عبد الصبور المستحضرة "شوق زهران". في هذه العناوين الثلاثة يجتمع الجنون بالاغتصاب بالشوق وهي أعمق أشكال العنف وأقساها.

ويبرز جدول المعاجم المدروس في مستوى الفصل الأول فقط حجم حضور العنف في خطاب "طائر الخبل". فيه تحشد ترسانة من العبارات ذات المحمول العنيف سواء في منطوقها الحرفي أو في محمولها النفسي حيث الطاقة العنيفة قوية على وعي المستقبل ولا وعيه معا. تسيح الخطاب معاجم الموت والعدم والمحو (النهاية) نتيجة حتمية للحضور الكثيف والعميق للظلم في مفرداته المتعددة قهراً وعسفاً وطحنا وتعذيباً يأتي تأثيره جلياً في مستوى الآثار النفسية في الذات

المدّمة (الخوف، الرعب، الهذيان والهلوسة) تنتهي بالراوي في المارستان يعالج اضطراباته النفسية ويداوي جنونه وجنون الوطن. هذه المعاجم متعاقبة تشعل النار في الخطاب الروائي، فتمتدّ ثلثهم صفحات الرواية كما التهمت الأخضر واليابس في هذا الوطن. فالرأس تنوريفور والقريبة حرائقها في كلّ فجّ حرائق ظاهرة لا تخلف إلا الرماد والسواد وحرائق باطنة هي حرائق الاكباد على الأطفال والشباب ومستقبل الوطن. وليس يشفي من هذا الجنون وهذه النار سوى الكتابة. لكنّ الكتابة ذاتها بدت في النصّ تستعير معجم العنف وتسلك سبيله فتزيد في أوار النار واستعارها. أمر يتأكد إذا نحن التفتنا إلى جدول الصيغ.

النوع	الصيغة	الشاهد
الأفعال	تَفْعَل (هيمنة هذه الصيغة)	تأمل، تخيل، تسيج، تعطر، تأنق، تدقق، تسق، تتذكر، تتحدث، تنبأ، تأول، تهيا، توحد، تعلم، تريح، تقلب، تدقق، تضوع...
الصفات	مفعّل الفعيل أفعل التفضيل	المدمر، المنبه، المبكر، المخيف، شفيف، التائهة، القائمة... الرحيم، العنيف الأبرع، الأسرع، أقرب
المصادر	تَفْعَل	التسيج، توخّش، توهج، تحفّظ، تقشّف

تهيمن على الصيغ المستعملة في مستوى الأفعال والمصادر والصفات صيغ التعبير عن التكثير والمبالغة. تعبّر صيغة "تفعل" في الأفعال على عنف في إنجاز الفعل وجهد مضاعف، يعضده في المصادر استعمال "تفعل" للدلالة على الشدّة (توخّش، تسيج...). ويغلب على الصفات المبالغة والتفضيل المطلق الذي هو نزوع إلى تطرّف الوصف. يستميل العنف لغة الرواية فيشدّها إليه عبارة وصيغة فتبدو غليظة حادة ترفع عصا اللغة في وجه عالم عنيف كأنها تقول له مع الشابي: لا عدل إلا إذا تعادلت القوى*** وتواجه الإرهاب بالإرهاب.

في هذا المستوى المعجمي يتلبّس عنف العبارة كلّ مجالات الوجود، الإنسانيّ منه وغير الإنسانيّ، فالخروبة مظلة الراوي وحاضنة أحلامه والشاهدة على أفراحه وأتراحه تجنّدل وتقصف وتقطّع أوصالها "الأغصان المبتورة" (ص 194) و"الجدع المجنّدل" (ص 195) و"الخروبة التي قصفوها أمست عارية" (ص 195).

وعدوى التوحّش تمسّ الفصول فهذا "الشتاء ينهش لحم الهضاب وتحتّه الجذع اليتيم بلا غصون" (ص 195) والبلابل اللطيف اليانح "راح يتسلّق خلفيّة (الشرفة) الحائطيّة بتوخّش داكن" (ص 18) والقصيدة حتّى القصيدة

تستنبت الأنياب "اضربهم بقصيدة حادة الأنياب" (ص 126) والكتابة تتبعها؛ "الكتابة التي تغرز أنيابها في السلطة حتى إن تخفّت وإن تقنّعت تغدو فعلا قاتلا وتغدو حروفها مشنقة" (ص 126)

بسرود هادر أمواجه من كلم ينسج عبد الله الرحالي أحداث نصه الروائي ليواجه عنفا بعنف؛ عنف الواقع بعنف اللغة⁽⁴⁾ التي تفتح له كوى داخل سديم الحياة المليئة بالفواجع أمام قهر متعدد الأوجه والمراقي، سواء في ذلك المعيش واقعيًا أو المحلوم به كابوسا مرعبا شيد انطلاقا من تقابلات بين الداخل (الذات) والخارج (الواقع)، ما حول الرواية إلى حالة مضطربة من المشاهد والمواقف المضادة بين رفض لعنف الواقع وقبحه وبين ما يتسرب قهرا نحو الأعماق من تقابلات هجينة بين الشرف والخطيئة / الحزن والفرح / الموت والحياة / السمو والانحطاط / النبيل والقذارة. وأجدني أتساءل بحرقلة كل تلك الأعوام من تنكّبه... إن كان مردّ ذلك إلى مجرد خوف الكتابة من ذاكرة جراح تحلّبت في الأصابع؛ أم هو خوف ذاكرة تنهيب أن تلفظ أوجاعها على عتبات الكتابة؛ أم أنّ ذلك راجع إلى خوف كليهما من أنياب الزمن؟ (الرواية ص 161)

لا لبس هنا في أنّ معاجم الرواية تتحرّك في غابة العنف تستمدّ منها ما به تواجه عنف الواقع السياسي وتوحّشه. وهنا تنشأ جملة من الاستعارات اللفظية فالخبرون في عبارة الرواية "أحباب الدولة" والمهمّشون "يتامى الوطن" والبوليس "القبة الوطنية" والقضاء "الميزان الوطني" حالة من الترميز القريب ولكنّه يعبر عن هذه الرغبة في تخطّي المباشر والتعبير عن العنف السياسي بلغة الرمز. تحضر المادة العنيفة قويّة متدفّقة في شرايين السرد جميعا؛ والفاتح من نوفمبر 1994 يوم شاهد على فظاعة عنف سياسي "تنزّله محاجر الأعوام الحزينة" والإسفلت... والسبخة كم علقت بها أجساد الهاربين من الجحيم فسلمتهم إلى البوليس...⁽⁵⁾ تقرأ في الرواية: "المروحية من فوق والدراجات النارية والخيّالة والبوليس والكلاب والهرارات... يا للفداحة، بلد جاء يستقوي على طلابه بالبوليس ويزحفهم على الخرسانة لاعتصام سلمي بأروقتها في إطار هذا الجدل العنيف بين الكتابة والسلطة يقوم عنف الكلمة في مواجهة عنف السلطة يبادلّه عنفه الماديّ بعنف رمزيّ هو نوع من المقاومة، لأنّ "الكلمة جسر إلى الحرية لكنّها في الوقت ذاته جسر إلى المشنقة"⁽⁶⁾

2) تخييل العنف في "طائر الخبل":

يجثم العنف بأشكاله المختلفة على صدر السارد في رواية "طائر الخبل" ويهيمن على مساحة الخطاب فيها، خطاب قد يقترب من التصريح⁽⁷⁾ في تعبيره عن العنف والقهر والفساد فتقرأ في الرواية "إنّ أغلب بلداننا العربية كجبات الفول التي جوفها السوس من الداخل... لأنّ الأنظمة التي تحكمها أنظمة فاسدة مصابة بعقد نفسيّة ومركبات نقص فادحة... أنظمة... حين تشعر بعقدة خوف تحذق صنع الفزاعة وتحشد في أطرافها النواطير... حينما تبلغ سنّ اليأس يكبر أمهلها في أن ترى أطفالها شبابا ماسحي أحذية، أو "حراقّة"... حينما تصاب بعقدة جهل تصدر مراسيمها بضرورة تبادل "الماعون" بين دورها الثقافيّة في شهر التراث.. أمّا إذا أصيبت بمركبات الشبق فإنّها تقيم مسابقات شفافة

لخطف الجميلات...⁽⁸⁾ خطاب تفسيري مباشر يشرح حال البلاد العربيّة وقد دبّ سوس الفساد السياسيّ في مفاصلها فنخرها من الداخل.

وقد يستعيز السارد عن التصريح بالتلميح والإيحاء فتلجأ الرواية إلى التخيل باعتماد إمكانيات الإيحاء المفتوح على التأويل والقراءة من خلال استخدام جملة من الاستراتيجيات التخيلية لعل أهمها التخيل العصابي والتخيل البياني والتخيل النصي.

2.1 التخيل العصابي (الهذيان والهوسة) :

في مستوى الخطاب ينقل أكثر من نصف المسرود في الرواية بلسان "جابر الدشراوي" في شكل "هذيان" و"هوسة" ناتجان عن تأثير "المورفين" الذي يحقق به السارد بجراحات مختلفة انطلاقاً من حالاته الذهانية التي يعيش. وإذا كان ذلك كذلك، فلا شك أن هذه الحالة الذهانية التي اختار السارد أن يروي تحت تأثيرها، ليست مجرد حالة نفسية مرضية تعبر عن قبح الواقع السياسي بتونس الذي جعلها تهدي طلبتها وخريجي جامعاتها إلى "المارستان". إن الأهم فيما يعيننا من أمر "العنف وتخيله" أن الجنون والهذيان والهوسة استراتيجية ركبها السارد بإيعاز من الكاتب قصد عرض هذه المادة السياسية العنيفة عرضاً تخيلياً ينأى بها عن الطرح المباشر. هذا ما اعترف به السارد نفسه في خطابه الشارح عن علاقته بالكاتب حين يقول "أدخلني إلى عالم الهوسات حتى صرت مريضاً"⁽⁹⁾

منذ العنوان يحضر "الخبل" ليكون بوابة إلى تخيل العنف السياسي ففي عبارة "طائر الخبل" يجمع المركّب الاسمي الطيران بالخبل فيسقط الطائر في حبال الجنون وتسكن الحرية مستشفى الرازي عنواناً للقسوة والعنف من جهة وآلة من آليات الكتابة في التخيل والتحرر من الرقابة من جهة ثانية. وبهذا يغدو الخبل مدخلاً إلى الكتابة الحرة؛ فالهذيان هو السبيل حينما تضيق بالقول السبل، وتسد في وجه الأبواب.

وفي مستوى الحكاية، يرد أكثر من ثلثي الرواية مادة عنيفة مسرودة؛ انطلاقاً من تعذيب اليوسفيين إلى إيقاف النقابيين واعتقالهم وموتهم في ظروف غامضة (مدير المدرسة منور بن ناجي النقابي الصادق الذي يموت في ظروف غامضة بسجن الهوارب). وحكاية قمع الطلاب من الأمن الجامعي والبوليس السياسي الذي يدرس انفه في حياة الطلبة ويحول بعضهم إلى مخبرين وبعضهم إلى مهزومين، وحكاية المهمشين في دواخل البلاد والخريجين المعطلين عن العمل والحراقة الذين تواطأ عليهم الوطن مع البحر فانتهاوا "وليمة لأعشاب البحر"....

كل هذا وأكثر يدخل جابر الدشراوي مستشفى الرازي بمنوبة يحتمي بالجنون من "جنون الوطن" فيدمن المورفين وتضيق "حقيقة" المحكي بين الشهادة والهوسة والتهيؤات، أو هكذا فعل قصدا لاستثمار إمكانيات الجنون والهوسة في توليد الصور وتعجيب الواقع السياسي العنيف فيكون الرد على عنف السياسي بعنف اللغة وتوحش الاستعارات.

يتخاصم السارد والمؤلف على عتبات النصّ الروائيّ إحالة على الكتابة الذهانيّة "فيوصينا جابر الدشراوي السارد في الصفحة التاسعة من الرواية "... هذه حكايتي... وهي عبارة عن سيرة ذهانيّة يتراكب فيها الواقع والخيال، فإذا ضبطتموها متلبسة بكذبة كبرى في حجم الحقيقة، فاعذروا هذياني...". وينبّهنا المؤلّف إلى ما في الوصيّة من مخاتلة إذ يقول: "لا تأخذوا وصيّة جابر على محمل الجدّ.. جابر لم يشف بعد... ولأنّه كثيرا ما طرّس أزمة الكتابة، جاء سرده للحكاية بأكثر ممكنات الذّهان" على هذا البيان تفتتح الرواية معلنة أنّها "سيرة ذهانيّة" والسرد فيها مبنيّ على "أكثر ممكنات الذّهان" تخيلا نحو "الهذيان" و"الاستيهام" و"التخيّل" وعلى هذا الأساس يمكن أن يمثّل "الخبل" والذهان والهلوسة استراتيجية في التخيل، وفعالية إبداعية توظف في هذه الرواية ضدّ المألوف والسائد والمهيمن، سواء كان سياسة أو أنظمة أو أفكارا أو قيما زائفة. غير أنّ "جابر" الشخص المصاب بهذا النوع من الجنون، ينتصر لقيم التغيير والتطور والإبداع. إنّ الجنون أداة للفضح والتعرية لذلك يعدّ المجنون في بعض الأدبيّات صاحب قضية ورسالة، بجنونه يقف ضدّ البؤس والفقر والظلم، ويدافع عن الحقّ، وينشر الحقيقة والعدالة بين الناس فيعود إلى ذكريّاته يحكي لنا منها شذرات الجنون⁽¹⁰⁾.

ويستهلّ الفصل الأوّل بهلوستين؛ تردّ أولاها شعرا وترد الثانية نثرا فتبقى الحكاية في مناخ الذّهان (الهلوسة) ويأتي متن الهلوسة هذيان رجل لم يشف من البلاد التي لم تشف من ذاكرة متعبة بالجراح والخيّبات:

"تقول البلاد... لماذا تصرّ على نبش ذاكرتي المتعبة

فدعني...

ودع ما مضى للذي قد مضى. (11) "

فيجيبها السارد في هلوسته الثانية "بماذا أجيبك يا امرأة قتلتني وجاءت تمشي في جنازتي...

دعيني يا امرأة أهدرت كل أوقاتي وجاءت ترسم لي شكل جنوني⁽¹²⁾ ويأخذ الحوار في هذه الهلوسة شكل الهذيان (تهذي تقول ص 14) الذي يجعل الرواية تتخذ موقعا وسطا بين سؤال الأدب وسؤال الفكر بين الإبداع والتأمّل ويستثمر الجنون أداة تخيل يكتب بها السارد سيرته الذهانيّة ويسكنها رؤيته للواقع ملفوفة في إهاب الخيال فالذي يعاني ويتألم من الشيزوفرينيا ينسحب من جزء من الواقع، يعوض به عالما يكون قد نفاه وفقده بواقع الهذيان والهلوسة، فالانفصام كان دائما مرضا عقليا فيه "تتكلم الذات، لكننا لا نتوصل إلى تشييد أي عالم مرجعي انطلاقا من خطابها"⁽¹³⁾.

نشوة المورفين جعلتني أعيشها بعمق وكثافة... جعلتني أدرك كيف يصنع السماسرة وطننا غالبا وهو في الأصل وطن مغلوب... (الرواية ص 78) هنا يلعب المخدّر لعبة الإيقاظ لا الإيهام فهو الذي يصنع الوعي العميق بحقيقة الوضع

السياسي ويكشف المستور وراء أقنعة الظاهر. وعلى هذا النحو يأخذ الجنون معناه الرمزي فمجنون الرحالي مجنون عاقل يدرك الحقائق الخبيثة ولأنه كذلك يراه الآخرون مجنوناً ويكتب "وكيل الجمهورية" أمراً بإدخاله مستشفى الأمراض العقلية حتى يشفى من "حب تونس"

منذ الوهلة الأولى، يجعل الكتاب من قوة الإيهام بـ"صدق التعبير" لعبته الكبرى لإخفاء مجموع تفاعلاته اللغوية لطاقت الاستيهام والحلم والهذيان والهوسة. وبهذا المعنى، فإن الجنون في رواية "طائر الخبل" يشكل استعارة كبرى تؤسس لجمالية النثر عبر أسلوبية تراهن على "تصدع الرؤية" من منطلق التمثل الشامل للوضع النفسي - العقلي للمريض (في المارستان ضحك من غبائي... ضحك من سذاجتي كل تلك الاعوام...) (14)

" يعبر الضحك من النفس عن حالة من الذهان، عن صراع نفسي يشكّل انفصالاً واعياً بين "الأنا" والواقع، ... فكان السرد إعادة بناء هذيانية délirante للواقع وطريقة في الدفاع خاصة ضد واقع يعيشه المريض باعتباره واقعاً لا يطاق" (15) يرفضه جابر الدشراوي الطالب ثم المعطل عن العمل بعد التخرج من كلية الآداب برقادة؛ وهو رفض ينتهي به في "المارستان" رمثني حماقتي إلى وادي الجنون ويتحوّل الوطن ذاته مستشفى للمجانين وجمعاً من السجون المتلاصقة سجان يمكس سجاناً يقول "الوطن مارستان كبير... فيه أكثر من كراكة" (16)

وكثيرة هي مجازات الجنون والخبل والتأملات الذهولية والصور الغريبة والتشبيهات المنبئية على التشويه والتحريف في رواية الرحالي "أفاقت رحاب على صراخي... ولا أدري كيف تبينّت ملامحها في الظلام... كانت شعناء كالغولة... وقد طالت أظافرها ونبت لها كوبر الغوريلا على جلدها... ثم راحت تتقرّز من بشاعة منظرها كأنها تتأهب للصراخ... (17) وفي نهاية الحلم يأتيه صوت الألماني "قوته" يقرأ رسالة وداعه على "شارلوتة" شطحات سارد يرتحل بين الواقع والحلم من الحلم إلى غوته الألماني في حركة فكر ضعيفة الصلات لا روابط منطقية أو سياقية بينها لا تفسرها إلا حالة السارد الذهانية. استعارات متوحشة من مراجع متباعدة تدرج هذا السرد ضمن أفق تخييلي مشحون بطاقة هائلة موجهة نحو "ترميز العالم وتعجيزه وتأثيثه بالاستعارات". نقرأ: "يراه (يرى الوطن براقاً) أمامه مكود العينين ممدود الرقبة... يذبّونه ببساطة ويبيعون لحمه لمن يدفع أكثر في لحم البراق... وعند سمسرة الخارج يشحنونه بجلده في ناقلات الخراج الراسية في مياه المتوسط... كلامنا ذاك كان مرحلة متقدمة من جنوني... فما أكبر اليوم مساحة الحزن على قلب هذا الوطن... وما أكثر أيضاً احتمالات الجنون" (18) في هذا الشاهد يقترن الجنون بحزن الوطن فكلاً اتسعت حرائق الوطن استبداداً وفساداً، تضاعفت احتمالات الجنون، هنا يذهل الحبر وتجفل الكلمات ولا يبقى للسارد إلا "الخبل" يحتمي به من فجاجة الواقع ويخيل من خلاله المعيش العنفي. فيأتي حديثه تخاريف قضم الزمان بعض أطرافها وأتى الجنون على انسجامها. تخاريف تتجلى في أطراد سردي تدميري يجعل من مبدأ التفكيك مدخلاً لنمو السرد وتشعب محكي الجنون: (تفكيك وحدة الأنا/ تفكيك وحدة العقل/ تفكيك وحدة الجسد/ تفكيك منطق اللغة، تفكيك النسق المرجعي بما هو عالم خارج نصّي تتمثله شخصية مريضة، أو في حالة تذكر لأحوال مرض الشيزوفرينيا وتقلباته. وبهذه

المعاني جميعها "إذا نظرنا إلى الأدب كي تتدبر دور الجنون فيه (...) وجدنا أن المجنون الأدبي، في أغلب الأحوال، ليس سوى فيلسوف يرتدي قناعا، وأن دور الجنون في الأدب الروائي دور إبداعي يمكن من تخييل الفضاءات والأحداث والشخصيات والرموز وابتداع الصور الطريفة والوقائع الغريبة. ناهيك عن التجاذب بين شهوتي الصحو والفقدان، بين قوة الاتصال بالواقع والمعتول وقوة الانفصال والقطع معهما، مما يتيح لغة بما هي مسرح للجنون أن تتحول إلى آلة لتدمير الأفكار وتفكيك الصور. أو ليس "على الكلمات يمارس الشيزوفريني كل قوته الإبداعية والتدميرية"؟⁽¹⁹⁾.

2.2 التخييل البياني (توحش الاستعارة)

يمثل التخييل البياني في الغالب خصيصة شعرية فالى الشعر تنسب الصور البيانية من استعارات وتشابيه وكنائيات، غير أن رواية الرحالي قد اعتمدت البيان سبيلا إلى تخييل العنف بل إنها في كليتها لا تعدو أن تكون استعارة كبرى تنشأ من صورة قطار التاريخ يسير ويتوقّف عند محطات معيّنة توقفت عندها الرواية، ويظل السارد ينتظر حبيبته رحاب (كناية عن تونس ورحابة أفقها) في إحدى المحطات ويتوقّف القطار فلا هي تنزل ولا هو يصعد. وهكذا يخيب اللقاء ويضيع الموعد وتضي هي في طريقها فلا يبرز فجر المنتظر، وتعاود هذه الصورة جابر الدشراوي على امتداد الرواية كأنها اللازمة والنواة الاستعارية التي يتوحد حولها ما نشره الهذيان والهلوسة من صور وتخيلات. يتحرك القطار "فيمشي على جثة الذاكرة" المشحونة عنفا فتنشأ عن ذلك استعارات "متوحشة" نافرة ترسم بلغة عنيفة حجم العنف المسلط على الذاكرة، فجاء توحش الاستعارات وجها من وجوه تخييل المادة العنيفة والرد على عنف المعطى السياسي بعنف تخيلي.

ولغة الرحالي طقس في المناورة وترويض توحش المعنى، حيث تتلبسه اللغة⁽²⁰⁾ ويتماها بها ويعكس هذا التلبس والانغمار في شعرية اللغة وعي الروائي القلق بما تمثله في مشروع الكتابة عنده، وفي أسئلة وعيه، وكذلك إزاء الكثير من الأفكار التي ظلت تصطبغ حوله، مثلما يعكس حساسيته المفرطة إزاء اشتغالاته التصويرية والتعبيرية على الكثير من الاستعارات والمجازات والأقنعة، تلك التي يمارس من خلالها وظيفة الثوري والحالم والمتمرد، فضلا عما يمارسه في لعبة التواري والاختباء خلاصا أو تلذذا، أو بحثا عن الإشباع.

ومن هذه الاستعارات المتوحشة اللذيذة الراسمة للعنف السياسي صورة "دشرة الخروبة" مكان تخيلي ينشئه السارد مسقطا لرأسه وموطنا لصباه وشبابه فيشبعه رمزا؛ رمزا للحنين ورمزا للفساد والاستبداد فلا شيء في هذا الوطن بعيد عن أيادي السماسرة مهما نأى وتطرف في المكان. "ربوة الخروبة" حاضنة ذكريات أهل الدشرة دمرها المقاول "جلال" وشوّهت جرّافاته وجهها وألقت بتربتها غبارا على أهلها. ويغمر هذا الخراب الذي أصاب الدشرة، الخروبة نفسها التي حولها إلى "نعوش واقفة في العراء"⁽²¹⁾. الخروبة الذاكرة العامة بمواسم الدفء الطفلي ينالها نصيبها من التخريب لا شيء ببعيد عن "الماغول" الجدد. قصفوا الخروبة وقطعوا أوصالها ومزّقوا أعضائها ومزّقوا معها ذاكرة الحكايا الجميلة التي نسجها ضوء البدر عند أقدامها بين طفلين يغزلان كلمات عشق عفيف شفيف. تأمل معي كيف يمتشق السارد سلاح

البيان فيشيد به استعارة ناتنة تدمي قلب المتقبل كما يدمي انغراس غصون الخروبة في شغاف قلب السارد "كل الغصون تراشقت في القلب وراحت تدق في الضلع الأخير حرابها ولا شيء غير الريح، ومقالع هذا الغبار وقد ترامت على برأهله من قوم عاد... فإين أعلق بعد اليوم أراجيح ذاكرتي أيتها الخروبة العجوز؟" (22) يتواطأ على خروبة الرحالي جشع رجل المال (المقاول جلال) وطمع أهل البلدة وانتهازية البعض وصمت الآخرين فـ"أكثر ما يخرب وطننا هو تداخل النفاق والانتهازية مع مصلحة الوطن" (23) خاصة إذا "تواطأت معها القبعة الوطنية والميزان الوطني". وتمثل "تالة" موطن السارد الثاني، صورة أخرى لعنف الاستعارة وتوحشها؛ غادرتها فصول الدفاء ففقدت جمالها، هجرها الخطاف وما عاد يعيش في أوكار قلبها الدافئ، تالة صارت بوابة للحزن وملتقى "للفقر والإهمال" أحرقوا ذاكرتها النضالية وزوروا تاريخها (24) وباتت "عارية حافية، يقاس عمرها بالغيبوبة الطويلة" (25)

ومع هذا الولوج باللغة حد السكني فإن الرحالي ليس كاتب تأملات وتهويمات بل هو كثير الجنوح الى استدعاء المعنى، لكنه ليس المعنى المطروح في الطريق الذي يقصده الجاحظ، بل المعنى الرمزي العنيف الذي يكون صوته الصارخ في وجه العالم، وهذا الجنوح يعكس جوهر صراعاته مع ما يحوطه من بشاعة وقبح، حتى تبدو الكتابة عنده محاولة لاستمكان ما يمكنه من المعاني المحشوة بالأفكار والرؤى والمواقف والشتائم والرغائب والأحلام وقوفا عند عالم سياسي واجتماعي مسكون بالفقد والخطايا، والرعب والملاحقة...

هذا التوحش في العبارة يغذي توحش الاستعارة فتأتي هي الأخرى على درجة من القسوة النادرة في الكتابات الروائية فاعضاء أبناء الوطن بترتها أنيابه الحادة "البحث بين أنياب الوطن عن أصابعنا المبتورة" (26) فتستنبت الاستعارة للوطن أنيابا تقطع بها أصابع من فكر في الإبداع وفضح الفساد "وأحيانا أتخيل هذه البلاد امرأة جميلة وأتخيل صدرها مناء عريضا للقراصنة وفخذيها رصيفين طويلين لمسامرة الجملة والتفصيل" (27)

في وجه القمع والاعتصاب والإذلال والمحو تقوم استعارات ناتنة نافرة تبني من القمع وعيا بالقمع ومن الفساد وعيا بالفساد ومن "الحقرة" وعيا بالهوية الذاتية والجمعية ومن المحو صحو. فالسلطة تسعى إلى اجتثاث الذاكرة الوطنية فتزيل حتى شواهد القبور "محا لوحة القبر من قبر أبي" (28) والرواية تعري هذا العنف بعنف استعاري قوي "المخبرون (رمز السلطة وعبونها) تركوا المدينة وجاؤوا يشربون دم القصيد" (29) "مبادلة العنف بالعنف ومعادلة الإرهاب بالإرهاب الجميل" لعبة الرواية تحكمها عبر تحريك نسيج الصور والوقائع تواجه فيه الصورة المتخيلة الوقائع المستعادة، حتى صارت هذه الاستعارات "المتوحشة" السمة المميزة للسرد ونكهته في رواية الرحالي. سرد تتخلله أسئلة ذات طابع تأملي، تجعل من الكتابة الأدبية ملتقى ممكننا لجمع بين الجنون والفلسفة، بين الهذيان والفكر، مما يؤهلها لأن تكون حصيلة تركيبية لانصهار رؤيتين: أدبية وتأملية؛ إنها الأسئلة والأفكار الحادة والكلمات الناتنة والهلوسات والهذيان التي تصطبغ من زللة أنساق اللغة والجسد والعقل.

في هذا القسم ، تحاول الذات الساردة اعتصار الذاكرة المتخمة بالجراح وفواجع الزمن والوطن، وتقدمها إلى القارئ عبر ضرب من التخييل العنيف. فقبل سنوات كانت الذات تؤوب إلى "الخروبة" لتنفذ عن ذاكرتها غبار المدن ورائحة الإسفلت، وكانت تستمتع بعزوة الأهل، وقهوة الصباح وخبز الأم وكركرة الأطفال. ثم اختلف كل شيء، لم تعد "دشرة الخروبة" كما كانت أصبحت خاوية على عروشها، لا شيء يؤنس وحشتها سوى صفير الرياح من شقوق الجدران المتصدعة ومقبرة تشهد على الفساد وضحاياها من أبناء الخروبة. الخروبة التي صارت "نعوشا واقفة في العراء"، هي الأخرى اغتالتها الفؤوس وأصبحت مجرد ذكرى فيشعر جابر الدشراوي أن جزءا من ماضيه اكتسحته الرياح، رياح الفساد وأتى عليه جراد الوطن فيسرد ما جرى بعنف المראה التي تعتصر القلب فتأتي الصورة المخيلة شاردة عنيفة وتأتي "تالة" المدينة الجميلة وقد خلعت بردها القشيب لتضع لباس الحزن على نفسها وعلى الوطن صورة أخرى لهذا التخييل العنيف. فقد هجرها الخطاف الذي يصنع الربيع واستوطنها الفقر والإهمال وعششت فيها غرايب الجهل والخنوع فلاذت بالغيوبة تداري بها خيبتها في الوطن. أما الوطن فكما السارد، فقد البوصلة، وأصابه الخبل. انتشر فيه جراد الفساد استبدادا يطيح بالنخب والمتقنين والطلبة والمعتلين، واغتيا لا للصادقين من أبنائه (منور بن الناجي، سالم الدشراوي....)، تناثرت فيه الجثث وكثر فيه النائحون... وليس يشفي من هذا الجنون وهذه النار سوى السرد وليس يخفف من هذه البلوى سوى الحكيم.

2.3 التخييل النصي: التطريس أداة في تخييل العنف السياسي

تمثل الذاكرة النصية (30) أداة أساسية في التخييل فالكاكتب يكتب من خلال تجربته الحياتية ولكنه ينسج حكاياه أيضا انطلاقا مما تعمر به ذاكرته من نصوص.

وقد راكم الرحالي في نصه الروائي الكثير من زاده في الشعر والسيرة والتاريخ والفلسفة وحشد المعارف والتجارب والخبرات المتزايدة على أبواب الذاكرة المتعبة "المتدققة كأوطاب تحر من الحنين"⁽³¹⁾ نزار قباني التوحيدي، ابن المقفع، جبران، ودرويش، ومعين بسيسو ومنور صمداح أعلام كثير يطرقون باب الذاكرة فيوسع لهم الكاتب مساحة الحضور:

العدد	النص	الصفحة
1	مقطع شعري لمعين بسيسو	11
2	مقطوعة من الشعر الحر للراوي (الكاتب)	14/13
3	بيتان للمتنبي	25
4	بيت لذي الرمة	47
5	جملة شعرية لمنور صمادح	48
6	3 مقطوعات قصار لقوته	53
7	مقطوعة للراوي	61/60
8	مطلع "قسيم" من الشعر الشعبي	75
9	مقطوعة للراوي	83
10	بيت للحلاج	85
11	أحمد شوقي (الحرية الحمراء)	115
12	قصيدة لنزار قباني	131/130
13	جملة شعرية لدرويش	133
14	بيت لنزار قباني	134
15	مقطوعة للكاتب	137
16	مقطع لمعين بسيسو	150
17	قصيدة "اغتصاب زليخة" للكاتب؟؟	151
18	مقطع لصالح عبد الصبور	153
19	مقطع لعبد المعطي حجازي	155
20	مقتطف قصير لمعين بسيسو	186
21	مطلع البردة	213
22	وثائق تاريخية (حول ثورة ابن غداهم)	228
23	مقطع ملحون للكاتب	238

وأمام تراجم النصوص على عتبات الرواية وفي متنها وهوامشها نحتاج أن ننتقي بعضاً منها عينة على تخييل العنف السياسي عبر استدعاء النص الآخر انسجاماً مع المتاح منهجياً في مقال بهذا الحجم. فنختار بعضاً من النصوص التي استدعاهما الرحالي لتوصيف الواقع القائم وبعضاً آخر ممّا حضر لتخييل واقع بديل يواجه العنف والفساد.

في مستوى تخييل العنف السياسي (الوعي القائم) :

استعان الرحالي بالكثير من النصوص الشعرية في تشريح العنف السياسي وتعريته نحو استعارة نصّ أمل دنقل بمناسبة ذكر البوليس السياسي وما فعل بالمناضلين والطلبة :

أبانا الذي في المباحث...

نحن رعاياك، باق لك الجبروت

وباق لك الملكوت

وباق لمن تحرس الرهبت⁽³²⁾

فيقدم عبر النصّ الآخر صورة لما يجري في تونس وقد عبست وتولّت من ترعيب سياسي فالسلطة تنشر العيون في كل مكان ولا سلطان إلا للجبروت التي يأتي على الأخضر واليابس في البلاد يحول "المواطن" رعية ويجعل الوطن كراكة⁽³³⁾ كبيرة ومارستانا عظيما.

ومن رانعة صلاح عبد الصبور "شبق زهران" يأخذ بعض السطور يرسم بها الصور الدامية لواقع سياسي دميم :

صنعوا الموت لأحباب الحياة

وتدلّى رأس زهران الوديع

قريتي من يومها لم تتأدّم غير الدموع

قريتي من يومها تأوي إلى الركن الصديق⁽³⁴⁾

يعضد هذا النصّ لعبد الصبور نصّ أمل دنقل في تعرية ما اصاب تونس في ظلّ دولة البوليس من حصار خانق على أبنائها في كلّ مجالات الحياة حتّى راحوا ينتحرون على شواطئها كالدافين الضالّة. ومن ظلّ بالداخل حتّى إن كان بعيدا عن المركز طاله الفساد والاستبداد الذي أوغل في أعماق البلاد وسكن جميع مفاصلها فلا تسلم تونس من جشع السماسرة ولا تنجو "تالة" من نهب المقاولين ولا حماية للشرطة من أنياب الجرافات النهمّة تلتهم كلّ جمال بها بحثا عن الرخام فتأتي على "شجرة الخروبة" ذاكرة القرية وأهلها فيحضر النصّ القرآنيّ ليعبر عن هذه الصورة "إنّ الخروبة عقروها... عقروها كناقاة النبيّ صالح... جندلوا أغصانها... والربوة صارت من تحتها لوحة أخرى أوحش من وادي ثمود"⁽³⁵⁾. صور كثيرة تستعار في نصّها الحرفيّ أو في تصرّف خطابيّ ولكنها تلتقي في فضح واقع العنف والردّ عليه

احتجاجاً ورفضاً من خلال النفس الساخر كما في نصّ "أمل دنقل" أو من خلال استثمار أثر النصّ المقدّس في قياس وادي ثمود "الذين طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد".

في مستوى تخييل العنف المضادّ (الوعي الممكن) :

غير أنّ استدعاء النصّ الآخر في رواية "طائر الخبل" لم يكن لتخييل واقع العسف والعنف والاحتجاج عليه فحسب وإنما كان أيضاً رسماً لسبل رفض هذا الواقع السياسيّ الوبئى ومقاومته :

لماذا أكتب؟

أكتب

كي أفجر الأشياء والكتابة انفجار

أكتب كي ينتصر الضوء على العتمة

والقصيدة انتصار

حتى أنقذ العالم من أضرار هولاكو

ومن حكم المليشيات

ومن جنون قائد العصاة

... حتى أنقذ الكلمة من محاكم التفتيش

من شمشة الكلاب... من مشانق الرقابة⁽³⁶⁾

هذه كلمات من ذاكرة نزار قبّاني تفضح هولاكو وتوقف زحف الماغول، في هذه الكلمات التي تستعيد ذاكرة الرواية نصّاً، إيمان بقيمة الكلمة وذاكرة الكلمة في صنع ربيع الشعوب. فالكلمة الجميلة لها مفعول الرصاصة. يقول جابر الدشراوي مخاطباً رحاب في الرواية "أنت شاعرة ويمكنك أن تفضحي هذا النظام بشعرك ... فاشفي غليلي وغيليل من راحوا في السجون⁽³⁷⁾، ثمّ يضيف "اضربهم بقصيدة حادة الأنياب تشفي غليلنا...⁽³⁸⁾. وفي الصورة استعارة تستنبت فيها الكلمة أنياباً تواجه بها عنف السلطة وتتسلّح الذاكرة الروائيّة بكثير من النصوص تستعين بها على المقاومة.

وأجمل النصوص التي حضرت تملأ الذاكرة وتزين السرد نصّ للراوي نفسه يلخّص في اعتقادنا الرواية وما جاء
فيها من عراق ذاكرتين رسميّة وأدبيّة :
... يقول بلى قد قرأنا الكتاب
ولكنّا لم نكن في الكتاب
ولا كان جدّي الذي خلفته فرنسا شهيدا على ربوة في الهضاب
ولو في سطور على هامش في الكتاب..
وحتى الجبال التي طوقتها فرنسا...
وكل الرجال الذين مشوا بعد جدي على جمرة الثورة
الحارقة
ماتوا دونك يا امرأة
ولكنهم حاكمونا...
وألغوا فصولا بمن الكتاب
لأنّا عشقنا وعشنا ومتنا على غير ما كان يهوى
الزعيم.....⁽³⁹⁾

في هذا المقطع القصير من قصيدة طويلة جدل بين ذاكرتين تتصارعان، تحاول إحداهما القبض على الأخرى
وخنقها؛ ذاكرة الجحود والإقصاء وذاكرة الإيثار والوفاء. وفي صياغة المتخيل الروائي، تلتقي ذاكرة المجموعات مع ذاكرة
الذوات، تقصّ ما عاشته وهي تبحث عن ملاذ يلطف عنف الحاضر. ويجري التعويل في كل ذلك، أي في الذاكرة وفي
التاريخ وفي النسيان الذي يوصل إلى المسامحة والسلام والسعادة، على السرد ذلك الذي يعيد تأمل المهمل والمبعد ويعيد
إنتاجه في كتابة مختلفة تمثل الذات وتمثل احتمالات المحبة تلك التي غابت مع مرور الزمن أو أقصيت بفعل الذاكرة
التي لا تعترف إلا بالمتماثلين معها⁽⁴⁰⁾. هنا يكون ردّ الذاكرة الروائية على عنف ذاكرة المحو (محا لوحة القبر من قبر
أبي) بطريقة أخرى هي المحبة والجمال (الشعر). قد يبدو الطرح ساذجا لأننا الخاسرون من ذلك، ولأننا الضحايا،
اليوم، ولكنّه ليس طرحا غيبيا، فنحن نفلت من قبضة الكره والعنف لنفتح طريقا للحياة قد يهيئ الفرصة لنجاة
القادمين بعدنا. ويكفي أنمارس إنسانيتنا وتنقياً الجمال.

خاتمة في استنتاجات:

ليس العصاب والبيان والتطريس الأدوات الوحيدة المعتمدة في تخييل العنف السياسي⁽⁴¹⁾ في رواية "طائر الخبل" ولكنها الأهم في تقديرنا في إدارة الصراع على صفحاتها بين فجاجة السلطة وشعرية الأدب. - من هذا الصراع، نبت العنف في شغاف الذاكرة الروائية؛ إذ لا يتعلق الأمر في "طائر الخبل"، بعمل روائي أدبي هادئ يدعونا إلى التفكير في العنف والفساد والقمع والاستبداد من خلال الاستعانة بالأدب، بل إن الأمر يتعلق بكتابة أدب عنيف يخرجك من طمأنينتك، ويستفزك، ويرغمك على التفكير. فليس مطمح الرواية نقل العنف كما جرى، بل هي تطمح إلى الدخول في احتكاك عنيف مع العالم، ومن هنا تأتي الكتابة عنيفة متوحشة، "تفتال بياض الورقة"، غريبة مدهشة "تنبش في أحافير الوجود" (42).

فيأتي التخييل عبر الهلوسة ضرباً من التحرر من الرقابة الخارجية والذاتية إمعاناً في صدق التصوير والتعبير وإمكاناً من إمكانات التأمل في الواقع فجاءت الهلوسات والاستيهامات في الغالب ضرباً من الحوار الباطني الذي يحلل أثر القمع في الشخصية. بالسرد العصامي تنشئ الرواية منطقة للكتابة الجمالية وسط روافد المرضي والصحي، العقلي والنفسي عبر البوح والاعتراف والتذكر والحلم والهيان، ليس باعتبارها أعراضاً في وثائق للمحلل النفسي تخضعها لجلسات العلاج النفسي، بل باعتبارها فرصاً لتحرر اللغة من قلوبتها المؤسسية (البلاغة الكلاسيكية)

ثم تتدخل الكتابة بالتخييل البياني لتسكب على نار الواقع زيت الكلمة الجميلة، فتزيد أوارها اشتعالاً بما ترمي فيها من حطب الاستعارات المتوحشة الناتجة المعبرة عن عفونة الواقع السياسي وما بلغه من غرابة، فتأتي غرابة الاستعارة وتوحشها تعبيراً عن واقع سياسي فاق الاحتمال في الاستبداد والفساد. بالاستعارات المجنونة التي يجريها النص يكون تنسيب سلطة اللغة، فتجربة الجنون تجعل من الكلمات والجمل والخطابات مجرد تجليات للغة الكامنة أو المتوارية في تجربة الفرد (جابر الدشراوي). ذلك الفرد المريض، أو المسمى مريضاً، والذي يجعل من الهذيان مدخلاً لتمزيق كل الأقنعة: قناع اللغة، قناع الجسد، قناع العقل، قناع المجتمع، قناع السلطة، قناع الحياة، وقناع القهر (...).

ثم تشتغل الذاكرة النصية على مزاحمة ذاكرة العنف وتسعى إلى مقاومة ما أسماه الرحالي بنسخ الذاكرة.. بمكر الذاكرة، يخترق السارد طبقات النسيان ليقيم وصلاً بين الأمس واليوم في ذهاب وأوبة بين ذاكرتين عامرتين بالعنف والعنف المضاد، ذاكرة تنسج بالعنف أحابيل المحو، وذاكرة تقفو أثرها لتمحو المحو بجميل الأفعال (الاستشهاد، التضحية...) وبلغ الأقوال (ذاكرة النصوص الجميلة).

تتجلى الرواية في هذا المستوى ذاكرة تناهض التاريخ الرسمي، وهي كتاب من أسقطه كتاب "الزعيم"؛ تواجه الذاكرة الرسمية ذاكرة العنف والمحو، بذاكرة الرواية (الأدب) بذاكرة الصحو، ترسم التاريخ الآخر وتقتضي

خطى الذين ناضلوا واحترقوا بنضالهم ليكونوا شموعاً في عممة تاريخ الغزاة والطفلة. ذاكرة الرواية تاريخ مضاد وذاكرة نقيض للذاكرة الرسمية، تسعى بجمال السرد إلى تلمس أساس التناقض في المجتمع وتبحث عن الطرف المغيّب في الحركة التاريخية وتربط في منظور انصهاري بين الوطني والسياسي والاجتماعي لتنتهي إلى أن "معركة الاستقلال" لم تكن سوى مشروع لم يكتمل إنجاز، وإن الطرف المغيّب ما يزال يمارس حضوره وهو المؤهل للقيام بإتمام هذا الإنجاز المستقبلي. فليست الرواية سوى محاولة الإنسان - إذ ترمي به فوضى الحياة والتجارب - أن يفرض عليها نظاماً يفهمه ويدرك منه مغزى لعبه، وفكره قد يوجهه في حريته إذا كان حراً، أو يثبته على عبوديته إذا كان عبداً.⁽⁴³⁾

الاحالات والهوامش :

- 1 - موضوع العنف في الرواية الجزائرية التسعينات نموذجاً - مقارنة سوسيونقدية ، واسيني الأعرج ، نشر جامعة الجزائر ، كلية الآداب 2013.
- 2 - صور العنف في الرواية الجزائرية المعاصرة ، سعاد عبد الله العنزي ، دار الفراشة ، الكويت ، 2010.
- 3 - طائر الخبل رواية للكاتب عبد الله الرحالي صدرت عن دار نقوش عربية / تونس في 2013.
- 4 - تقول الرواية ص 195 : أتراه إفرأزا لحالة عنف ترفض في أعماقي أن ترى الدنيا تمشي بالقلوب؟ وتضيف في صفحة أخرى: وأتدقق كنزيف المعنى من فعل التذكر ص 161.
- 5 - الرواية ص 87 والحدث حقيقي يمثل زحف البوليس على كلية الآداب بقيادة فكّا لا عتصام سلمي بأروقتها.
- 6 - الرواية ص 153
- 7 - كامل الفصل الثالث من الرواية يدور في وصف المداهمات والتعذيب وكان فيه الخطاب الروائي اقرب الى التصريح منه الى التخيل على امتداد ثلاث وعشرين صفحة (الرواية صص 83/106)
- 8 - الرواية ص 79
- 9 - الرواية ص 241
- 10 - الرواية ص 9
- 11 - الرواية ص 14
- 12 - نفسه ص 16
- 13 - Léo Navratil, Schizophrénie et art, traduit de l'allemand par : EveLyne Sznycer, Editions complexe, Bruxelles, 1978, p48
- 14 - الرواية ص 20
- 15 - Léo Navratil, Schizophrénie et art, traduit de l'allemand par : EveLyne Sznycer, Editions complexe, Bruxelles, 1978, p52
- 16 - الرواية ص 241
- 17 - الرواية ص 243
- 18 - الرواية ص 35
- 19 - Armand Olivienne, la répture avec le réel, 1972, p100.
- 20 - اللغة العربية تننفس ملء رئتيها
- 21 - الرواية ، ص 203
- 22 - الرواية ، ص 195
- 23 - الرواية ، ص 202
- 24 - الرواية ، ص 230
- 25 - الرواية ، ص 203

- 26 - الرواية ص 78
- 27 - الرواية ص 79
- 28 - الرواية ص 152
- 29 - الرواية ص 134
- 30 - خريس أحمد: العوالم الميثاقية في الرواية العربية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 2001م، ص: 62 - 63.
- 31 - الرواية، ص 15
- 32 - الرواية ص 155
- 33 - الكرامة تاريخياً في تونس هي سجن كبير محصن
- 34 - الرواية ص 152
- 35 - الرواية ص 29
- 36 - الرواية، ص 131
- 37 - الرواية، ص 125
- 38 - الرواية، ص 126
- 39 - الرواية، ص 137
- 40 - Paul RICOEUR: La memoire. l'histoire، l'oubli. Seuil 2000 p 66
- 41 - Sholes (R) : Les modes de la fiction, Poétique, N0 : 32, Seuil 1977
- 42 - الرواية، ص 194
- 43 - جبرا إبراهيم جبرا: الرواية والإنسانية. مجلة الأديب (ذكره سليم بكتة ضمن مقال له بعنوان 'الرواية العربية في الجزائر، سرد الهوية ورهانات الكتابة ونشر بمجلة الرواية')

شعر الثورة

بن حفصة عائشة

طالبة دكتوراه، تخصص أدب

كان لوجود الإستعمار الفرنسي في الجزائر أثره في إثراء الأدب الجزائري، حيث وجد الجزائريون أنفسهم مجبرين على مواجهة هذا الواقع الصعب ، وذلك لن يكون إلا إذا كان هناك ما نسميه بالوعي السياسي فالشعب الجزائري آنذاك كان يفتقر لهذا الوعي الذي يزرع فيه الرغبة في تغيير أوضاعه المزرية .

في الوقت الذي كان فيه أصحاب الأقدام السّود يدعون أن سبب وجودهم في الجزائر هو سعيهم لنشر الحضارة ، كان بعض الجزائريين الذين كانوا يتميزون بطلاقة لسان يقصدون بعض الأماكن والمجالس لإلقاء قصائد من الشعر الملحون لنشر الوعي واستنهاض الهمم ذلك أن الإستعمار يظل استعمارا.

كان للشعر الشعبي أو الملحون أثره في زرع بذرة آتت ثمارها ، وكان من ثمارها الثورة التحريرية التي أخرجت هذا المستعمر وهو يجرد أذيال الخيبة لأنه لم يتمكن من السيطرة على شعب يرغب في الحرية والعيش في بلاده قريير العين.

ومن جهة أخرى لعب الشعر الشعبي ، دورا كبيرا في تسجيل الوقائع و الثورات التي جرت بين الجزائريين و الإحتلال الفرنسي، يمكننا القول أنه لعب دور الموثق التاريخي .

غير أن هذا لا يعني أن الشعر الملحون اقتصر على هذا الغرض بل خاض في أغراض أخرى منها : حالة السكان الإقتصادية ، و الأزمات و النكبات الطبيعية وأحوال التصوف و المتصوفين ، ورثاء رجال الدين ، إلا أننا فضلنا الحديث عن دور الشعر الشعبي في الثورة لأنه عبر عن ردود فعل الشعب الجزائري و رفضه للعيش تحت وطأة هذا الإحتلال الذي سلبه حريته .

سعى الإحتلال الفرنسي جاهدا للقضاء على الثقافة الجزائرية ، لذلك كان الشعر الشعبي يزرع الحماسة في نفوس الجزائريين للعمل على مقاومة هذه الأقدام السود وإخراجها من الأرض التي طالما جادت بخيراتها على أبنائها .

كان الإحتلال الفرنسي يعني في اعتقاد الشاعر الشعبي غزوا للإسلام بالدرجة الأولى ذلك أن الإسلام في مفهوم الطبقات الشعبية هو المقياس الذي يحدد هوية الإنسان الجزائري وليس مجرد الإلتناء إلى الوطن ومن هنا كان الجهاد في سبيل الله والدفاع عن الإسلام هو الهدف الأسمى من النضال⁽¹⁾.

وقد لعب الشاعر الشعبي دورا هاما في الثورات الجزائرية على اختلاف مراحلها فكان شاعر نضال ورفيق سلاح وحامل رسالة يستمد شعره من عاطفة دينية قوية ويحمل بين جوانحه ضميرا قوميا شفافا رأى في أهداف الغزو الإستعماري غزواً للدين وهدما لكيان الإنسان المسلم⁽²⁾.

فهل كان الشاعر الشعبي يريد الوصول إلى شيء من خلال ما قاله ؟ وهل عبّر عن حقيقة ما أحسّه الشعب الجزائري إزاء الإحتلال الفرنسي؟

يمكننا الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال النماذج التي سنعرضها.

من الشعراء الذين تغنّوا بالثورة نذكر منهم :

أحمد مختاري (بلعيد) الذي عرف بالصوت الحسن منذ الصبا . كان يغني في الأعراس ثم بدأ نجمه في الصعود محليا كلما تقدم به السن حتى أصبح على رأس طبقة المغنين بالمنطقة مما جعله يهجر الأعمال الأخرى ويمارس الغناء أول مرة هاويا ثم محترفا خاصة في فصل الصيف والخريف حيث تكثر حفلات الزفاف⁽³⁾.

من إبداعاته هذا النص :

أنا قاعد في راس الكاف دويل كي* وتحوم علي .
جات من سقان** يا الأولاد واصلوا خبري لموالية⁽⁴⁾

ومن الشعراء "محمد صالح لوصيف" الذي يقول في نصه "أول نوفمبر"

* طائفة فرنسية .

** قرية قريبة من مطار بدائرة شلفوم العيد .

فالرّبعة وخمسين انهار الميدان ليلة فاتح نوفمبر تاريخ يشهد
اتحزمت الرجال هذوك الشجعان قامت الأبطال للحرب اتجاهد

ثورتنا بالنصر فتحت البيبان اثنين وثلاثين مكان في الأوراس تصهد⁽⁵⁾
إن هذه النصوص من حيث موضوعاتها نجدتها مركزة على كل ما يخص الثورة التحريرية ، وهذه الأخيرة تعد الموضوع
الأساسي لكل السكان في المناطق التي عمتها أو مستها من قريب أو من بعيد⁽⁶⁾
بدأ دخول النص الثوري إلى المواطن العام والخاص باحتشام وبشبه غموض لأن إذاعته في الناس يتطلب الحذر أول الأمر
مادامت الفكرة غير واضحة ، إذ أن مراحل تطور الحركة الثورية آنذاك اقتضت هذا الحذر والإحتياط وأدت إلى هذا
الغرض⁽⁷⁾

أخدموا النظام بالسرية جيبونا الإستقلال والحرية⁽⁸⁾

- لما سئل أحدهم ماذا فهمتم في تلك الفترة من كلمة الحرية الوطنية أجاب بأنهم تلقفوها سماعيا ، فأدخلوها في
النص وأنشأوا عليها هذه الثلاثية التي هي بمثابة نصيحة وتوجيه والنصيحة مستقاة مما يسمع حول هذه الحركة التي
قيل عنها أنها ستحقق الإستقلال الوطني وتطرد فرنسا .

وهكذا حق للشاعر الشعبي أن لا يفصح عن إسمه أي لا ينسب النص إلى نفسه بل وأن لا يردده إلا في أماكن
يطمنن إليها لأن ترديده لها بطلاقة يعرضه للخطر .

نبه أحد الفرنسيين إلى خطورة تلك النصوص بقوله "... ففي تلك الأغنيات والقصائد عبر الجزائريون عن
بغضهم ورفضهم الشديد للمستعمر⁽⁹⁾ .

كما أشار إلى ذلك جمال الدين خياري في قوله : "... واعترف الأوروبيون على أن القصيدة الشعبية ساهمت فعلا في إضرام
نار الثورات كثورة ابن زعمون سنة 1830 وثورة مليانة سنة 1851 .

إلتفات أصحاب النصوص إلى ما يتصل بالثورة عسكريا وسياسيا واجتماعيا واقتصاديا وتاريخيا جعلنا نلمس
وظائف هذه النصوص في الأبعاد التي رمى إليها أصحابها من خلالها⁽¹⁰⁾ .

فمثلا البعد السياسي : غايته استقطاب الجماهير الشعبية حول الثورة وفق التوجيه السياسي المتلقف من خطب السياسيين والعسكريين على الجماهير... أو من التعليقات السياسية والإذاعية.

ومن تلك النصوص هذا النص الذي يقول فيه صاحبه :

خُوتِي يَا خُوتِي الْوَطَنِيَّة نَظَمُوا بَعْضُكُمْ بَعْضَ بَيْكُم بَانَسَاكُم

جَيِّبُوا الْمِيتَرَايَات الْعَسْكَرَ كَالَكُمْ

خُوتِي يَا خُوتِي الْوَطَنِيَّة..... لَسُورَتِيهِ جَاوُ

يَحْوُسُوا عَلَى أَوْلَادِ الشَّعْبِيَّة⁽¹¹⁾

البعد الاجتماعي :

قصد إيجاد التكافل بين مختلف الفئات الاجتماعية مدنية وعسكرية (أي أن الأعمال الموزعة بين هؤلاء حسب موقع كل فئة يجب أن تتضافر وتتعاون لتحقيق هدف معين هو الإستقلال) .

ومن النصوص نجد هذا النص الذي يقول فيه صاحبه :

اعْطَاوْنِي رُخْصَةَ انْشُوفِ أَوْلَادِي	الْمَجَاهِدِينَ يَا سَيَادِي
نَضْرِبُ عَلَى دِينِي وَنَحْرُ بِلَادِي	مَنْيْشَ مَفْرَطَ فِي أَجْهَادِي
اعْطَاوْنِي رُخْصَةَ تَشُوفِ يَمَّهُ	الْمَجَاهِدِينَ يَا لِهَمَّة
نَضْرِبُ عَلَى دِينِي وَنَحْرُ بِلَادِي	لِحَضْرَتِ الْمَنِيَّةِ نُمُوتَ ثَمَّة

البعد العسكري :

يبدو متنوعا متكيفا حسب المقام أو الهدف الذي تطرق إليه فهو إلى جانب إعلامه بالمعارك والأحداث، ... فإنه يتناول الشخصيات بحسب رتبها جنودا وضباطا وقد يتجاوز النص الأعمال إلى الصورة فيبين لنا لباس الجندي أو سلاحه معتزا بذلك¹².

رَحْنَا جَيْشَ التَّحْرِيرِ مَحْنَأَشْ فَلَاقَةَ	عَيْنَ الطَّيِّبِ وَعَيْنَ النَّاقَةِ
طَالَعِينَ الْجِبَالِ انْفُوا	هَزِينَا الْمَتْرِيَاتِ
مَنْ سَبَتْ الْوَطَنِيَّةُ اللَّهَ يَنْصُرْ .	الْإِسْتِعْمَارَ مَا هُوشْ مَقْصَرْ

أما البعد التاريخي :

فيقول عنه صالح خرفي: "... بل جوانب⁽¹³⁾ من مأساة الاحتلال افتقدناها في شعر الأمير تطالعنا بوجه سافر في الشعر الملحون".

متابعتنا للنص الشعبي من هذه الزاوية يجعلنا نجد الأماكن التي ترعرعت فيها الثورة التحريرية وبعرفنا بمعارك عديدة وقعت بالمنطقة كما يعرفنا بالكتائب التي خاضتها أو الفرق التي شاركت فيها أو المسؤولين الذين قادوها والنتائج التي نتجت عنها.⁽¹⁴⁾

ومن هذه القصائد نجد قصيدة للشاعر "بلخير" بعنوان "غاليين أعياد السوم" والتي يقول فيها:

دَبَّرَ لِي فِي الْقَسْمَةِ الْوَفِيَّهِ عَوْدِي	دَبَّرَ عَلَيَّ يَا صَاحِبَ التَّدْبِيرِ
مَنْ غَيْرِكَ يَعْطِي وَلَا يَدِّي	يَا لِي كَيْفَكَ مَا كَانَ حَدَّ التَّدْبِيرِ
يَا الْمَالِكُ الْقُدُّوسُ جَوَادِي	يَا الْعَالَمُ يَا سَمِيعُ وَيَا بَصِيرِ
لَا اتَخَيَّبُ عِنْدَكَ يَا اللَّهُ سَعْدِي	يَا لِرَزَاقِ الْفَتْاحِ بَابُ الْخَيْرِ
مَا عَلِمْتُ الرِّزْقَ الْجَائِيَّ وَالْغَادِي	كَيْفَ اكْتَبَ مُوَلَانَا الْحَالَ يَصِيرِ
لَا زَمَ يَنَادِي بِهَا الْمُنْدِي	الْكَاتِبَةُ تَلَحُّقُ بِهَا لَوْ كَانَ تَطِيرِ
مَا يَلِيْقُ الْقَتْلُ إِلَّا مَعَ الضَّدِّ	وَأَشْ فَوْزَنِي بِكَرِيٍّ مَعَ الْخَنْثِيرِ***
بَيْنَ طَرْفَاوِي وَغَوَاطِ وَأَزْيَادِي ⁽¹⁵⁾	كَانَ يَمْرُقُ وَانْجُو لَهُ عَقْدُ غَزِيرِ
قَاعَ كَانَتْ فِي يَدِ أَشْيَاخُنَا تَهْدِي	فُوقَ مَنْ هَذَا الْغَاشِي حَسَابُ كَثِيرِ
كَامِلِينَ ثَلَاثَ ضَرْبَاتٍ فِي عَوْدِي	يَوْمَ فِي الْقَارَةِ الْقَشْوَى ⁽¹⁶⁾ هَارَ كَبِيرِ
ثَاقِلُ بِالْأَجْرَاحِ بِالْيُمْنِ بَرْدِي	كَامِلُ الْخَصْلَةِ يَجْرِي بِلَا شِيرِ

*** الخنثير: أحد قادة أولاد سيدي الشيخ - قدور بن حمزة.

ضَرْبَ نَطْحٍ مِنَ الرَّقْبَةِ إِلَى حَدِّ الدَّيْرِ مَا اكْذَبَتْشْ كُلَّ نَهَارٍ بِأَشْهُودِي⁽¹⁷⁾

ثم اندلعت ثورة سيدي الشيخ وعرفت بيوم الشلالة، يقول عنها "أحمد بن دالة العامري":

يَا الْحَاضِرَ عَاوَدَ الْأَخْبَارُ وَشَتَاهُ صَارَ	عَلَى نَهَارِ الشَّلَالَةِ فِي الزَّمَانِ مَعْدُودَ
سَعْدُ نَهَارِ الشَّلَالَةِ خَرَجَتْ الْمَحَلَّةُ	جَاءَتْ ثَمًا الْخِيَالَةَ مَا بَقِيَ الْمَجْهُودُ
جَاءَتْ ثَمَّةُ الْخِيَالَةِ فَرَعَتِ الْقَبَالَةَ	عَدَّتْ دَائِرَ دَوْلَةٍ وَبَهَتْ كِي الْمَغْدُودِ
رَأَاهُ فِي الشَّلَالَةِ مُحْصُورِينَ الْقُصُورَ	مَرَدًا الْكَلْبَ غَدًا مَدُورَ سَحْقِهِ الْبَارُودِ ¹⁸

أما البعد الاقتصادي :

ف نجد في النصوص التي تتحدث فيها أصحابها عن الطريقة التي تجمع بها الأموال وتهافت الناس على الثورة بمساعدتها بكل ما يملكه سكان المنطقة :

سِي عَمَّارِ يَا خُوِيَا أَنْتَ حَوَّاسٌ فِي النَّاحِيَةِ.

- جِيِبْ اسْلَاحَ وَالْمَالِيَةِ خَادِمَ النَّظَامِ بِالسَّرِيَّةِ⁽¹⁹⁾

بعد كل ما عناه الشعب الجزائري من ظلم وقهر جاء اليوم الموعود يوم النصر العظيم الذي حقق فيه الشعب الجزائري الحلم الذي كان يسعى إليه وبذل في سبيله النفس و النفيس حيث جاء اليوم الذي طالما انتظره الجزائريون على أحر من الجمر . اليوم الذي ترفع فيه راية النصر و الحرية، ولا يخشى الجزائري من قول أنا جزائري ورفع العلم الوطني على الأرض التي ارتوت بدماء الأحرار الذين رفضوا العيش في الذل وحبذوا الموت على الإستسلام و الهزيمة وكانت هذه الثمرة التي زرعت في قلوب الجزائريين .

وقد شارك الشاعر الشعبي فرحة النصر -كأي جزائري- مع الشعب وجادت قرائحهم بقصائد عبّرت عن الفرحة بالنصر و الحرية. نذكر من هذه القصائد قصيدة لعبد القادر الخالدي بعنوان "كالي غير اليوم جينا"، والتي يقول فيها :

م اِبْرَكَ هَذَا الْيَوْمُ عَلَيْنَا بِالْجَزَائِرِ اسْتَوْلَيْنَا اسْتِيْلَاءً مَتْمُومَ

لَكَ الْحَمْدُ يَا مُوَلَانَا وَ الشُّكْرُ الدِّيُومَ

م اَبْرَكَ هَذَا الْيَوْمَ عَلَيْنَا كَاللِّيْ غَيْرِ الْيَوْمِ جِيْنَا مِنْ عَدَمِ مَعْدُومِ

طَلَعَتْ شَمْسٌ جَدِيْدَةٌ رَيْنَا وَاضَحَاتِ الْغُيُومِ

الْيَوْمِ انْحَلُّوا عَيْنَيْنَا وَاسْتَيْقِضْنَا مَنْ غَمَلَتْنَا وَاضَغَاتِ الْحُلُومِ

اَكْرَمْنَا رَبِّي وَنُصِرْنَا وَعَدُوْنَا مَهْزُومِ

الْيَوْمِ زَهَيْنَا وَلَعَبْنَا وَتَعَرَّوْا سَنَيْنَا وَعَلَى التَّبَسُّومِ

اَفْرَحْنَا بِنَا بِأَهْلِنَا حَتَّى اللَّيِّ مَقْطُومِ

الْيَوْمِ سَعَدْنَا وَفَرَحْنَا وَالْيَوْمِ رَبِحْنَا ثَوْرَتَنَا وَالْوَطَنَ الْمَعْلُومِ⁽²⁰⁾

الإحالات والهوامش :

- 1- دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة 1830-1945 - التلي بن الشيخ - صدر عن وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007 - ص: 98
- 2- نفسه - نفس الصفحة
- 3- الشعر الشعبي والثورة التحريرية بدائرة مروانة 1955-1962 - العربي دحو - ديوان المطبوعات الجامعية - ص: 75
- 4- نفسه - ص: 77
- 5- نفسه - ص: 83
- 6- نفسه - ص: 92
- 7- نفسه - نفس الصفحة
- 8- نفسه - نفس الصفحة
- 9- نفسه - ص: 53
- 10- نفسه - ص: 95
- 11- نفسه - نفس الصفحة
- 12- نفسه - نفس الصفحة
- 13- نفسه - ص: 97
- 14- نفسه - ص: 98
- 15- نفسه - ص: 99
- 16- ديوان بلخير - نور الدين خندودي - منشورات (ANEP) الجزائر - 2007 - ص: 94
- 17- نفسه - ص: 95

18- المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون - إعداد وتقديم: جلّول يلس - أمقران الحفناوي - صدر بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007 - ص: 65

19- الشعر الشعبي والثورة التحريرية بدائرة مروانة (1955 - 1962) - العربي دحو - ص: 100

20- ديوان عبد القادر الخالدي - جمعه الأستاذ: محمد الحبيب حشلاف - تمّمه وحققه وأعدّه للنشر: محمد بن عمرو الزّرهوني - منشورات (ANEP) - 2003 - ص: 93

بين الأدب والتاريخ

عبد القادر بن بوفلجة
طالب دكتوراه جامعة جيلالي ليايس

مقدمة :

حينما يكتب الأديب شيئاً مما تجود به قريحته من شعر أو نثر، فهو وإن كان يكتب لنفسه إلا أنه يقف للحظة معينة، ويؤرخ لفترة زمنية محددة. نقرأ القصائد المعلقة فهي تؤرخ لسيرة أصحابها في لحظاتها الدافئة، فدلالات الكتابة تتعدى إلى التاريخ، وتتجلى لنا فيها أركان التاريخ الأربع: الزمن والمكان والشخصية والحدث.

وقد رأيت أن ابن خلدون أشار إلى هذه الأربع في مقدمته؛ حينما تكلم عن ما أسماه هو بالغلط الخفي في التاريخ الذّهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرار الأيام أنه يكون في الأشخاص والأوقات والأمصار⁽¹⁾. ومقالاتي هذه أوردت فيها إجمالاً لفكرة معينة، ولم ألتجئ إلى تفصيل وإيراد الأمثلة، لأن الموضوع طويل ويحتاج إلى غزارة في الموضوع، ووفرة في إيراد الاستشهادات خصوصاً من كتب الأدب، لأن فكرة المقالة تتحدث عن خدمة الأدب للتاريخ، وهو مشروع كبير ضخم يحتاج إلى نخبة تبحث الموضوع، وتتأزر في جمع الكثير من الشواهد الأدبية، وتمحيص الحقائق التاريخية، وتخليص التاريخ من كثير الشوائب إذ يحتاج إلى الواقعية، وتهذيب الأدب حتى يكون منطقة أعلى في تخليص الأمة من القوقعة والتخلف عن ركب تمثيل الأمة بأحسن وجه.

1- الزمن وهو أول محطة تاريخية يؤرخ لها الأديب، وهو القيد المعنوي الذي تحط فيه الأحداث من حوله. ويعتبر الزمن من الناحية الأدبية لحظة لا يمكن أن تتكرر وفيها يغتنم الأديب تلك اللحظات حتى يثبت ما في أشجانه، وهذه اللحظات تعتبر زمن ترجمة المشاعر وتاريخ للحظات وأوقات لفترة من العمر الإنساني. وإذا أردنا أن نؤرخ للحظات الشعراء والأدباء، نجد كلامهم يفيض شاعرية أكثر من غيرها، والناقد يدرس هذه اللحظات حتى يوطد العلاقة بين الحدث وصاحب الحدث.

وإذا صح أن يقال أن الكذب يغلب على أهل الأدب والشعر، فإنما هذا يكون على مستوى الأدب والانزياح في التعابير، لكن تبقى الواقعية وهي صدق وقوع الحدث في ضمن سياق الكلام، تارة يرد التصريح بها؛ يسرد الأديب الحدث تارة وتارة يستعير لها أو يكتفي عنها، فتتعرض لتأويلات لذلك يقع الاختلاف. فالشاعر العربي -مثلاً- الذي كتب القصائد المعلقة، إنما كتبها في لحظات أثارت شجونه عندما زار الطلل، لكنه بعد ذلك يستطرد في ذكر الحوادث في صورة الماضي الذي قام في ذهنه أثناء إلقاء القصيدة فهو يؤرخ للحظات عابرة عبر أشجان صادقة قد تكون عباراته كاذبة من

حيث التجوز في هذه العبارات لا غير. ومثله أي شاعر يمدح خليفة أو حاكما بعد معركة فيلجاً إلى وصف خيالي لكن يؤرخ للحادث في لحظته حتى كان من الخلفاء من كان وسيلته للحكم هو الشعر كما عند بني أمية حينما أثّرت النعرات القبلية⁽²⁾.

وكثيرا ما يقع للمؤرخ حين يستشهد على واقعة ما بقصيدة قيلت بعدها، فيعضد القصيدة بصدق الحادثة. ولذلك وردت المقولة المشهورة: «الشعر ديوان العرب» ليس في العصر الجاهلي بل في العصور التي تلت هذه الفترة، حتى مع غيرهم كما هو الشأن في الأندلس، كما عبر ليفي بروفنسال وهو يستشهد لتأثير الحضارة العربية على الإسبانية، فيما يتعلق بمجموعة الأناشيد العامة الإسبانية المغربية الشهيرة باسم رومانسيرو Romancero وهي التي كانت في غرناطة لا يختلف مصدر الإلهام فيها عن مصادره في الأشعار الزجلية التي مازالت تصاغ حتى الآن في فاس أوفي الرباط، حيث احتفظ الذين يحترفون الغناء بجوهر الحكايات العربية الغرناطية سالما حتى بدون أن يدركوا أحيانا معاني كلماتها

2- المكان فهو الحيز الذي يقع فيه الحدث، وكثيرا ما يقتزن المكان بتاريخ الحدث. والأدب لا ينفك أن يستودع قصصه وأحزانه وأفراحه بذكر الأماكن، ولذلك يكثر الأدباء من ذكر الأماكن مواطن التجارب الشعورية، فهذا يذكر جبل كذا والآخر يذكر قرية أو مدينة كذا، وذاك يذكر موطن معركة كذا، وقد حفظت لنا كتب الأدب خاصة الشعر أسماء أماكن جرت فيها وقائع وأحداث، كما هو الشأن في الزمن. وتكمن قيمة المكان في الحدث الأدبي أنه يذكر بلفظه أكثر من الزمن، فيقتزن المكان بالحدث أو بشخصياته أكثر، فيصبح داعما وعاضدا تاريخيا.

ولو أن المؤرخ كان له اهتمام بالأدب لوجد كثيرا من ضالته في تعليق الأحداث والفصل في بعض الخلافات في الأحداث والوقائع ما تدّخره الخزّانة الأدبية من ذكر للأماكن،⁽⁴⁾ فكثيرا ما تتغير مسمياتها عبر الزمن فيقع الخلاف في كونها في زمن كذا أو في جهة كذا، أو يقع التشابه في الاسم الواحد لكنه يتعدّد في أماكن مختلفة، فيكون من المشترك اللفظي الذي يفصل فيه بذكر الفوارق اللفظية بين هذه المسميات، وهو شيء تتوق إليه النفس في إقامة مشروع موسوعي في ذكر الأماكن التي وقعت مسمياتها في بطون كتب اللغة والأدب - وإن كانت بعض كتب اللغة تقيم لنفسها فهراس للأمكنة والأعلام لكن بعمل كبار المحققين وهو عمل لا يكون إلا ممن رزقهم الله الصبر على هذه الأعمال -⁽⁵⁾ على غرار ما يستعمله الكتاب قديما وحديثا في الرجوع إلى مصدر مهم في ذلك ألا وهو معجم البلدان لياقوت الحموي، فقلما تجد كاتباً في التاريخ أو الأدب إلا كان له نسخة يرجع إليها لقلة الكتب النوعية في هذا النوع من التأليف.

3- الشخصية؛ ولا يمكن أن يقوم حدث ما إلا وله رجاله، ولذلك كثيرا ما يتم التنويه على الأحداث، بل ويعتمد عليها بترجمة الأعلام والشخصيات، وهذا النوع من التأليف غزا ردا من الزمن المكتبة العربية، لكنه أصبح الآن عزيزا - لاستغناء الناس عن الأساتذة والشيوخ - وأصبح التسابق إلى التأليف والانتواء على الذات سمة كتاب العصر، وما أحسن القول الذي يشيد بضرورة كتابة كل ما ورد عن أهل العلم: العقل عقلاّن: «مطبوع ومسموع ولا ينفع مسموع ما لم يكن ثم مطبوع»⁽⁶⁾ وكانت كتب التراجم والأعلام لا تقتصر على المؤرخين فقط، كالذهبي والسّخاوي وابن حجر فقط - وإن كان هؤلاء لهم مساهمة في الأدب - لكن كانت تراجم الأدباء في مرحلة متقدمة، من مثل طبقات الشعراء لأبي سلام

الجمعي (ت231هـ)، والشعر الشعراء لابن قتيبة (ت276هـ)، وفيما بعدهم معجم الأدباء لياقوت الحموي (ت626هـ)، الذي لم يخص كتابه برجال الأدب فقط وإنما ضمه عناصر من رجال الدين والفقه، وعلى كل تراجع الأدباء والشعراء ضمت نقولا تاريخية وأحداث مهمة لا يستغني عنها المؤرخ.

وثمة لون آخر من الأدب أشار إليه العلامة البشير الإبراهيمي في آثارة قائلا: «والتمثيل والخطابة عند الأمم الحية توأمان... وليس موقف الممثل بينهم دون موقف الخطيب ولا موقع الرواية من نفوسهم دون موقع الخطبة، فإنما الخطيب والممثل شيء واحد، الممثل خطيب إذا أحسن التصوير، والخطيب ممثل إذا عرف كيف يقصّ الخبر...»⁽⁷⁾ ونحن ندرج هذا في النوازل العصرية؛ ليس في المسرح فقط وإنما في الأفلام والمسلسلات التاريخية التي تحتاج إلى كثير من العمل الأدبي والتمحيص التاريخي، وهنا تقع المهمة على عاتق الأديب والمؤرخ اللذان يتحملان المسؤولية في المزج بين الأدب والتاريخ وتقديمها ليس إلى جمهور الأمة وإنما إلى العالم بأكمله، فليست أمتنا عقيمة في أدبها ولا في تاريخ بطولات رجالها.

4- الحدث وإذا أردنا الكلام عن الحدث، فهو لب الجمع بين الأدب والتاريخ، فالأحداث كثيرا ما تتناولها في التاريخ بموضوعية، لكننا في الأدب تتناولها بلون آخر من النفسية وأحيانا تكون من أصحاب الحدث بأنفسهم، فالشاعر الذي يصور أحداث المعركة مثلا يتناولها وهو يصف الأحوال النفسية، والجميل في وصف الأحداث أنه كان يصحبه وصف اجتماعي وظروف قيام تلك النزاعات بين القبائل مثلا في المجتمعات العربية في العصر الجاهلي، فأثارت الشعراء، وألهبت مشاعرهم، فينتقل التاريخ لحظة النفس إلى تاريخ اجتماعي، إلى توطيد لحظات تاريخية تتمثل في تاريخ عسكري لمعركة ووصف سياسي لوضع قائم في تلك الفترة.

والأثر الذي يتركه الحدث يعتبر أهم وسيلة في الحدث التاريخي، إذ قد تجتمع العوامل الثلاثة (الزمان والمكان والشخصية) في حدث فلا يدخل بوابة التاريخ،⁽⁸⁾ ولذلك ترى أحدا من العامة أو الخاصة يفعل من الغرائب ما يدخله في سجل الحمقى أو المغفلين أو فاقدي العقول وإذا سألته عن سبب فعله قال إنما يريد ليذكر به ويشتهر على ألسنة الناس. وقد سجل لنا الأدب لونا من التأليف هي من ألون الأدب حقيقة، لكنها دخلتها ألوان من التاريخ؛ تلك التأليف في الأدب مثل أخبار الحمقى والمغفلين للجاحظ (ت255هـ)، أو من قصص جحا وأشعب، كلها من القصص والغرائب، ومنها أيضا كتب هي من مصادر الأدب عندنا مثل الكامل للمبرد (ت285هـ)، حيث ملئت كتابه بمقالات الخوارج⁽⁹⁾ والبيان والتبيين للجاحظ وردت أقوال المعتزلة، أو مما يسجل في كتب الملل والنحل التي تحكي مذاهب المشائخ ونقولا عن أصحاب المقالات في الدين والفلسفة والكلام، أخذت لونا دينيا وسبكت في تأليف لغوية وعقدية، لكنها كانت تحمل في طياتها تاريخا لمرحلة من عمر العربية وواقعا اجتماعيا أو لونا سياسيا، وربما ثقافيا، مؤرخة لفترة زمنية معينة يلتجئ إليها المؤرخ كما لا يستغني عنها الأديب.

الإحالات والهوامش:

1 - ينظر المقدمة، ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، ط1 - 1425هـ/2004م، ج1، ص116.

- 2 - ينظر الحياة الأدبية عصر بني أمية، محمد عبد المنعم الخفاجي، دار الكتاب اللبناني ط2 - 1987 م. ص 54
- 3 - حضارة العرب في الأندلس، ليفي بروفنسال، ترجمة ذوقان فرقوق، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، بتصرف، د ت ط، ص 98.
- 4 - ينظر مشاهدات ابن الخطيب في المغرب والأندلس، هامش، تاريخ المغرب الكبير، عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية، بيروت 1981، ص 527.
- 5 - ينظر تحقيق فخر الدين قباوة شرح المفضليات للخطيب التبريزي، طبعة 2 دار الفكر 1407 هـ - 1987 م/تحقيق عبد السلام هارون البيان والتبيين، مكتبة الخانجي/ تحقيق محمد الدالي الكامل للمبرد، دار الرسالة، ط3 - 1418 هـ - 1997 م وغيرهم من كبار المحققين كمحمد محيي الدين عبد الحميد وأبو الفضل إبراهيم.
- 6 - الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، شمس الدين الخاوي، تحقيق: فرانز روزنثال، مؤسسة الرسالة بيروت، ط 1، 1407 هـ/ 1986 م، ص 33.
- 7 - الآثار، محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، د ت ط، ج 1، ص 67.
- 8 - ينظر البيان والتبيين، أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ، مكتبة الخانجي، القاهرة، د ت ط، ص 20.
- 9 - ينظر، الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد، لجنة من المحققين بإشراف مؤسسة المعارف بيروت، د ت ط، ج 2، ص 217

المحور الثالث : الدراسات القانونية

خصوصية الإثبات في المادة الإدارية

سامي اللواتي

مدرس وباحث في القانون. تونس

بما أن القضاء الإداري التونسي غير منظم في إطار هيكل قضائي متكامل⁽¹⁾ فإن الجهة القضائية الإدارية الأساسية تنحصر في مؤسسة المحكمة الإدارية وإن كانت محاكم القضاء العدلي (محاكم النواحي والمحاكم الابتدائية) تلبس قبعة (casquette) القاضي الإداري عندما تنظر ابتدائيا في بعض النزاعات الإدارية مع وجود بعض الهيئات أو اللجان التي تعدّ في حكم الجهة القضائية الإدارية مسندة له وفقا لقاعدة توزيع الاختصاص بين الجهاز القضائي الإداري والعدلي طبقا لمقتضيات القانون الأساسي المنظم للمحكمة الإدارية لسنة 1972 والمنقح تباعا بالقانون عدد 39 لسنة 1996.

وفي هذا الاتجاه يمكن القول إن المحكمة الإدارية تمثّل منظومة قائمة بذاتها لما يرتبط بها من اختصاصات لنوعية الأعضاء الذين يؤدون في نطاقها وظيفة الفصل في النزاعات الإدارية أيضا ما معناه وجود قضاء إداري مستقل عن القضاء العدلي الخاص بحيث تكون المحكمة الإدارية مختصة بمفردها بنزاع تكون الإدارة طرفا فيه معتمدة لإثبات الحق فيه بين متنازعين متفاوتين نظاما قانونيا خاصا بالإثبات لا يعتمد مبدأ إثبات موحد بينه وبين القضاء العدلي الخاص بل هو نظام له خصوصية مستندة إلى وسائل إثبات يعتمد فيها القاضي الإداري على الإثبات الجبر. إلا أنه ورغم تأكيد المشرع على الإزدواجية القضائية باعتباره خيارا دستوريا منذ 1959 فإننا نلاحظ أن هذه الإستقلالية لم تأت مطلقة إذ في كل مرة نجد المشرع يؤكد على منهج توزيع الاختصاص بين الهرمين القضائيين الإداري والعدلي ليضيف نوعا من التكامل بينهما، لذلك فإننا نجد القاضي الإداري على عكس القاضي العدلي معتمدا قناعته⁽²⁾ لتحقيق العدالة والحفاظ على المصلحة العامة بتكريس مبدأ حرية الإثبات (المبحث الأول) وتجدر الإشارة إلى أنه بالرغم من إستقلالية القضاء الإداري عن القضاء العدلي فإن القاضي الإداري يبقى دائما في حاجة إلى القواعد القانونية المدرجة بالقانون الخاص مما يخلق تكاملا بين القضاء الإداري والقضاء العدلي من حيث وسائل الإثبات المعتمدة من قبل القاضي الإداري والقاضي العدلي (المبحث الثاني).

المبحث الأول: تكريس مبدأ حرية الإثبات

رغم تأثر القانون الإداري بمبادئ القانون الخاص إلا أنه يتمتع إلى حد كبير باستقلالية ملحوظة وقد ترجمت هذه الأخيرة من خلال إفراده بنزاعات خاصة وذلك بتحديد اختصاص جهة القضاء الإداري بالنسبة إلى بعض الأصناف من النزاعات بقوانين خاصة وذلك بالإعتماد على وسائل إثبات تعكس مبدأ الإثبات الحر وهي التي تعود إلى عدة فترات تاريخية وأخرى موضوعية (الفرع الأول) التي تظهت على صعيد الاختصاص الكلي والمبدئي للمحكمة الإدارية وعموما في مجال القضاء الكامل (الفرع الثاني).

الفرع الأول: مبررات مبدأ حرية الإثبات

على عكس القاضي العدلي الذي يخضع أثناء فصله في النزاع المتعهد به إلى النظام القانوني المقنن والمفروض عليه في النطق بأحكام القانون الخاص فإن القاضي الإداري أتي على تجاوز هذا النوع من النظام القانوني وذلك من خلال ما تميّز به القانون الإداري من حداثة (الفقرة الأولى) وذلك لأن القانون الإداري على عكس القانون الخاص يجمع دائما بين خصمين غير متكافئين تكون الإدارة دائما طرفا قويا في كل نزاع إداري لما تتمتع به من خصائص السلطة العامة التي تكون في أغلب الأحيان وضعية الطرف المدعى عليه (فقرة ثانية).

الفقرة الأولى: حداثة نشأة القانون الإداري

ينفرد القانون الإداري بعدة خصوصيات تميّزه عن فروع القانون الأخرى. فهو فضلا عن كونه حديث النشأة⁽³⁾ فهو قانون قابل للتطوير⁽⁴⁾. وإذا نظرنا في مراحل تركيز القانون الإداري في تونس و(هذا من خلال التطور التاريخي⁽⁵⁾ لهذا الأخير) أمكننا ملاحظة أن هذا النوع من القانون تمّ اعتماده شيئا فشيئا ثم وقع تدعيمه وتركيزه بصورة متينة في القضاء التونسي وذلك بوضع نظام رقابة يعتمد على جهاز موحد أسند فيه للمحاكم العدلية اختصاص النظر في النزاعات التي تنشأ بين الإدارة والأفراد في إطار قضاء التعويض⁽⁶⁾.

ثم وبعد الإستقلال اكتفى دستور غرة جوان 1959 بالنص على المحكمة الإدارية جاعلا منها إحدى هيأتي مجلس الدولة دون أن يحدد اختصاص أو اختصاصات هذه المحكمة، فكان من الطبيعي تحديد ذلك موكولا للمشرع الذي أتى على سن القوانين اللازمة لذلك جاء قانون غرة جوان 1972 ناصا على اختصاص وطرق عمل هذه المحكمة، لكنّه لم يحددها بكل دقة. أما في خصوص الإثبات ونظامه القانوني فإن المحكمة غالبا ما تعتمد في قضائها على ما أنتت به مجلة المرافعات المدنية والتجارية.

غير أن هذه المرحلة من الاستقلالية التامة لقضاء المحكمة الإدارية في اعتماد نظام خصوصي للإثبات يتماشى وطبيعة النزاع لديها أتى عليه قانون 3 جوان 1996 بأن وضع له حدودا لما فرضه من تقنين للإجراءات لديه من جهة ومن جهة أخرى لما وقع من استكمال لأجهزتها القضائية ولقد تمّ تنقيح القانون المتعلق بها ومراجعته بصورة كاملة بالقانون الأساسي عدد 39 لسنة 1996 المؤرخ في 3 جوان 1996 وذلك ليجعل من القضاء الإداري قضاء مستقلا بذاته

يكون في غنى عن اللجوء إلى مجلة المرافعات المدنية والتجارية من خلال خلق فقه قضاء يساعد على فهم نصوص القانون الأساسي وبالتالي فإذا كان فقه القضاء يتمثل أساسا في الحلول التي يتوصل إليها القاضي الإداري عند فصله في النزاعات الإدارية فإن فقه القضاء الإداري هو الذي يعلن عن المبادئ العامة للقانون والتي تشكل بدورها مصدرا من مصادر القانون الإداري الذي يتميز بالتالي بقابليته للتطوير وذلك بحسب مستجدات ومتطلبات الأوضاع ووفق ما تقتضيه المصلحة العامة.

إنّ حداثة نشأة القانون الإداري مقارنة ببعض فروع القانون الأخرى كالقانون الجنائي أو القانون المدني أو القانون التجاري جعلت قواعده غير مدونة في نص تشريعي واحد يكون شاملا لجميع القواعد الكلية والجزئية التي تحكم تنظيم الإدارة العامة ونشاطها ومنازعاتها على نحو يبرز انسجام تلك القواعد في إطار نظرية عامة متناسقة. فما نجده في مجال القانون الإداري هو مجموعة من النصوص التشريعية المتناثرة تضاف إليها نسبة ملحوظة من القواعد القانونية غير المكتوبة.

وهو ما جعله يتميز عن بقية فروع القانون الخاص باستقلاله عنها.

ولكن هذا الاستقلال النسبي للقانون الإداري لم يكن في الحقيقة إلا بسبب ما أثبتته التجربة كون بعض نصوص القانون المدني لا تتلائم مع المستلزمات الخاصة بسير المرافق العمومية. وليس هناك من شك في صعوبة تطبيقها في إدارة العلاقات بين المرافق العمومية والأفراد.⁽⁷⁾

وتخضع الأطراف المتنازعة التي لم يحددها ولم يحصرها القانون إلى اعتماد وسائل إثبات حرة تهدف إلى توسيع قناعة القاضي الإداري فتخضع بالتالي إلى رقابته وتقديره مدى جدية تلك الوسائل المقدمة من قبل الأطراف سعيا منه لإثبات الحق المتنازع فيه، لذلك فإنها تتميز عن تلك الوسائل المقننة والمنحصرة في القانون الخاص لتنتقل بذلك من نظام الإثبات المقنن إلى نظام الإثبات المعنوي.

هذه الحرية في الإثبات التي يتميز بها القانون الإداري أتت بغاية إعادة التوازن بين أطراف النزاع المشار التي غالبا ما تكون غير متساوية إذ تكون الإدارة الطرف الأقوى بينما يكون مركز منظورها في مرتبة أقل وذلك للاعتبارات المتأنتية من خصوصية مركز الإدارة وما تتمتع به من امتيازات السلطة العامة، لذلك فإننا نجد القضاء الإداري غير مقيد بوسيلة معينة من وسائل الإثبات يكون قد نص عليها القانون الخاص.

ويمكن أن نذكر في هذا السياق أن المحكمة الإدارية كانت قد أكدت في قرارها الصادر بشأن القضية عدد 43 بتاريخ 7 جويلية 1977 (مرزوق ضد الدولة التونسية) ممثلة في شخص المكلف العام بنزاعات الدولة أن مادة القضاء الإداري عامة يجوز الالتجاء إلى جميع طرق الإثبات دون التقيد بأحكام مجلة المرافعات المدنية والتجارية.

وحيث إن محكمة البداية أخطأت لما ثبتت أحكام الفصل 12 من م. م. ت للامتناع عن سماع بينة المستأنف بعلّة أن هذا الإجراء يعد من باب تكوين حجة للمدعي ذلك أنّه في مادة الخصام الإداري من الجائر الالتجاء إلى جميع طرق الإثبات دون التقيد بأحكام مجلة المرافعات المدنية والتجارية وفقا لأحكام الفصل الثاني من الأمر المؤرخ في 27 نوفمبر 1888.

الفقرة الثانية : طبيعة النزاع الإداري

طالما تقتضي خصوصية وطبيعة النزاع الإداري اختصاص المحكمة الإدارية بكل أطوار التقاضي بها فتكون الإدارة فيها أحد متقاضيه لا سيما وأن القانون الإداري هو جملة تلك القواعد القانونية المتميزة والمختلفة عن قواعد القانون الخاص والتي تحكم الإدارة العمومية من حيث تنظيمها ومن حيث نشاطها بما يترتب على هذا النشاط من نزاعات تكون متمشية مع طبيعتها ومع وظائفها ومع مقاصدها التي تتلخص في تحقيق المصلحة العامة، الأمر الذي يفرض ألا تعامل الإدارة كما يعامل الأفراد.

وبصدور القانون الأساسي عدد 38 لسنة 1996 المؤرخ في 3 جوان 1996 المتعلق بتوزيع الاختصاص بين المحكمتين العدلية والإدارية وإحداث مجلس تنازع الاختصاص وكذلك القانون عدد 39 المنقح بقانون المحكمة الإدارية حيث أصبحت هذه الأخيرة ذات اختصاص شامل أي صاحبة الولاية العامة في بعض الدعاوى والنزاعات الإدارية وذلك ابتدائيا واستئنافا وكذلك تعقيبييا مما جعل وسائل الإثبات المعتمدة لدى القاضي الإداري تخضع إلى نظام الإثبات الحر.

إن قواعد القانون الإداري هي قواعد متغيرة وغير مستقرة إذ هي قواعد مرنة تتطور حسب المستجدات وطبق ما تتطلبه المصلحة العامة مما يجعله مختلفا نوعيا عن فروع القانون الخاص بحيث يرتكز بالأساس على فكرة عدم التوازن بين أطراف النزاع⁽⁸⁾ من ذلك أن الإدارة تتواجد في مرتبة أعلى من أطراف منظورها في النزاع مما يكسبه خصوصية لما للإدارة من سلطات في اتخاذ قرارات نافذة.

وإذا كان النزاع الإداري نزاعا حول المرافق العامة ويكتسي نشاط الإدارة حسب فقه قضاء المحكمة الإدارية صبغة مرفق عام إذا ما تعلق بهدف المصلحة العامة تديرها هيئة مكلفة بإدارة شخص معنوي تابع للقانون العام تتمتع بصفتها بمميزات غير مألوفة بالقانون الخاص. وإذا ما توفرت الشروط وجد المرفق العام غير أن هذا لا يكفي حتى تعود النزاعات المتعلقة بالمرفق موضوع النزاع إلى نظام القانون العام أي يكون النشاط نشاط السلطة العامة⁽⁹⁾ ويتوفر تلك المعايير يصبح بمقتضاها ذلك النزاع مقيدا بقوانين إجرائية خاصة وعليه يحتكم القاضي الإداري لنزاع إلى أحكام مجلة المرافعات المدنية والتجارية كمبادئ عامة وفقط في صورة عدم وجود نص خاص بالقانون الإداري طالما لم تتعارض نصوصها مع ما جاء به من قواعد وأحكام خاصة⁽¹⁰⁾.

وبالتالي فإن القاضي الإداري غير ملزم بالالتجاء إلى أحكام قانون المرافعات المدنية والتجارية إذ أنه يلجأ إليها باعتبارها ملزمة له باعتبار أن تلك الأحكام نفسها تقتضيها طبيعة القضاء الإداري وعلاقات وروابط القانون العام⁽¹¹⁾ وبالتالي فإن القاضي الإداري يستوحي مبادئ القانون الإداري لتحديد الحلول المناسبة التي تتماشى مع ما هو معروض عليه في النزاع وذلك من خلال حرية القاضي في استعمال نظام إثبات دون غيره.

إن النزاع الإداري الذي يقتضي دوما أن يكون أحد طرفيه شخصا معنويا عاما ويمثله بصفته هذه التي تبيح له بعض مظاهر السلطة العامة⁽¹²⁾ التي سواء تثلّت في قدرته على التزام الغير بإرادته المنفردة عن طريق ما يصدره من قرارات إدارية والتي يمكن أن ينفذ مباشرة دون الحاجة إلى استصدار أحكام قضائية أو ما يتمتع به من سلطة الاستيلاء

ونزع الملكية من أجل المصلحة العامة أو تضمين ما يبرمه من عقود إدارية شروط استثنائية غير مألوفة في أحكام القانون الخاص. فهذا النزاع الإداري يدور موضوعه حول حق من الحقوق الإدارية يكفلها المشرع للأشخاص لحماية حقوقهم من خلال التعهد بمهمة الفصل فيها إلى قاضي متخصص وذلك لإمكانية مواجهة الإدارة عن طريق القضاء.

الفرع الثاني: مظاهر مبدأ حرية الإثبات

إن النزاعات الإدارية كغيرها من النزاعات الأخرى لا يمكن للقاضي أن يتدخل فيها من تلقاء نفسه وإنما لا بد من تحريكها من أحد أطراف الخصومة ويكون المدعي عادة وذلك ليفصح عن إرادته في الالتجاء إلى القضاء لحماية مركز قانوني له ضد اعتداء أو تعسف الإدارة⁽¹³⁾ ويبرز ذلك إما من خلال تجاوز الإدارة لتلك السلطة التي بعهدتها أو من عدم مطابقة أو ملائمة القرار المتخذ من قبل الإدارة للأحكام القانونية الموضوعية أو الإجرائية المنبثقة عن الدستور أو الاتفاق الدولي أو القانوني أو المبدأ العام للقانون أو من القرارات الإدارية الأعلى منه درجة في سلم القرارات الإدارية أي سلم الشرعية الداخلي.⁽¹⁴⁾

وبالتالي يكفي أن يكون للطاعن مصلحة ما في إلغاء القرار الإداري حتى يكون طعنه مقبولا من حيث شروط المصلحة إذ يعتمد القضاء الإداري مفهومين واسعا مرنا للمصلحة في التقاضي كلما تعلّق الأمر بدعوى تجاوز السلطة (فقرة أولى). كذلك يمكن إذا ما ثبت الضرر الذي تكون الإدارة قد أحقته بأحد الأشخاص أو مجموعة من الأشخاص المتمثلة في الحصول على تعويض في شكل مبلغ مالي جبرا للضرر⁽¹⁵⁾ وذلك عن طريق دعوى التعويض (فقرة ثانية).

الفقرة الثانية: على مستوى دعاوى الإلغاء

يتبلور مبدأ الإثبات الحر في القانون الإداري والقائم على قناعة القاضي من خلال الاختصاص الكلي للمحكمة الإدارية على مستوى دعوى تجاوز السلطة التي ركزها المشرع التونسي انطلاقا من القانون عدد 40 لسنة 1972 بتاريخ 01 جوان 1972 المتعلق بالمحكمة الإدارية التي عرفها بأنها "الدعوى التي ترفع إلى المحكمة الإدارية بهدف الحصول على إلغاء قرار صادر عن إحدى السلطات الإدارية بناء على إدعاء بأن هذا القرار جاء مخالفا للمشروعية وعليه فإن المدعي يكفي له إثبات⁽¹⁶⁾ وجود مصلحة للقيام بالطعن⁽¹⁷⁾ دون أن تكون هناك صلة مباشرة أو شخصية بين القرار والمصلحة تبقى في الحقيقة متعلقة بتقدير القاضي".

كذلك تقدير مدى إثبات المدعي منظور الإدارة لتوفير الشروط اللازمة للقرار المطالب إلغاؤه وذلك من كونه أحاديا حسب تعليل الفقيه القانوني « La Ferrière » موجودا وقابلا للتنفيذ وأن يكون له أثر ثابت على مصالح أو حقوق الغير وأن لا يكون خاضعا لنظام قضائي آخر منفصل عنه وأخيرا بإثبات كونه قرارا غير شرعي مضرا بمصلحته لا سيما وأن القرار الإداري مبني على قرينة الشرعية⁽¹⁸⁾ أي أنه مفترض فيه احترام للقوانين وينتج عنه سلامة مبناه المادي أي شرعية الوقائع التي تأسس عليها القرار وكذلك سلامة مبناه بما معناه الهدف الذي حمل الإدارة على اتخاذ هذا

القرار لا سيما وأنه يفترض في القرار غير المسبب أنه قائم على سببه الصحيح وعلى من يدعي العكس أن يقيم الدليل على ذلك.⁽¹⁹⁾

إن دعوى تجاوز السلطة ليست دعوى يتقابل فيها طرفان بل هي دعوى تتميز بكونها تبرز طرفا واحدا وهو القائم بالدعوى من جهة وقرارا إداريا صادرا عن سلطة إدارية من جهة أخرى، لذا نجد أن فقه القانون الإداري أخذ منذ مدة في إدخال تعديل على المقولة التي بمقتضاها ينظر إلى دعوى تجاوز السلطة كقضية مرفوعة على قرار إداري وليس على السلطة الإدارية ذاتها. ويعتبر جانب من الفقه أيضا أن دعوى تجاوز السلطة تضع في العلاقة طرفين تبرزهما القضية المعروضة على القاضي الإداري.⁽²⁰⁾

ويسعى القاضي الإداري ضمن هذا الصنف من الدعاوى إلى إلغاء أو نقض القرار الإداري دون أن تكون له السلطة التقديرية لتقدير الوقائع ولا حتى تقييم السلطة التقديرية الراجعة للإدارة وإنما له فقط أن يعتمد وسائل الإثبات المقدمة من الأطراف منظوري الإدارة والبحث في مدى قدرتها على إثبات جانب التعسف باتخاذها ذلك القرار بحيث تكون الوسائل المقدمة متعلقة فقط بشرعية القرارات الإدارية ومخولة لرفع دعوى الإلغاء في حالات معينة قد حصرها المشرع في الفصل السابع من القانون عدد 40 لسنة 1972 وهي أن تكون الإدارة طرفا مدعى عليها غير مختصة أو خرقت الصيغ الشكلية والجوهرية أو أخطأت في تطبيق قاعدة من القواعد القانونية أو أن تكون قد انحرفت بالسلطة أو بالإجراءات.⁽²¹⁾ فيكون بذلك على الأطراف المدعية منظوري الإدارة إثبات وجود ذلك القرار المخدوش فيه وكذلك إثبات المصلحة للقائم بها وبالتالي فإن كل احتجاج أمام المحكمة الإدارية بانحراف الإدارة بالسلطة يجب أن يكون معللا أي على مدعيه إثباته وعلى المحكمة الإدارية استنتاج وجوده من أوراق ملف القضية ومن خلال عملها الاستقرائي للدعوى المرفوعة لديها وذلك باعتماد القاضي الإداري للمنهج الاستقصائي (inquisitoire) يركز على مذهب الإثبات الحر⁽²²⁾ وتتأكد هذه الحرية باعتماد وسائل غير تلك التي يعتمد عليها القاضي العدلي لإثبات النزاع الإداري وهو ما أتى على تحجيره الفصل 3 من القانون عدد 38 لسنة 1996 الذي نص: "ليس للمحاكم العدلية أن تنظر في المطالب الرامية إلى إلغاء المقررات الإدارية أو الإذن بأي وسيلة من وسائل تعطيل عمل الإدارة أو تعطيل سير المرافق العمومية".

وقد تم تنقيح هذا القانون عدد 1 لسنة 2002 المؤرخ في 4 فيفري 2002 والذي جاء ليؤكد منطوق ذلك القانون بصيغة جديدة مفادها أن المحكمة الإدارية تختص بالنظر في دعاوى تجاوز السلطة التي ترفع لإلغاء المقررات الصادرة في المادة الإدارية بحيث يختص القاضي الإداري فقط بنزاع يهدف إلى إلغاء مقرر إداري ينتهج فيه منهج البحث والاستقرار طالما أن هذا الصنف من الدعاوى يعود بالاختصاص الكلي للمحكمة الإدارية. ولقد وقع الاستقرار على أن الحكم الذي يصدره قاض تجاوز السلطة بإلغاء القرار المطعون فيه يكون مكتسبا للحجية المطلقة الشيء المقضي فيه *autorité de la chose jugée* وما يحمل الحكم يرتب آثاره ليس فقط بالنسبة إلى طرفي النزاع وإنما أيضا بالنسبة إلى كافة *Erga Omnes*.

الفقرة الثالثة : على مستوى دعاوى التعويض

إنّ دعوى التعويض والمتمثلة أساسا في دعوى المسؤولية تهدف إلى الحصول على تعويض في شكل مبلغ مالي جبرا للضرر الذي تكون الإدارة قد ألحقته بأحد الأشخاص أو مجموعة من الأشخاص. وما من شك أن دعوى التعويض هي أحد أبرز الدعاوى في ميدان القضاء الإداري وفي قول آخر فهي تشكل بجانب دعوى تجاوز السلطة إحدى الدعاوى الأساسية التي يتضمنها القضاء الإداري.

ولقد كان منشأ دعاوى التعويض أمر 27 نوفمبر 1888 والذي وقع نسخه بالقانون عدد 39 والمؤرخ في 3 جوان 1996 مؤكدا على أن هذا النوع من الدعاوى يهدف في الحقيقة الأمر إلى استرجاع الحقوق وتنفيذ الالتزامات وهي دعاوى يرجى من ورائها الاعتراف بما للمتناقضي في القضاء الإداري من حقوق والتزامات أو امتيازات سواء كانت عقدية أو شبه عقدية أو مترتبة عن جنح أم كانت أحادية.

إنّ القضاء الكامل هو قضاء حقوقي يتعين فيه على القاضي أن يوازن بين طرفي النزاع في حقوقهما إذ يستوجب نظره في الواقع وفي القانون أي النظر في مدى إخلال الإدارة لأحد التزاماتها التعاقدية أو أضرارها التي ألحقها بالمدعي بسبب أشغالها العمومية التي أذنت بها أو بمناسبة أعمالها الإدارية غير الشرعية ثم يكون العمل القضائي والبحث في النصوص القانونية الواجبة التطبيق على موضوع النزاع بحسب الأحوال وطبيعة النزاع. فالوقائع لها تأثير خاص وحاسم على تطبيق القانون والقاضي يكتشفها بمقتضى منهجيته التي تعتمد شتى وسائل الإثبات المادية وغير المادية وذلك لإثبات الوقائع التي هي عبارة عن الأحداث التي تشكل ملاسبات القضية التي إبنى عليها خطأ الإدارة وذلك لتحقيق تحكيم حصول ذلك الخطأ وأوصافه ليستند عليها القاضي الإداري لتحقيق تحكيم شامل من حيث الوقائع ومن حيث القانون⁽²³⁾ ومنه فإنّ على المدعي في إطار القضاء الكامل إقامة الدليل على الوقائع أما ما صعب منها فهو غير ملزم بها ويبقى للقاضي الإداري مهمته النظر في ذلك.

ولأنّ القضاء الكامل هو أولا وبالذات قضاء حقوقي مزدوج الطبيعة ويعتمد على الجانب الاستقصائي كنتيجة لتفاوت طرفي النزاع من جهة وهو إتهامي لطبيعته الحقوقية من جهة أخرى وبالتالي يتعين على القضاء أن يوازن بين طرفيه المتفاوتين. ومن ذلك فإنّ الإدارة تعتبر تلقائيا كطرف أعلى من الفرد. وفكرة علوية الإدارة على أفراد المجتمع تشكل جوهر الفلسفة التي يقوم عليها القانون الإداري الذي بني عليها ضرورة توفير قانون خاص بالإدارة حتى لا يقع إخضاعها لذات القانون الذي يحكم علاقات الأفراد وسائر أشخاص القانون الخاص فيما بينهم. لذلك فإنّ حرية الأطراف في اللجوء إلى حرية الإثبات في القضاء الإداري هي حرية كاملة نظرا لغياب عنصر تقنين تلك الوسائل من جهة وغياب تقيد القاضي الإداري بحدود من جهة أخرى وبالتالي فإنّ على العارض أن يثبت في إطار دعاوى التعويض ارتكاب الإدارة للخطأ إذا كانت المسؤولية المثارة غير مبنية على خطأ أو إذا كانت هذه المسؤولية متمخضة عن أضرار مرتبطة بأشغال عمومية فإنّ المتناقضي المتقدم بدعوى في التعويض لا يطالب بإثبات خطأ ما ارتكبه الإدارة وإنما عليه فقط أن يبين وجود علاقة بين الضرر الحاصل وعمل أو فعل أو تصرف الإدارة.

وبصورة عامة ومهما كانت الحالة فإنّ الإثبات يمكن أن يتم في مادة دعوى التعويض بجميع الوسائل وللقاضي أن يتدخل أيضا من أجل التوصل إلى إثبات المطلوب كما للقاضي أيضا أن يلجأ إلى الاختبار إذا اقتضت الحالة ذلك.

وقد أكدت المحكمة الإدارية في هذا الصدد في قرارها الصادر بشأن القضية عدد 43 بتاريخ 7 جويلية 1977 (مرزوق ضد الدولة التونسية) ممثلة في شخص المكلف العام بنزاعات الدولة المشار إليه أعلاه أنّ في مادّة القضاء الإداري عامّة يجوز الإلتجاء إلى طرق الإثبات دون التقيّد بأحكام م. م. م. ت وحيث أنّ عملية الهدم المذكور هي بعكس العقود من الوقائع المادية التي يجوز إثباتها بجميع الوسائل....." وحيث إنّ محكمة البداية أخطأت لما تبنت أحكام الفصل 12 من م. م. م. ت للامتناع عن سماع بيّنة المستأنف بعلّة أنّ هذا الإجراء يعد من باب تكوين حجة المدعي ذلك أنّ مادة الخصام الإداري من الجائز أن يقع الإلتجاء فيها بجميع طرق الإثبات دون التقيّد بأحكام م. م. م. ت وفقا لأحكام الفصل الثاني من الأمر المؤرخ في 27 نوفمبر 1888.

ولكن رغما عن الاختلاف بين نظريات ومفاهيم القانون الإداري عن القانون العدلي الخاص وذلك من حيث اعتماده لنظرية الإثبات الحر فإنّ ذلك لا يحول دون وجود علاقة بين هذين الهرمين (الإداري والعدلي) حيث استوعب فيها القانون الإداري بعض القواعد القانونية المتعلقة بالقانون الخاص وكذلك من خلال لجوء القاضي المدني إلى الحلول المعتمدة من قبل القاضي الإداري لذلك فإنّه من الواضح وجود تكامل على عدة مستويات بين هذين الصنفين من القانون.

المبحث الثاني: تكامل وسائل الإثبات بين القضاء الإداري والقضاء العدلي

إنّ الازدواجية القضائية بما معناه وجود محكمة إدارية بصورة موازية للمحاكم العدلية على اختلاف درجاتها لا يحول دون اختصاص هذه الأخيرة بالنزاعات التي قد تنشأ بين الأفراد والإدارة وهو ما يدعوا القاضي الإداري بدوره إلى التدخل في بعض النزاعات المدنية من جهة واللجوء إلى بعض الوسائل المعتمدة في القانون المدني لاستقراء الحقيقة والتحقيق في الدعوى المعروضة عليه في إطار القضاء الإداري ولذلك فإنّ التكامل بين القضاء الإداري والقضاء العدلي لا يترتب بالضرورة عن وجود قانون عام منفصل عن القانون الخاص ولو نظريا وجود هيئة قضائية إدارية منفصلة عن الهيئة القضائية العدلية.⁽²⁴⁾

إنّنا نجد القاضي الإداري بصدد تطبيق إما النص الخاص وإما الالتزام بتطبيق أحكام قانون المرافعات المدنية والتجارية باعتبارها الشريعة العامة في الإجراءات القضائية فإن وجد النص القانوني فعليه تطبيقه وإن افتقد للنص فمن حقه بل من واجبه الاجتهاد باختيار الحلول وإرساء النظريات الجديدة في مجال الإجراءات القضائية وبالتالي ليس عليه أن يرجع إلى نصوص المرافعات بل له أن يستأنس بها وأن يعتنقها إذا رأى صلاحيتها لتطبيقها على النزاع المعروض أمامه وإذا أفتنع أيضا أنّها تتعارض مع طبيعة أو جوهر ذلك النزاع بحيث لا يكون رجوع القاضي الإداري إلى قواعد المرافعات المدنية والتجارية إلا بمثابة الاستثناء وليس على سبيل الإلزام⁽²⁵⁾ وبالتالي فإنّنا نجد القانون الإداري والقانون المدني مرتبطين من حيث الاختصاص (الفرع الأوّل) وكذلك من حيث وسائل الإثبات المعتمدة من قبل القاضيين الإداري والعدلي (الفرع الثاني).

الفرع الأول: من حيث الاختصاص

يقصد بالاختصاص هنا الاختصاص الوظيفي الذي يتمثل في توزيع العمل بين مختلف الهيئات القضائية في الدولة⁽²⁶⁾ ويمكن أن نميز في تونس بين القضاء العدلي والقضاء الإداري إلا أنه ورغم تأكيد هذا الأخير على إستقلاليته ورغم تأكيد المشرع من خلال تنقيح 1996 بالقانونين عدد 38 و39 على الاختصاص الكلي للمحكمة الإدارية في مادة النزاعات الإدارية فإن ذلك لن يحول دون إسناد بعض من ذلك الاختصاص إلى المحاكم العدلية للنظر فيها ابتدائيا (فقرة أولى) مما جعل الاختصاص للمحكمة الإدارية استثنائيا وتعقيبيا (فقرة ثانية).

الفقرة الأولى: اختصاص المحاكم العدلية بالنزاعات الإدارية

لقد استقرت تقاليد الفقه قضائية على جعل بعض الأصناف من النزاعات الإدارية من اختصاص القاضي العدلي ومن الضروري الإشارة في هذا الخصوص إلى استئثار القاضي العدلي بالإدري بأصناف معينة من النزاعات الإدارية.⁽²⁷⁾

وقد أتى التنقيح للقانون الأساسي عدد 10 لسنة 2003 المؤرخ في 15 فيفري 2003 بفصله الثاني (فقرة أخيرة جديدة) ناصا على الاختصاص للمحاكم العدلية بالنظر في جميع ما ينشأ من نزاعات بين صناديق الضمان الاجتماعي ومستحقي المنافع الاجتماعية والجرايات والمؤجرين أو الإدارات التي ينتمي إليها الأعوان في شأن تطبيق الأنظمة القانونية للجرايات والضمان الاجتماعي⁽²⁸⁾ باستثناء المقررات القابلة للطعن من أجل تجاوز السلطة والدعاوى المرفوعة ضد الدولة في مادة المسؤولية الإدارية المنصوص عليها بالفقرة الأولى من الفصل الأول من هذا القانون أيضا.

إلى جانب ذلك، تختص المحاكم العدلية بالبت في دعاوى التعويض ضد الإدارة إذ نجد محكمة الناحية المختصة بالبت في دعاوى التعويض عن حوادث الشغل والأمراض المهنية وذلك عملا بأحكام القانون عدد 56 لسنة 1995 المؤرخ في 28 جوان 1995 والمتعلق بالنظام الخاص بالتعويض عن الأضرار بسبب حوادث الشغل والأمراض المهنية في القطاع العام. ولقد تعرض المشرع صلب القانون المذكور بالفصول من 43 إلى 47 للنزاعات القضائية إذ ورد بالفصل 43 المشار إليه أن قاضي الناحية يختص بالنظر في النزاعات الناتجة عن حوادث الشغل والأمراض المهنية وجبر الأضرار الناجمة عنها مهما كان مقدار الطلب أو موضوع الدعوى.⁽²⁹⁾

بالإضافة إلى ذلك يختص القاضي العدلي بالبت في الدعاوى المتعلقة بالتعويض عن حوادث العربات والوسائل المتحركة مهما كان نوعها الراجعة للإدارة حسب تعبير المشرع بالفقرة الثانية من الفصل الأول من القانون عدد 38 لسنة 1996 المؤرخ في 3 جوان 1996 المتعلق بتوزيع الاختصاص بين المحاكم العدلية والمحاكم الإدارية وإحداث مجلس لتنازع الاختصاص وبالتالي فإن المحاكم العدلية هي التي تبت في دعاوى التعويض سواء كان ابتدائيا أو استثنائيا أو تعقيبيا.

وبالتالي فإن المحاكم العدلية موكل لها بالنظر في الدعاوى المرفوعة للحصول على تعويض عن العقارات المنتزعة للمصلحة العامة وتستمد المحاكم العدلية هذا الاختصاص ابتدائيا من أحكام الفصل 30 من القانون عدد 85 لسنة 1976 والذي ورد به ما يلي: 'يكون النزاع ابتدائيا من اختصاص المحكمة الابتدائية التي توجد بدائرتها الأملاك واستئنافيا وتعقيبيا لدى المحاكم الإدارية طبق أحكام الفصل الثاني من القانون عدد 40 لسنة 1972 المؤرخ في غرة جوان 1972 المتعلق بالمحكمة الإدارية'.⁽³⁰⁾

أما في خصوص القضايا المتعلقة بكف شغب الإدارة فإن اختصاص الكلي للمحاكم العدلية بالنظر في مثل هذه الدعاوى يعتبره بعض الغموض وذلك بالرجوع إلى فقه قضاء المحكمة الإدارية فنلاحظ هنا إن هذه المحكمة لم تعتمد موقفا واضحا بخصوص مدى اختصاصها في مادة كف شغب الإدارة⁽³¹⁾ حيث تعتبر هذه المحكمة أن مثل هذه الدعاوى يعود إلى اختصاص القاضي الإداري بالنظر وخصوصا في تلك الدعاوى التي تتصرف فيها الإدارة تصرفا ماديا يستهدف النيل من الملكية الفردية والحريات العامة.⁽³²⁾

كذلك قد حدد المشرع اختصاص المحكمة العدلية في المجلة الانتخابية بالفصل 19 في ما يتعلق بكيفية الطعن في مقررات لجنة المراجعة وذلك بأن خص بالنظر في تلك الدعاوى المحاكم العدلية ذات الاختصاص الترابي في حين نجد المحكمة الإدارية تنظر في الطعن بالتعقيب وهو ما يجعل المحاكم العدلية في مثل هذه النزاعات الإدارية تختص باستئنافيا دون أن يكون لها اختصاص ابتدائي.

كما نجد أن الفصل 26 من مجلة الجباية يضبط اختصاص المحكمة العدلية ابتدائيا الصادرة بالقانون عدد 1 لسنة 1997 والمؤرخ في 3 فيفري 1997 إذ نصت أنه يمكن لكل طالب مطالب بالمعلوم تقديم طلب مراجعة المعلوم لدى محكمة الناحية المختصة ترابيا خلال أجل مدته ستون يوما ابتداء من تاريخ الإعلام عن ختم عمليات الإحصاء المشار إليه بالفصل التاسع من هذه المجلة أو انتهاء الآجال المحددة لإبلاغ قرارات لجنة المراجعة بالنسبة للاعتراضات الواردة خارج عمليات الإحصاء المشار إليها بالفصل الخامس والعشرين من ذات المجلة.

ويستخلص مما تقدم أن حقيقة التكامل بين هذين الصنفين المتباينين من الصنف من القضاء هو اعتماد القاضي العدلي منهجية الإثبات المقررة بمثل هذا الصنف من النزاعات إذ نجد أنه لم يعد له الإبقاء على فكرة عدم التوازن بين الأطراف بل يتولد عن تعهده بالنزاع الإداري إلى اختصاصه العدلي أن يحكمه النظام القانوني للإثباتات المفروضة على النزاعات العدلية بحيث نجد الإدارة تارة طرفا مدعيا وتارة أخرى مدعى عليها فيكون محمول عليها خطر عبء الإثبات أمام القضاء العدلي بالرغم من تمتعها بامتيازات السلطة العامة.

ومع العلم أن هذا التكامل بين القضاء العدلي والقضاء الإداري لا يتضح فقط من خلال الاختصاص الممنوح للقضاء العدلي لبعض النزاعات الإدارية وذلك ابتدائيا واستئنافيا بعد أن اختصت كليا فلقد جاء التشريع الصادر بتاريخ 3 جوان 1996 المتعلق بإعادة تنظيم القضاء الإداري ليضبط اختصاص المحاكم العدلية ابتدائيا وذلك في النزاعات المتعلقة بالانتزاع من أجل المصلحة العامة. أما استئنافيا فهي تختص بالنظر في كل نزاع بشأن القوائم الانتخابية المحررة من طرف السلط الإدارية والتي نص عليها الفصل 14 من المجلة الانتخابية.

الفقرة الثانية: اختصاص المحاكم الإدارية بالنزاعات المدنية

وفقا لفصل الأول من القانون عدد 38 لسنة 1996 المؤرخ في 3 جوان 1996 المتعلق بتوزيع الاختصاص بين المحاكم العدلية والمحكمة الإدارية وإحداث مجلس لتنازع الاختصاص فإن المحكمة الإدارية تختص بالنظر في دعاوى مسؤولية الإدارة المنصوص عليها بالقانون عدد 40 لسنة 1972 المؤرخة في 1 جوان 1972 بما في ذلك الدعاوى المتعلقة بالاستيلاء على العقارات وكذلك مسؤولية الدولة التي تحل محل أعضاء التعليم العمومي في نطاق التشريع الجاري به العمل كما نصت الفقرة الثانية من القانون عدد 38 السابق الذكر على أن المحكمة الإدارية تختص بالنظر في النزاعات المتعلقة بأعوان المنشآت العمومية الخاضعين للنظام الأساسي العام للوظيفة العمومية أو الراجعين لنظر المحكمة الإدارية بمقتضى القانون.⁽³³⁾

إضافة لذلك تختص المحكمة الإدارية بالنزاعات الناشئة عن الصندوق القومي للتقاعد والحيطة الاجتماعية ومنخرطيه في مادة الجرايات والحيطة الاجتماعية. ويمكن أن نستخلص أن أحكام الفصول من 2 إلى 13 من القانون عدد 40 لسنة 1972 المؤرخ في غرة جوان 1972 قد ضبطت اختصاصات المحكمة الإدارية ابتدائيا واستئنافيا وتعقيبيا. وقد حدد الفصل 17 من القانون عدد 40 لسنة 1972 المؤرخ في غرة جوان 1972 مرجع نظر المحكمة الإدارية ابتدائيا وذلك بأن خص الدوائر الابتدائية بالنظر في دعاوى تجاوز السلطة التي ترفع لإلغاء المقررات الإدارية الصادرة في المادة الإدارية وكذلك في الدعاوى المتعلقة بالعقود الإدارية وتختص أيضا في الدعاوى الرامية إلى جعل الإدارة مدنية من أجل أعمالها الإدارية غير الشرعية أو من أجل الأشغال التي أذنت بها أو من أجل الأضرار غير العادية التي ترتبت عن أحد أنشطتها الخطرة. كما تنظر في جميع الدعاوى ذات الصبغة الإدارية باستثناء ما أسند منها لمحاكم أخرى بقانون خاص.⁽³⁴⁾

أما في ما يتعلق بالاختصاص الحكمي للمحكمة الإدارية استئنافيا فقد حدد ذلك الاختصاص الفصل 19 من القانون عدد 40 لسنة 1972 المؤرخ في غرة جوان 1972 الذي خص المحكمة الإدارية بالنظر في استئناف الأحكام الصادرة عن الدوائر الابتدائية للمحكمة الإدارية.

كما يعهد لها النظر في استئناف الأحكام الابتدائية الصادرة عن المحاكم العدلية في المادة الإدارية في نطاق اختصاص مسند لتلك المحاكم بقانون خاص وذلك ما لم ينص القانون المذكور صراحة على اختصاص المحاكم العدلية بالنظر استئنافيا في تلك الأحكام وكذلك تختص بالنظر في استئناف الأذون والأحكام الاستعجالية الصادرة في المادة الإدارية المنصوص عليها في هذا القانون.

لقد نظم المشرع التونسي أحكام الطعن بالتعقيب أمام المحكمة الإدارية بالفصول من 67 (جديد) إلى 76 (جديد) من القانون عدد 40 لسنة 1972 المؤرخ في غرة جون 1972 المتعلق بالمحكمة الإدارية والذي نص على أن الطعن بالتعقيب يرفع بمقتضى مطلب يحرره محام لدى التعقيب ويقدم لكتابة المحكمة في أجل ثلاثين يوما من تاريخ الإعلام بالحكم المطعون فيه. كما يجب أن يتضمن المطلب على أسماء الأطراف وألقابهم ومقراتهم وعرض موجز لوقائع القضية والمطاعن الموجهة إلى الحكم المطعون فيه.

وقد سبق للمحكمة الإدارية أن أصدرت بعض الأحكام المتعلقة بالمطالب التعقيبية منها أن يكون معللاً وكاشفاً عن أسباب الطعن (المحكمة الإدارية قرار بتاريخ 27 أفريل 1978...../إدارة الأداءات المجموعة ص 89) أن يكون واضحاً ودقيقاً لا غامضاً أو مبهماً (المحكمة الإدارية قرار بتاريخ 24 نوفمبر 1982.... /الإدارة العامة للإداءات المجموعة ص 114) وأخيراً أن يركز على أسباب قانونية ومنه فإن مرجع نظر المحكمة الإدارية تعقيبياً يكون في عدة طعون ومنها الطعن الموجه ضد الأحكام النهائية المتعلقة بتوظيف الأداءات والمعاليم الراجعة للدولة والجماعات المحلية وكذلك الأحكام النهائية المتعلقة باسترجاع تلك الأداءات والمعاليم وهو ما نصت عليه الفقرة الثانية من الفصل 11 (جديد) من القانون عدد 40 لسنة 1972 المنظم للمحكمة الإدارية.

وكذلك عملاً بالفصل 11 من القانون عدد 39 لسنة 1996 المؤرخ في 3 جوان 1996 فإن المحكمة الإدارية تتعهد بالنظر في الطعون المسطرة على الأحكام النهائية الصادرة في مادة الاعتراضات على البطاقات التنفيذية المتعلقة باستخلاص ديون الدولة والجماعات المحلية والمؤسسات العمومية المخول لها قانوناً استخلاص ديونها بمقتضى بطاقة تنفيذية.⁽³⁵⁾

وتنظر المحكمة الإدارية كذلك في الطعن الموجه ضد الأحكام الصادرة عن المحاكم العدلية فيما يتعلق بالقوائم الانتخابية للانتخابات الرئاسية والتشريعية والبلدية وذلك طبقاً لأحكام الفصل 12 من القانون عدد 40 لسنة 1972 المتعلق بالمحكمة الإدارية بالإضافة إلى ذلك فإن هذه المحكمة تنظر في الطعن في قرارات لجنة المنافسة وذلك حسب ما خوله الفصل 13 مكرر من القانون عدد 40. وتبت هذه الأخيرة بالتعقيب في الطعن الموجه ضد قرارات المحاكم الاستئنافية والمتعلق بالنزاعات في مختلف الهيئات المهنية وذلك عملاً بأحكام الفصل 13 من القانون عدد 40 لسنة 1972 وأخيراً نجدها تنظر تعقيبياً وكذلك النظر في الطعون الموجهة ضد الأحكام النهائية طبقاً لما نص عليه الفصل 21 من القانون عدد 40 لسنة 1972 المنقح بالقانون الأساسي عدد 79 لسنة 2001 المؤرخ في 24 جويلية 2001.⁽³⁶⁾

ورغم ما توصل إليه القاضي الإداري ورغم سعي المشرع إلى تحديد اختصاص كل من هيكلي القضاء الإداري والعدلي بنزاعات يتفرد بها كل منهما إلا أن وجود الإزداوجية القضائية المتجسدة في وجود قضاء إداري حذو القضاء العدلي فإنه يصعب في بعض الأحيان معرفة ما إذا كان الاختصاص منعقداً لجهة القضاء الإداري أو لجهة القضاء العدلي، لذلك فقد جاء القانون عدد 38 لسنة 1996 المؤرخ في 3 جوان 1996 لتدارك هذا التداخل في الاختصاص بمناسبة إعادة تنظيم القضاء الإداري لإحداث مجلس في تنازع الاختصاص للنظر في النزاعات الناشئة بين المحكمتين وذلك بإعتماد آليتين تتمثل الآلية الأولى في أنه يمكن للمكلف العام بنزاعات الدولة والجماعات المحلية والمنشآت العمومية في القضية التي يكونون طرفاً فيها أن يدفع في مذكرة مستقلة ومعللة بعدم اختصاص إحدى المحاكم العدلية للنظر في هذه القضية إستناداً إلى رجوع النظر فيها إلى المحكمة الإدارية. وتقدم المذكرة بعد اطلاع الأطراف الأخرى عليها ولا تقبل بعد حجز القضية للمفاوضة وتصدر المحكمة المتعهد حكمها معللاً يقضي بإرجاع النظر في القضية وإحالة ملفها

على مجلس التنازع ولا يقبل هذا الحكم أي وجه من أوجه الطعن ولو بالتعقيب ولا يمكن تقديم الدفع أمام محكمة التعقيب.⁽³⁷⁾

وتسعى الإدارة بهذه الصورة إلى أن تحقق امتيازها القضائي بجعل المنازعة القائمة بينها وبين الغير من اختصاص المحكمة الإدارية وليس من اختصاص القضاء العدلي أما الآلية الثانية فمفادها أن القرارات التي يصدرها مجلس تنازع الاختصاص واجبة الإلتباع من قبل سائر المحاكم.⁽³⁸⁾

طبقا لأحكام الفصل 10 من القانون عدد 38 لسنة 1996 المؤرخ في 3 جوان 1996 المتعلق بتوزيع الاختصاص بين المحاكم العدلية والمحكمة الإدارية وإحداث مجلس تنازع الاختصاص فإن المجلس المذكور يتولى البت في مسألة الاختصاص المعروضة عليه في أجل أقصاه شهران من تاريخ تعهده بالقضية. وهذا الأجل المنصوص عليه بالفصل 10 من القانون المذكور يعد أجلا قصيرا ويهدف المشرع من وراء ذلك إلى عدم تعطيل نظر المحاكم المتععدة بالخصومة متى أثبتت أمامها مسألة تتعلق بالاختصاص.⁽³⁹⁾

الفرع الثاني : من حيث وسائل الإثبات المعتمدة

إن للقاضي الإداري سلطات استثنائية إيجابية مستمدة من الصفة الإيجابية للإجراءات وبالتالي فإنه يقوم بدور إيجابي في الدعوى الإدارية بصفة خاصة فالقاضي هو الذي يحدد طرق الإثبات المقبولة بحرية كاملة⁽⁴⁰⁾ ويقدر مدى قوتها في الإثبات وبذلك يقوم نظام الإثبات في القانون الإداري على مبدأ الاقتناع المطلق أو حرية الاقتناع كما هو الحال أمام القضاء الجنائي وذلك من حيث الاقتناع بالدليل ولكنه يزيد عنه من حيث جمع الدليل وتقديمه إذ يعتبر القانون الإداري أكثر حرية من القانون الجنائي بخصوص إقامة الدليل.⁽⁴¹⁾

ولأن المشرع التونسي لم يأت على تحديد لوسائل الإثبات المعتمدة لدى القاضي الإداري فإننا نجد هذا الأخير غير مقيد باعتماد وسيلة معينة دون أخرى وإنما نجده معتمدا لوسائل الإثبات الواردة بالقانون المدني خاصة في غياب ما يضاهيها بالقانون الإداري والتي تتماشى وطبيعة النزاع الإداري فلا شيء يمنع القاضي الإداري من اعتماد النصوص القانونية الواردة بالقانون الخاص لذلك فإننا نجد القانون العام والقانون الخاص⁽⁴²⁾ يقتربان من بعضهما البعض ولكن في ظروف يعمل فيها القانون العام على حساب القانون الخاص أو بعبارة أوضح على حساب ما يعبر عن مميزاته الخاصة⁽⁴³⁾ وبالتالي فإن القاضي الإداري لا يلجأ إلى اعتماد وسيلة إثبات دون أخرى إلا متى عجزت الأولى عن إقامة الدليل على ثبوت الحق.

بناء على ما حدده الفصل 427 من مجلة الالتزامات والعقود فإن القاضي الإداري نجده تارة مستندا في دعواه إلى اعتماد كلي للوسائل المكتوبة نظرا لما لها من قوة ثبوتية لإقامة الدليل على وجود جهة الحق (فقرة أولى) وتارة أخرى محتزرا في اعتماده لبقية الوسائل الأخرى المذكورة بالفصل السابق بحيث يحدد اعتماده بحسب قدرتها على ترسيخ قناعة القاضي الإداري ومدى أهميتها في إثبات الحق المتنازع فيه (فقرة ثانية).

الفقرة الأولى : اعتماد كلي للوسائل المكتوبة

تعد وسائل الإثبات المكتوبة وسائل إثبات هامة بما أنها موثوقة تترك أثرا ماديا ويمكن الاحتجاج بها عند الحاجة لإثبات المعاملات لما تتضمنه عادة من دقة في بيان الالتزامات. ومنه فإنه في إطار الأدلة الكتابية يجب أن نفرق بين الحجج غير الرسمية إلا أنه يمكن الجزم أن وسائل الإثبات المكتوبة هي من أنجع الوسائل المعتمدة في المادة الإدارية لما توفره من دقة ووضوح تغني القاضي الإداري عن اللجوء إلى وسائل غيرها.

وتختلف الحجج الكتابية من حيث قوتها الشبوتية فإما أن تكون حججا رسمية وهي التي عرّفها الفصل 442 من مجلة الالتزامات والعقود بأنها الحجة التي يتلقاها المأمورون المنتصبون لذلك قانونا في محل تحريرها على الصورة التي يقتضيها القانون. ويستخلص من تعريف الحجة الرسمية أو السند الرسمي أنه من المحتم توفر الشروط الثلاثة حتى تعد الحجة كذلك إذ يجب تلقيها أو صدورها من موظف أو من في حكمه قانونا وأن تكون ضمن اختصاصه. إلى جانب ذلك يجب تحرير الحجة وفقا لنص القانون. وبالتالي متى استوفت الحجة للشروط الثلاثة فهي تعد رسمية تلزم الكافة ولا يمكن الطعن فيما احتوته إلا بالزور مثلما ورد بفقته القضاء في ذلك المعنى "إن الحجة الرسمية حجة على الناس كافة بما دون فيها من أمور قام بها محررها في حدود مهمته دون حاجة إلى الإقرار بها ما لم يتبين تزويرها بالطرق المقررة قانونا".

أما في ما يخص الحجج غير الرسمية فلم يعرفها المشرع التونسي عكس نظيره اللبناني الذي عرفها بالمادة 150 من قانون أصول المحاكمات المدنية التي تقول: "السند العادي هو السند ذي التوقيع الخاص ويعتبر صادرا عن وقعه ما لم ينكر صراحة ما هو منسوب إليه من خط أو توقيع أو بصمة إذا كان يجهل التوقيع". وفي تعريف آخر للحجج غير الرسمية قد يكون أكثر دقة من غيره يعرفها أحدهم بالقول: "المحررات العرفية هي المحررات الصادرة من الأفراد دون أن يتدخل موظف عام في تحريرها وهي نوعان: محررات عرفية معدة للإثبات ومحررات عرفية غير معدة للإثبات"⁽⁴⁴⁾.

وبالنسبة إلى الحجج الرسمية المعدة للإثبات فقد عرفها بأنها أوراق أعدت مقدما للإثبات فهي أدلة مهيأة ولذلك فهي موقعة ممن هي حجة عليه في حين أن الحجج العادية غير المعدة للإثبات من حيث الأصل هي تلك التي لا تحمل عادة توقيع من صدرت عنه ورغم ذلك فإنها تعد أدلة إثبات يمكن اعتمادها.⁽⁴⁵⁾

ولعل للكتب أهمية بالغة في أغلب المواد القانونية ففي مادة النزاع الجبائي حيث نجد القاضي الإداري مؤكدا على ضرورة الكتب لإثبات الصفقات العمومية المبرمة بين الدولة والأطراف بحيث يعتمد الكتب كشرط صحة وكشرط إثبات إذ جاء بالأمر عدد 442 لسنة 1989 المؤرخ في 22 أفريل 1989 محدد مفهوم الصفقات العمومية بالفصل 48 فعرّفها بكونها "عقود كتابية تبرم من طرف الدولة والجماعات العمومية المحلية والمؤسسات العمومية ذات الصبغة الإدارية والمنشآت العمومية قصد إنشاء أشغال أو التزويد بمواد أو خدمات أو دراسات" وحيث وضع النص حدا لحرية الإدارة في التعاقد بأن فرض عليها إبرام صفقات عمومية في شأن طلبات الأشغال والنقل والتزويد بمواد أو خدمات التي يفوق مبلغها العشرون ألف دينار.

إن الصفة الكتابية تغلب على الإجراءات الإدارية ولا يعني ذلك انعدام الشفافية⁽⁴⁶⁾ أمام محاكم القضاء الإداري إذ يسيطر مبدأ الشفافية على المرافعات المدنية بحيث يسمح بتحقيق الاتصال المباشر بين القاضي وأدلة الإثبات

ويقتصر دور الكتابة فيها على إعداد وتهيئة الدعوى وتقديم صفتها أو ما يتطلب تقديمه من سندات أو وثائق أو مذكرات أو عند التدوين في محاضر الجلسات فاعتبرت خاصية الكتابة في الإجراءات الإدارية ذات صبغة أمر⁽⁴⁷⁾ ملزمة للقاضي بحيث لا يستطيع الخروج عنها إلا إذا كان هناك نص صريح يبيح الشفاهية أمامه وحتى في حالة وجود مثل هذا النص فإنه يعد بمثابة استثناء لا ينبغي التوسع فيه كي لا تفقد الإجراءات الإدارية طابعها الكتابي.

إن الوسائل المكتوبة وفي هذا الإطار حجية جوهرية لا يعتد بغيرها لدحض الوقائع لما لها من قوة ثبوتية مطلقة ترفع عن القاضي الإلتجاء والبحث في غيرها من وسائل الإثبات القانونية وهو ما أنتهجه القاضي الإداري بمناسبة نزاع بين أحد منظوري الإدارة وهذه الأخيرة في مسألة تعلقت بمادة العقود الإدارية.

فما عدا مميزات العضوية والشكلية والشروط الخاصة به والالتزامات الخاصة المنجزة عنه فإن العقد الإداري يخضع تماما لنظرية العقد في القانون المدني في تعريفه وتأويله وشروط تكوينه ومحل الإلتزام الناشئ عنه وسبب الإلتزام وجزاء الإخلال بالشروط الوجوبية وآثار العقد الملزمة وكذلك جزاء عدم الوفاء بالعقد وخاصة بالمسؤولية العقدية واستثناءات المسؤولية كالقوة القاهرة أو فعل الدائن⁽⁴⁸⁾.

إن نعت العقد بأنه إداري يتعلق بالاختصاص القضائي أكثر منه بمضمون العقد فإذا تقرر اختصاص القاضي الإداري بتعيين عليه أن يطبق على النزاع جملة الأحكام المتعلقة به مهما يكن نوعها فيأخذ بالقواعد المدنية والاستثناءات المنصوص عليها بالنصوص المقررة بفقهاء القضاء وبالأحكام المدرجة في العقد ومنه فإنه حسب مقتضيات الفصل 473 من م. إ. ع فإن العقود الإدارية والتي يفوت مقدارها القيمة المحددة بالقانون فهي بالتالي تستوجب الكتب الذي يعتبر حجة كتابية لإثبات الواقع والقانون.

كما أن المشرع قد تعرض بالفصول 470 و471 و472 من م. إ. ع والذي قام بتنقيح الفصلين 470 و471 القانون عدد 57 لسنة 2000 المؤرخ في 13 جوان 2000 اللذين يؤكدان أن نسخ الحجج سواء كانت رسمية أو غير رسمية فهي جديرة بالاعتماد من قبل القاضي لما لها من نفس الحجية التي للأصل ما دام مؤشر عليها من قبل السلط المختصة في ذلك. ولقد ورد ذلك المعنى بالفصل 470 م. إ. ع: "إن نسخ الحجج الرسمية وغير الرسمية المأخوذة من الأصل تعتبر كأصولها إذا شهد بصحتها المأمرون العموميون المأخوذون بذلك بالبلدان المأخوذة بها النسخ ومنه فإن نسخ الحجج لها نفس قوة الإثبات إذ أنها تقيّد الأطراف والمحكمة فيما يتعلق بحجيتها.

ويمكن أن تكون نسخ الحجج من ضمن أوراق القضية التي قد تعرض على القاضي الإداري لإثبات الحق المطالب به بحيث يمكن أن تتكون من جملة التقارير المدلى بها أثناء التحقيق أو مذكرة تتضمن معلومات يوجهها رئيس لمؤوسيه ويمكن أن تتمثل أيضا في مجموعة المراسلات المتبادلة بين الأطراف المتنازعة والتي من شأنها أن تدل القاضي الإداري على معرفة حقيقة النزاع وإثبات الحق المتنازع فيه.

وهو ما يستخلص منه وجوب الكتب كوسيلة تعتمد لإثبات الحق وتأكيد وجوده.

الفقرة الثانية: اعتماد نسبي لبقية وسائل الإثبات

إلى جانب الحجج الكتابية التي يعتمد عليها القاضي الإداري للوصول إلى الحقيقة وإثبات الحق فإنه هناك وسائل إثبات يمكن له اعتمادها نظرا لقوتها الثبوتية في إظهار ذلك الحق ولكننا نجد القاضي الإداري يعتمد اعتمادا نسبيا إذ نجده يقضي ويستبعد اليمين الحاسمة كوسيلة يستند إليها لإثبات الحق المتنازع فيه وربما ذلك لاعتبارات سياسية تهم النظام العام خاصة أن الدولة التي تمثلها الإدارة لا يجوز أن يوجه إليها اليمين الحاسمة وقد ورد بفقهاء القضاء في ذلك المعنى أن اليمين الحاسمة ليست دليلا يقدمه المدعي على صحة ما يدعيه وإنما هي طريقة يلتجئ إليها عندما يعوزه إحصار أي دليل آخر وإن أداها من وجهة عليه فلا تفيد سوى ثبوت الواقعة التي وجهت في شأنها في حين يعرفها الفصل 422 من م.م.م. ت في فقرته الثانية والتي نصت أن "اليمين الحاسمة هي اليمين التي يوجهها أحد الخصمين على الآخر حسما للنزاع" وخاصة أن النزاعات التي تهم الدولة يمثلها إما المكلف العام بنزاعات الدولة أو أحد أعوان الإدارة الذي يتوجب عليه الحضور في النزاعات الإدارية التي يمثلها فحسب.

إن ما انتهجه القاضي بالنسبة إلى اليمين الحاسمة التي قليلا ما يعتمد عليها كان قد انتهجه أيضا بالنسبة لليمين الاستيفائية والتي يمكن تعريفها بأنها اليمين الاستيفائية المتممة والتي يوجهها القاضي حول موضوع النزاع لأحد الخصوم متى تكون القضية جاهزة للفصل والغاية منها تكوين قناعة للمحكمة من وسائل الإثبات المقدمة إليها وقد سميت بالمتممة حسب بعض التشريعات العربية لأنها تتم الأدلة المدلى بها للمحكمة من قبل أحد الخصوم وتلمس هذا المعنى في المادة 250 في قانون أصول المحاكمات المدنية اللبناني التي تقول بأن اليمين المتممة هي التي توجهها المحكمة من تلقاء نفسها إلى أحد الخصوم لاستكمال الدليل المقدم منه للتمكن من الحكم في موضوع الدعوى.

وقد عرفها أيضا المشرع التونسي بالفصل 492 من م.إ.ع في فقرته الثانية بأنها اليمين التي يوجهها الحاكم من تلقاء نفسه على أحد الخصمين⁽⁴⁹⁾. حسب هذا التعريفات فإنه لا يجوز للقاضي الإداري أن يوجه اليمين سواء كانت يمين حاسمة أو يمين استيفائية على الإدارة لإثبات الحق المتنازع في شأنه وهو نفس الشأن بالنسبة للأفراد منظوري الإدارة وذلك تطبيقا لمبادئ القانون العامة وخاصة منها المساواة بين المتقاضين مهما اختلفت درجاتهم ومراكزهم القانونية فدور القضاء هو فصل النزاع وقول الحق دون النظر إلى اعتبارات أخرى.

أما بخصوص بقية الوسائل الكاملة فقد اعتمد المشرع كذلك إلى جانب الحجج الكتابية الإقرار كوسيلة إثبات الذي عرفه المشرع التونسي بالفصل 428 من م.إ.ع بأن الإقرار يكون إما حكما أو غير حكما. فالحكمي هو الاعتراف لدى الحاكم من خصم أو من وكيله المأذون فيه بخصوص ذلك. والإقرار يعد وسيلة إثبات يستند إليها القاضي الإداري أثناء النزاعات الإدارية حيث يعد الإقرار أو الاعتراف أمام القضاء واقعة قانونية وحجة قاطعة على المقر سواء كان إقرارا لدى الحاكم المختص وهو ما يعبر عنه بالإقرار الحكمي أو لدى الحاكم غير المختص بذلك وهو الإقرار غير الحكمي فنجد القاضي الإداري إما معتمدا إياه كوسيلة لإثبات وقائع معينة وكحجة ودليل وإما مستبعدا إياه إذا ما وجدته مفتقرا إلى القوة الثبوتية، إذن فالإقرار يخضع إلى السلطة التقديرية للقاضي الإداري.

ولعل من مظاهر التكامل بين الهرمين العدلي والإداري في ما يتعلق بوسائل الإثبات المعتمدة من قبل القاضيين هو اعتماد القاضي الإداري خلال بحثه وكشفه للحقائق إلى الوسائل المنقوصة التي حصرها الفصل 427 من م.إ.ع حيث

ونظرا لصعوبة النزاع الإداري وعدم التكافؤ بين الإدارة ومنظوريها فإننا نجد القاضي الإداري يلجأ إلى اعتماد الشهادة كوسيلة لإثبات الحق حتى يوازن بين الإدارة ومنظوريها⁽⁵⁰⁾.

ويمكن تعريف الشهادة من خلال فقهاء القانون الذين يرون أنها قيام شخص في مجلس القضاء بعد حلف اليمين بالإخبار عن واقعة حدثت من غيره ويترتب عليها حق لغيره وهي بذلك تختلف عن الإقرار الذي هو إخبار المرء بحق عليه لغيره.

فالإثبات إذن بشهادة الشهود يعد حسب شراح القانون من وسائل الإثبات الناقصة ومرد ذلك أن حجيتها أمام المحكمة نسبية وليست قاطعة عكس ما هو الحال بالنسبة إلى وسائل الإثبات الأخرى إضافة إلى أن المشرع قد اعتمدها في بعض الأحيان.⁽⁵¹⁾

يعتبر الإثبات بعد تنقيح غرة سبتمبر 1986 وسيلة تحقيق أكثر منها وسيلة إثبات يأمر بها القاضي الإداري من تلقاء نفسه أو يعرضها الأطراف عليه إذا ما كانت تساعد على البحث في الحقيقة إلا أنها تختلف عن الكثير من بعض وسائل الإثبات الأخرى كالحقائق الإدارية التي تتم بمعرفة الإدارة وبناء على طلب القاضي إذ يمكن الالتجاء إليها ولو لم ينظمها نص خاص بشأن الوقائع التي لا تكون في حاجة إلى الاستعانة بأي من وسائل التحقيق الأخرى كما هو الشأن في إثبات الوقائع التي يستخلص منها الانحراف بالسلطة مثل قصد التشفي والانتقام وتصريح الرئيس الإداري علنا بذلك أمام البعض الذين يمكن الاستعانة بهم كشهود أمام القضاء.⁽⁵²⁾

وبالتالي فإن القاضي الإداري ليس مقيدا باستعمال الشهادة كوسيلة إثبات لكنه وإن جاز اعتمادها في قضاء تجاوز السلطة أو القضاء الكامل فإنه لا يمكن الأخذ بها في مادة النزاع الجبائي خاصة أنه نزاع يقوم أساسا على حجج كتابية مثلما جاء به الفصل 66 من مجلة الأداء على دخل الأشخاص الطبيعيين والضريبة على الشركات الصادرة بمقتضى القانون عدد 114 لسنة 1989 المؤرخ في 30 ديسمبر 1989 وهذا ما يؤكد أن القانون الإداري من حيث وسائل الإثبات فيه يقوم على قناعة القاضي الإداري أي على مبدأ الإثبات الحر، لذلك فإننا نجد مستعملا لمختلف أوجه الإثبات حسب ما استقر في قناعاته ووجدانه مما يظهر دوره الاستقرائي والإنشائي في مادة القانون الإداري.

الإحالات والهوامش :

- 1 - سنية بن عمار، تنظيم مرجع النظر القضائي للمحكمة الإدارية، ملتقى إصلاح القضاء الإداري، ص. 126.
- 2 - عبارة "قناعة المحكمة" استعملت في عدد كبير من القرارات: قضية عدد 2091 بتاريخ 1990/05/02. الوصلائي / وزير التربية (غير منشور)، قضية عدد 16513 شيوخ / وزير التربية (غير منشور).
- 3 - Voir, Mabrouk (M.), « Traité de droit administratif tunisien » Edition Bouslama-Tunis, 1974.
- 4 - Voir, Ben Achour (Y.), « L'histoire du principe de séparation des autorités en Tunisie », in, EDCE, n°42, 1990, pp.179-187, voir aussi sur le même sujet, Chapus (R.), « Le contrôle et le contentieux de l'administration en Tunisie », E.N.A, Tunis, 1968.
- 5 - Voir, Ben Achour (S.), « La genèse du contentieux administratif Tunisien », pp.9-42.
- 6 - Voir, Bergec (S.), « La justice française en Tunisie », Edition, Pichon, 1895.

7 - توفيق بوعشبة، مبادئ القانون الإداري التونسي، المدرسة القومية للإدارة، مركز البحوث والدراسات الإدارية بتونس، الطبعة الثانية منقحة ومزودة، 2005.

8 - « Le droit civil vise en principe des personnes égales et indépendantes, en dehors des prescriptions légales qui pèsent sur elles, ne peuvent avoir pour cause que leur propre consentement. Au contraire, le droit administratif suivant une formule bien connue d'Hauriou est un droit des personnes inégales... ». Mauby (J.), « L'inexistence des actes administratifs », Thèse, Paris, Edition, A. Pedone, 1951, p.8.

- 9 - ريمون ادوان، النزاع الإداري، ترجمة السيد بالضياف، مركز النشر الجامعي، تونس، 2000، ص. 315.
- 10 - عياض بن عاشور، القضاء الإداري وفقه المرافعات الإدارية، سيراس للنشر، تونس، ص. 81.
- 11 - طعيمة الجرف، مدى التعارض بين النزاعات الإدارية وقواعد المرافعات المدنية، مجلة مجلس الدولة المصري، السنة السابعة، ص. 276 وما بعدها.
- 12 - سليمان الطماوي، مبادئ القانون الإداري، دراسة مقارنة، الكتاب الثالث، أموال الإدارة العامة وامتيازاتها، دار الفكر العربي، 1973، ص. 77.
- 13 - حسن السيد بسيوني، دور القضاء في المنازعات الإدارية، دار الشعب بالقاهرة، 1981، ص. 219.
- 14 - محمد رضا جنيح، القانون الإداري، طبعة ثانية منقحة ومزودة، مركز النشر الجامعي، تونس، 2008، ص. 402.
- 15 - توفيق بوعشبة، نفس المرجع السابق، ص. 530.
- 16 - أنظر الفصل 5 من قانون المحكمة الإدارية.
- 17 - دعوى تجاوز السلطة هي دعوى قضائية ضد السلطة الإدارية يقوم بها من له مصلحة لدى المحكمة الإدارية بغية إلغاء مقرر إداري لعدم شرعيته. عياض بن عاشور، القضاء الإداري وفقه المرافعات الإدارية، ص. 150.
- 18 - الفصل 6 من قانون المحكمة الإدارية.
- 19 - الحكم الابتدائي الصادر في القضية عدد 1136 بتاريخ 22 نوفمبر 1985، ورثة أحمد جابر النصري ضد وزير الفلاحة.
- 20 - Voir, Karnprobst, « La notion des paries et le recours pour excès de pouvoir », LGDJ, Paris, 1958.
- 21 - مصطفى صخري، المرافعات المدنية والتجارية والإدارية والجبائية، دراسة نظرية وتطبيقية مقارنة للقانون التونسي والقانون المقارن، الطبعة الأولى، تونس، 2001، ص. 359.
- 22 - Voir, Debbasch (C.), « Procédure administrative contentieuse et procédure civile », 1962, p.367.
- 23 - قرار تعقيبي إداري عدد 1106 مؤرخ في 1993 الهيئة القومية للمحاميين ضد الهادي بن حفيظ العلاقي، المجموعة، ص. 429.
- 24 - ريمون إدوان، نفس المرجع، ص. 25.
- 25 - محمد حافظ، القضاء الإداري، دراسة مقارنة، الطبعة الثالثة، 1966، ص. 469.
- 26 - هندي أحمد، أصول المحاكمات المدنية، ص. 77.
- 27 - توفيق بوعشبة، نفس المرجع، ص. 388.
- 28 - مصطفى صخري، نفس المرجع، ص. 367.
- 29 - مصطفى صخري، نفس المرجع، ص. 368.
- 30 - القانون عدد 85 لسنة 1976 المتعلق بالانتزاع للمصلحة العامة.
- 31 - توفيق بوعشبة، النزاعات الإدارية في نظام الازدواجية القضائية، مجلة القضاء والتشريع، فيفري 1999.
- 32 - الحكم الاستئنافي الصادر في القضية عدد 391 بتاريخ 25 فيفري 1988 : المكلف العام بنزاعات الدولة في حق وزارة الدفاع ضد عبد العزيز النفطي وثان ومن معه.
- 33 - مصطفى، نفس المرجع السابق، ص. 356.
- 34 - روضة المشيشي، دراسة بعنوان القضاء الابتدائي الإداري، منشورة بملتقى الحقوقيين العدد 06، القضاء الإداري، كلية الحقوق والعلوم السياسية بتونس، 1998، ص. 107.

- 35 - مصطفى صخري، نفس المرجع، ص. 402.
- 36 - راجع القانون الأساسي عدد 79 لسنة 2001 المؤرخ في 24 جويلية 2001.
- 37 - الفصل 7 من القانون الأساسي عدد 38 لسنة 1996 المتعلق بمجلس تنازع الاختصاص.
- 38 - الفصل 8 من نفس القانون.
- 39 - مصطفى صخري، المرجع السابق، ص. 453.
- 40 - الفصل 44 من قانون المحكمة الإدارية وأيضاً القضية عدد 1433 بتاريخ 2006/01/28: يوسف / حافظ الملكية العقارية (غير منشور).
- 41 - أحمد كمال الدين موسى، الإثبات في القانون الإداري، دار الشعب، 1977، ص. 77.
- 42 - الحكم الاستئنائي عدد 21939 الصادر بتاريخ 28 ديسمبر 1999، محمد كانون ومن معه ضد الوكالة العقارية السياحية.
- 43 - ريمون أدوان، النزاع الإداري، ص 21.
- 44 - فرج توفيق حسن، قواعد الإثبات في المواد المدنية والتجارية، مؤسسة الثقافة، جامعة الاسكندرية، مصر 1982.
- 45 - عبد الرزاق السنهوري، الوسيط في شرح القانون المدني، جزء 2، ص. 175 و 253.
- 46 - Voir, Vedel (G.), « Droit administratif », 1973, Thème, p.524.
- 47 - Voir, Ernest (H.), « Procédure administrative contentieuse, le juge administratif », Tome 2, 1973, p.98.
- 48 - عياض بن عاشور، القضاء الإداري وفقه المرافعات الإدارية في تونس، ص. 164.
- 49 - محمد كمال شرف الدين، قانون مدني، النظرية العامة، الأشخاص، إثبات الحقوق، الطبعة الأولى، ص. 316.
- 50 - قضية عدد 434 بتاريخ 1983/07/04: الصغير/ مدير الإذاعة والتلفزة التونسية (غير منشور).
- 51 - العبودي عباس، شرح أحكام قانون الإثبات المدني، دار الثقافة، عمان، الأردن، 1999، ص. 233.
- 52 - أحمد كمال موسى، نفس المرجع، ص. 368.